سَعد البَزّاز

حرب تلد أخرى

التاريخ السرّي لحرب الخليج

١٩٩٢ - ١٩٩٣

الأهلية للنشر والتوزيع

سَعد البَزّاز

حرب تلد أخرى

التاريخ السري لحرب الخليج

WAR.. AND THE ONE AFTER

The Secret History of the Gulf War.

By: SA'AD AL-BAZZAZ

1992 - 1993

طبعة جديدة مُصحّحة مُنقّحة
الطبعة الثالثة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م

المؤلف: سعد البزاز
الكتاب: حرب تلد أخرى
الناشر: الأهلية للنشر والتوزيع
عمّان ـ الأردن
ص.ب: ٧٧٧٢
تلفون: ٦٣٨٦٨٨
٦٥٧٤٤٥

الأهليــة للنشر والتوزيع
عمان. خلف مطاعم القدس ☎ ٦٣٨٦٨٨/٦٥٧٤٤٥ ✉ ٧٧٧٢

شكر لا بد منه

ليس لي الا ان اشكر من رافقني في وضع الكتاب،خطوة خطوة،وهم اصدقاء وكتّاب وباحثون وشهود عيان من سياسيين وعسكريين وصحفيين وضحايا ومتضررين، كما اشكر القادة السياسيين العرب الذين قابلتهم او قبلوا الادلاء بشهاداتهم عن حرب الخليج أو يسروا عملي في جمع المعلومات وفي مقدمتهم الرئيس صدام حسين وجلالة الملك حسين والرئيس علي عبدالله صالح والرئيس عمر البشير والرئيس ياسر عرفات، ورؤساء الوزارات في الدول المعنية بالصراع.

كما اشكر السياسيين العراقيين الذين تحدثوا الي، سواء ممن صنع احداث المنطقة او السياسيين السابقين والسفراء والعاملين في مراكز البحوث، واسجل تقديري للكتاب العرب الذين خضت معهم نقاشات واسعة سواء افترقنا ام اتفقنا فيها.

واسجل شكري العميق وامتناني لصديقي الصحفي والمترجم حسام سري والصحفية اللامعة فردوس العبادي اللذين اشتركا في تقديم مساعدة ثمينة عند اعداد الكتّاب، وراجعا معي فصوله، وتدخلا من اجل ان يكون على اعلى قدر من الدقة، وتحملا معاً لجاجة المؤلف وإلحاحه.

واسجل شكري الخاص الى الآنسة فاندا خنوف والسيد سعدون الجنابي اللذين اسهما كل من موقعه، وعلى انفراد، في التعريف بالكتاب وتقديمه للآخرين ومراجعته والعناية بطبعاته غير العربية.

ولا يسعني الا ان اشكر الكاتب والصحفي الكبير بيير سالنجر الذي بادر لوضع مقدمة الكتاب بالطبعات الانكليزية والفرنسية والايطالية وللطبعة الثالثة من النسخة العربية.

ولا انسى ان اعطي زوجتي حقها من الامتنان في قبول مغامرة الكتابة معي، يساعدها ابني «الطيب» وابنتي «سماء» اللذان أمليت عليهما صفحات من هذا الكتاب، كلما تراخت اعصاب كفي، فاستمعا الي وجادلاني.

تحية لكل من تحمل الاذى من هذا الكتاب قبل صدوره ومن بعده.

وشكراً لكل من صنع خميرة هذا الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثلاثة كتب كبيرة عن حرب الخليج
مقدمة كتاب (حرب تلد أخرى) لسعد البزاز
بقلم: بيير سالنجر*

بعد سنتين على نهاية أزمة الخليج فإن كتباً عديدة تكون قد نُشرت لتعالج هذه الازمة وتفاعلاتها وقد ركزت معظم هذه الكتب على الحرب التي وقعت في الخليج، مع أن أي كاتب مهتم بمعرفة أبعاد الأزمة واستشكاف جذورها لا بد أن يدرك أن الأحداث التي سبقت الحرب كانت هي الأكثر حساسية ودقة مما يستحق الدراسة والتحليل، ولا شك ان من يسلك هذا المنهج سيصل إلى نتيجة مؤداها ان هذه الحرب لم تكن ضرورية على الاطلاق..

لقد نشر كتابان، احدهما لي بعنوان (الملف السري لأزمة الخليج) والثاني للكاتب الصحفي المصري المتميز محمد حسنين هيكل بعنوان (أوهام النصر) وكلاهما عالج القضايا والمشكلات التي مهدت للحرب، ولم يركز أحدٌ حتى الآن على الكتاب الحيوي الثالث الذي وضعه الكاتب الصحفي العراقي البارز سعد البزّان، إذْ لا شك ان معظم الخبراء الغربيين سيعتقدون ان كتاباً يضعه صحفي عراقي لا بد سيكون جزءً من الدعاية الحكومية، لكن هذا الكتاب وفي هذه الحالة ليس كذلك على الاطلاق.. انه كتابٌ دقيق يقدم للمرة الاولى حيثيات جديدة ومهمة حول حالة الارتباك التي سبقت الحرب، وهو يؤكد مجدداً مضمون الجدل الذي يذهب الى انه كان بالامكان منع وقوع حرب الخليج.

---

* بيير سالنجر: كاتب وصحفي امريكي بارز، شغل موقع المتحدث الرسمي باسم الرئيس الأسبق جون كندي ثم تفرغ للعمل الصحفي واصدار الكتب، واقام في باريس ثم انتقل الى لندن حيث تولى ادارة مكتب شبكة أي بي سي التلفزيونية، زار معظم البلدان العربية والتقى قادتها، اصدر أول كتاب عالمي عن ازمة الخليج بعنوان (الملف السريّ).

كـان كل شيء يسيـر على ما يـرام منذ أُعيـدت العلاقـات بين العراق والولايات المتحدة سنة ١٩٨٤، وفي ذورة الحرب العراقية الايرانيـة.. وبينما كانت الولايات المتحدة تظهـر دعمها للعـراق برزت ازمـة عاصفـة في نهايـة ١٩٨٦.. فقد ادرك العراقيون ان حكومة الولايات المتحدة كانت تجهّز ايـران بالاسلحة على أمل حل مسألة الـرهائن.. لكن البلـدين تمكنا في النهـاية من التـوصل إلى معـالجة مـرضية، وتقـرر في واشطن احالـة ايـة مبيعـات من الاسلحة كان يحتمل ان تتسرب الى ايـران الى غرفـة عمليات للسيطـرة في الخارجية الامريكية على أن تتبادل فيه الدولتان اية معلومات تتعلق بصفقات السلاح الايرانية بهدف الحـد منها والسيطـرة عليها، واذكـر انني دخلت في مناقشة سنة ١٩٨٧ مع طارق عزيـز نائب رئيس الـوزراء العراقي وريتشـارد مورفي خبير الشرق الاوسط في الخارجية الامريكية الذي كان قد أُنتـدب من قبل الرئيس رونالد ريغان لمقابلة الرئيس صدام حسين في بغداد، وقد فهمت من المناقشة ان ميرفي نقل اعتذار الرئيس رونـالد ريغـان وشعوره بـالأسف على ما حدث باعتباره أمراً لا يتطابق مع السياسـة الخارجيـة الامريكيـة ولا مع موقف ادارة ريغـان نفسه من الصـراع العراقي الايـراني، أما الـرئيس صدام حسين فقد قال للسيد ميرفي: «حسناً.. اذا كان هذا هو موقفكم فـإن الأمر يعتبر منتهياً..»..

وهكذا استقرت العلاقات بين بغداد وواشنطن على مستوى من الثبات في الجانبين السياسي والاقتصادي حتى نهاية الحرب العـراقية الايـرانية.. ثم بدأت الاشارات تختلط على الادارة الامريكية كمـا يبين ذلك سعـد البزاز في هذا الكتاب، وكانت بعض تلك الاشـارات ايجابيـة وبعضها الآخـر سلبية الى الحـد الذي حصـل فيه قـدر كبير من الاختـلاط والتشـويش الى درجـة وضعت فيها الحكومة العراقية قواتهـا المسلحة في حـالة تـأهب قصوى في لحظـة الدخـول الى الكويت وهي على قنـاعة تـامة بـأن الولايـات المتحـدة ستهاجم العراق على الفور.

أما الموضوع الآخر الذي يستحق التأمل والفهم فيتعلق بالموقف الذي كان قائماً بين العراق والكويت، اذ مضت سنوات طـويلة على صـراع يتعلق بالحدود، وقد بذلت الحكومة العـراقية بعـد انتهاء الحـرب مع ايـران جهوداً مضنية وجدية لحل هذه المشكلة، إلا أن حكومة الكويت تمسكت بردود فعل تتسم باتخاذ مواقف متشددة بلغت ذروتها في اجتماع جدة الذي عقد في ٣١ تموز

(يوليو) ١٩٩٠، ولا شك ان الغضب العراقي على الموقف الكويتي قد حفز الحكومة العراقية على اتخاذ قرار الدخول الى الكويت، لكن احداً لا يعرف ان مكالمة هاتفية، لو حصلت، من الرئيس جورج بوش الى الرئيس صدام حسين في الايام الاخيرة من شهر تموز (يوليو) ١٩٩٠ كان يمكن أن تمنع ما وقع. لو قال بوش: «سيادة الرئيس انني ارى ان هناك مئة الف من الجنود قد احتشدوا على الحدود مع الكويت وهذا امر يقلقني.. لأن الحرب ستقع حتماً إذا ما عبرت هذه القوات الحدود وآنذاك فإن العراق سيخسر الحرب. لكنني أفهم في الوقت نفسه أنكم تواجهون المصاعب في مفاوضاتكم التي تهدف للوصول الى اتفاقية مع الكويتيين حول الحدود والمشاكل الاخرى المعلقة، لذلك سأوفد وزير الخارجية، جيمس بيكر، إلى بغداد غداً لملاقاتكم ثم ابعثه بعدئذ الى الكويت لنتدخل كوسطاء لتسوية المشاكل القائمة بين البلدين.».. ومن الحق أن أقول إنني حيثما بحثت هذا السيناريو مع أي من المسؤولين العراقيين الكبار كان قد وافقني بأن مكالمة هاتفية من هذا النوع كان بإمكانها أن تؤدي إلى تحاشي العبور إلى الكويت.

أما النقطة المهمة الأخرى التي يؤكدها سعد البزّاز فهي أن الرئيس صدام حسين كان مستعداً لترك الكويت في وقت مبكّر بعد الدخول إليها في حالة التوصل إلى حل عربي، لكن ما بدا واضحاً هو أن الولايات المتحدة لم تكن لتقبل بأي حل عربي وقد تدخلت بكل الطرق لتمنع الحل العربي من التحقق... وقد اقتنع الرئيس بوش بآراء رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر القاضية بأن الحرب وحدها هي الحل....

لقد بقيت الحرب الحل الوحيد حتى عندما وافق العراق على الانسحاب من الكويت، ففي الثالث والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٩١، وقبل ساعات من بدء الحرب البرية وافق العراق على الانسحاب مقابل ضمانة من الزعيم السوفيتي آنذاك ميخائيل غورباتشوف بأن الولايات المتحدة التي تقود التحالف لن تشنّ الهجوم البري وأن العراق في هذه الحالة سيتخلى عن مطلبه في الربط بين أزمة الخليج وإيجاد حل للمسألة الفلسطينية...

إن سنوات عدة قد تمر حتى يتمكن العالم من تقويم هذا الكتاب الرائع لسعد البزّاز، كما هو الأمر بالنسبة لكتابي وكتاب محمد حسنين هيكل.. فهذه الكتب هي التي تفسّر حقيقة جذور أزمات الخليج وأبعادها لا الكتاب التي لم تعالج غير الحرب وحدها...

المقـــــــدمـــــة

بدأت فكرة هذا الكتاب عندما وجدت ان جميع الخيوط التي تتبعتها لمعرفة جذور الصراع واتجاهات تطوره قد قادتني الى نهايات مقفلة لايعود البحث وراءها ممكنا ، فكل الخيوط متقاطعة ثم تفترق ، حتى ليبدو ان هناك قوة خفية هي التي تحرك الشخوص وتتحكم بآخر القرارات التي اتخذوها او سيتخذونها في حرب هي الاعقد مما عرف تاريخ العرب حتى الآن .

وعلى مدى سنتين تلت انفجار الصراع على الخليج لم يتمكن احد من عرض الطريقة التي ادار بها العراق الصراع من جانبه ، فمعظم الذين ارخوا للحرب كانوا قد شهدوها من الضفة الاخرى البعيدة ، او قرأوها على صفحات الجرائد او شاهدوها على شاشات التلفزيون ، ولكن احدا لم يكتب تأريخها بعد ان يكون قد ادخل نصف ساعده في النار ليلتاع بجحيمها كما يفعل شهود الاحداث الكبرى ، والمتورطون فيها ، والعارفون بدقائق احداثها .

لذلك كان لابد من قصة تخرج من الداخل ، على ذمة صانعها ، ومسؤوليته ، امام الزمن الذي يعيشه ، والزمن الذي يحلٌ من بعده ..

قد تبعث الرواية التي يعرضها هذا الكتاب احساسا عميقا بالمرارة ، ولكن لاجدوى عند رواية التاريخ ان يلهج الرواة بنداءات الفجيعة .. ياليت هذا لم يحدث .. ياليت هذا حدث بطريقة اخرى .. ياليت الذي حدث وقع في غير الزمان الذي حدث فيه ، خاصة وان الامر هذه المرة يخص واحدا من اعند الشعوب في العالم واشدها قدرة على الانبعاث والتجدد ، فما ان ارتفعت اكوام الرماد لتغطي العراق الى عنقه ، وخيل للجميع ان هذا البلد قد تراجع أربعة قرون إلى الخلف حتى كان يخرج من تحت تلال الرماد مثل العنقاء الطائر الأسطوري الذي يتجدد في موته طبقاً للرواية الفينيقية القديمة.

إذن المرارة ليست هي الدرس، وليس لمن يؤرخ إلا أنْ يتحدث عن الفواجع والمحن واللحظات الصعبة وسيكتشف بعدئذ ان للمحنة رحما هو الذي يلد اولاد الضحايا واحفادهم ، على ان الكتابة في العراق ، وعن العراق ، هي اصعب واعقد مما تكون في اي مكان آخر وعن اي موضوع سواه ، اذ ليس

في المسافة بين الابيض والاسود فسحة رمادية كبيرة للاجتهاد ونقض الاجتهاد ، وهنا في هذه البلاد يقفل الناس على اسرارهم ، حتى الصغيرة منها ، ولايخبرونك حتى بالذي تعرفه عنهم ، فالمهم في العراق هو النيات ، برغم ان موطنها هو قاع النفوس لاحافة الالسن ، الا ان الناس تنقب عن نيات الآخرين لانها تبحث عن الاطمئنان وتحتاط من الغد الغامض وتستعد دائماً للالتفات إلى الخلف لملاقاة طعنة تأتي في الظهر، إذ ثمة شك دائم وهو الذي يسبق اليقين ، وهذا الشك هو ناتج ستة آلاف سنة من حروب خارجية واهلية وكوارث ومجاعات وخروج متكرر الى الحدود لملاقاة غزاة قادمين من الشرق مرة ومن الشمال مرة ومن الجنوب مرات يستبيحون المدن ويحيلون لون الانهر من الازرق الى الاحمر فتندرس الارض تحت اقدامهم وتتدحرج رؤوس الرجال على قارعات الطرق ، ولكنهم ما ان يغادروا ارض العراق حتى تعود الارحم تتدفق بالمواليد الجدد من الاولاد واولاد الاولاد ويعود البنيان ليرتفع ثانية وتتسيج البلاد بجيوش قوية من جديد ،فكأنها دورة الزمان في بلاد لا توسط فيها، إما أن تختار أعلى القمم أو تتدحرج إلى آخر القاع.

ولم يكن ممكنا وضع هذا الكتاب دون الوصول الى ركام من الملفات والوثائق السرية التي كان مقدرا لها ان تبقى طي الحفظ ربع قرن آخر من الزمان على الاقل ، ولكن قدرا من التفهم والاستجابة قد مكنني من قراءة محاضر حرب بدت صراعا سياسيا طاحنا اكثر مما بدت حربا عسكرية تقليدية تتقابل فيها قوتان متصارعتان ، واستطيع التخمين بان هذه المحاضر كانت اصدق من اية ادلة اخرى ، لانها لم تكتب اصلا حتى تكون مادة لهذا الكتاب ، او لسواه ، إذْ ان الذين وثقوها فعلوا ذلك لانفسهم ، وكانوا على قدر من الانسجام مع حاجاتهم ، وهو امر جعلهم دقيقين في الالتقاط والتسجيل والتوثيق ، مع ان كثيرا من السياسيين لايستبعدون تحاشي مسجلي الوثائق تدوين المعلومات الاشد حساسية التي يتداولونها عادة في اضيق دائرة ، حتى لاتكون ضحية في الاتفاق غير المعلن بين الاشخاص الاعلى مرتبة ، وآخرين ممن هم في أدنى المراتب ، في سلم طبع الوثائق وتصويرها .

من هنا، لم يكن من الجائز أن يكتفي صانع هذا الكتاب بما قرأ من المحاضر والملفات والبرقيات، التي ذهبت إلى خزانات مقفلة هنا.. وهناك، بل لجأتُ إلى صناع الأحداث لأقابل المعلومات بشهودها وألتقط من أفواههم

وانفعالاته تلك التفاصيل التي لم تسجل على الورق، وأحصد الإجابات عن الأسئلة التي لم ترو الأوراق ظمأ قارئها منها.

ثم لم يكن ذلك كله ، كافيا ، دون الاستماع الى عدد من القادة العرب الذين كانوا طرفا في مقدمات الصراع ، ونتائجه ، فادلوا بما يشبه بشهادات للتاريخ ، عن احداث مرت وقائعها بين اصابع ايديهم ، واحتفظوا بالكثير من اسرارها ، التي لااشك ابدا ، ان البوح بها كلها لم يكن متوقعا ، ولكن جزءاً كبيرا منها كان ينساب في الاحاديث التي اجريتها معهم وكانوا فيها ، اشد كرما مما يبدو عليه ، الاشخاص الاقل شأنا في مواقع تهيئة القرارات الذين يحجزون انفسهم في العادة خلف مواقع وحواجز لاتنهار عادة قبل ان يخرجوا من مواقع المسؤولية ، ويتخلصون من قيود ائتمانها .

واستغرق جمع مادة هذا الكتاب سنتين كاملتين منذ الايام الأُول لانفجار الصراع على الخليج ، وقد كانت معلومات صغار الشهود على قدر كبير من الفائدة والاهمية ، لانهم متصلون باخر شعيرات المواقف التي يصنع كبار القادة ، في العادة ، قرارات ولادتها ، فتكشف شهاداتهم عن دقائق وتفاصيل تردم الهوة هنا ، وتسد الفراغ هناك .

ولجأ الكتاب الى عرض الوقائع على مدى فصوله كلها كما وقعت ، تاركا الخاتمة لوضع استنتاجات المؤلف واستقراءاته .. للذي حصل .. ويمكن ان يحصل ..

ولكن .. هل سيقول الكتاب الحقيقة كلها ..؟

ان احداً لايستطيع ان يجزم بذلك .. لان كل عين ستظل ترى الوقائع من الزاوية التي اختار صاحبها المكوث فيها .. ولان الحقيقة .. لم تكن في يوم من الايام ، مطلقة ، بل ظلت نسبية في زمانها ومكانها .. وطريقة الاتصال بها ، او البحث عنها .

لذلك يعتقد الكتّابُ والمؤرخون في كل مرة تقع فيها حرب ، ان افضل رواية للاحداث ستظهر بعد زمن طويل على انتهاء الحرب ، عندما تتلاشى الشحنات العالية للعواطف ، ويقبل المتبارزون الاستماع الى الآراء التي لم يكن يسرهم سماعها ايام كانت اصوات طبول الحرب تغطي على سواها من الاصوات .

لكن احدا لايتوقع ان يكون هناك ، في يوم من الايام ، او حرب من الحروب ، عرض للوقائع يرضا عنه الجميع .. إذْ أن كل طرف كان يرى المسرح قبل صعود الممثلين اليه ، بطريقة تختلف عن سواه ، وسيظل ، كلما

التفت إلى الوراء، يرى أثار ما جرى، وما تخلّف من بقايا النفوس والعُدد والمتاريس والجثث ، من الزاوية التي وقف فيها في لحظة تداخل الصفوف ، وتراشق النيران .. لااحد يرى مثل احد .. ولاعين تقبل بما تراه عين اخرى .

سعد البزاز

ظلم الجغرافيا ويقظة التاريـخ

هل كان العراق سيقبل لحظة المواجهة مع امريكا بعلاقة الذئب والحمل ..؟ وهل يحتمـل ان ينشأ حـوار الذئب والحمل بينهمـا ؟ .. وأيهما اقـرب للتعبـير عن تكوينه .. القبول بقانون التصادم .. ام الخضوع لقانون الاحتواء ..؟

لاشك ان العراق كان يشعر بالخطر .. وبوجود مؤامرة ضده .. ولهذا الشعور جذور اعمق مما يدور على السطح .. واعمق مما يوحي به الحاضر ويفرزه .

للاحساس بالخطر ، عاملان في التحريك والاثارة ، احدهما جغرافي ، والآخر تاريخي ، وهما يشكلان في النموذج العراقي النسيج العصبي الداخلي لنمط السلوك السياسي والاجتماعي ، ويتراصف هذان العاملان مع العوامل الاقتصادية المعبر عنها في التنازع على الثروة ومحاولة السيطرة على مصادر الطاقة ، التي يشعر العراق ان امتلاكه لها يحفز منافسيه واعداءه للانقضاض عليه بالحد الاعلى واحتوائه وترويضه بالحد الادنى .

ولا يوجد شعب على وجه الارض يشعر انه معرض للمخاطر ومحاط بالاعداء مثل شعب العراق ، الذي تتشكل عند ابنائه مشاعر خوف جماعية من وجود من يعمل على افنائهم .. مع احساسهم بوجود عدو قائم .. وعدو محتمل .. وهي مشاعر متأتية عن ارث تاريخي متراكم عمره ستة آلاف سنة . تعززه مشاعر اخرى تولدت في العصر الحديث الذي نشأ على انقاض بغداد المدمرة سنة ١٢٥٨ للميلاد عندما استباحها الغزو المغولي .

ويستمد صانع القرار السياسي ، والنموذج الفكري المحلي جذوره من شعور عميق بالمأساة ترسخها في الذاكرة الجمعية الاسطورة العراقية الموروثة ، والحروب الاهلية ـ والخارجية ، والكوارث ، والمجاعات ، وحالات الموت الجماعي الناجم عن انتشار الاوبئة .

□ □ □

هل العراقيون من محترفي الحروب ؟ وهل انعكست روح العداء بين الافراد على شكل عداء وتحسس في التعامل مع العالم الخارجي ؟ وهل يشعر من لا بحر له انه محاصر فيقاوم بالغريزة طوقاً برياً يتشكل حوله من منافسين واعداء ؟ وهل غدت العلاقة بين

العراق وجيرانه علاقة ذئب وحمل ؟ وأيهما الحمل ؟ العراق المقاتل .. ؟ أم الجيران الطامعون في سهل العراق ، ومعادنه ، وموقعه ، وهم الجيران الذين استفزهم نموذج المحارب العراقي على مدى ستة آلاف سنة ؟

هذه الاسئلة ، وسواها ، شغلت العراقيين قبل غيرهم ، في اطار مراجعة للذات الوطنية تحت لافتة كبيرة تحمل السؤال الانساني المفعم بالحيرة .. والتأمل .. والتحفز .. والتشبث بالهوية : من نحن ؟ .. وقد لاتكتمل الاجابة عند العراقي حتى يجد نفسه منغمراً في اشتباك يحوله عن لحظة تأمل ، ظلت في تاريخه قصيرة ، وسط لحظات التوتر والاصطدام والمقاتلة ...

ويذهب العراقيون الى ابعد من ذلك في التساؤل : هل يستطيع العراق أن يحيا في كنف السبات والركود والسكون ؟

ام انه يذوى ويضمحل وقد يتفتت عندئذ ؟

لم يظهر في العراق دعاة اجتماعيون يرون ان للحرب فوائد ، ولكن السياسيين كانوا يرون ، ومعهم مفكرون اجتماعيون ان للحرب وظيفة لا يمكن انكارها بوصفها اختباراً لقدرة المجتمع على التكتل والتضامن وتجديد نفسه .

□ □ □

الجغرافيا ظالمة .. عندما تكون البلاد قارية شبه معزولة .. فرغم ان العراق يمتد على اطراف دلتا غنية بين نهرين كبيرين هما دجلة والفرات وما تفرع عنهما او صب فيهما من انهر صغيرة ، الا ان العراق يعد بلدا قاريا محروما من حافة رحبة على البحر ، ويترك هذا الوضع الجغرافي بصماته على التكون النفسي ، فالشعور بالعزلة ، والانغلاق وسط جيران منافسين واعداء على البر يولد احساسا بالضيق تحت ثقل طوق بري تتفاوت فيه درجتا الانحباس والانفتاح . وكثيرا ما شغلت اسطورة السندباد البحري

العراقيين ، حتى آلت قصصه لتصبح ارثا وطنياً ، فالسندباد البحري ، هو العراقي المحروم من البحر الذي جعلته روح المغامرة يخوض عباب البحر منطلقا من البصرة جنوب العراق ليخوض عباب البحر ويصنع معجزاته ومغامراته في كل جزيرة حل بها وشاطىء رسا عليه حتى وصل الى اقصى اطراف العالم من جهة الشرق ، حتى وإذ عاد كان محملاً كل مرة بحكايا الشجاعة والمغامرة التي يمكن للعراقي ان يصنعها لو انفتح البحر امامه .

والاعمق من ذلك اعتقاد العراقيين انه كان لهم بحر من قبل .. ولم يعد لهم البحر اليوم ..

ويعتقد المؤرخون والآثاريون العراقيون ومعهم دارسو تاريخ الري في العراق ، ومنهم الدكتور احمد سوسة ان منطقة (الفاو) عند الحافة المطلة على الخليج جنوبا وشط العرب شرقا هي منطقة حديثة العهد في تكونها الجيولوجي ، وان طبيعة ارضها الغرينية اللزجة ، تبرهن ان حافة العراق عند تلك النقطة كانت مغمورة بمياه الخليج ، وكانت اليابسة تقع على مسافة عميقة من البر العراقي الحالي ، بمعنى ان العراق كان يتمتع في العصور القديمة بشاطىء بحر واسع تقلص في تلك الحافة القريبة من جهة ايران بفعل انحسار مياه الخليج واتساع رقعة البر . ويُقدر الجغرافيون ان البحر كان يبتدىء من نقطة التقاء نهري دجلة والفرات في منطقة القرنة على مسافة اكثر من مئة كيلومتر من حافة البحر في العصر الحديث ، اذ ان (شجرة آدم) التي تشهد على جنة عدن كانت تقع على مقربة من حافة البحر ، ومكانها اليوم هو في هذا الوضع بمدينة القرنة على مسافة اكثر من ١٠٠ كيلومتر من حافات البحر .

ويترتب على هذا الشاهد شعور جماعي بان البلاد كانت في يوم من الايام ذات شاطىء متسع على البحر وقد تآكل هذا الشاطىء عبر العصور بفعل التحولات الجيولوجية التي شهدها العالم ، اما من جهة الجنوب ، والجنوب الغربي من نقطة الانفتاح على

الخليج ، فان العراقيين المعاصرين ينظرون الى الكويت على انها جزء من شاطئهم على الخليج ، وان رجلا انكليزيا هو السير بيرسي كوكس قرر وحده سنة ١٩٠٨ خلال اجتماع في خيمة بالصحراء بمنطقة العقير ان يجعل الكويت كيانا منفصلا عن العراق ، ويعتقد المعاصرون من السياسيين والجغرافيين العراقيين ان خارطة العراق ذات انحراف وتقعر مصطنع لابد من تصحيحه ، ولذلك فان الاستنتاج الذي توصل اليه الرئيس صدام حسين عشية الثاني من آب ١٩٩٠ ، وما سبقه ، يتطابق مع قناعة عامة ، كانت تنطفيء وتومض بفعل المتغيرات السياسية ومستوى العلاقات مع الكويت ونوعها .. ولذلك مد الرئيس صدام حسين يده الى الخارطة في الثاني من آب مخاطبا مساعديه السياسيين والعسكريين : الكويت هي ميناء العراق ..

وكان نوري السعيد رئيس وزراء العراق الأسبق قد خلص الى استنتاج مماثل وهو يخاطب البرلمان منتصف الخمسينات : (لا استقلال ناجز للعراق ما لم يستعد منفذه الواسع على البحر) .

وتتميز فرصة العراقيين في انتزاع الحياة بانها الفرصة المتأرجحة ، ولكنها الفرصة الذهبية عندما يمسك بها شعب من الشعوب ، طبقاً لتفسير المفكر الانكليزي ارنولد توينبي للسلوك البشري ، الذي يذهب الى ان هناك ثلاثة انواع من الفرص ، احداها تمثل لحظة التحدي الصعب التي لا تستطيع الشعوب مواجهتها فتصاب بالانهيار وتتعرض للاضمحلال والتلاشي والثانية لحظة التحدي البسيط وهي اللحظة التي لا تحتاج الشعوب لمواجهتها الى جهد كبير فتصاب بالخمول ، اما لحظة التحدي الذهبي فانها تمثل الفرصة التي تُمكن الشعب الحي من انتزاع فرصته في الحياة اذا اجاد التعامل معها ولم يفقدها وهي لحظة متوازنة بالنسبة للعراقيين وتتصل مباشرة بطبيعة بلادهم التي تحيا على الارواء من نهري دجلة والفرات ، فاذا ما اهملوا

الارواء اجدبت الارض وهلك الانسان والماشية والزرع واذا ظل متحفزاً منتجاً انتـزع فرصتـه في الحياة عـلى ضفاف النهـرين وانتعشت حياة الزرع والماشية ، ولذلك صار على العراقي ان يعمل ولا يغفل العمل لحظة واحدة فانه بذلك قد يخسر فرصته في الحياة كلهـا . وهو الامـر الذي يفرض عـلى الفلاح والمـزارع والراعي واصحاب الحرف في هذه البلاد ان يمتنعوا عن الغفلة لانهم بذلك يخسرون الفرصة الذهبية .

ويرى المؤرخ العراقي طه باقر « ان حضارة وادي الرافـدين تمتاز بالحدة وتوقع المفاجآت والفواجع » وهو استنتاج يبنيه على اساس ما تركته الطبيعة من آثار على السلوك البشري في العراق .

ويزداد شعور العراقيين بالضيق كلما تطلعوا جهة الشرق اذ تنساب بلادهم في الوسط والجنوب ارضاً سهلة منفتحة في مواجهة الهضبة الايرانية المرتفعة التي شهدت على مدى أكثـر من ٤٠٠ سنة منذ ١٥٢١ ميلادية سلسلة حروب وغزوات كانت تنحدر من الهضبة الايرانية المنيعة باتجاه أرض العـراق السهلة المنبسطة وتبدو مساحة العراق ضئيلة ازاء مساحة ايران المنافسة اذ تقل عنها بثلاث مرات ونصف المرة بحيث يغري العامل الجغرافي أية خطة عسكرية ايرانيـة للاندفـاع باتجـاه العراق ، وهكـذا ظلت العلاقة بـين العراق وايـران محكومـة بهاجس الخـوف والتوتـر والخطر . والتاريخ ايضا محفز لايقاظ الشعور بالخطر .

☐ ☐ ☐

فليس من الصواب تفسير السلوك السياسي العراقي تحت وطأة المتغيـرات السياسيـة وتفاعـلات الاحداث والظروف والمـواقف المستجدة ، وليس من الصواب التعامل مع الشعوب العريقة على اساس رد الفعل المحتمل ازاء الحدث الآني ، فمثل هذه الشعوب تتصرف على أساس ماتستمده من ارث متراكم ، وعقد قديمة ،

وحسـابات ثقيلة ، وهي في العادة لاتستطيع ان تجد انهـا ذات قيمة في الحاضر مالم تُنشّط احساسها بانها وريثـة امس كبير ، وبهذه الطريقة ينعش التنويريون العرب المعاصرون الاحسـاس بالذات الوطنية والقومية . ويعدون الانتساب الى ماض متراكم في الاحداث والشواهد والخبر والمواقف والانتصارات والانتكاسات معا ، عامل تحريك فعّال للذات في لحظتها الآنية .

فهل كان العراق سيقبل لحظة المواجهة مع امريكا بعلاقة الذئب والحمل .. ؟ وهل يحتمل ان ينشأ حوار الذئب والحمل بينهما .. ؟ وايهما اقرب للتعبير عن تكوينـه .. القبول بقـانون التصـادم ام الخضوع لقانون الاحتواء ..؟

مرة اخرى ، لم تكن هناك دافعية اقوى في التأثير من الشعور بالخطر المحدق ليس من اللحظة الآنية ، ولكن تحت وطأة المتراكم من التجارب .. ولذلك لم يكن العراق مـطمئنا حيثمـا استدار في الاتجاهات .. ففي لحظة الاصطدام بالغرب المسيحي عشية دخول الكـويت وبعده ، كـانت ثمة عقـد ثلاث تحـرك مكامن الشعـور بالخطر :

الاولى : عقدة (كسرى) التي تمثل الخطر الفـارسي القديم الذي تبلور سياسيا بما يعرف بالشعوبية كتيار غـير عربي اراد الهيمنة على الدولة العباسية واستلاب دور القيادة من العـرب ، وهي عقدة تعود جذورها الى يوم انهيار بـلاط كسرى في معـركة القادسية التي انهزم فيها القائد الفارسي رستم امام زحف سعد بن ابي وقاص على ارض العراق .

الثانية : عقدة (بابل) التي تعكس الخطر الصـهيوني الذي تعبر عنه وتمثله (اسرائيل) وتعود جذوره الى الاسر البابلي عندما تمكن العراقيون القـدامى في سنة ٥٣٨ ق.م من تـدمير الهيكـل اليهودي واسر اليهود وجلبهم الى بابل ، ولذلك احتـل العراق في الايديولوجية الصهيونية مكانة مشحونة بتراكم عناصر تأريخيـة

ودينية بعد ان اقام العبرانيـون في ارض العراق اكثـر من الفي سنة ، ويتخذ الاهتمام اليهودي في العراق من وعد الهي مصدراً له منسوبا الى وصية في التوراة للنبي ابراهيم (أنْ لنسلكِ اعطِ هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير الفرات) ـ سفـر التكوين ١٥:١٨ ـ وتحولت هذه الوصية الى دعوة معاصرة على لسان موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي الاسبق بعد ساعات قليلة من دخول القوات الاسرائيلية مدينة القدس في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عنـدما قـال (لقد استـولينا عـلى اورشليم ونحن في طريقنا الى بابل) ،وكان مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتزل قد فكر سنـة ١٩٠٢ بأيجـار مستعمرات يهـودية في العـراق من خـلال اتصالاته مع رجالات الدولة العثمانية ، ناهيك عن ما استجد من مواقف العداء والتربص على مدى نصف القرن الماضي عندما بدأت أولىٰ خطوات إنشاء إسرائيل .

الثالثة : عقدة بلاط الشهداء التي تعود الى سنة ٧٥٠ للميلاد عندما خسر العرب معركـة كبيرة في فـرنسا الجنـوبية نشـأ على انقاضها خوف دائم من النزوع العربي المحتمل لغزو اوربا وهو الامر الذي ايقظ مشاعر العداء ضد العرب الذي لم تحسمه المعارك في الحروب الصليبية بـين القائـد الاوربي ريتشارد قلب الاسـد والقائد العراقي صلاح الدين الايوبي .

ولذلك فان التصادم الآني ، مع الغرب المسيحي ، واسرائيل ، وايران ،مبني في جانب فعّال منه على عُقَد تاريخية ويعود الى روح الثأر والانتقام وعدم الثقة مما ترسب عن الصدامات والحروب على مدى ستة آلاف سنة □

مقدمات الانفجار

ماذا يحصل عندما يأكل الكبير من الأناء الصغير ، ويأكل الصغير من الأناء الكبير ..؟

لم تكن الايام الخمسة والعشرون التي سبقت ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠ كافية للتعبئة في اتجاه معاكس لما استقر عليه وضع التعايش على مدى خمسة وعشرين عاما من التاريخ ، عندما تعامل العراقيون مع الكويت كدولة يمكن التعايش معها ، واستقبلوا اميرها كرئيس دولة اخرى ، ومنعوا نشر الكتب التي تتحدث عن خلفية العلاقة التاريخية بين الكويت والعراق .. كذلك كان من الصعب ، القيام بعملية تعبئة في ٢٥ يوما لمسح ما جرى التعايش معه ٢٥ سنة ..

فجأة فُتح ملف الكويت ..

وبسرعة تدفقت الاوامر اليومية للجمهور ، حقوق مستلبة في الارض ، في الشاطىء ، نفط منهوب ، خطة سرية لاستنزاف الاقتصاد العراقي ، الكويت فرع من العراق لابد ان يعود لاهله .

وكان التدفق السريع والمتتالي لهذه الاوامر النفسية والمعنوية سبباً في جعل الجمهور ضحية حيرة وتساؤل لم يخرج منه حتى شهور تالية ، عندما صار بامكانه ان يتأمل ، ويستعيد الوقائع ، ليتبنى الجرعات التي كان قد تلقاها دفعات سريعة في حيز ضيق من الزمن .

أهو رسم جديد للخارطة ؟ ام انه الغاء لما ترتب على جلسة عقدت في خيمة بمنطقة «العقير» رسم خلالها السير بيرسي كوكس ، بعصاه ، اشكال دول على الرمل ؟ ام ان عدد دول العالم قد تناقص واحدة وشُطبت الكويت التي كانت قبل سبعين سنة فقط قضاءً ملحقاً باحدى ولايات العراق الثلاث ؟

أُتخذ قرار دخول الكويت على عجل ، اذْ لم تستغرق المدة بين تحريك أُولى فرق الحرس الجمهوري في اتجاه الجنوب ويوم الثاني من آب (اغسطس) أكثر من اربعة عشر يوماً ، ولم يكن القرار السياسي في الدخول الى الكويت قد طُرح للمناقشة حتى ٢٧ ـ ٢٨ حزيران (يونيه) ١٩٩٠ .

كانت امام القيادة العراقية خيارات عدة للتعامل ، في مقدمتها الايحاء باستخدام القوة من دون استخدامها فعلاً ، بهدف جس النبض ومعرفة النيات المخفية للكويتيين نحو العراق ، والأبعد من ذلك معرفة الطريقة التي سيتصرف بها الامريكان وقياس نياتهم الحقيقية بناء على نوع رد الفعل ، اما الخيار الثاني فكان دفع الامور الى تسوية سياسية سلمية تعيد للعراق جزيرتي وربة وبوبيان وحقول نفط الرميلة عبر الاتفاق السلمي بالتراضي ، واسقاط الديون ، والاسهام الفعّال في برنامج لاعادة البناء .

اما الخيار الآخر فكان الدفع في اتجاه تغيير نظام حكم آل صباح في الكويت ، وتشجيع قدوم حكومة بديلة تنهج سياسة تعاون وتفاهم مع العراق .

وذكر الملك حسين ان الرئيس صدام حسين ابلغه بعد انتهاء الحرب مع ايران ان موضوع الكويت يشكل عبئاً ثقيلاً على كاهله وأنه يريد ان يجد حلاً له .

ويشير الى أنه تحادث مرات عدة مع الرئيس صدام حسين في تلك السنة عن دور الولايات المتحدة بعد التطورات الخطيرة في المنطقة والعالم . وهما يراقبان خطوات توحيد اوروبا ، وتطلع اليابان لاستعادة دورها .

وكان بينهما اتفاق في التفكير على ان النفط سيكون اساس اي تطور ، وهدفاً في أي مخطط يوضع للمنطقة ، بحيث تؤمن الولايات المتحدة السيطرة على نفط العرب حتى يكون بمقدورها التحكم باوروبا واليابان .

واشار الملك حسين ان الرئيس صدام حسين كان يقول باستمرار : ينبغي ان نكون متنبهين ، ونحذر في هذه الفترة حتى يتبلور موقفنا عندما يأخذ العالم شكله الجديد . وان يستبعد العرب استخدام القوة بينهم .

ويخلص الملك الى الاعتقاد أن العمل العسكري لم يكن مخططاً له ، وانه كان بالامكان الوصول الى الحل باستقطاب عدد كبير من

المتفهمين بعد تبيان الموقف ، وعرض كل الحقائق .

□ □ □

لم يكن امام القيادة العراقية ان توسّع دائرة الاشخاص الذين اطلعوا على هذه الخيارات ، لذلك ضاقت حلقة العارفين بقرار الثاني من آب (اغسطس) الى اصغر دائرة تتيح اصدار الامر العسكري بالاندفاع نحو الكويت ، بعد أن سبقت لحظة الشروع عند الثانية فجر ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠ ، عملية تعبئة سريعة للجمهور العراقي ، والرأي العام العربي ، ولكنها كانت دون الشمول والمقدرة على خلق مناخ يستجيب سريعاً لقرار بهذه الخطورة والسِعة .

وكان امام القيادة العراقية نموذج بديل في التعامل في مسألة الكويت ، لكنها ارادت تحاشي الوقوع في ما عدّته خطأ مرة اخرى ، اذْ ان رئيس الوزراء العراقي الاسبق عبدالكريم قاسم كان قد طالب سنة ١٩٦١ بالكويت كونها قضاءً ملحقاً بلواء البصرة ، واثارت مطالبته تلك حملة سياسية واعلامية واسعة حفزت البريطانيين من جهة والمصريين من جهة اخرى لانزال قوات حامية في الكويت وتطويق محاولته واحباطها قبل الشروع بها .

ففي الوقت الذي اعلن رئيس وزراء العراق عبدالكريم قاسم (ان الكويت جزء من العراق ، وان تلك الحقيقة أكدها التاريخ ، ولن يفلح الاستعمار في طمسها او تشويهها) فانه لم يدعم اعلانه ذاك ، بتحرك عسكري فعلي ، عدا ما تلقاه من برقيات تأييد من رئيس الاركان وقادة الفرق العسكرية .

وكان مدعاة للاستغراب ان يعلن العراق : «ان حكومة الجمهورية العراقية قررت المطالبة بالاراضي التابعة للواء البصرة بكامل حدودها . وعدم التنازل عن شبر واحد من اراضيها .. وعندما نقول هذا فان باستطاعتنا ان ننفذه .» ، ثم يكتفي بالتصريحات والبيانات ، في الوقت الذي تحركت فيه بريطانيا

بصورة عاجلة فانزلت خمسة الاف جندي في ارض الكويت ، وتبنت قراراً في مجلس الامن ، فاعطت التصريحات التي اطلقها رئيس الوزراء فرصة للطرف المقابل للاحتواء وقطع الطريق قبل ان يشرع بالعمل .

الصورة ظلت ماثلة امام الحكومات العراقية تسعة وعشرين عاماً ، وكان من المتوقع انها ستتحاشى الوقوع في الخطأ التكتيكي نفسه ، مرة اخرى ..

لذلك صارت قيادة العراق عند الثاني من آب (اغسطس) سنة ١٩٩٠ ترى ان رئيس وزراء العراق آنذاك حفزّ الآخرين ، واعطاهم مدة كافية لترتيب اوضاعهم والرد عليه قبل شروعه بالفعل ، بعد أن نبّه المنافسين للتحرك قبل ان يشرع هو بأخذ المبادرة على الارض وانزال المفاجأة بالطرف الآخر .

وهكذ جاءت خطوات العراقيين بعد أقل من ثلاثين سنة ، كتومة ، سرية ، تجري في دائرة صغيرة مغلقة من دون اية اثارة مسبقة للحفيظة بما يوفر عنصر المباغتة والمفاجأة .

□ □ □

وصف وزير الدفاع الامريكي ريتشارد تشيني الجيش العراقي بانه الرابع في العالم ، وكان هناك من يعتقد ان الامريكان يبالغون في تقدير قوة العراق العسكرية حتى يخلقوا الذرائع الكافية لتجنيد قوة عسكرية كبيرة يشترك فيها الى جانب الولايات المتحدة أكبر عدد يمكن جمعه من الجيوش ، ولتبرير حملة جمع التمويل المالي للحرب من دول الخليج واوروبا واليابان ، بعد اظهار الجيش العراقي كقوة نازعة الى التوسع .

لكن العراقيين كانوا أعرَف بانفسهم من الآخرين ، وهم يذهبون الى أنهم فعلا بنوا واحداً من أكبر خمسة جيوش في العالم ، وان

هذا البنيان لم يكن ليتحقق لولا وجود ارادة قيادية قوية ، ووجود استجابة شعبية كافية ، الى جانب توافر مستوى مناسب من الدقة في التنظيم مؤهل لادارة جيش يتسلح باسلحة حديثة ومتطورة على مثيلاتها لدى جميع دول العالم الثالث .

اذن لابد ان هناك طاقة غير اعتيادية ، وقدرة هائلة في الحشد والتنظيم والتعبئة كانت سببا في قيام هذه القوة ونموها .

لكن السؤال ظل يدور حول كيفية استخدام القوة لتحقيق التأثير السياسي في الاتجاه الذي يريده العراق .

ايهما اصوب ان يستخدم صاحب القوة قوته ، ام يكتفي بالتلويح بها والايحاء بفعاليتها ؟

بل كيف ينبغي التصرف بهذا الجيش ؟

وكانت هناك رؤيتان :

الاولى ترى ان بقاء جيش بهذه السعة والضخامة والتسليح من دون فعالية ميدانية هو ضرب من التعطيل لجزء حي من قدرة الشعب وطاقته ، وهو ايضا هدر مادي هائل .. ولذلك لابد من واجب ميداني وفعالية لهذا الجيش ، وإلا تحول الى عبء على المجتمع كله ، واصبح بالتالي مصدر قلق للنظام السياسي والنظام الاجتماعي معا .

الثانية تذهب الى ان بالامكان الحصول على النتائج التي يريدها العراق على مستوى السياسة الخارجية من دون اللجوء الى استخدام قوته العسكرية ، بل بالايحاء بها ، والاعلان عنها ، وجعلها قوة ردع تحقق توازن الرعب في جانب ، وتوفر مصدراً لجني مكاسب سياسية .

واستندت الرؤية الثانية الى ان العراق تمكن من نشر قوته دون استخدامها عسكريا ، يوم كان بمقدوره المساعدة في تغيير نظام الحكم في بلد يبعد ثلاثين الف كيلو متر الى الشرق منه ، ويتدخل لحسم الصراع بين (داكار) و (نواكشوط) لصالح

الموريتانيين على بعد ثمانية عشر الف كيلو متر الى الغرب منه ، وكان العراق موجوداً في غرفة عمليات المتنـازعين في (تشـاد) ، وكانت اشارات سياسية وعسكرية تصدر عنـه كافيـة لتوفـير الحمايـة للبحرين امام اطماع ايران .

وكانت لديه قوة معنوية كافية لاخراج مليون متظاهر في السودان ومليونين في البنغال ومليونين في باكستان ، وكان بامكانه التأثير في سياسات دول في افريقيا ، وقد استخدم قوته السياسية ونفوذه في تسريع اعلان وحدة اليمن . وكان قادرا على دعم انديرا غاندي في المعارضة وفي الحكم ، واقامة علاقات مـع عشرات من الاطراف السياسية في دول العالم الثالث .

لكن هذا العرض الكبير للقوة لم يكن خافيا عن ابصار الولايات المتحدة وغيرها من قوى دولية واقليمية وجدت ان عرض القـوة العراقي يفرض العمل لانتزاع قدرة العراق على التأثير في النظامين الاقليمي والدولي ، وبذلك فان النتيجة واحدة .. استخدم العراق قوته ، ام اوحى بها وجني ثمار تأثيرها السياسي .

ولكن هـل كانت قـوة العراق كـافية ، بحسـاب طاولة الرمـل العسكرية عـلى التكافـؤ مع القـوة التي يمكن للولايات المتحـدة الامريكية وحلفائها حشدها .. وهي القوة التي اعدت اصلا لخوض حرب ظلت محتملة على مدى نصف قرن مع الاتحاد السـوفيتي وحلفائه ؟

اجاب العراقيون انفسهم عن هذا السؤال في الخطاب السياسي العلني ، وفي المداولات التي اجرتها القيادة العـراقية عـلى نطاق محدود في اليوم السابع من بدء الهجوم على العراق ، واجمع فيها المتحدثون على ان معرفة قدرات الطرف الآخـر العسكريـة ، ولا سيما تفوقه في الطيران والحرب الالكترونية ، لم يمنع من قبـول العراق للتحدي والاستجابة له .

واجاب ذلك الاجتماع ، الذى التأم مساء ١٩٩١/١/٢٤ عن التساؤلات التي طالما ترددت في العراق بشـأن مسألة توقيت اتخاذ

قرار دخول الكويت واعلان استعادتها .

وتتلخص الاراء التي تصدت لهذه التساؤلات ، بالأتي :

اولا : رفض التصورات التي تذهب الى ان الحاجة كانت تستدعي وقتا مضافا لسنة او بضع سنوات لتطوير الامكانات العراقية من جهة ، وتطوير الموقف العربي الرسمي ، قبل اتخاذ قرار ٢ آب (أغسطس) .

ثانيا : ان المعركة كانت مطلوبة في التوقيت الذي جرت فيه على الرغم من ان العراق لم يحدد وقت المواجهة .. ولا حدد تفاصيل المعركة .

ثالثا : ان المعركة ، لو تأخرت ، فان العراق كان سيصبح عاجزا عن مواجهة اعدائه ، بافتراض استمرار سياسة زيادة الانتاج في السوق النفطية على مدى سنتين اخريين ، والعراق مدين بخمسين مليار دولار ، وايرادات النفط لاتسد ٥٠٪ من احتياجات البلاد بالحد الادنى ، مع بقاء المديونية التي تستهلك ٥٠٪ من الايرادات في ضوء مايترتب من فوائد ، مع توقف التسهيلات الغربية في الحصول على الحبوب ، والتكنولوجيا ، واحتمال توسيع دائرة الحظر لتنضم اليها دول اخرى ضد العراق .

رابعا : ان القيادة العراقية وصلت بعد ٢٢ عاما من الحكم الى وضع لاتستطيع فيه الا تطوير ما بنته من قاعدة للنمو الاقتصادي والاجتماعي ، وهو امر بدا مستحيلا مع استمرار التهديد الاسرائيلي من جهة ، والاستنزاف الكويتي من جهة اخرى .

□ □ □

خامسا : برغم ذلك كله ، فان يوم ١٩٩٠/٨/٢ لم يكن اليوم المفضل للمعركة ، ولم تكن القيادة العراقية قد درست الموضوع قبل سنة او حتى قبل ستة اشهر استعدادا لها . (لكن ارادة الله هي التي قررت هذا التاريخ .) كما قال احد المشاركين في الاجتماع .

ويفهم من تحليل سياسي وزع على نطاق محدود بعد توقف اطلاق النار ، ان قرار الثاني من آب (اغسطس) قام على عنصرين :

الاول : تأديبي عقابي ضد الحكومة الكويتية التي اشتركت (في عملية زعزعة الاقتصاد العراقي واضعاف قوته العسكرية وزعزعة نظامه السياسي والاجتماعي) .

الثاني : ان المعركة بدت حتمية ، لذلك تدخل العراق لاتخاذ قراره العاجل برغم ان (كل مستلزمات المواجهة لم تكن مهيأة كما ترسم خارطة الرمل في العلم العسكري) .. وقبل الجانب العراقي التوسع في المعركة بعد الحصول على امتياز المبادأة حتى (لو كان هناك احتمال في الخسارة المادية التي ستظل أقل ضررا من نتائج التراجع وانتظار الضربة) .

ويضاف الى هذين العنصرين ، ان يمكن عرض الدوافع الاتية كما تكونت في العقل العراقي عشية ٢/٨/١٩٩٠ :

ـ اولا : ان على العراق المبادأة في الهجوم في ممارسة سياسته الدفاعية ، وذلك بفتح جبهة معركة مع الولايات المتحدة واسرائيل ليست من بين الاولويات التي يتوقعانها ، بحيث توجه الضربة الى الحلقة الاضعف في اوركسترا التهديد والضغط الموجهة ضد العراق ، بحساب ان المبادأة العراقية ستحبط ضربة اسرائيلية او امريكية مخططة ، وترغمها على اعادة برمجة التوقيت والاسلوب وترتيب الاولويات بعد انشاء وضع سياسي وعسكري جديد .

ـ ثانيا : ان العراق لن يتمكن من بناء نموذجه المرفه بعد ثماني سنوات من الاستنزاف خلال الحرب مع ايران الا من خلال ايجاد حل شامل للمعضلة الاقتصادية ، ومنها مشكلة المديونية ، وهو امر يلزم العراق ايجاد وضع جيو ـ سياسي جديد تتوافر فيه مصادر جديدة للاقتصاد العراقي .

ـ ثالثا : ليس امام العراق للتمتع بموقف ستراتيجي آمن في اية مرحلة تصادم مع ايران التي لم يتم معها سلام دائم ، الا من خلال

ايجـاد منفذ واسـع على البحـر يغلق الطريق امـام الالتفـاف ، ومحاولات اقتطاع جنوب العراق وعرقلة الممر المائي العراقي الذي يصدر عبره نفط البلاد .

□ □ □

واندفعت مجموعات منتخبة من الضباط والجنود العراقيين الى قصر الامير في قلب الكويت لتجد ان طائرة هليوكوبتـر كانت قـد سبقتها والتقطت الامير من قصره لتتجه به شـرقا نحـو ساحـل الخليـج ثم تستديـر بطيـرانها نحـو الجنوب في اتجـاه الحدود السعودية ، وفي اللحظات نفسها كانت مجموعات عسكرية عراقية اخرى تدخل الى قصر ولي العهد الشيـخ سعد العبـد الله الواقع جنوب العاصمة على ساحل الخليج لتجده هو الاخر قد بكر ، قبل وصولها بأربع ساعات ، في مغادرة القصر بعد ان تلقى عند الثانية فجرا اتصالا هاتفيا من مركز العبدلي يبلغه محدثه ، وهو ضابط كـويتي ، بان القـوات العراقيـة تقدمت جنـوب المركـز في اتجاه المطلاع ، ولا يعرف احد اين ستتوقف ...

سألتُ السيد طارق عزيز :
ـ ألَمَ يكن بامكان العراق ان يلجأ الى حل فني لمسألة الكويت ؟
تطلع الرجل عبر نظارته السميكة يتأمل السؤال ، فهو احد الستة المشاركين في اجتماع تأريخي عقدته القيادة العراقية نهاية شهر حزيران ـ يونيو ١٩٩٠ ، جرى فيه فتح ملف الكويت لأول مرة باتجاه حسم ما تجمع فيه من مشكلات وهو الاجتماع الذي جعل جميع الخيارات ممكنة ومحتملة .

واستفسر السيد عزيز : ماذا تقصد بالحل الفني ..؟
أعدتُ السؤال على نحو آخر :
ـ ان مشكلة العراق كانت مع آل صباح الذين تحالفوا مع الامريكان واتخذوا سياسة اضرت بـه ، فلماذا لم تلجأ القيادة العراقية للتخلص من آل صباح عبر انقلاب عسكري يدبر أو من خلال الاغتيال ..؟

سحب السيد طارق عزيز نفساً طويلاً وقال :
ـ كان لابد من ضربة ستراتيجية ، اذ ان المعالجات الصغيرة لم تكن مناسبة للمشكلة وما بلغته من خطورة ، وكان امامنا احد خيارين : اما ان نأخذ المبادرة ونضرب او اننا كنا سنؤكل تدريجياً .

ومضى السيد عزيز يقول : كان لابد من حماية العراق باسلوب الهجوم ، وليس صحيحاً القول ان قرار الثاني من آب جاء قراراً بلا جذور ، فقد استمرت مقدمات ذلك القرار على مدى عشر سنوات سبقته .

كان ملف الحدود والمشكلات المالية والنفطية بين العراق والكويت قد اودع على مدى سنة مضت لدى الدكتور سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء آنذاك ، قبل ان يؤول هذا الملف الى مجموعة منتقاة من اعضاء القيادة العراقية التي ادخلت الى

حساباتها خيارات عدة تبلغ اقصاها في اعادة الكويت الى العراق كجزء من اقليمه الوطني .

وبدا أن الوصف الاقرب لقرار الثاني من آب (أغسطس) هو انشاء وضع عسكري وأمني في الكويت يترتب عليه احداث انقلاب في الامارة يجري خلاله التخلص من عائلة آل صباح ، لتظهر على انقاضها قوة سياسية محلية تنزع الى التفاهم بدل التصادم ، والى التكامل بدل الافتراق .. وتتيح للعراق ان يحل مشاكله الاقتصادية والجيوسياسية عبر رئة مفتوحة على البحر .

سألتُ السيد طه ياسين رمضان :

- لماذا لم يخطر ببال العراق ان يلجأ الى طريقة في التعامل مع الكويت اشبه بالطريقة التي تعامل بها السوريون في لبنان ؟

اجاب القيادي العراقي ، الذي عُرف باختيار اشّد المفردات في وصف موقف سوريا من العراق على مدى السنوات العشرين الاخيرة :

- ان الوضع مختلف تماماً ، فالكويت جزء من العراق اما لبنان فليس جزءاً من سوريا ، وكان من الصعب علينا ان نختار السياسة التي اختارتها سوريا في لبنان .

واستغرق السيد رمضان في وصف نوع الصلة بين العراق والكويت :

- لم يكن لدينا أي خلل في الاعتقاد بأن الكويت جزء من العراق ، وانها لاتقع ضمن منطق الوحدة العربية ، فهي جزء من قطر واحد وليست قطرا بامكانه ان يتوحد مع آخر سواه .

عُدتُ اسأل ثانية :

- هل كان يوم الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ موعدا مثاليا لاستعادة الكويت ، بمعنى لو تأجل الموعد او تأخر اما كان التاريخ قد تغير ؟

قال الرجل الذي كان احد المشاركين في اجتماع نهاية شهر حزيران (يونيو) ، الذي تقرر فيه للمرة الاولى طرح الخيار العسكري في التعامل مع وضع الكويت :

ـ ان التأريخ تصنعه ارادة الله وارادة الانسان معا ، ولم يكن موعد المعركتين في القادسية وام المعارك مثاليين ، كنت اتمنى ان تكون كلاهما في تاريخين أخريين ، وتمنيت فعلا لو مرت علينا خمس سنوات بعد انتهاء الحرب مع ايران قبل ان تقع المواجهة الثانية ، ولكن يبدو انه لم يكن مسموحا للخط البياني لتطور العراق ان يستمر وينمو ، لذلك نحن لم نختر الموعد في ٢/٨ ، كنا نتمنى ان يكون ذلك في وقت آخر ، ولكنني في كل الاحوال ارفض القول انه كان بالامكان تجنب ماحصل .

□ □ □

وقد توصل العراقيون في وقت مبكر بعد انتهاء الحرب مع ايران الى ان حل المعضلات التي يعاني منها العراق لن يتم عبر حلول جزئية او مؤقتة ، وان الدور الذي لعبه العراق في حماية منطقة الخليج من التوسع الايراني كان يستحق ان يجعل دول هذه المنطقة تتحمل القسط الاكبر في ايجاد حل شامل وكلي لمجموعة مشكلات مركبة نتجت عن تضحيات كبيرة قدمها العراق من اجل الاخرين .. ومنها مشكلة الديون التي كانت قد تجاوزت عند انتهاء الحرب مع ايران طبقاً لأرقام غير رسمية (٧٠) مليار دولار يضاف اليها ماانفقه العراق من احتياطيه قبيل بدء الحرب مع ايران والذي كان يزيد على (٥٠) مليار دولار ، وكانت المساهمات الضئيلة والرمزية ، التي قدمتها السعودية والامارات وعائلة آل صباح في حملات اعادة بناء العراق التي تلت الحرب سنتي ١٩٨٨ـ١٩٨٩ ، قد عجّلت في الاستنتاج بأن هذه الهبات المحدودة لن تقدم حلاً

لمعضلات اعادة البناء ومشاكل المديونية ، فلم تتجاوز المساهمة الكويتية فيها اكثر من (١٢) مليون دولار لدعم حملة اعادة بناء مدينة الفاو ، وهي المدينة التي تحمّل العراقيون في الدفاع عنها واستعادتها التضحية باكثر من (٥٢) ألف من الرجال الذين خاضوا معارك دفاعية عن الخط الاخير الذي يحمي الكويت وبقية الساحل العربي على الخليج .

وكانت احدى المفارقات التي شغلت العراق ان الفائض المالي المتحقق للكويت والسعودية ودول الخليج النفطية منذ اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية سنة ١٩٨٠ قد اخذ فرصته في التراكم بفعل سياسات انتهزت لحظة انفجار الحرب لتحصل على فرصة مضافة لزيادة الضخ في اسواق النفط والحصول على فائض مالي يزيد بنسبة الربع على ماكان عليه عشية اندلاع الحرب وهو امر كان له انعكاس سياسي مباشر على اطالة امد الحرب ، ففي الوقت الذي كان العراق يأمل ويتوقع ان تؤدي الحرب الى ازمة نفطية عالمية نتيجة الانخفاض المفاجىء في قدرات كل من العراق وايران على انتاج النفط الخام وتصديره جراء ماتعرضت له آبار النفط ومحطات التحميل وانابيب النقل والمصافي من دمار في البلدين وهي ازمة كان متوقعاً لو حدثت ان تدفع بالولايات المتحدة ودول اوربا واليابان للقيام بجهد سياسي عاجل ومباشر من خلال مجلس الامن لاصدار قرار بوقف اطلاق النار في الشهر الاول من اندلاع القتال .
ولكن السعودية بادرت فور بدء العمليات العسكرية الى زيادة الضخ لترفع تصديرها من اربعة ملايين برميل يومياً الى نحو ثمانية ملايين برميل بحيث بنت الحاجز المانع دون نشوء وضع نفطي دولي يحرك الجهد السياسي لايقاف الحرب .

وترتب على زيادة ضخ النفط من قبل السعودية والكويت والامارات زيادات كبيرة في الايرادات المالية بحيث غدا استمرار

سيلان الدم العراقي سببا في تمكين هذه الدول من الحصول على مزيد من المكاسب المالية .

وتوافق انحسار التسهيلات المالية الخليجية المقدمة للعراق في توقيت واحد مع قرار سوريا في ربيـع ١٩٨٢ غلق انبوب النفـط العراقي المار عبر اراضيها في اتجاه ميناء بانياس على ساحل البحر المتوسط الذي كان يستوعب ٤ر١ مليون برميل يوميا ، وهو الامر الذي ادى الى انكماش مفاجىء وحاد في واردات العراق المالية ، وصار مستحيلا تغطية منهاج الاستيراد المـدني الذي كان يبلغ سنتئذ (٢٠) مليار دولار سنـويا ، اذ ان طاقـة انبوب النفـط العراقي المار عبر الاراضي التركية لم تكن تزيد على (٦٠٠) الف برميل يومياً .

وتجاوز التساؤل دوائر القيادات العـراقية ليتسـع في اوساط المثقفين والاقتصاديين ، وقادة الجيش ايضـاً ، الذين انتظروا بعد ازالة الخطر الايراني عن الخليج اسهامـاً كبيراً من الخليجيـين لتمكين العراق من اعادة بناء نفسه وتوفير مستوى انسب للرفاهية الاجتماعية والمعيشية .

من هنا كان الوقوف على شفا انهيار اقتصادي محتم في العراق يعطي دافعية قوية للبحث عن الحل الشامل ، وبدا ان فرض وضع جديد في منطقة الخليج سواء بترتيب تغيير سياسي في الكويت ، او باشعار دول المنطقة ان مفتاح استقرارها بيد العراق وليس سواه ، وان الشعور بالامان الذي بدأت التمتع به ناتج عن هزيمة ايران في الحرب وهو الامر الذي كان للعراق الدور الحاسم فيـه ، وان لا استقرار لهذه المنطقة ما لم تكن للعراق حصة السيد فيه ، وحصة الاخ الاكبر ، والاخ الحامي ، وإن هذا الاخ لن يحتمل ان يلحقه اي نـوع من الايذاء المتعمـد من طرف مجاوريـه الصغار الذين عاشوا في حمايته السنوات العشر الماضيـة ، ولذلك عُدّ الضغـط الاقتصادي وسياسة خفض اسعار النفط ورفض الغاء المديونية

حرباً جديدة يتعرض لها كما اعلن ذلك الرئيس صدام حسين خلال اجتماع مغلق في مؤتمر القمة العربي الاستثنائي في ٣٠ آيار (مايو) ١٩٩٠ ، عندما كان العراق ما يزال يتعايش مع الوضع القائم في الكويت متحاشياً اثارة الخلفية التاريخية للعلاقة مع الكويت .

لم يكن قد مضى شهران بعد على استعادة العراق لمدينة الفاو في الجنوب ، حين توجه وفد عراقي ليحضر مؤتمر القمة العربي الاستثنائي في مدينة الجزائر في حزيران ١٩٨٨ ، وكان واضحا ان العراقيين قد بدأوا العد التنازلي على طريق وضع نهاية للحرب مع ايران ، وصاروا يفكرون بمعالجة كل ما عدوه من قبل موضوعات مؤجلة ، بما في ذلك موضوع الحدود مع الكويت .

انفرد السيد طارق عزيز بوزير الخارجية الكويتي جانبا في احدى الصالات الملحقة بصالة مؤتمر القمة بفندق الاوراسي في الجزائر وقال له :

ـ اننا مقبلون على مرحلة ما بعد الحرب ، وقد كلفتني القيادة ان ابلغكم رغبة العراق بحل موضوع الحدود المعلق بيننا .

توقع الوزير العراقي ان يكون الوزير الكويتي مسرورا بما ابلغه به ، لكن الذي حصل ان الشيخ صباح الاحمد استمع من غير اكتراث الى العرض العراقي .. وقال :

ـ لسنا في عجالة من الامر .

بعد بضعة اسابيع تلقى الوزير العراقي اشعارا رسميا من الحكومة الكويتية يُعلمه ان أمير الكويت يُفضل عدم البحث في هذا الموضوع في الوقت الحاضر .

ولعل من المفارقة ان العراق هو الذي كان يلجأ الى التطبيع مع الكويت في السنوات التي سبقت الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ في حين ظل الكويتيون يقدمون خطوة ويؤخرون اخرى حتى ان امير الكويت الشيخ جابر الاحمد لم يزر العراق على مدى عشر سنوات ،

جاءت بعدها زيارته اثر ولادة عسيرة في ١٩٨٩/٩/٢٣ اذ كانت بغداد تتوقع ان يقوم بزيارتها فور انتهاء الحرب مع ايران ، ويسبق زعماء الاردن واليمن ومصر والسعودية وتونس والسودان وموريتانيا والبحرين والامارات والصومال الذين جاءوا الى بغداد ليهنئوا بالانتصار على ايران .

وكان المبعوثون العراقيون قد اقترحوا ان يزور الشيخ جابر العراق براً تعبيراً عن عمق الصلة معه ، ولذلك وجدوا في تأخر زيارته اشارة اخرى على عدم توفر حسنة النية .

ولكنه يوم جاء الى بغداد أُستقبل بحفاوة وانشد له المغنون العراقيون أغاني لم يعتادوا انشادها لغير قادتهم ، واشتهرت بينها اغنية تقول (يا جابر والله وكفيت .. بغداد اخت الكويت) .

وفي الوقت الذي كان العراقيون يتوقعون ان يطلب الشيخ جابر الاحمد اثارة موضوع الحدود وجدوا انه تحاشى التعرض الى الموضوع ، مما حدا بالرئيس صدام حسين ان يعرض على امير الكويت حل المشاكل المعلقة بين الطرفين بما فيها موضوع الحدود .

اجاب الشيخ جابر الاحمد : « ان رأيي عدم بحث هذه الامور بيننا ، وخلينا بعيدين عنها ، ولنتركها للوزراء » .

كانت اجابة امير الكويت محط استغراب الجانب العراقي وتساؤله ، اذ كان المتوقع ان يبادر هو الى طرح موضوع الحدود ، واستنتج اعضاء في الجانب العراقي بانه اراد ان يتظاهر بعدم الاهتمام حتى لا يتصلب العراق في موقفه من هذا الموضوع .

وكان على السيد عزة ابراهيم ان يتابع ملف العلاقات مع الكويت قبل ان يؤول هذا الملف الى الدكتور سعدون حمادي الذي كلفه الرئيس صدام حسين بالتوجه الى الكويت بعد ثلاثة اشهر من زيارة الشيخ جابر الى بغداد لمتابعة القضايا المعلقة من زيارة امير الكويت .

وبدأ حوار تفصيلي للمرة الاولى حول موضوع الحدود بين الدكتور سعدون حمادي والشيخ صباح الاحمد ، وبعد حديث اتسم بالعمومية ، في البداية ، وجه الدكتور حمادي سؤالا محدداً :

ـ ماهو الحل الذي تريدونه حتى نحسم موضوع الحدود ؟

ـ اجاب الوزير الكويتي :

ـ نعود الى اتفاق ١٩٦٣ .

وكان يعني ماتوصل اليه نائب رئيس وزراء العراق انذاك السيد علي صالح السعدي خلال زيارته للكويت في تلك السنة ، وهو الاتفاق الذي لم تحصل عليه مصادقة من الجهات التشريعية في العراق .

قال الدكتور سعدون حمادي :

ـ ان ما نتحدث عنه ليس اتفاقاً ولا معاهدة لان المسودة التي وضعت آنذاك لم يصادق عليها اي مصدر تشريعي في العراق ، وهذا يعني انها لم تكتسب الصفة القانونية بموجب الدستور العراقي ، وبصراحة فان ما تتحدث عنه وتسميه اتفاق ١٩٦٣ غير قائم من الناحيتين القانونية والتاريخية .

وعاد نائب رئيس الوزراء العراقي الى بغداد بعد ان اتفق على اعطاء الجانب الكويتي شهراً لدراسة ملف العلاقات ، على ان يزور الشيخ صباح الاحمد بغداد عندئذٍ ليأتي باجابات على المقترح العراقي بتسوية جميع جوانب الخلاف .

ولكن زيارة الوزير الكويتي لم تأت بجديد من وجهة نظر العراق ، وانتهت عند عبارة : (ان الموضوع يحتاج الى المزيد من الدراسة في الكويت ثانية) .

وسلم الدكتور حمادي مقترحين خطيين الى الشيخ صباح الاحمد خلال زيارته الى بغداد في ١٨ / ٢ / ١٩٩٠ ، ويقوم المقترحان

على اعطاء العراق تسهيلات من النـوع الذي حصل عليـه خلال الحرب مع ايران ، وعلى الالتزام ببنود معـاهدة الدفـاع العربي المشترك ، وذكّر المسؤول العراقي وزير خارجية الكويت بما كان السيد طارق عزيز قد أثاره معه خـلال لقائهمـا على هـامش قمة الجزائر في حزيران (يونيو) ١٩٨٨ عندما اقترح الوزير العراقي على الوزير الكويتي معاودة البحث في مـوضوع الحـدود بعد ان توقف لسنوات عدة ، الا ان ولي عهد الكويت الشيخ سعد العبدالله بعث بـرسـالة مـع وزيـر الدولة الكـويتي سعـود العصيمي في ١٩٨٩/٢/٢٧ يطلب فيها تأجيل البحث في هذا الموضوع .

قبل شهر من ذلك التاريخ حـدثت مداخـلات زادت من تعقيد الموقف ، ففي اليوم الذي وصل فيه الشيخ سعد العبدالله في زيارة الى بغداد خرجت الصحف الكويتية بمقالات رئيسة تطالب العراق بحل عاجـل لموضـوع الحدود ومنـح الكويتيـين الاطمئنان الذي ينتظرونه ، ووجدت بغداد ان الخطاب الاعلامي الكويتي ينطوي على استفزاز مقصود لسببين :

الاول : ان بغداد ترفض ان يكون هذا الموضوع مادة للجدل في الصحف ووسائل الاعلام .

الثاني : ان ولي العهد الكويتي موجود في بغداد وبامكانه ان يبحث الموضوع دون أن تلجأ الحكومة الكويتية الى ما تعتقد انه ضغط على العراق عشية بدء المفاوضات الرسمية في بغداد .

كنت يومها اقود فريقاً ثقافياً في اطار اسبوع ثقافي عراقي في الكويت ، وتلبدّت الاجواء ، ووجدت وزير الاعلام الكويتي وهو من عائلة الصباح ، يهرع اليّ بعد افتتاح معرض فني ويطلب مني ان اقترح على بغداد تطويق الموقف اعلامياً بعد ان ردت الصحف العراقية بقسوة على صحف الكويت .

سألت الوزير الكويتي :

ـ ألم يكن بـامكـانكم أن تمنعـوا اطلاق الشـرارة الاولى من الكويت ؟

اجاب : لقد حصل الذي حصل وليس امامنا ، كما طلب مني الأمير ، الا ان نوقف الأمور عند الحد الذي وصلته في وسائل الاعلام .

وحين عاد الشيخ جابر ثانية الى بغداد بعد ثمانية اشهر في أواخر آيار (مايو) ١٩٩٠ ، كانت المناسبة عربية عامة هذه المرة ليشارك في مؤتمر قمة عربي استثنائي كانت بغداد قد فازت في جمعه بعد اثنتي عشرة سنة من آخر قمة عقدت فيها سنة ١٩٧٨ وقررت عزل مصر بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد الاسرائيلية ـ المصرية .

وسبقت القمة اجتماعات لوزراء الخارجية العرب احتدمت فيها نقاشات قاسية حول طريقة التعامل مع الولايات المتحدة وتقييم سياستها ازاء العرب .

وكان طرفا الاصطدام فاروق قدومي رئيس وفد فلسطين من جهة وعصمت عبدالمجيد رئيس وفد مصر من جهة اخرى ، وهنا شعر العراق ان مصر لا تتصرف كجزء من مجلس التعاون العربي الذي يضمهما الى جانب الاردن واليمن ، فقدومي طالب بادانة واضحة وصريحة لدعم امريكا لاسرائيل .. أيدَّهُ وفد العراق وسانده رئيس الجلسة طارق عزيز ، وتعاطف معه رئيس الوفد الجزائري سيد احمد غزالي وزير الخارجية آنذاك ورئيس وفد ليبيا ابراهيم عزوز وزير الخارجية آنذاك ، في حين ساند الامير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي طروحات الوزير المصري ، ولعب الوزير الكويتي صباح الاحمد دور المهدىء في اتجاه تأجيل البحث في الموضوع ، وهو موقف يؤيد ضمناً الموقفين المصري والسعودي .

بعد يومين جمعت قاعة رباعية الشكل يتوسطها تكوين رباعي من الزهور البغدادية القادة العرب في مجمّع قصر المؤتمرات الذي كان قد بني اصلا سنة ١٩٨٢ لاستضافة قمة عدم الانحياز التي

حُرم العراق من جمعها وانتقلت الى الهند في اخطر سنوات الحرب مع ايران عندما تراجعت القوات العراقية في الجبهتين الوسطى والجنوبية ..

وجلس امير الكويت المقل في الكلام يصغي الى الرئيس صدام حسين الذي كان في ذروة شعوره بالارتياح بعد جمع القادة العرب بمن فيهم الرئيس الليبي معمر القذافي الذي وصل من دمشق متأخراً عن الموعد المقرر لافتتاح المؤتمر مما حدا بالرئيس صدام حسين ان يخرج من القاعة ليستقبله في مطار المثنى بقلب بغداد .

وجاء خطاب الملك حسين عاهل الاردن مؤثراً حزيناً وهو يدلي بشهادة مؤلمة عن الاخطار التي تهدد بلاده الى حد اطلق فيه صرخته العالية التي تحذر ان الاردن قد يضيع كما ضاعت فلسطين تحت وطأة العبء الاقتصادي الثقيل والخطر الاسرائيلي المحدق ، وخاطب القادة الاغنياء « لا يُعقل ان يُحجم المقتدر منا عن دعم غير المقتدر » ... واختتم كلمته التي كانت اشبه بمرثية : « ارجو ان لا يأتي يوم لا اجد واهلي في الاردن ما نردده سوى صرخة الشاعر العربي الصاعدة من عمق جرحه :

« اضاعوني وايا فتىً اضاعوا
ليوم كريهةٍ وسدادِ ثغر »

وكان مساعدو الملك حسين قد اقترحوا عليه عدم تضمين خطابه هذا البيت الشعري ـ الا انه اصر على اضافته الى نهاية خطابه في لحظة حزن عميق مر بها .

وتحدث الرئيس صدام حسين ليحث الحكام العرب على الاستجابة لصرخة الملك حسين ، وضرب مثلا عن بدوي قدم لضيفه القِدر الذي يصنع فيه حساءً لاولاده مع انه هو نفسه بحاجة الى هذا القِدر .. مشيراً الى ان العراق ورغم الصعوبات المالية التي يعاني منها .. سيكون سبّاقا في تقديم العون طبقا لحال المثل البدوي الذي ضربه .

كان واضحاً انه اراد تحفيز الاغنياء العرب ، بمن فيهم امير الكويت ، الذين ظلوا يصغون من غير اهتمام او تعقيب وهو الامر الذي جعل الرئيس صدام حسين يتحدث بصراحة اكبر خلال جلسة مغلقة إلتأمت عقب الجلسة الافتتاحية ليعلن ان بلاده تتعرض لحرب يشنها عليه حكام حاضرون في المؤتمر من خلال اتباع سياسة زيادة لانتاج واغراق السوق النفطية مما ادى الى انخفاض اسعار النفط .

وقال : « عندما اغرق السوق النفطي بما هو فائض عن الحاجة تدنت الاسعار حتى وصلت احياناً الى سبعة دولارات للبرميل الواحد ، وبالنسبة للعراق فان كل انخفاض في سعر البرميل بمقدار دولار واحد يؤدي الى خسارة مليار دولار سنوياً » .

واضاف : « بصراحة وبروح الاخوة والتبسيط المباشر لنقل ان الحرب تحصل احياناً بالجنود ، ويحصل الايذاء بالتفجيرات ، والقتل ، وبمحاولات الانقلاب ، واحياناً اخرى يحصل بالاقتصاد ، لذا نرجو من اخواننا الذين لايقصدون الحرب ولا يقصدون شن الحرب على العراق أن يدركوا ان هذا نوع من الحرب على العراق ... ولو كان في الجلد ما فيه يتحمل لتحملنا ، لقد وصلنا الى حال لا نتحمل فيه الضغط .

في هذه المرة ايضاً لم يُبدِ امير الكويت اي رد فعل .. غير انه حك برؤوس اربعة من اصابع يده اليسرى اطراف لحيته المصبوغة داكنة السواد .

وبدا وكأن الكويتيين غير معنيين بما استمعوا اليه من كلام بما اظهروه من تجاهل للأمر ، وهو اسلوب سبق لامير الكويت ان تعامل به مع مبعوثي الرئيس العراقي الذين حملوا اليه دعوات سابقة لمعالجة الاختناقات في العلاقات الثنائية ، وكان آخرهم الدكتور سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء الذي طار الى الامارات وقطر

والسعودية والكويت بعد مؤتمر القمة ليطلب التـوقف عن تجاوز الحصص المقررة في منظمة الاوبك .

في جدة ، نقل الدكتور حمادي اقتراح الرئيس صدام حسين الى الملك فهـد لعقد قمـة خماسيـة تجمع قـادة العراق والسعـودية والامارات وقطر والكويت .

وكان جواب الملك فهـد : « نرحب بعقـد القمة ، ولكن لنـدعْ الوزراء يجتمعون اولا فإذا لم يتـوصلوا الى اتفاق ، ذهبنـا الى اجتماع القمة » .

وفهم الدكتور سعدون حمادي ان الملك فهد لم يعـارض عقد القمة الخماسية ، بعد ان كان أمير قطر قد رحب بالمقترح عندما عرضه عليه في الدوحة .

أما رئيس دولة الامارات فلم يوافق ولم يرفض واكتفى بأن قال للدكتور حمادي : نوافق على مايتفق عليه الأخـوة مادمت تقـوم بجـولة وستعرض المقتـرح عليهم .. فنحن مع أي شيء يتفقـون عليه .. واستنتج الدكتـور حمادي ، ان الشيـخ زايد لايعـارض انعقاد القمة من حيث المبدأ .

وبعد ان انتهى الدكتور حمادي من مقابلة الملك فهد توجه الى مطار جدة لينتقل الى الكويت بموجب موعد مقرر مسبقاً مع صباح الاحمد ، الا انه فوجيء في المطار ببرقية تبلغه ان الوزير الكويتي غير قادر على استقباله في صباح اليوم التـالي لارتباطه بـاجتماع لمجلس الوزراء ، فالغى رحلته المقررة ذلك المساء ، وعاد الى الفندق ليمضي الليل في جدة .

لكن غضب العراقيين تعاظم عندما علموا ان صبـاح الاحمد استقبل قبل الظهر وزير الخارجية الايراني علي ولايتي .

نقل الدكتور سعدون حمادي للشيخ جابر الاحمد ، الذي التقاه يـوم ١٩٩١/٦/٢٦ ، دعوة الرئيس صـدام حسين لعقـد قمـة خماسية للبحث في مشكلة زيـادة انتاج النفـط ، وقد وافق امـير

الكويت على فكرة عقد القمة قبل ان يتصل به الملك فهد الذي اقنعه بعقد الاجتماع على مستوى الوزراء فقط .. وشرح المبعوث العراقي الاضرار التي تلحق ببلاده نتيجة عدم التزام الكويت بحصتها المقررة في منظمة الاوبك .

وكان صباح الاحمد وزير الخارجية حاضراً في الاجتماع كما هي الحال في كل مرة بحث فيها الدكتور حمادي مع امير الكويت قضايا النفط وهو ما اعطاه انطباعاً مؤكداً ان صباح الاحمد هو المنفذ لسياسة زيادة الانتاج التي جاء يشتكي منها .

وواصل سعدون حمادي ، وهو يعرض بالارقام التي سجلها على ورقة امامه ، الخسائر التي لحقت بالاقتصاد العراقي في وقت هو بأمسّ الحاجة الى العملات الصعبة لتلبية احتياجات مابعد الحرب وتسديد ما استحق عليه من ديون واعادة بناء ما دمرته الحرب ، وطلب من الامير موقفاً واضحاً تلتزم بموجبه الكويت بحصتها .. وتتوقف عن سياسة اغراق السوق بالفائض النفطي ، فوافق جابر الاحمد على طلبه ..

لكنه فوجىء عند نهاية الاجتماع ان صباح الاحمد انبرى موجها كلامه الى المبعوث العراقي :

ـ ليكن واضحاً ان حصة الكويت في الاوبك ينبغي ان تزداد .

فأجاب الدكتور حمادي :

ـ كيف تزداد ونحن نريد ان نحافظ على الاسعار .

وشعر المبعوث العراقي ان كل ما قاله الامير لم يكن ذا قيمة ، وقد يكون الشيخ جابر قال شيئاً لايقصده ، وان صباح الاحمد هو الذي يقف وراء سياسة زيادة الانتاج ويصر عليها .

وقبل ان يخرج حمادي إلتفت يلقي نظرة اخيرة على جابر الاحمد لعله ينبس بكلمة ليرد على كلام اخيه صباح ، لكنه لم يتكلم ... فأدرك المبعوث العراقي عندئذ ان مهمته قد فشلت .

وهاجم سعدون حمادي في مؤتمرين صحفيين عقدهما في ابو ظبي والكويت سياسة الانتاج التي اعتمدتهما الدولتان ، وذكر ان الامارات التي كانت حصتها سنة ١٩٨٨ لاتزيد عن ٩٤٨ الف برميل قد اوصلت انتاجها اواسط ١٩٩٠ الى ٢,١ مليون برميل وان الكويت تجاوزت سقف ١,٥ مليون برميل يوميا لتصل الى ما يزيد على ٢,١ مليون برميل يوميا .

جاءت تصريحات الدكتور حمادي في ابو ظبي بعد حادثة مزدوجة استنتج منها ان الامارات لن تلتزم بدعوة العراق لخفض الانتاج . فقد كان مقررا ان يقيم وزير نفط الامارات الدكتور مانع سعيد العتيبة على شرف الدكتور حمادي دعوة غداء ، الّا ان الدعوة الغيت في اللحظة الاخيرة ، وفوجىء المبعوث العراقي ان الدكتور العتيبة عقد في الوقت المقرر لدعوة الغداء مؤتمرا صحفيا اعلن فيه (ان الامارات قدمت من التضحيات مايكفي .. وهي تتمسك بزيادة انتاجها من النفط) .. فما كان من الدكتور حمادي الى ان دعا من جانبه الى مؤتمره الصحفي العاصف .

كان العراق يصر على عقد اجتماع خماسي على مستوى القمة ، حتى تصل الاطراف الخمسة الى اتفاق مكتوب موقع من قبلهم يلتزمون بموجبه بحصصهم المقررة في منظمة الاوبك ويتفقون على السياستين السعرية والانتاجية .. وخشي العراقيون ان يحال هذا الملف الى لقاء وزاري يستطيع القادة بعده التملص مما وقع عليه وزراؤهم .. وهو ماحصل فعلا .

□ □ □

جاهر الشيخ صباح الاحمد بسياسة معادية للعراق ، جعلته اول الاهداف التي تعرضت للانتقاد من جانب بغداد .. خاصة بعد ازدياد نفوذه السياسي في الكويت ، بعد ان اظهر نزوعا قويا لتشكيل الحكومة وعزل منصب ولاية العهد عن رئاسة الوزارة ، وهو امر كان سعد العبدالله مستفزا ازاءه إذْ لايستطيع قبول فكرة

اعطاء رئاسة الحكومة الى شقيق الامير الطامح ، ذي العلاقـات القوية مع واشنطن ، الذي ادار عددا من اخطر الملفات الحيوية ذات الصلة بالمشاكل المتفاقمة مع العراق ، فصباح الاحمد كان يقود العمل الدبلوماسي كوزيـر للخارجيـة ، ويرأس لجنـة للامن اعطت تعليمات محددة منذ الاشهر الاخيرة من سنة ١٩٨٩ لتقييد حركة العراقيين في الكويت واستدعاء أعداد منهم للتحقيق معهم وتعذيبهم ، ثم طردهم الى العراق ، في وقت سرّب وكلاء محليين الى العـراق لجمـع المعلومـات عن الوضـع الاقتصـادي والامني والسياسي ، وكان يشرف عمليا على السياسية النفطية ، خاصـة بعد تعيين وزير جديد حديث العهد ، قليل التجربة ، هـو رشيد العميري كان ينفذ سياسة مُعدة من غيره يوجهها الامير ويشرف عليها اخوه صباح الاحمد ، وكان اخطر الملفات التي تولاها صباح الاحمد هو ملف الحدود بين العراق والكويت بدلاً من ولي العهد سعد العبدالله .

لذلك كانت الطلقة العراقية الاولى قد صُوبت الى صباح الاحمد دون سواه من المسؤولين الكويتيين . عند حضور خمس وعشرين شخصية كويتية في ١٥ تموز «يوليو» ١٩٩٠ الى بغداد ، بعد ان كان في نية العراق دعوة جميع قيادات الفعاليات الشعبية، وأكبر عدد من الكتاب والمثقفين والشخصيات الاسلاميـة الى بغداد ، وكـان قد تقرر ان يتوجه مسؤول عراقي الى الكويت منتصف شهـر تموز ليتولى دعوتهم بنفســه الا ان المعلومات التي ابـرقتها السفـارة العراقية في الكويت حول تقييد سفر الشخصيات الكويتية الى بغداد ارجــأت تلك الزيـارة ، وحضر الى العــراق ممثلون للمحـــامــين والمعلمين ، وكتاب فلسطينيون عـاملون في الكويت ، وصحفيـون كويتيون ، وبعض رؤساء العشائر .

ذهبت الى مقر اقامتهم بفندق الرشيد لارحب بهم واصطحبهم الى لقاء مع وزير الاعلام . وكان معي في سيارتي اربعـة منهم ،

سألني منهم صحفي كويتي : انْ كانت المشكلة جادة هذه المرة .. فقلت له : نعم انها جادة أكثر مما تتصور . ووجهت سؤالاً محدداً الى الاربعة : هل يوجه صباح الاحمد السياسة النفطية .. ؟ ولم يكن السؤال مسبوقاً ، ولذلك فوجيء به مستمعوه واختلفـوا في الاجابة عليه . لكنهم بعد خمس دقائق ، عندما كانـوا يجلسون حول وزير الاعلام العراقي ، استمعوا الى مافسر لهم سرّ السؤال المفاجيء الذي طرحته في الطريق الى بناية وزارة الاعـلام ، فقد وصف لطيف نصيف جاسم الشيخ صباح الاحمد بـانه (عميـل لامريكا) .. وذهل الحاضرون ، وتبعثرت تعليقاتهم بين الصمت ..

ومدح العراق .. وتمنى ان تحل المشكلة ، الا واحدا قال بلغة هادئة إنه يعرف صباح الاحمد ويعتقـد انه ليس سيئـا الى الحد الذي يستحق الاوصاف التي اعطاها له وزير الاعلام .

عاد الحضور الى الفندق ليرفعوا سماعات الهاتف على الكويت ينقلون الى صحفهم واصدقائهم ونقاباتهم مااستمعوا اليـه وهم موزعون بين الذهول ، وعدم القدرة على تصديق مااستمعوا اليه ، وكان عليّ في المساء ان اشرح ، خلال دعوة جمعت فيها الوفد بخان مرجان ، الاسباب التي تجعل صورة صباح الاحمد سيئة في عيون العراقيين ، وسألني الجميع ، ومنهم الشاعر محمد الفايز (الذي توفي بعد سنة من ذلك اللقاء) والصحفي عدنان الراشد إنْ كان مااستمعوا اليـه هو رأي الرئيس صـدام حسين ... فضحكت ،

وقلت لهم : ان الذي تحدث اليهم هو وزير الاعلام ، وهو الشخص المخـول بعرض المـوقف الرسمي للدولة ، وعليهم ان يستنتجـوا بصورة صحيحة ، وان يدركوا ان الامر جاد . وان كل كلمة قيلت لهم كانت محسوبة ومحددة ، ولم يكن ثمة لبس او سوء تعبير او زلة لسان ..

لذلك بدت السهرة ليلتئذٍ كئيبة .. ومتعثرة الحوار .

□ □ □

كانت بغداد التي تنتظر عودة مبعوثها قد وجدت في تحول الاعلام الكويتي عن مساندة العراق والترويج لخطابه العربي ، ثم مغازلة هذا الاعلام لايران والترويج للموقف السوري في لبنان ، ونشر موضوعات تتضمن اسقاطاً لما حصل في اوربا الشرقية على اوضاع العراق ، مثل مهاجمة (تشاوشيسكو العرب) ... اشارات تدل على وجود ادارة منظمة تنسق السياسات الاقتصادية والنفطية والاعلامية ضد العراق الى جانب الضغط الامني ، عندما اكتشفت المخابرات العراقية ان المسافرين الكويتيين الذي يترددون على العراق يقومون بجمع معلومات عن الوضع الامني والسياسي والاقتصادي ، وان السلطات الكويتية تقدم تسهيلات لعراقيين منشقين يقيمون فيها .

في حين استمر تهريب كل ما هو ثمين من الموجودات العراقية الى الكويت ، بما في ذلك الذهب والسجاد والتحفيات والمخطوطات والمواد الكهربائية .

ويسّرت السلطات الكويتية تهريب العملة العراقية بكميات كبيرة وهو الامر الذي ادى ،الى جانب عوامل اخرى ، الى انهيار سعر الدينار العراقي امام الدينار الكويتي الى ١/ ٢٠ ، بعد ان كان الدينار العراقي يساوي ٢٥٠ر١ ديناراً كويتياً قبل عشر سنوات . وفي الوقت نفسه رصد العراق الاتصالات السرية بين الكويت ومنافسي العراق التقليديين سوريا وايران .

ثم رصد العراقيون في الاسبوع الاول من تموز (يوليو) ١٩٩٠ « اتصالاً قامت به الحكومة الكويتية مع مجموعة (لويدز) المصرفية

في بريطانيا بحثت خلاله خيار بيع ديونها لدى العراق » ، وهو امر اثار قلقاً جدياً في بغداد التي طالما تحاشت ربط مديونيتها بالبنوك الدولية ، خشية ان ترتهن اقتصاديات البلاد ، وكانت الحكومة العراقية تفضل الحصول على القروض والتسهيلات المصرفية عن طريق الحكومات والشركات الكبيرة مبتعدة عن ما اعتاد الاقتصاديون العراقيون عدّه (مصيدة العالم الثالث) وهي الافخاخ التي تنصبها مجموعات البنوك الدولية الكبيرة .. وكانت الاتصالات الكويتية لبيع الديون العراقية الى (لويدز) سبباً قوياً لاثارة القلق والشك في بغداد .

□ □ □

عندما اجتمع عدد من اعضاء مجلس قيادة الثورة يوم ٢٧/٦/١٩٩٠ للاستماع الى تقرير قدمه الدكتور سعدون حمادي عن جولته الخليجية ، ولقائه بامير الكويت ، استنتجوا في الحال انهم بحاجة الى اختيار ما اسماه المجتمعون (لغة اخرى في التعامل مع الكويت) .

وكادت معضلة تدفق كميات فائضة من النفط الى السوق العالمية تجد حلا عندما جرى تصغير مقترح عراقي بعقد قمة تضم السعودية والعراق وقطر والكويت والامارات الى اجتماع لوزراء النفط التأم في جدة في يومي ١٠و١١/٧/١٩٩٠ ، والتزم فيه الوزراء الخمسة بالعودة للالتزام بالحصص المقررة في منظمة الاوبك .. وماكاد الاجتماع ينفضّ حتى اعلن وزير النفط الكويتي انذاك رشيد العميري في ١٥/٧/١٩٩٠ ان حكومته لن تلتزم بالاتفاق اكثر من ثلاثة اشهر ، وانها ستعاود ضخ النفط بما تراه مناسبا لمصالحها .. وتلك المرة التقط العراقيون التراجع الكويتي عن الاتفاق على انه (مؤشر جدي مضاف) لوجود خطة منظمة لدفع العراق الى شفا الانهيار الاقتصادي ، وهو يعني لدى بغداد

اضعاف مصداقية الدولة على تصريف الامور العامة واشباع الافواه التي ماعادت راضية كما كانت طوال سنوات الحرب مع ايران .

ارتفعت اسعار النفط بعد اجتماع جدة لتستقر طوال اسبوع على سعر (١٩) دولارا بزيادة نصف دولار عن اسعارها في الوقت نفسه من السنة الماضية .. وانعقد اجتماع وزراء نفط الاوبك في جنيف في ٢٧ تموز (يوليو) تحت ضغط عراقي تسانده ليبيا والجزائر ، وهو الامر الذي فرض تحديد سعر جديد للنفط هو (٢١) دولاراً وتحديد سقف الانتاج ..

لكن تمتع العراقيين بهذه الزيادات في اسعار النفط كان قصيراً وقلقاً ، ففي اليوم نفسه ٢٧ تموز (يوليو) هدد وزير العلوم الاسرائيلي يوفال نيئمان بمهاجمة العراق بالاسلحة الكيمياوية ، فادى ذلك الى زيادة درجة التحسب والقلق في العراق وبلوغ استنتاج قاطع بان البلاد ستكون هدفا لضربة اسرائيلية مؤكدة .

مرة اخرى تجمعت على طاولات القادة العراقيين معلومات تساعد على تفسير السلبية التي قابل بها الكويتيون مطاليبهم .. فقد نقل تقرير عاجل من لندن الى بغداد ، أعدّه جهاز مراقبة عراقي للاتصالات الكويتية ، ان السيدة مارغريت ثاتشر رئيسة الوزراء البريطانية بعثت الى امير الكويت وولي العهد رسالة عاجلة تحثهما في الاسبوع الاخير من شهر تموز (يوليو) على (رفض المطاليب العراقية ، وابقاء الخلافات معلقة بدون تسوية) ... ومرر كويتيون معارضون في الوقت نفسه الى بغداد تقريراً عن اجتماع ضم الامير وولي عهده ووزير الخارجية بحثوا فيه تطمينات بريطانية بالتدخل في حالة وقوع اي اشتباك مع العراق والتوصية بعدم الاستجابة لأية مطاليب يأتي بها الوفد العراقي الى اجتماع جدة .

وفي الوقت نفسه ، أعدّت الاستخبارات العسكرية العراقية تقريراً عن اقتراب سفن حربية امريكية من سواحل الكويت في

السادس والعشرين من تموز (يوليو) ، ووصول سبعة ضباط امريكان بعد ثمان واربعين ساعة الى مطار الكويت .

□ □ □

تدافعت الاسباب المعجلة في البحث عن الحل الشامل لمعضلة العراق التي زادها الكويتيون صعوبة وتعقيداً ، وصار الحلم الذي يشغل السياسيين والاقتصاديين والمثقفين ، والعسكريين ايضا ، هو ان تتكامل اقتصاديات العراق والكويت . وإنْ قل ذلك عن هذا المستوى فلا يجوز ان يتداعى الى أقل من تمتع بوضع العراق الدولة الاكبرالتي تحظى بالامتياز والاولوية، فلا يجوز ان يأكل الاصغر من الاناء الكبير ويأكل الاكبر من الاناء الصغير ، ولايجوز ان تسحب قوة اقليمية ثانوية مثل الكويت العراق من اطرافه كدولة اقليمية قائدة وحامية ، وكان ثمة من يقول : عندما يكون لديك جيش من مليون رجل لاتستطيع ان تؤكله فارسله الى ارض اخرى يأكل من انعامها .

□ □ □

وشهد شهر تموز (يوليو) حدثاً آخر عزز شكوك بغداد بوجود من يتآمر عليها .

فقد تمكن فريق فني عراقي يعمل ضمن منظومة تَنَصُت كانت تشمل دائرة تتجاوز حافاتها اعماق الاتحاد السوفيتي من الشرق وشمال افريقيا غرباً والقرن الافريقي جنوباً ، ان يلتقط محادثة هاتفية على المحور الجنوبي في المنطقة الصحراوية الممتدة بين ساحلي البحر الاحمر غرباً والخليج العربي شرقا .. وادخل الفنيون التسجيلات التي حصل عليها الفريق الى غرفة الاختبار والتحليل ..

ولم يخطر ببال الفنيين انهم التقطوا حديثاً بين زعيمي بلدين

عربيين ، وخمّن الفنيون في مذكراتهم التي رفعوها الى رؤسائهم الاعلى ما يلي :

وردت مكالمة هاتفية باللهجة الخليجية بين مسؤولين يبدو انهما رفيعا المستوى ، يحتمل ان يكون المتحدث بمستوى رئيس وزراء او اكثر ..

لكن القياديين العراقيين الذين استمعوا الى التسجيل ادركوا على الفور ، من معرفتهم الشخصية ، ان المتحدثين هما الملك فهد .. والشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الامارات وليس الشيخ حمد بن خليفة أمير قطر كما شاع في حينها .. وان المحادثة قد تمت مساء يوم التاسع من تموز (يوليو) قبل يوم واحد فقط من انعقاد اجتماع وزراء النفط في جده .

كان العراق هو محور الحديث ، ولعل اخطر ما اهتمت به القيادة العراقية ، اشارات من الملك فهد بأن الامر لا يحتاج ، ازاء مطاليب العراق ، غير شهرين من الانتظار فقط بحيث ستنشأ ظروف جديدة بعد هذين الشهرين لا يعود الخليجيون تحت وطأة الضغط العراقي . (نص المحادثة ملحق بالفصل) .

واكدت معلومات لاحقة ان الملك فهد كان قد اجرى مكالمة هاتفية مماثلة مع الشيخ جابر الاحمد بهدف منع عقد القمة الخماسية واستبدالها باجتماع للوزراء فقط .

وأضيفت هذه الالتقاطة الهاتفية الى المعلومات التي تحسستها المخابرات العراقية واستخباراتها العسكرية عن وجود خطة لتوجيه ضربة مركبة قد تتجاوز الضربة العسكرية الاسرائيلية المتوقعة وحدها الى ما هو اكبر باسقاط نظام الحكم ، وخلق البلبلة داخل البلاد ، ومواصلة سياسة زيادة الانتاج النفطي ، بهدف امتصاص اية نتائج سياسية او معنوية او اقتصادية ترتبت للعراق عن كسب الحرب مع ايران .

تكتم القياديون العراقيون على المحادثة الهاتفية ، واداموا

صلاتهم بالسعوديين ، فتحادث الرئيس صدام حسين مع الملك فهد الذي طلبه في الثامن عشر من تموز (يوليـو) ، واستقبل وزيـر الخارجية السعودي يوم الحادي والعشرين من تموز (يوليـو) وعاد واستقبله ثانية يوم الثامن و العشرين من الشهر نفسه .

وتتابعت الاتصالات العربية ببغداد اثر خطاب الرئيس صدام حسين في ذكرى ثورة ١٩٦٨ الذي حذّر فيه قادة دول الخليج من ايذاء العراق باغراق السوق النفطية ، وانذرهم فيـه بان صبـر العراق سينتهي عند حد يلجأ فيه الى الوسائل التي يراها كفيلة بأخذ حقه .

وأُعلن في اثر الخطاب نص الرسالة التي سلمها السيد طارق عزيز الى الشاذلي القليبي الامين العـام لجامعـة الدول العربيـة وتحدث فيها عن : (حرب مزدوجة تشنها الكـويت ضد العـراق لاتقل عن العدوان العسـكري المباشر) .

وتلقى الرئيس صدام حسين في التاسع عشر من تموز (يوليو) مكالمتين هاتفيتين من الملك حسـين عاهل الاردن والشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة امير البحرين ، استفسرافيهماعن مطاليب العراق وعرضاً تهدئة الخلاف مع الكويت .

□ □ □

تحسست بغداد وجود تنسيق امريكي ـ كويتي لايقبل الشك ، عندما صدر اول تصريح علني عن « ريتشارد بـاوتشر » الناطق باسم الخارجية الامريكية ، يوم ١٩٩٠/٧/١٩ واعلن فيه « ان الولايات المتحدة ملتزمة بقـوة بدعم الدفـاع الفردي والجمـاعي لاصدقائنا في الخليج » .

ولفت الرئيس صدام حسين انتباه السفيرة ابـريل غـلاسبي عندما قابلها بعد ستة ايام الى ان العراق لايعترض على اهتمـام امريكا بأمن اصدقائها ، ولكنه لايقبل ماينطوي عليه التصريح من تهديد مبطن .

وعاد وكيل الخارجية الامريكية « جون كيلي » بعد عشرة ايام من تصريح « ريتشارد باوتشر » ليؤكد مرة اخرى ، وعلنا ، مساندة امريكا للكويت عندما قال : « ان بلاده تعتزم القيام بكل مافي وسعها لدعم اصدقائها في الخليج بعد ان حشّد العراق قوات كبيرة امام الكويت » ، وهو الامر الذي اعطى بغداد تفسيراً اوضح للتشدد في الموقف الكويتي عشّية لقاء جدة ، وبلور فهماً مطلقاً لرفض الحكومة الكويتية المطاليب العراقية ، ولم يبق امام بغداد غير ان تفحص الطريقة التي سيتصرف بها الوفد الكويتي في محادثات جدة المنتظرة ، لتتأكد من وجود امر مبيّت للعراق .. في لحظة تسابق سري مع الزمن .

□ □ □

اتصل الرئيس صدام حسين في الحادي والعشرين من تموز (يوليو) بالرئيس المصري حسني مبارك وتلقى مكالمة هاتفية من الملك حسين والرئيس اليمني علي عبدالله صالح .

وفي كل مرة تحدث فيها الرئيس صدام حسين مع القادة العرب ، نبههم الى ان العراق لن يرضى بتهدئة الخواطر حلا للموقف ، وانه عازم على اخذ حقوقه كاملة ، بأية وسائل تتيح له ذلك .. وكان ذلك اشارة الى ان العراقيين لن يجدوا نهاية للامر في عملية (تبويس) للحى اعتاد العرب ان يلجأوا اليها لتجميد مشاكلهم من حين الى آخر .. وقد تفاوتت درجة التقاط هذه الاشارة عند القادة الذين اتصلوا بالعراق عشّية الثاني من آب (اغسطس) .

□ □ □

توقعت الانسة (ابريل غلاسبي) سفيرة الولايات المتحدة لدى العراق وهي تستقل السيارة المرسيدس التي انطلقت بها منتصف

ظهيرة ساخنة من صيف بغداد انها متوجهة لملاقاة وزير الخارجية السيد طارق عزيز ، بعد ان تم استدعاؤهـا على عجـل بحيث لم تتمكن من الاتصال مع واشنطن ، لاعلامها باستدعائها الى لقاء وصفه لها وكيل الخارجية العراقية السيد نزار حمدون بانه لقاء مهم ، ولتحصل على تعليمات من حكومتها .

وفهمت السفيـرة ، التي دَرّبت نفسها كثيـراً على استيعـاب دلالات المفردات التي يخاطبها بها المسـؤولون العراقيـون ، ان الانسب هذه المرة ان تذهب وحدها في هذا اللقاء ، ولذلك لم يرافقها اي مساعد من موظفيها في السفـارة كما اعتـادت ان تصطحب شخصاً ثالثاً يدوّن لها محاضر لقاءاتها .

عنـد الواحـدة من بعد ظهر الأربعاء ٢٥/٧/١٩٩٠ وجدت نفسهـا في إحـدى غرف القصر الجمهوري أمام الرئيس صدام حسين، وقد دخل معه وزير الخارجية السيد طارق عزيز وثلاثة من مساعديه، وتمكنت من استخدام لغتها العربية في تبادل عبارات التـرحيب والمجـاملة وهي واقفة تصافح الرئيس، ليبدأ بعد ذلك لقاؤها الأخير في بغداد.

كانت العبارة الأولى التي ابتدأ الرئيس صدام حسين حديثه بها:

ـ لقد طلبتك اليـوم لاتحدث معـك في موضـوع جدي حـديثاً سياسياً ارجو اعتباره رسالة موجهة الى الرئيس الامريكي جورج بوش .

ولعل اهم مادار في اللقاء اعطاء الرئيس صدام حسين اشارات قاطعة عن نية العراق استخدام القوة في حالتين ، الاولى التعرض للتهديد والثانية عدم الحصول على مايطالب به من الكويت .

فقد قال في اول اشارة له خلال الحديث عن استخدام القوة :

ـ اذا استعملتم طرق الضغط والاكراه ، فاننا سنعمل بطريقة الضغط واستخدام القوة .

اما الاشارة الثانية حول الكويت فقد وردت على النحو الأتي :
- نحن نعرف انكم قادرون على إلحاق أذى بنا .. ونحن لانستخدم التهديد ضدكم ولكننا قادرون على إلحاق أذى بكم ، وكل واحد يلحق اذى بقدر حجمه ، ونحن لانستطيع ان نأتي اليكم في الولايات المتحدة .

اما الاشارة الثالثة حول احتمال وقوع الحرب فقد جاءت بالعبارات الاتية :
- نحن لا نريد الحرب ولكن لاتدفعونا لأن نعتبرها الطريق الوحيد امامنا لنعيش بكرامة ويعيش بقيتنا بسعادة .

وجاءت الاشارة الرابعة على النحو الاتي :
- عندما يصرون على اضعاف العراق (يقصد الكويت والامارات) فانهم يساعدون الاعداء ، عند ذاك فمن حق العراق ان يدافع عن نفسه .

وعندما سألت السفيرة عن نيّات العراق بعد تصعيد الموقف السياسي ونشر قطعات عسكرية كبيرة في الجنوب ، تضمن جواب الرئيس صدام حسين مايمكن عدّه الاشارة الخامسة على احتمال لجوء العراق الى القوة .

- نريد ان نتوصل الى حل ينصفنا ، ولكن ، في الوقت نفسه ان نُشعِر الاخرين انه لم يعد لنا مجال للصبر .

ثم قال : لقد حاولنا معهم بكل الطرق .
«نص المقابلة ص١٦٧».

خرجت « غلاسبي » دون ان تتمكن من تدوين نص مادار في اللقاء ، واكتفت بما وضعته على ورقة صغيرة من ملاحظات مجتزأة من اللقاء ، وانطلقت الى سفارة الولايات المتحدة لتعطي اول ايجاز لواشنطن عبر الهاتف ، ثم تدوّن على الورق ما حفظته في ذاكرتها من مضمون اللقاء الذي وصفته لوكيل الخارجية العراقية بانه لقاء

مهم وناجح ، وكانت فَرِحة مثل طفلة لأن الرئيس قد تفرغ لمقابلتها على مدى ساعتين في لحظة حاسمة من التطور السياسي في المنطقة .

□ □ □

كان السيد طارق عزيز قد طار الى الاسكندرية ليجتمع مع الرئيس حسني مبارك ، يوم الثاني والعشرين من تموز (يوليو) ، ثم ينضم في اليوم التالي الى قمة مصرية ـ اردنية جمعته الى جوار الملك حسين والرئيس حسني مبارك .

وفي الرابع والعشرين من تموز (يوليو) اجرى الرئيس صدام حسين اتصالا هاتفياً مع الرئيس علي عبدالله صالح ، وتوجه مبعوث من الرئيس العراقي الى قطر والبحرين ليسلم اميريها رسالتين حول الوضع المتفجر بين العراق والكويت .. وفي تلك الاثناء كان الرئيس حسني مبارك قد وصل بغداد في زيارة لم يكن احد ليدري انها ستكون الاخيرة قبل انهيار العلاقات المصرية ـ العراقية ..

وثار جدل واسع بين بغداد والقاهرة حول وقائع هذا اللقاء ، « الذي جرى في قصر القادسية ، الذي دُمِّر في اولِ ضربة جوية على بغداد فجر ١٧/١/١٩٩١ » إذْ اشاع الرئيس المصري انه حصل من الرئيس صدام حسين على وعد بعدم استخدام القوة مع الكويت ، لكن الرواية العراقية تذهب الى غير ذلك ، وتستشهد بالحضور من اعضاء الوفدين وعددهم ستة عشر شخصاً ..

فقد استفسر الرئيس حسني مبارك حول الحشد العسكري العراقي في الجنوب وإنْ كان العراق ينوي استخدام القوة مع الكويت فأبلغه الرئيس صدام حسين ان العراق لن يلجأ الى استخدام القوة في انتظار ما سيسفر عنه لقاء جدة ، واوصى الرئيس العراقي ، مستمعه المصري ، بعدم طمأنة الكويتيين حتى لا يكون ذلك سبباً في اتخاذهم موقفاً متشدداً خلال لقاء جدة .

لكن الرئيس المصـري ، الذي طار الى الكـويت ، ذهب ليبشر الشيـخ جابـر الاحمد وولي عهـده بـان « العـراق لن يستخـدم القوة » ، دون ان يوضح لهما ان عدم استخدام القوة مؤجل حتى لقاء جدة ومقترن بما سيخرج به الوفد العراقي من هذا اللقاء .

يؤكد الرواية العراقية ، نص ورد في محضر لقاء الرئيس صدام حسين مع سفيرة الولايات المتحدة ابريل غلاسبي ، الذي جرى بعد يوم واحد من مغادرة الرئيس المصري بغداد وقبل سبعة ايام من دخول القوات العراقية الى الكويت ، وقبل ستة ايام من لقاء جدة .

اذ روى الرئيس صدام حسين في نهاية اللقاء تفاصيـل زيارة الرئيس المصري الى بغداد على النحو الآتي :

« قال لي الاخ مبارك ان الكويتيين خائفون ، ويقـولون يوجـد عسكر على بعد عشرين كيلو متراً من خط الجامعة العربية ، فقلت له : بغض النظر عما يوجد ، سواء أكان الموجود شرطة أم جيشاً ، وكم عدد الموجود ، وماذا يفعل .. طمئن الكويتيـين .. ونحن من جانبنا لن يحصل شيء الى ان نلتقي معهم .. وعندما نلتقي ونرى ان هنـالك املا ، لن يحصـل شيء .. وعندمـا نعجز عن ايجـاد مخرج ، فأمر طبيعي ان لا يقبل العراق ان يموت .. »

والتقط الكويتيون الاشارة الخاطئة ..

وعنـدما زار الرئيس الفلسـطيني ياسر عـرفات الكـويت يوم ١٩٩٠/٧/٢٩ قادماً من بغداد ، تيقّن ان الانفجار مقبل ، وان الكويتيين التقطوا اشارات خاطئة ، حول استبعاد لجوء العراق الى استخدام القوة في جانب ، كما حصلوا على تشجيع ما في جانب اخر ، مما يجعلهم يتشددون عشّية ذهابهم الى اللقاء الحاسم في جدة .

كان الرئيس ياسر عرفات حريصاً على منع الانفجار الكبير ، فطار من بغداد الى الكويت ليقابل يوم ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٩٠ الشيخ جابر الاحمد ..

تحدث الرئيس عرفات بصراحة ليضع امير الكويت في صورة ما رأى ببغداد ، واوضح له ان العراق جاد في الحصول على حقوقه التي يطالب بها ، وان عليه ان يتعامل بجدية تامة مع ما تقوله بغداد وخاطب الامير الذي كان يصغي بدون تعليق :

ـ انني حريص على الكويت ، وانتم تعرفون موقفي وعمق علاقتي معكم ، ولابد لي ، من موقف الحرص عليكم ، ان انقل لكم صورة حقيقية عن الوضع الخطير الذي آلت اليه العلاقات بينكم وبين العراق .

لم يجد الرئيس عرفات اي صدى لدى الامير لكلامه وهو ينقل اليه بعبارات محددة ، انذاراً لا يقبل التأويل .

لم يسمع غير كلمات شاحبة :ـ لن نقبل ما تطلبه بغداد ..

وخرج من مكتب الامير ، ومعه بعض الامل بأن يحصل من ولي عهده على ما بخل به عليه الامير ، فتوجه لمقابلة الشيخ سعد العبدالله ولي العهد وذكره على الفور بالعلاقة التقليدية العميقة التي تربط الفلسطينيين به .

فقد نشأت بينه وبين فلسطينيي الكويت علاقات من التنسيق على مدى عشرين سنة ـ ولطالما لجأ سعد العبدالله الى عرفات وصلاح خلف وخالد الحسن وسليم الزعنون لمنحه الدعم السياسي في مواجهة التحديات التي تثيرها الاطراف المنافسة في العائلة الكويتية الحاكمة .

قال عرفات لسعد العبدالله :ـ انك ذاهب غداً الى جدة لملاقاة الوفد العراقي ، فإياك ان تذهب صفر اليدين .. ان عليك ان تأخذ شيئاً بيديك .

مضى عرفات ليكون اكثر وضوحاً في مخاطبة مضيّفه :ـ إياك ان يضحك عليك اولاد جابر ، (في اشارة الى الامير واخيه صباح الاحمد نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك) ..

لكن عرفات اكتشف ان كلامه لم يلق تجاوباً من صديق

الفلسطينيين القديم ، فجمع مرافقيه وتوجه الى المطار مهموما ، وشعر مستقبلوه في تونس انه كان متشائما ، يائسا من امكانية العثور على حل لأزمة مقبلة على الانفجار لا محالة .

عندما سأله مساعدوه إنْ كان يتوقع ان يتحقق في لقاء جدة حل للخلافات اجاب ببطء : لا اعتقد .

□ □ □

وروى لي الملك حسين أنه بذل محاولة أخيرة مع الحكومة الكويتية نهاية شهر تموز ١٩٩٠ (يوليو) عندما كان يحاول منع وقوع الانفجار .

ـ رأيتُ الجو متوترا فقررت القيام بزيارة قصيرة الى بغداد والكويت ، وقلنا للكويتيين ان لقاء جدة المنتظر مهم للغاية ومن الضروري حل المشكلة سواء أكانت تتعلق بالحدود أو بالمديونية ، وكنتُ صريحا معهم ، وذكرْتهم اننا خلال انعقاد القمة الاسلامية في الكويت كنا نستمع الى اصوات الصواريخ والمدافع تتردد من جنوب العراق حيث تدور معارك طاحنة كلفت العراقيين ضحايا كبيرة وكان الخطر ماثلا أمامكم .

وأشار الملك حسين ان الكويتيين قالوا له :

ـ نحن نعرف ان الديون لن تعود .

فقال الملك :

ـ لماذا لا تسامحوهم بها اذن .

أجاب امير الكويت :

ـ ان بقاء الديون يخدم العراق اقتصاديا ويساعدهم ماليا على أساس إظهار حاجتهم الى القروض الدولية والمساعدات .

فعلق الملك حسين :

ـ انني لا أفهم هذا المنطق وأنا غير مقتنع به .

وجرى نقاش موسع وصريح بين عاهل الأردن من جهة وأمير الكويت وولي عهده ووزير خارجيته من جهة اخرى ، بعد أن تناهت الى مسامع الملك حسين معلومات ، كانت قد وصلت من قبل الى المسؤولين العراقيين ، عن اجتماع حضره الشيخ سعد العبدالله مع العسكريين الكويتيين ابلغهم فيه ان واجبهم هو تأخير اي تقدم عسكري عراقي لمدة ٢٤ ساعة حتى يحصل التدخل العسكري الامريكي .

قال الملك :

- ان عليكم ان تكونوا مرنين في موضوع الحدود وأنتم ذاهبون لملاقاة العراقيين في جدة .

هنا إنبرى الشيخ صباح الاحمد وزير الخارجية الكويتي ليقول :

- إننا لن نتنازل حتى عن شبر واحد ، فدستورنا لا يسمح لنا بذلك .

فعلق الملك حسين :

- نحن في وضع القدس فيه محتلة ، فكيف لا نتخلى عن شبر من الأرض إذا كان ذلك يُغنينا عن مشكلة جديدة .

وجاءته اجابات الكويتيين تتداخل مع بعضها البعض :

- اذا كان العراقيون يريدون أن يدخلوا ، ليدخلوا .. فسيأتي الامريكان ليخرجوهم من الكويت ..

□ □ □

لم تنزع جهود القادة العرب الفتيل من قنبلة اقترب موعد انفجارها .

اذن كانت هناك حاجة لمن يستطيع الجلوس امام بغداد لعقد صفقة شاملة تنزع الشعور بالخطر من اذهان العراقيين وتكفل لهم ضمانات لاعادة البناء وتوفر مستلزمات ثبات الوضع القائم

جغرافيا وسياسيا في الخليج . وضمان تدفق النفط باسعار متوازنة ..

.. ولذلك كان هناك من يتحدث عن امكانية قيام وزير خارجية الولايات المتحدة جيمس بيكر بزيارة تاريخية الى العراق .

وكانت هناك أكثر من فرصة لنجاح مثل تلك الزيارة ـ لو انها وقعت فعلاً ـ ومن ذلك ان العراق حرص على عدم المس بوزير الخارجية بل على العكس سبق للقيادات العراقية ان اشادت به واظهرت رغبتها في التعاون معه .. ثم ان واشنطن كانت تملك اكثر الاوراق حسماً عشية الانفجار ، فهي الطرف الذي يوفر الحماية والتشجيع للكويت ، وتستطيع ان تحدد اتجاهات الموقف الكويتي في لقاء جدة ، وهي الجهة المعنية بمسألة اسعار النفط وسياسة زيادة الانتاج ، وهي الدولة التي تستطيع وحدها ان تبرهن للعراق زوال احتمال تعرضه للضربة الاسرائيلية التي كانت بغداد تتوقعها في أية لحظة ، وهي ايضاً القوة الدولية الاهم المعنية بالتعامل مع انتشار اسلحة الدمار الشامل في الشرق الاوسط .

ثم ان بغداد كانت ستفضل التعامل مع السيد لا مع التابع في موضوع الكويت واسرائيل .. اذن ماذا لو زار الوزير جيمس بيكر بغداد يوم ٢٨ او ٢٩ تموز «يوليو» ١٩٩٠ ..؟ماذا لو جاء وبدأ الحوار الشامل الذي يبدد الشكوك ويقدم الضمانات ؟

الجواب المحتمل عن هذا السؤال الافتراضي: أن بيكر كان قد جاء لو كانت الولايات المتحدة راغبة فعلاً في منع وقوع الانفجار.. لكان بدأ عصر آخر في المنطقة.

ومنذ اعلان العراق شكاواه من مواقف الكويت وسياساتها ، لم تعمد الادارة الامريكية الى الاتصال بالعراق ، بل كانت مواقف واشنطن تعلن عبر وسائل الاعلام مباشرة دون ان يسبقها مرور عبر قنوات الاتصال الدبلوماسية التي اعتاد الطرفان ان يخاطبا

بعضهما من خلالها على مدى السنوات الست الماضية منذ اعادة العلاقات الدبلوماسية سنة ١٩٨٤ .

وكان أكثر مايثير حساسية القيادة العراقية ان يخاطبها طرف مقابل عبر وسائل الاعلام متجاهلاً الاتصال المباشر ، وقد وقع لقاء الرئيس صدام حسين سفيرة الولايات المتحدة قبل ٢ آب «اغسطس» والقائم بالاعمال الاميركي بعد ذلك التاريخ بناءً على طلب الجانب العراقي ومبادرته ..

وبدا أن واشنطن ـ التي اصدرت تحذيرين عبر وسائل الاعلام (تصريحا ريتشارد باودتشر وجون كيلي) وكأنها ترغب من الناحية العملية في وقوع الانفجار لامنع وقوعه ..

ولم تكن بين بغداد وواشنطن عشية الانفجار الكبير اية دبلوماسية وسيطة ، عبر اطراف ثالثة ، ورغم ان الاميركان بارعون في تحريك مثل هذه القوى الوسيطة في اللحظات الحرجة . عندما يكونون راغبين فعلاً في منع حصول تدهور في ازمة ما ، فلم يمنع حصول الانفجار في ازمة جزيرة الخنازير ١٩٦١ غير تحرك في لحظة ماقبل الصِدام ، قام به طرف ثالث لايتمتع بصفة حكومية . عندما اتصل دبلوماسي سوفيتي بصحفي امريكي وقدم عبره عرضاً لعقد صفقة سلام ، تقوم على الانسحاب السوفيتي مقابل ضمانة عدم غزو كوبا . وتولى الصحفي لاحقاً دور المكوك بيد الادارة الامريكية والسفارة السوفيتية حتى نضجت ظروف ممكنة للحوار المباشر والرسمي بين الطرفين ..

اما على جبهة الخليج فلم تكن ثمة دبلوماسية سرية خلف الكواليس بين اهم مركزين للمواجهة .. بغداد .. وواشنطن .. وتدافعت الاحداث .. في ممر لا أمان فيه ، ولا كابح .. وكأن المتنافسين كانوا متوجهين إلى معركة كبيرة.. بحجم ما سيقع □

نص المكالمة الهاتفية بين الملك فهد بن عبدالعزيز والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في ١٩٩٠/٧/٩

ـ كل الامور يوم اجانه بشارتي ، متفق عليها الا امر بسيط فهسة راح من عندنا جناب الموظف كال انا بأتصل بجماعتنا وارجع عليكم وانصلحّ الامور كتله دخلك يا لاجي خير حنا ما نبي مشاكل لا من بعيد ولا من قريب وحتى كبل لا يطلع كبل اسبوع كبل لا يصير حادث جلسة الغدا اللي اتحدثنا بي منها . اتصل بي (سعود الفيصل) وكال حنا يمكن نجتمع مرة ثانية ونحاول نصلح الامور كال لسعود بس كله ناخذ امرك يكفي والله ما ودنا نفترق ونفركت الجذور يكفينا اللي حصل حنا عمرنا كلنا لا الله يكفينا الشر من (اسرائيل) اللي بتهدد العراق والعراق يهددها ورجعنا الى سالفة (عبدالناصر) قبل سنة ١٩٦٧ .

حنا يا طويل العمر نبي نفكر .

الله يهديك ، الله يطول عمرك .. انت الله يسلمك كلك بركه ونحن نكول لك خذ طريقك وحنا وراك لانك ما تسير الا بجدا ..

\+ يا طويل العمر ما اسير الا بكم انتم ..

ـ الله يجزيك .

\+ حبيت اني اكول لك وكلت لـ هشام كول لكل اخوانك الوزراء الا ياخذون اللي كاله الوزير العراقي بشكل او بآخر . العراق مبليّه الان بينها وبين (اسرائيل) موقف حساس وكل يوم خايفين من شيء وكال الوزير العراقي تلفظ بعض الكلمات ما بيها معنى ، لكن المهم ان هذه الشهرين ننتظم فيها وتمشي الامور . خاصة بعد ما تهدأ الامور ونمشي بخط دفاع ، عندنا شهرين انا كدول خليجية نلتكي بعضنا البعض ونرتب امورنا بترتيب ، والعراق نفس الشيء فالته اعصابهم الان بيتكلمون بشكل او بآخر فاقدين اعصابهم . وتعرف طال عمرك ان اذا فقد الانسان اعصابه حتى كلامه يكون غير موزون .

ـ صحيح والله غير موزون كلامهم غير موزون .

\+ حنا والله ما نبي طويل العمر .

ـ اشهد انه غير موزون .

\+ والله ما نبي ندخل مشاكل مع (اسرائيل) ولا نبي ندخل مشاكل مع ايران .

ـ حشا اي والله .

\+ لكن يا طويل العمر حنا كدول خليجية محسودين ، طيب هاليحسدونا وينهم عنا يوم كنا فقرا ما عندنا غير شجر وحجر والله انهم ما كالوا اخواننا ما عدهم شيء .

ـ لا .

\+ ويوم صار عندنا شيء ما كصرنا عليهم .

- ما عرفونا الا يوم كان عندنا شيء والا يوم ما عندنا شيء ما عرفونا .

+ يوم كنا نركب علق جيش ما كنا نلكي تمره ولا ثمن الكسيم ما حد نشد عنا وكال وين اخواننا .

- صح الله يطول عمرك .

+ يوم الله انعم علينا ما قصرنا عليهم .

- الله يحييك .

+ والله يا طويل العمر انا كل اللي اسعاله اخماد انفلات الاعصاب اذا هدأت الاعصاب بالنسبة للعراق امكن التفاهم معهم وانت مقامك عند (صدام) ، انا والاخوان كلهم ، المهم اننا نفوت التوتر العصبي ، وانا طال عمرك انا كلت لوزيرنا انه يشوف زميله عندهم طال عمرك باجر وبدكم تصفوا الامور اتفقوا كلكم كوزراء خليجيين قبل اجتماعكم مع العراق وشوفوا بعضكم البعض واتحملوا لوكال العراقي بعض الكلام الشاذ ، هذولة ناس يا طويل العمر يبدولي انا ان مثل ما يكول (هبازة يحب دبازة) حطوا نفسهم في وضع بالنسبة لاسرائيل وشعليهم من اسرائيل بينهم وبين اسرائيل (٧٠٠) كيلو . المسألة يا طويل العمر لازم تؤخذ بالعقل وبالحكمة وبعُد النظر ،

- عز الله انك كلت الحق .

+ واما اخوانا في العراق يا طويل العمر وطبّوا وخلوّا انفسهم في متاهات .

- اي والله .

+ هالمشاكل اللي دخلوا فيها ، عبدالناصر دخل بيها ما عاد طلع .. كيف تحارب العالم كله .

- بيني وبينك اكلك انه زادهم بعد الفلسطينيين ، زادهم على ما فيهم .

+ المثل يكول زايد يا داعج العينين بالبال ما يهمه خبيث النفس من طيبه .

- اي والله .

+ الله يهدي ابو عمار والله يا بو سجر انعنت الامور ، كلنالهم لاخواننا الفلسطينيين يا اخوان ، عليكم نعمل مجهود حتى الضفة الغربية وغزة لا تروح ، واذا اخذناها وجيتوا فيها ذاك الوقت اذا كان عند العرب قوة ويتحدوا لبعضهم ما احد مراعينا نسوي شيء لكن لا تروح الضفة الغربية وغزة بالحجي .

- هذه المصيبة .

+ لازم تبصروا الامور تبصير وتفكير بعيد المدى ونواجه عربنا ودول اوربا وامريكا . شوفوا الاتحاد السوفيتي منو جان يفكر يوصل الى ما وصل اليه بالاتفاق مع امريكا .

- اصلا اشياء ما يحلم الانسان بيها .

+ يا طويل العمر هذا اللي خلانا نكول لوزيرنا بدك تشوف زملاءك الخليجيين حتى لو كال العراق بعض الكلمات الشاذة كأنها لم تكن . المهم اننا نفوت هالشهرين بطريقة منتظمة مفيدة وبناءة وتوكد انه اذا صدر منا بيان بترولي يطلع على طول لانه متوقعين الخلافات ، اتصور يا طويل العمر لو انا عقدنا مؤتمر قمة حنا يا دول الخليج وانتوا موجودين عند اخوانا الآخرين اعضاء الخليج يعني اللي نكولو اخوانه الاخرين انتو ما لكم

قيمة ، القيمة اللي عندنا احنا ندبركم .

ـ لا ما يجوز .. لا يجوز .

+ احنا كمبدأ اذا كانت عندهم الفكرة هذه اول كلت يا اخوانا ما يجوز خلو وزراء البترول يجتمعون ويتناقشون مع بعضهم واذا كان في بعض الامور اجتمعوا وزراء البترول ووزراء الخارجية والمالية في كل دولة وناقشوا كل الامور من جميع الزوايا السياسية والمالية والاجتماعية والبترولية .

ـ صح الله يرضيك .

+ في ذاك الوكت يمكن تفكرون بمؤتمر قمة ، لكن لا تفرضون نعقد مؤتمر قمة ونفشل .

ـ الله يحييك .. الكويت .

+ يمكن اخوانا العراقيين وافقوا على ان يصرف النظر عن مؤتمر القمة .

ـ الحمد لله .

+ ويجتمعون وزراء البترول ان شاء الله كل الامور تصير ، وانا جيت اكلمك عن هذا الموضوع .

ـ دول الخليج ، سلمك الله ، انت كول كلمة كلهم ، وكلمة بدها تكون هي الاول وهي الاخير .

+ والله يا طويل العمر ما نبغا اي طريق غير طريقك اللي انت بتطبقه واللي انت تراه فيه اعتدال وفيه صواب .

+ الله بيحييك ويطول عمرك .. الله بيحيك ويطول عمرك .. يا طويل العمر الفتن ، الفتنة بسيطة شلون نشعلها بسيط لكن شلون نطفيها .

ـ واسرائيل يا طويل العمر الان هذا بلد الرقم الاول عدهم (٢٠٠) رأس نووي و(٤٧) قنبلة ذرية وناس مستميتين ، علينا وعلى اخواننا الفلسطينيين ان يسعون وحنا وياهم ، بس لازم ياخذون الضفة الغربية وغزة بأي شكل من الاشكال وما يكومون يتعصبون عكب تاخذها اسرائيل وتسويها حقيقة مستعمرات وتروح .

ـ نحصل لهم موقع وموقف مبدئي .. موقف وانحسم .

+ انت اعرف مني يا طويل العمر ، هالحين هل العرب متفقين كلهم .

ـ الا حشا لا .

+ يتفقون بعض الاحيان على اللي هم يبوه ، واذا خلصوا كأنهم ما يعرفونه ولا في آدم .

ـ ابد .

+ مثل ما تخربط ، يوم مؤتمر حك العراق الاول حلبونا حلب وبعدين كأنهم ما يعرفونا لحين عز الله يغتفر ونطلب السمحة .

ـ حنا العرب .. غدوا الدول العربية مثل الزئبق ، ان تجبره بعرضه يجيك .

+ على كل حال هاي تعطينا فكرة ما دام حنا يا دول الخليج منسجمين مع بعضنا .

ـ والله حنا ما عندنا طريق غير الطريق اللي انت تتبناها وتسير بيها .

+ الله يعطيك حك واذا ما تمانع ندز وزير بترولنا وانتوا الاربعة تجتمعوا لحالكم مثل قبل وترتبوا اموركم مع بعضكم وروحوا شاهدوا اذا اقتضى الامر .. ابن سعود الله طال عمره .

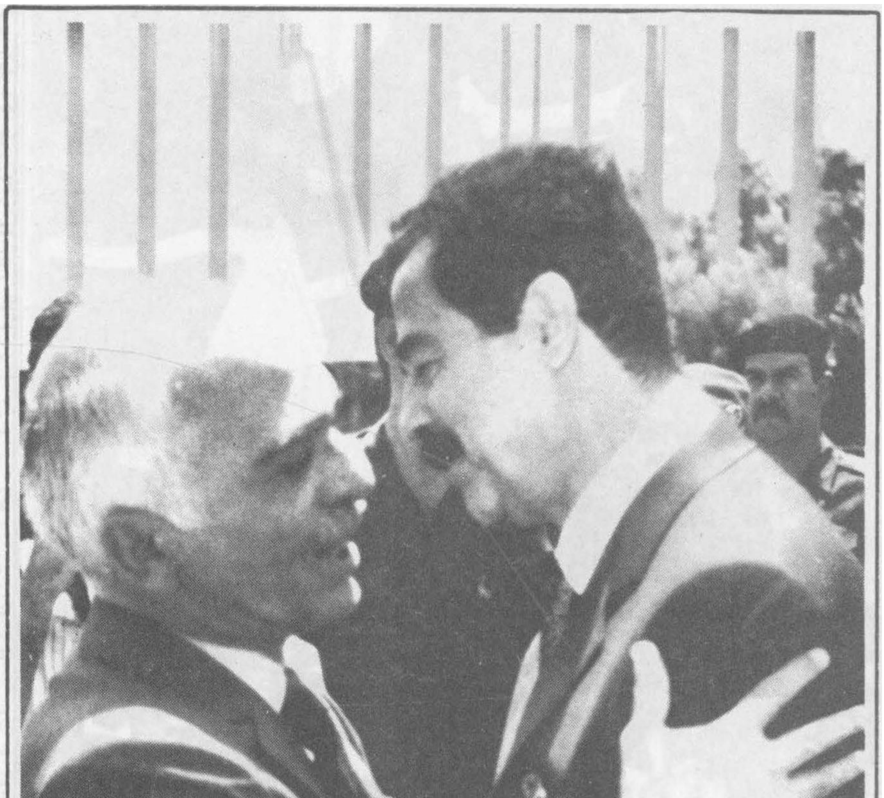
ـ عدل عدل ، انا وصيت وزير البترول عندنا ، ووزير البترول حككم موجود وكتله انه اللي يكوله الوزير السعودي انت تطبكه .

+ ان شاء الله الامور بخير بوجودك .

ـ الله يهديك .

+ شكراً يا طويل العمر .

ـ الله يهديك ، وان شاء الله دائما متوفق .



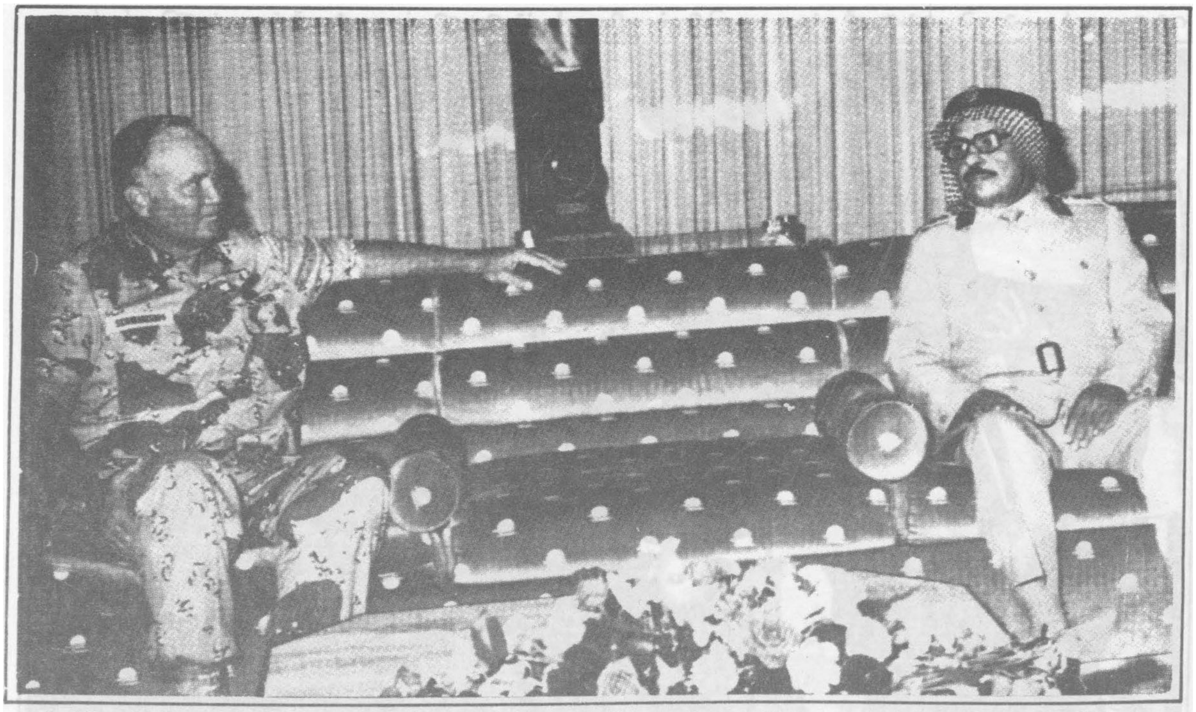
ـ الملك حسين والرئيس صدام حسين.. لقاء في بغداد بتاريخ ١٩٩٠/٧/٢٩.



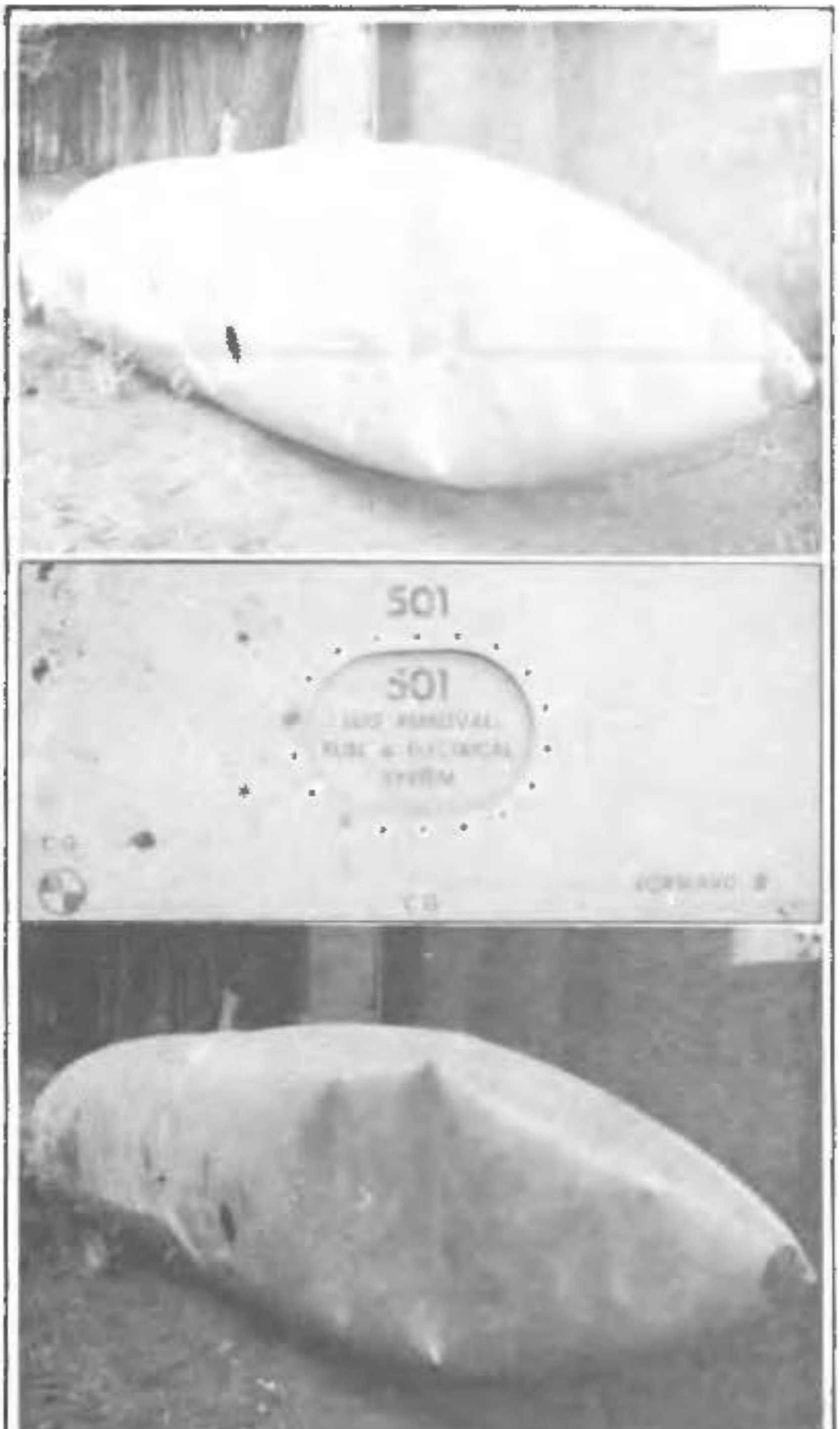
ـ اللقاء الاخير بين الرئيسين صـدام حسين وحسني مبـارك في بغداد .. بتـاريخ ١٩٩٠/٧/٢٤ .



الرئيس صدام حسين مع الرئيس علي عبدالله صالح ونائبه علي سالم البيض خلال مباحثاتهما في بغداد بتاريخ ٤/٨/١٩٩٠



ـ الجنرال نورمان شورازكوف يزور مقر الحرس الوطني السعودي في تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٩ ويجتمع مع الشخص الثالث في قيادة الحرس .



- حاويات وقود طائرات اضافي ، القت بها الطائرات الاسرائيلية غرب العـراق في نيسان (ابريل) ١٩٩٠ خلال قيامها بعمليات استطلاع واختراق للاجواء العراقية .

لقـــــاء جـــــدة

خرج الوفدان ، كلاهما متيقّن ان اللقاء قد فشل ، لكن الكويتيين طلبوا اصدار بيان مشترك يعلن نجاح اللقاء .

وصل السيد عزة ابراهيم الى جدة ليلقى استقبالا حاراً من الامير عبدالله ولي العهد السعودي ، الذي تعود على مخاطبة ضيفه بـ (ابو احمد) ، بعد ان بلغت العلاقة بينهما مستوى عميقاً من الصداقة ، والتآلف الشخصي ، بحيث حرص الامير عبدالله في احدى زياراته الى العراق على زيارة منزل السيد عزة ابراهيم في مدينة الدور (١٦٠ كلم شمال بغداد) ، وتناول الطعام على مائدته ، وهو امر اراد من خلاله ان يجسد صلة ذات طابع خاص كانت قد نمت مع كبار المسؤولين العراقيين ، حتى انه وجد نفسه اكثر المسؤولين السعوديين صلاحية للعمل على حل الخلاف المزمن بين دمشق وبغداد لما يربطه من علاقات وثيقة بقيادتي العاصمتين

انطلق موكب السيد عزة ابراهيم والامير عبدالله الى مقر اقامة الوفد العراقي في فندق قصر المؤتمرات في جدة ظهر يوم ٣١ تموز (يوليو) ١٩٩٠ ، بعد ان كان الوفد الكويتي برئاسة الشيخ سعد العبد الله قد وصل هو الآخر قبل ساعتين من وصول الوفد العراقي .

لم يخفِ الامير السعودي اظهار تفهمه لشكوى العراقيين من الكويت ، وهمس بمفرداته القليلة المتقطعة ليخبر ضيفه برغبته ان يُسوىٰ الخلاف في لقاء جدة ، مع تقديره وفهمه لمطالب العراقيين وحقوقهم .

يوم تقابل الوفدان كانت الحملات الاعلامية على اشدها ، بعد ان عرض كل من الطرفين موقفه في مذكرتين متقابلتين الى الجامعة العربية ، ولذلك فان اول خطوة سبقت القدوم الى جدة كانت ايقاف الحملات الاعلامية حتى يجري اللقاء في جو اقل توتراً ، وبالفعل

صدرت تعليمات عاجلة الى وسائل الاعلام ببغـداد بالتـوقف عن مهاجمة الاشخاص الكويتيين بالاسماء ، والاكتفاء بعرض مطالب العراق وشكاواه بالتحليل والوثائق والارقام والمعلومات .

□ □ □

عند الساعة الرابعة عصراً دعا الملك فهد الوفدين الى لقاء في قصر الحمراء ، واتخذ السعوديون تـرتيبات مـراسيمية تـومىء باعطاء الوفد العراقي القدر الاكبر من الاحترام ، لمعرفتهم مدى حسـاسية العـراقيين في حـالة مساواتهم بـالكويتيـين في طريقة التعامل ، واتاح قسم المراسيم ان يكون توقيت الحضور متتالياً ،

بحيث يدخل رئيس الوفد الكويتي اولا ، ثم يدخل الملك فهد بعد دقيقة واحدة ، ليكون الاثنان معاً واقفين عند دخول رئيس الوفد العراقي ، فيعانقانه ، وهو امر لم يكن السيد عزة ابراهيم يتمنى حدوثه مع الشيخ سعد العبد الله .

توسط الملك فهد رئيسي الوفدين ، وانحنى يهمس في اذن السيد عزة ابراهيم :

ـ كيف حال اخي الرئيس .. بلّغه تحياتي .

ثم مـا كاد ينتهي من همسـه حتى خاطب وزيـر اعلامـه علي الشاعر :

ـ لماذا يُظهـرون لك صورة افضـل من صورتي عـلى شاشـة التلفزيون يا علي ؟ .. يبدو انهم يجاملون وزيرهم ..

ضحك الحاضرون ، ثم لم يستمعوا من الملك فهد الى اية اشارة عن اجتماعهم ، عدا عبارة عامة قالها قبل ان ينهض من مكانه بعد جلسة استمرت ٤٠ دقيقة:

ـ يكون خيراً ان شاء الله ، وتلقون النجاح في اعمالكم .

□ □ □

عند السادسة مساء جرى اللقاء الافتتاحي في الطابق الارضي من فندق قصر المؤتمرات في جدة ، حيث جلس الامير عبدالله يتوسط الفريقين ، ولم يقل كلاما كثيراً كعادته ، اذ تمنى ان تجد المشاكل حلا لها ، ووصف الحال الذي بلغته العلاقات بين بغداد والكويت انه لا يعدو ان يكون غير مشكلة بسيطة ، وقبل ان يقترح بقاء رئيسي الوفدين معاً بعد ان ينسحب هو من الاجتماع ، نبّه مستمعيه من الوفدين الى ان الجو الرطب الوخم في مدينة جدة ينعكس ايجاباً على نضج التمور وطعمها ...

□ □ □

لقد قيل كلام كثير حول ما جرى في جدة ..

ذهب بعضهم يتحدث عن مشادات وقعت بين الوفدين، أو خلاف على مطلب عراقي حول عشرة مليارات دولار.

ورأى الدكتور سعدون حمادي الذي شارك في عضوية الوفد العراقي ، وهو يحدثني عن ما جرى ان هذه الروايات غير صحيحة .

ـ لقد كتبتُ محضر اللقاء بنفسي .. حصل اجتماعان رسميان ، الى جانب لقاء منفرد برئيسي الوفدين حضره الامير عبدالله الذي لم يمكث معهما طويلا ، واستغرق ذلك اللقاء ٢٠ دقيقة ، قبل ان يلتحق الوفدان بالاجتماع .

ويضيف : ان الوفد العراقي شرح بالتفصيل كل ما عَدّه تآمراً من حكومة الكويت على العراق ، وما ترتب عنه من اضرار ونتائج :

ـ لقد انكروا هم في المقابل ما وجهنا اليهم من اتهامات ، ولم تحدد من قبلنا اية مطالب مالية حتى يرفضوها هم ، لكننا اعدنا

عرض ما قاموا به من زحف تدريجي لقضم الارض باتجاه الحدود والتوسع على حسابنا ، واوضحنا لهم حجم الاذى الذي لحق بنا من خلال اعتمادهم سياسة الاستنزاف الاقتصادي وسحب النفط من حقل الرميلة العراقي .. والغريب ان اية مرونة لم تظهر في موقفهم ، ولا استجابوا لما طرحناه ولا اعترفوا لما قاموا به ، وبدا موقفهم متعنتاً ، رافضاً بالكامل ، ولم يسعوا حتى الى حل وسط .

لقد حصل ما عدّه العراقيون تجاوزاً للخط الاحمر ..

فأول امر راقبوه هي اللغة التي ينبغي ان يتحدث بها الاصغر مع الاكبر ، والمعتدي مع المعتدى عليه ، وكان فحص لهجة الكويتيين واسلوبهم مفتاحاً لمعرفة نياتهم ، وتحديداً ، اكتشاف ما اعدوه فعلا مع الامريكان في الاسبوع الاخير بعد ان هبط في مطار الكويت سبعة ضباط امريكان ، واقتربت من السواحل الكويتية قطعتان حربيتان امريكيتان ، وبعد ان لوّح وزير الخارجية الكويتي بتدويل الخلاف ونقله الى مجلس الامن .

واستنتج العراقيون من اللغة التي تحدث بها الكويتيون نية الرفض المسبق والكامل ، بما يؤكد ان هناك من شجعهم قبل المجيء الى جدة على اتخاذ هذا الموقف .

اما العراقيون فقد مهّدوا لاجتماع جدة بتقديم وصف دقيق لما يطلبونه ، واستخدموا كلمات محددة لا تحتمل التأويل عندما خاطبوا ولي العهد الكويتي شخصياً ، على لسان ناطق حكومي ، كان يرد على تصريحات كويتية عدّت أن موقف العراق ينحو الى التهديد والابتزاز .

جاءت المفردات العراقية في (١٩٩٠/٧/٢٧) شديدة الحزم :

(ليعلم رئيس وزراء الكويت ان الذي يأتي الى اللقاء معنا ينبغي ان يكون مهيئاً لأزالة الاذى والعدوان الذي لحق بالعراق ، والاستجابة لحقوق العراق المشروعة .)

وبدا ان الرسالة العـراقية مـوجهة الى شخص رئيس الوفـد الكويتي اكثر مما تكون تصريحاً عابراً ، في الوقت الذي تحدثت صحف بغداد عن رفض العراق ان يكـون لقاء جـدة حفلة لجبر الخواطر وتبويس اللحى ، فاما ان يلبي اللقاء ما يطلبه العراق او يتولى اختيار طريق آخر لانتزاع حقوقه.

□ □ □

قال السيد عزة ابراهيم مخاطباً ولي عهد الكويت :

ـ ان سياسة زيادة انتاج النفط التي اتبعتموهـا قد اضـرت بالعراق كثيراً ، بعد ان كنتم قد تجاوزتم على اراضينا ، وسحبتم النفط من حقل الرميلة ، وامتنعتم عن فتح خط للنقل الجوي المدني العراقي عبر الكويت ، وهذا يدل على وجود سياسة مخططة لايذاء العراق والتآمر عليه .

كان ثمة خلاف غير معلن على موضوع ممر مدني للطيران يعرف بأسم الخط 19 R يسيطر على شبكة الطيران المـدني في منطقـة الخليج ، وكان يرتبط بمركز السيطرة في مطار البصرة قبل اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية ، الّا ان الكويتيين رأوا ان يتحول مركز السيطرة على هذا الممر الجوي الى مطار الكويت وان لايعاد الى مطار البصرة حتى بعد انتهاء الحرب ، لكن العراقيين كانوا يجدون في بقاء سيطرتهم على هذا الممر امراً شديد الحيوية لأمنهم الوطني بعد ان اكتشفوا ان طائرات اسرائيلية مسيّرة تسللت عبر مسار هذا الخط للتجسس على القوات العراقية سنـة ١٩٨٦

ولفت رئيس وفد العراق انتباه الشيخ سعـد العبدالله الى ان اللقاء ينبغي ان يعتمد فحوى المذكرة العراقية الموجهة الى جامعة الدول العربية حول التجاوزات الكويتية ، بدل الهروب الى طريقة اخرى في عرض الاولويات ، اذ ان كل شيء يريده العراق موجود في هذه المذكرة .

وعنـدمـا حان موعـد صلاة المغرب طلب رئيس وفد العراق سجادة الصلاة فجلبها أحدمرافقيه فقام يؤدي الصلاة في جانب من الطابق الأرضي بفندق قصرالمؤتمرات.

كانت اجابات رئيس الجانب الكويتي على النحو الآتي :

ـ اولا : لا ينبغي جعل المذكرة العراقية الى جامعة الدول العربية اساساً للمحادثات .

ـ ثانياً : ان الكويت حرة في رفض طلب فتح خط جوي للطيران المدني العراقي عبر اجوائها .

ـ ثالثاً : رفض الطلب العراقي باسقاط الديون والتعويض عن النفط المستخرج من حقل الرميلة .

ـ رابعاً : ان الكويت رغم انضمامها الى الاتفاق الخماسي الذي وقع عليه وزراء النفط في جدة للالتزام بحصص الانتاج المقررة في منظمة اوبك ، فانها تتحمل خسائر من جراء تخفيض انتاج النفط .

□ □ □

خرج الوفدان ، كلاهما متيّقن ان اللقاء قد فشل .. لكن وكيل الخارجية الكويتية يومئذ سليمان ماجد الشاهين اتصل بالدكتور سعدون حمادي وطلب ان يصدر بيان مشترك يعلن ان الطرفين توصلا الى نتائج ايجابية ، وان الاجتماع قد نجح .

استغرب الدكتور حمادي وقال :

ـ كيف نُصدر مثل هذا البيان لنعلن عن نجاح غير موجود .. المحادثات فاشلة كما تعرف .. فهل نكذب على الناس ؟ .

عاد الدكتور حمادي لمقابلة رئيس الوفد العراقي ونقل اليه الطلب الكويتي واتفق معه ان يعود ليبلغ الشاهين :

ـ ليُصدر كل وفد ما يشاء من بيانات .

□ □ □

عند الساعة التاسعة والنصف مساء ، التقى الجميع آخر مرة في دعوة عشاء اقامها الملك فهد ، استمعوا خلالها الى كلمات التمني وقصص الماضي وهموم الصيد .

□ □ □

صباح ١/٨/١٩٩٠ .. توجّه السيد عزة ابراهيم لزيارة المدينة

المنورة ، ثم ليؤدي صلاة الظهر قرب قبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، قبل ان تنطلق به الطائرة من هناك عائدة الى بغداد ، التي وصلها عند الخامسة مساء ، وحين ذهب الى منزله كانت وسائل الاعلام العراقية تذيع تصريحاً للدكتور سعدون حمادي جاء فيه : « رداً على سؤال مندوب وكالة الانباء العراقية حول حصول اتفاق ام لا في المباحثات :

ـ كلا لم يحصل اتفاق على اي شيء لأننا لم نلمس من الكويتيين اي جدية في معالجة الضرر البليغ الذي لحق بالعراق جراء تصرفاتهم ومواقفهم الاخيرة ضد مصالح العراق الاساسية » .

□ □ □

عند الساعة العاشرة من مساء الاول من آب (اغسطس) ١٩٩٠ بدأ وصول عدد محدود من اعضاء القيادة العراقية الى احد المقرات التي تُعقد فيها بين حين وآخر اجتماعات القيادة ، كان الجميع متلهفين للاستماع الى التقرير الذي سيقدمه نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، عزة ابراهيم ، عن لقاء جدة ، بعد ان اكتمل وصول طه ياسين رمضان ، النائب الاول لرئيس الوزراء آنذاك ، وطارق عزيز ، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، ولطيف نصيف جاسم وزير الاعلام آنذاك ، واحمد حسين ، رئيس ديوان الرئاسة آنذاك ، وحسين كامل حسن المشرف على التصنيع العسكري ، وحامد حمادي سكرتير رئيس الجمهورية ، وعبد حميد محمود، سكرتير الرئيس ومرافقه.

وكان عزة ابراهيم الوحيد الذي يرتدي الزي المدني آخر الواصلين فاتخذ مكانه على يمين الكرسي الذي يجلس عليه الرئيس صدام حسين .

كل شيء كان يدل على ان العراق مقبل على مواجهة كبيرة ، امامه فيها خياران : احدهما هو ان يتخذ موقف الدفاع ، والاخر هو ان

يلجأ الى الهجوم ، وكانت آخر التقارير التي اطلع عليها اعضاء القيادة بموجب معلومات رصدتها مصادر المخابرات والاستخبارات العسكرية ، ومررتها الى العراق جهات عربية ودولية ، هو ان اسرائيل قد انتهت من تحديد المواقع التي ستهاجمها طائراتها ، وان قرار مهاجمة العراق قد اتخذ اسرائيلياً بمعرفة الامريكان ورضاهم ، وكان من بين الاهداف المجددة مهاجمة القصر الجمهوري ، ومقرات القيادات العسكرية ، ومنشآت استخراج النفط وتكريره ، ومحطات التحميل ، والمطارات ، ومحطة الاذاعة والتلفزيون في الصالحية ، والمفاعل النووي في منطقة التويثة ، جنوب بغداد ، ولذلك كان طبيعياً ان تلتقي القيادة العراقية هذه المرة في احد المقرات غير المعروفة ، لانها تعقد اجتماعها تحت هاجس التهديد بوقوع ضربة في اية لحظة .

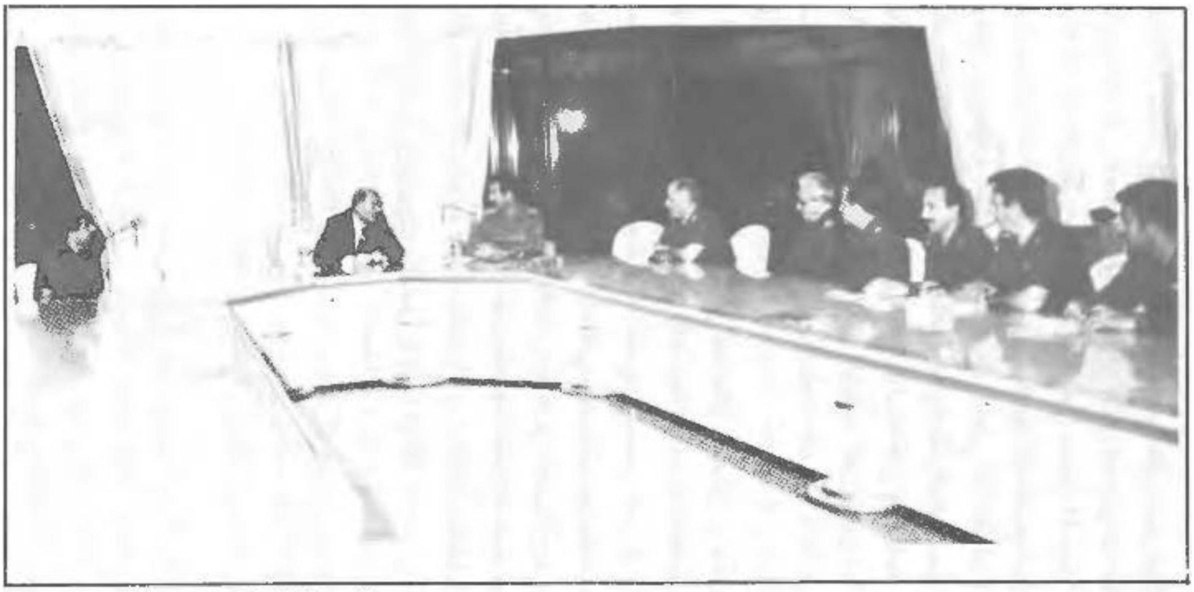
قدم السيد عزة إبراهيم عرضاً لما دار في جدة خلاصته: رفض الكويتيون مطاليب العراق كافة ، وانكروا حقوقه التي تضمنتها مذكرته الموجهة الى الجامعة العربية ، وبدوا في جدة متشددين رافضين اكثر من اي وقت مضى ، بما يؤكد المعلومات السابقة التي حصل عليها العراق عن تشجيع امريكي للحكومة الكويتية برفض مطاليبه والتشدد ازاءها ، على العكس من الانطباع الذي خرج به بعض المبعوثين العرب الذين زاروا الكويت ، عدا الملك حسين والرئيس ياسر عرفات ، اللذين تلمسا مبكراً منطق الرفض الكويتي للبحث في مطاليب العراق .

كان الطاقم الذي اجتمع حول الرئيس صدام حسين هو نفسه الذي عاين للمرة الاولى ملف الكويت في نهاية شهر حزيران (يونيو) ١٩٩٠ . لاول مرة ، بعد اقل من شهر على انتهاء مؤتمر القمة العربي الاستثنائي في بغداد .

هذه المرة كان على المجتمعين ان يصادقوا على اخطر قرار واكبره في تاريخ العراق المعاصر ، وهو القرار الذي لم يكن قد اطلع عليه غير ثلاثة عدا الرئيس هم (السيدان علي حسن المجيد وحسين كامل حسن وقائد الحرس الجمهوري الفريق اياد فتيح الراوي) .

وقبيل منتصف الليل كان القرار قد اعطي الى القوات العراقية للمباشرة بالعبور في الساعة الثانية فجراً بالتوقيت المحلي ، واعد المجتمعون بياناً مقتضباً تقرر عدم اذاعته قبل الساعة الثانية فجراً ، في اللحظة التي يكون فيها الجنود العراقيون قد باشروا مهماتهم ، في عملية اطلق عليها اسم « النداء » ... وجاء في البيان :

(لقد اتضح للسيد الرئيس صدام حسين .. ومن حضر اللقاء بأن الوفد الكويتي .. لم يأت بما هو جديد لمعالجة الغبن والتجاوز الذي الحقته حكومة الكويت بشعب العراق وبأرض العراق .. وان الروح والعقلية التي تصرّف بها وفد حكومة الكويت ، تعزز قناعة العراق بالدور التآمري الذي قامت وتقوم به حكومة الكويت ضد العراق ، وان قبولها للقاءات مع من يمثل العراق ما هو الا واحدة من وسائلها التي اعتمدت عليها في كسب الوقت، للإمعان بالتخريب والتآمر، والإيذاء) □



ـ اجتماع القيادة العراقية ليلة ١/٨/١٩٩٠ الذي اعطت فيه الضوء الاخضر لعملية الدخول الى الكويت .

عقيد حكومة مؤقتة

لم يلحظ الامن الكويتي ولا الشرطة العسكرية السرية اي نشاط سري لعلاء حسين علي ، فهو بطبيعته مقل في الكلام ، يلوذ بالصمت ، يستمع اكثر مما يتحدث ، مولع بقراءة كتب التاريخ ، متدينّ ، حذر ، قليل الاصدقاء .

عند التاسعة والنصف ، من صباح الثاني من آب ١٩٩٠ كان قد اذيع من بغداد نداء حكومة الكويت الحرة المؤقتة الذي يعلن وقوع «انقلاب» في الامارة ، ويطلب مساندة عسكرية من العراق . وبعد خمس ساعات كان البيان نفسه قد اذيع من محطة اذاعة جديدة غطى بثها شمال الكويت وجنوب البصرة ، وظهرت لاول مرة اصوات لم تكن معروفة لمذيعين بدا واضحا انهم ليسوا محترفين ، وهم يرددون بين اغنية الله اكبر المصرية الشهيرة التي تقترن بحرب السويس ١٩٥٦ والمارشات العسكرية اعلان «هنا اذاعة حكومة الكويت الحرة المؤقتة» ونداءات من نوع : سقط قارون الكويت ولن يعود الى الابد .. لكن المفارقة ان الاذاعة كانت قد بدأت بمعونة فنية عراقية دون ان تكون حكومة الكويت الجديدة قد تشكلت ، وبالاحرى لم تكن ثمة حكومة في الكويت . فحكومة آل صباح لم تعد موجودة بعد الساعة الخامسة فجراً ، والحكومة البديلة لم تتكون بعد ، وكان على كويتيين ناقمين على آل صباح وعراقيين سبق لهم العيش في الكويت ان يتحدثوا من الاذاعة الجديدة .

□ □ □

قبل ساعة واحدة فقط من اذاعة اول بيان من اذاعة بغداد ، كان شاب اسمر ، نحيل ، قد ارتدى ملابسه العسكرية الكويتية ، وهمّ بمغادرة منزله في منطقة (العمُيرية) في الكويت ، فتشبثت به امه وطلبت منه عدم الالتحاق بمعسكره حتى ينجلي الموقف . لكنه كان عازماً على الخروج ، وتعجل الحركة في وقت كان معظم سكان تلك المنطقة التي تضم ذوي الدخل المحدود مستسلمين لساعة النوم الاخيرة ، ولم ير الضابط الكويتي الشاب غير بضعة صبيان خارج عتبات دورهم في الشارع الذي يقع فيه منزله ، في حين كان اطفاله الثلاثة (سعد وهدى ومحمد) يغطون في نوم عميق مبعثرين حول أمهم ، عراقية الاصل ، فهم جميعا دون سن الدراسة الابتدائية ، ولم يكن هناك ، ما يحتم عليهم ان يصحوا مبكرين في صباح ٢ آب ١٩٩٠ .

ولم يعد الضابط الشاب علاء حسين علي الى منزله ثلاثة ايام ، قبل ان تستمع امه وزوجته يوم السبت الرابع من آب (اغسطس) ١٩٩٠ الى بيان من اذاعة بغداد واذاعة حكـومة الكـويت الحرة المـؤقتة يعلن ان عـلاء حسين عـلي . صار رئيسـاً لوزراء هـذه الحكومة ، وقد حمل رتبة عقيد ، ليقود طاقماً من ضبـاط شبان شكلوا حكومة مؤقتة ، وكانت صورته واسمه يومئذ ، اقـرب الى صورة العقيد معمر القذافي واسمه عندما ظهر مترددا اول مرة في تاريخ بلاده في اول ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ . فرتبة عقيـد كانت كافية في بلد من العالم الثالث لضابط مغامر لكي يستولي على الحكم ويدير طاقماً مساعداً لادارة شؤون بلاده . واستعجلت الصحف الغربية ، وبعض وزراء حكومة آل صباح لان تعلن من منفاها ان علاء حسين علي ، هو صهر الرئيس صدام حسين ، دون ان يخطر ببال احد ان علاء هو ضابط كويتي ، من مواليد منطقة النقرة في الكويت سنة ١٩٥٨ ... وانتقل في بواكير طفولته مع والديه للسكن في منطقة «الشرق» التي يقطنها السكان الاقـل دخلا ، ثم تلقى علومه في كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد ، ويعود باصوله الى عشائر شمر ، ولطالما تردد على زيارة بغداد ، بعـد ان اعلن لاصدقائه الكويتيين ومعارفه العراقيين ، ان العراق والكويت بلد واحد ، وان التحامهما هو الحل الوحيد للتخلص من «عـائلة آل صبـاح» التي لم يخف مـرات كثيـرة كـراهيتـه لهـا ، وقـد سر اصدقاءه : «اننا جميعاً مواطنون من الدرجة الرابعة ، وآل صباح هم المختارون في هذه الارض» .

ولم يلحظ الامن الكويتي ولا الشرطة العسكريـة السريـة اي نشاط سري لعلاء حسين علي ، فهو بطبيعته مقل في الكلام ، يلوذ بالصمت . يستمع اكثر مما يتحدث ، مولع بقراءة كتب التاريخ ، متدين يؤدي واجبات الصلاة والعبادة ، حذر ، قليل الاصدقاء ، يحب ان يختلي دائماً بعمه (ناصر الجبر) وهو شاعر وصحفي كان

يعمل بصحيفة القبس ، وكان يجده اقرب الى نفسه ، من عمه الاخر (جبر الجبر) وهو تاجر ثري ووكيل لاحدى شركات السيارات الامريكية في الكويت ،. وازداد حذره منذ عاد من بغداد سنة ١٩٨٢ يحمل شهادة الليسانس من كلية الادارة والاقتصاد بجامعة بغداد ، حيث التحق بالجيش الكويتي ضابطاً برتبة ملازم ، وأعطي سكناً في المنزل رقم (٣٧) القطعة رقم (٢) من منطقة العُميرية لذوي الدخل المحدود بمدينة الكويت ، وكان يحتفظ بعلاقة هادئة مع اخوته الخمسة الاخرين ، خالد وانور ، واحمد ، ومحمد ، وفيصل ، الذين اجتهد ابوه حسين مسؤول قسم الوسائل التعليمية بوزارة التربية الكويتية في الاعتناء بتربيتهم ، ثم ليرتب كل منهم مصدر عيش مستقل لنفسه ، وليؤسس طريقه المستقل في الحياة ايضا .. وبدت الطرق مفترقة بينهم ، ولم يتمكن احد من تفسير صمت علاء الذي طالما ارتبط بصداقات عميقة في بغداد ، لم يفهموها جيداً قبل ٤ آب (اغسطس) ١٩٩٠ عندما أُعلن ان علاء ، هو العقيد نفسه الذي ترأس حكومة كويتية مؤقتة ، اعلنت في وقت لاحق حل نفسها ، والالتحام مع الحكومة المركزية في بغداد ، بعد ان صارت الكويت محافظة عراقية تحمل الرقم ١٩ .

□ □ □

وكانت ولادة حكومة كويتية بديلة للحكومة التي يرأسها سعد العبدالله عسيرة متعثرة ، فقد جرت محاولات عدة لتشكيل حكومة مدنية تضم وجوها معروفة ، لكن استجابة الوجوه المدنية الكويتية ذات الصلات القوية بالعراق كانت غريبة ومضطربة .. وبدوا اشخاصاً مترددين خائفين .. ويبدو ان العراق لم يفاتح هذه الشخصيات في وقت مبكر قبل الثاني من آب لقياس مدى استعدادها للانضواء في حكومة بديلة لآل صباح بل اعتمد على استنتاج لروح العداء للعائلة الحاكمة - وماسعت هذه الشخصيات للحصول عليه من دعم لدى العراق في مقاومة آل صباح الذين كانوا قد احلوا مجلساً موالياً بدل مجلس برلماني منتخب سنة ١٩٨٥ ، ومن الواضح ان تكتم العراق على قرار

الثاني من آب كان السبب الاساس لتأجيل التنسيق السياسي المسبق مع معارضي آل صباح وتهيئتهم نفسياً وعملياً لقبول فكرة المشاركة في حكومة مدنية بديلة لاسيّما بعد تعثر محاولة جمع قادة المعارضة الكويتية ووجوهها الاجتماعية اواسط تموز (يوليو) ١٩٩٠ في بغداد لوضعهم في مناخ الخلاف الذي كان قد خرج بقوة الى العلن بين العراق والكويت .

وكان ابرز المرشحين للحكومة المدنية البديلة سياسيين وصحافيين ورجال اعمال من عوائل كويتية معروفة مثل (السعدون ، الرشيد ، الصانع ، الخطيب ، الصقر ، الرومي) .

كان من الممكن استقطاب عدد من الصحفيين والادباء لكنهم كانوا عند الثاني من آب بين مريض طريح الفراش ومسافر في اوربا انقطعت عليه سبل العودة .

وتعثرت محاولات تشكيل الحكومة البديلة لسببين . الاول هو تمكن الامير من مغادرة الكويت حيا . بعد ان افلت من عملية قتل او اعتقال مدبرة كان مقررا تنفيذها فجر الثاني من آب .. وذلك لخلق فراغ دستوري يفتح الطريق امام تشكيل الحكومة البديلة وكان يمكن القبول باي بديل لآل صباح لو تأكد الكويتيون انهم لن يعودوا . لكن بقاء الامير حيا واعلانه من السعودية عن فعاليات اعلامية وسياسية ترك كثيرين في الكويت في حالة تردد ازاء الانخراط في حكومة مدنية انتقالية ، والثاني ان العراق ، لاعتبارات امنية وسياسية ، لم يكن قد اجرى اي اتصال ذي طابع فني وعملياتي مع الشخصيات السياسية والاجتماعية الكويتية التي اقتصرت علاقتها بالعراق على مستويات من التضامن الفكري والسياسي والاعلامي . وعندما ولدت الحاجة اليهم لتشكيل البديل السياسي الذي طالما حلموا به ودعوا اليه ، ترددوا في ما عدّوه مغامرة غير مضمونة النتائج ، وجلس آخرون على التل يراقبون المشهد دون ان يقتربوا من حافاته الخطرة ، فضلا عن فشل

محاولات عدة لاقناع كويتيين كانوا في اوربا يوم ٢/٨/١٩٩٠ ، بسبب تعرضهم للضغط في العواصم التي اقاموا فيها ، بعد ان كانوا شبه مضمونين للقبول في حساب العراق .

هكذا جاء تشكيل الحكومة من عسكريين شبان يقودهم الضابط الكويتي الشاب علاء حسين علي ، الذي ظلمه الظهور مبكرا في لقاء تلفزيوني ببغداد ، وهو مايزال حديث عهد بممارسة العمل السياسي العلني وما يترتب عنه من خبرة وتمرّس ، وبدلا من تقديم صورة متماسكة لشخص مدرب ومتمرس ، آنذاك ، كانت النتيجة عكسية تماما ، لكن الظرف الضاغط على العراق يومئذ كان يتصل بالجدل الذي جرى في القاهرة بين رئيس الوفد العراقي طه ياسين رمضان ووفود مصر والسعودية والكويت ، الذين تحدوا العراق ان يقدموا شخصا كويتيا حقيقيا باسم علاء حسين علي ، بعد ان سرت شائعات بانه ليس غير ضابط استخبارات عراقي او انه احد اقارب الرئيس صدام حسين ، لذلك كان ظهوره وهو يتحدث على شاشة تلفزيون العراق احد الاجابات على جدل مؤتمر قمة القاهرة . في لحظة ذهول وترقب اصابت اقرب اصدقاء العراق من الكويتيين . بمن فيهم سعاد الصباح وهي شاعرة تحمل شهادة في الاقتصاد ، كانت قد بذلت آخر محاولاتها لمعرفة الاتجاهات المحتملة لتطور الامور حتى يوم الاول من آب عندما غادرت بغداد الى لندن حائرة يائسة لاتعرف في اي اتجاه ستمضي رياح العاصفة تلك الايام .

ولعلها كانت آخر شخص من (آل صباح) يخرج من بغداد قبل ساعات من فجر ٢/٨/١٩٩٠ .

□ □ □

كانت ابرز الاحداث التي أرخت عهد العقيد الشاب الذي تولى حقيبة وزارة الداخلية الى جانب رئاسة الحكومة المؤقتة ، ان علاء حسين ترأس وفداً كويتياً لملاقاة وفد عراقي يرأسه نائب رئيس

مجلس قيادة الثورة عزة ابراهيم يوم السبت ٤ آب (اغسطس) للتفاوض على المشكلات العالقة بين العراق والكويت ، وقرر العقيد في اليوم التالي تقليص حظر التجوال في الكويت بحيث صار مسموحاً التجوال بين السابعة صباحاً والسابعة والنصف مساء واجاز في قرار آخر السفر الى العراق عن طريق البر . ثم حذر جميع السفارات الكويتية في العالم من اي تصرف يخدم حكومة آل صباح التي كانت تتجمع يوم ذاك في مدينة الطائف السعودية . واصدر في السادس من آب (اغسطس) قراراً يقضي بمساواة قيمة الدينار الكويتي بالدينار العراقي ، ودعا العاملين في القطاع الحكومي للالتحاق بمؤسساتهم في الكويت ، واستقبل الرئيس صدام حسين يوم الثلاثاء السابع من آب (اغسطس) العقيد علاء حسين ومعه اعضاء حكومته المؤقتة . واشاد الرئيس العراقي بـ (الشبان الشجعان) . ولم يتردد احد من القادة العراقيين في اظهار المؤازرة لحكومة كويتية تحل على انقاض حكومة كانت مدعومة من البريطانيين ولذلك فان التبعية للعربي هي افضل بالعرف السائد بين العرب على التبعية للبريطانيين .

والغى العقيد نظام الامارة في الكويت واعلن بلاده جمهورية جديدة لم تلبث ان اندمجت في السابع من آب (اغسطس) مع العراق في (وحدة اندماجية) ليتحول علاء حسين من رئيس حكومة مؤقتة الى نائب رئيس وزراء في حكومة العراق ويصبح وزراؤه مستشارين بدرجة وزير في رئاسة جمهورية العراق .

وعادت فكرة احياء الحكومة المؤقتة مرة واحدة فقط ، عندما اقترح السيد دانيال اورتيغا ، رئيس نيكاراغوا السابق ، على الرئيس صدام حسين (١٩٩١/١/١٢) ، إحياء الحكومة المؤقتة في الكويت للاتفاق معها ، وليس مع حكومة آل صباح على الحدود التي تنسحب اليها القوات العراقية .

فقال الرئيس صدام حسين :

ـ لكن الحكومة المؤقتة حلت نفسها ، وهي الآن جزء من الحكومة العراقية .

فَرَدَّ الرئيس اورتيغا :

ـ من الممكن ان تعود الحكومة المؤقتة الى ان يتم انسحاب القوات الامريكية من جهة والعراقية من جهة .. ولن يكون الانسحاب من الاراضي الكويتية كاملاً .

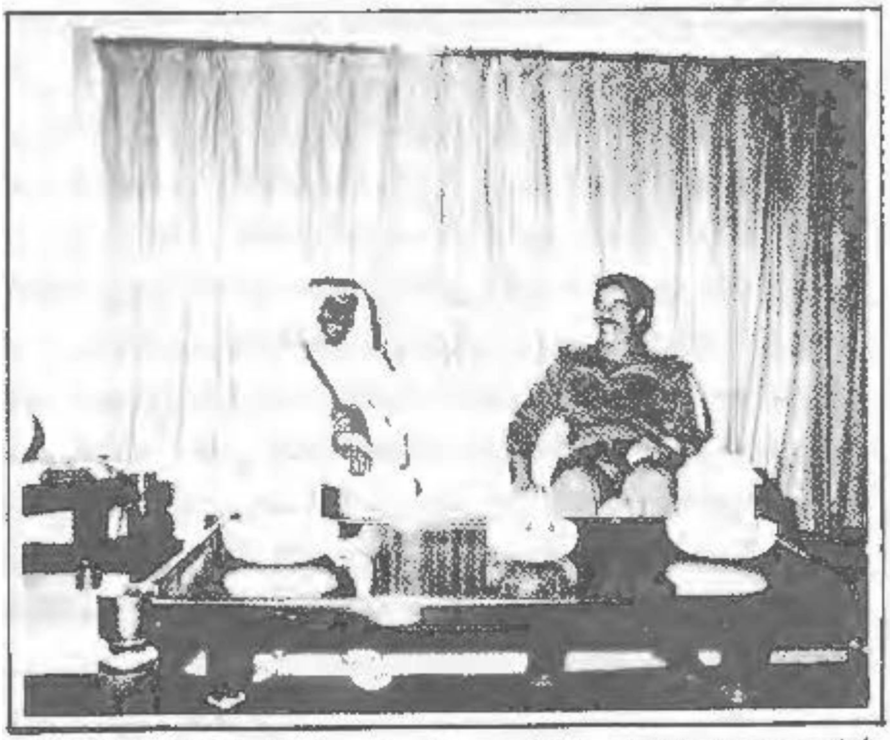
لكن المقترح لم يجد سبيله الى القبول والرضا من جانب العراق يومئذٍ .

□ □ □

بدا ، بعد خمسة اشهر على ظهور اسم علاء حسين علي لاول مرة ، ان الاسم قد اندثر الى الابد خلف اول موجة من القصف الجوي والصاروخي على بغداد ، لكن الرئيس صدام حسين لم يكن لينسى هذا الرجل ، فقد فاجأه بعد ثمانٍ واربعين ساعة من بدء موجة القصف على بغداد . في مقر اقامتهُ ، ليصطحبه معه خارج العاصمة ، وكأنه كان يعرف ، او يتوقع حدوث غارة جوية تستهدف مكانه بعد اربع وعشرين ساعة فقط ، يوم ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٩١ وهو لم يزل يتذكر العبارة التى باغته بها الرئيس صدام حسين يوم ١٩ كانون الثاني (يناير) : «لا تتصور مطلقا اننا سننساك يوما من الايام» .

بعد ان توقف اطلاق النار سأله الرئيس ان كان يرغب العيش في اي مكان من العالم ، فاجاب العقيد الاسمر النحيل ، لقد احببت بغداد وسأبقىٰ فيها ماتبقىٰ من حياتي . رغم ان آل صباح جعلوا هدف الحصول على رأسه واحدا من اولويات اهدافهم ، فاستدعوا احدى عمتيه ، وهي زينب لاستخدامها كماشة التقاط لاستدراجه الى فخ منصوب ، واتصلوا بمن تبقى من اقاربه في الكويت لتأمين اتصال معه وللايحاء اليه من بعيد ان عودته صارت ممكنة وانه لن يلقى العقاب المحتمل . لكن علاء حسين علي ، كان يتلقى المعلومات وهو منكب على قراءة كتاب جديد عن تاريخ منطقة الخليج ، وجذور علاقة الكويت بالعراق □





- لقاء حميم بين الرئيس صدام حسين ورئيس الحكومة الكويتية المؤقتة علاء حسين .

الحـــل الممنـــوع

ان دم فلسطين في رقابكم
ياسر عرفات في قمة القاهرة ١٠/٨/١٩٩٠

اقترن اسم الملك حسين بالحل العربي والمحاولات العسيرة التي بُذلت لبلوغه ، دون جدوى .. فقد كان راعيا لجهد مركب ليصنع حوارا بدا مستحيلا ، وكان كلّما طرق بابا ، وجد الابـواب التي خلّفها وراءه تنطبق تباعا ، في هذه العاصمة ، او تلك ..

لذلك كـان عليّ ان استمـع من الملك نفسه الى دقـائق الموقف ولحظاته الحرجة .. وكيف انهار ماكان ممكنا ؟

دخل الملك حسين علينا (الدكتور خالد الكركي رئيس الديوان الملكي الاردني وانا) في غرفة صغيرة يتخذ منها الكـركي مكتبا لعمله ، وكان يشغلني سؤال ملحّ وانا أتطلّع في محيا الملك الهاشمي الاكثر استقرارا في سدة الحكم منذ اربعين عاما ، تعامل خلالها مع الاحداث العاصفة ، ومر عليه تسعة رؤساء امريكان من ايزنهاور حتى جورج بوش .

كانت المرة الاولى التي يتحدث فيها الملك المخضرم الى كاتب من العراق يريـد ان يستنطقـه عن دوره عشية يـوم الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ وبعده .. والقيت عليه بالسؤال كأنني أُخرِجُ جمرة من فمي :

ـ متى شعرت باليأس من امكانية نجاح الحل العربي ..؟ بل متى شعرت بعجز العرب عن احتواء الازمة ؟ .

اخرج الملك حسين سيجارة ذات تبغ مخفف ، وصار يتحدث بلغة يشوبها حزن كان قد وشم كل احاديثه وخطبـه في السنتين الاخيرتين .

ـ كان عندي امـل اننا سنستـطيع بشكـل او بآخـر ان نعيد الموضوع الى الساحة العربية ، وقـد بقيتُ احاول .. واحـاول ، لكنني أُصبتُ بخيبة امل كبيرة يوم الجمعة الثالث من آب ١٩٩٠ ، رغم انني كنت قد عدتُ من بغداد بالجواب الذي كان مطلوبا .

وبدأ الملك يستذكر ماحدث :

ـ تلقيت فجر الثاني من آب مكالمة هاتفية من الملك فهد الذي كان

منفعلا وهو يقول لابد من طريقة لايقاف التقدم العراقي ، وطلب ان نتصل بالعراقيين حتى يقفوا في المنطقة المتنازع عليها ، والحق انه كان منفعلا تجاه القيادة الكويتية التي اوصلت الامور الى هذه الحال ، وقال الملك فهد ان القوات العراقية هي الآن على بعد ٦ كلم من مدينة الكويت ، واعلمني انه حاول الاتصال ببغداد ، وظل يلح عليّ لتأمين الاتصال مع القيادة العراقية بصورة سريعة لايقاف الامور ..

ومضى الملك حسين يقول :

ـ واتصلت بعد الظهر بالرئيس مبارك في القاهرة الذي قال انه سيتوجه الى الاسكندرية فابلغته ان المهم ان لايخرج شيء من اجتماع القاهرة ، وانني سأطير فورا لألقاه في الاسكندرية ، وقد رافقني مروان القاسم وزير الخارجية آنذاك الى الاجتماع الذي جرى السادسة مساء (٢/٨/١٩٩٠) في قصر (رأس التين) بالاسكندرية ، وكان الرئيس بوش يحاول الاتصال آنذاك بالرئيس مبارك الذي كان منفعلا وهو يقول لي ان الرأي العام يضغط عليّ .

واضاف الحسين :

ـ لقد اوضحت للرئيس المصري انني لم اكن مطلعا على شيء من هذا الذي حدث ، وذكّرته انني انا الذي نصحته بالذهاب الى بغداد والكويت ، وان تحركه كان بناءً على نصيحتي .. وعلمتُ انه كان قد اجرى اتصالا مع الملك فهد ، ثم جاءت مكالمة الرئيس بوش .. فتركته يتحدث معه طويلا ، ثم تحدثت مع الرئيس الامريكي ، وطلبت ٤٨ ساعة للعمل في الاطار العربي .

واقترح الرئيس المصري عقد اجتماع مصغّر يضم العراق والاردن ومصر والسعودية .

فاقترح الملك حسين اضافة اليمن ، لما يراه في شخصية الرئيس علي عبدالله صالح من جرأة في الحديث ، وباعتباره جزءاً من المعادلة .

ورأى الجانب المصري ان تَدعىٰ الجزائـر والمغرب ايضـا .. (وهو ماجرى التخلي عنه لاحقاً ، على أساس أن البلدين أعلنـا موقفيهما من الأزمة في وقت مبكر) .

في تلك الاثناء ، كان الملك فهد قد اقتـرح حضور الكـويت في الاجتماع ، وطلب ان يتولى الملك حسـين نقل هـذا الاقتراح الى بغداد .

فسأل عاهل الاردن :

ـ لماذا لايطلب الملك فهد ذلك من بغداد ، بنفسه ؟ .

اجابه الرئيس المصري :

ـ ان فهد يفضل ان تنقل انت هذه الرغبة الى بغداد .

وافق الملك حسين على تولّي ادارة المعالجة العربية للموقف .

وذكـر عاهـل الاردن انه طلب الذهـاب الى المملكة العـربيـة السعودية في طريق عودته الى عمان ، فجاءه الجواب (انْ لا لزوم للمجيء الى السعودية) ، اذْ ان المطلوب هو الذهاب الى بغداد ، وقال :

ـ ان ما كنتُ اخشاه هو ان يخرج موقف غير مناسب قبل اوانه ، فتخرج المسألة عندئذ من اليد العربية ، وهذا ما شرحته بدقـة للرئيس المصري .

عاد الملك حسين الى عمان في الثالثة فجر الجمعة الثالث من آب ليمكث بقيـة الليل في العـاصمة الاردنيـة ، وتحدث في العـاشرة والنصف صبـاحا عبـر الهاتف مـع الرئيس المصـري ، وسـأله مجددا :

ـ هل مازلتَ عند كلامنا امس ؟ .. انني ساتوجه بعد قليل الى بغداد ، وارجو ان لايصدر اي شيء يُعقّد الموقف .

فاجابه الرئيس حسني مبارك انه مايـزال عند الاتفـاق الذي جرى بينهما مساء اليوم الماضي في الاسكندرية ... ولكنه اقتـرح

عدم اثارة موضوع مشاركة الكويت في اجتماع جدة المقترح لانه سابق لأوانه .. برغم إلحاح الملك السعودي عليه لاثارة هذا المقترح .

كان الملك حسين راغبا بالطيران من الاسكندرية الى بغداد مباشرة ، لكن غلق الاجواء العراقية حال دون ذلك ، ولم يتمكن ايضا من الطيران مباشرة من عمان الى بغداد . فتوجه بطائرته الى قاعدة (H3) غرب العراق ، لتنقله من هناك طائرة عراقية الى بغداد حيث كان الرئيس صدام حسين بانتظاره قرابة الساعة ١١,٣٠ صباحا ، ورافق الملك رئيس الوزراء مضر بدران ورئيس الديون الملكي زيد بن شاكر .

□ □ □

قال الرئيس صدام حسين :

- ان العراق لم يشأ اعلام احد بالعملية قبل وقوعها حتى لا يحرجه ، وانه بذلك يتحمل نتائج العملية وحده .

وافق الرئيس على مشاركة العراق في قمة خماسية تعقد بمدينة جدة تحضرها السعودية الى جانب اعضاء مجلس التعاون العربي الاربعة .

وطلب الملك حسين ان يحضر الرئيس بنفسه ، فلم يرفض ذلك من حيث المبدأ ، برغم ان الظروف الحساسة كانت قد جعلت القيادة العراقية ترشح ، في البداية ، السيد عزة ابراهيم لتمثيل العراق .

وشدد الرئيس صدام حسين على اهمية عدم صدور أي موقف سياسي او اعلامي او دبلوماسي يسيء الى العراق ، سواء عن مؤتمر وزراء الخارجية العرب المنعقد في القاهرة ، او عن اي طريق سواه . وقال :

- اذا صدر شيء ضد العراق ، فاننا سنخّمش وجوه بعضنا البعض .

واضاف :

ـ انكم تعرفوننا ، نحن مستعدون لكل شيء ، بالاسلوب المعقول ، وباحترام حقوقنا .

طلب الملك حسين تحديد موعد لبدء انسحاب القوات العراقية من الكويت .

فاجابه الرئيس صدام حسين ان الامر قد يتطلب اسابيع عدة ، ومع ذلك فان تحديد موعد دقيق يحتاج الى جمع اعضاء القيادة العراقية في اجتماع عاجل .

وخرج الملك حسين متفائلا بحصوله على الاجابات المطلوبة من بغداد .. وكان مايزال في طائرته عندما تلقى اشارة من بغداد تُعْلمه ان القوات العراقية ستباشر الانسحاب بدءاً من يوم الاحد ١٩٩٠/٨/٥ .

ويقول الملك حسين :

ـ شعرتُ ان الامور صارت في طريقها الى الحل ..

لكن المفاجأة أتت عندما أبلغ وزير الخارجية مروان القاسم الملك حسين ان مصر اصدرت بياناً أدان العراق ، وان وزراء الخارجية العرب على وشك اصدار بيان مماثل .. وطلب الوزير تعليمات الملك الذي ابلغه بعدم الخروج عن مشروع الحل العربي ، والتحفظ على اصدار أي قرار .

ويقول الملك حسين :

ـ نعم شعرتُ بخيبة الامل عصر يوم الجمعة الثالث من آب ١٩٩٠ بعد عودتي من بغداد .

كان عاهل الاردن قد حاول من بغداد في الساعة الواحدة ظهرا الاتصال مع الرئيس المصري لابلاغه بموافقة العراق على الامرين اللذين اتفق عليهما ، وقد قِيل له ان الرئيس غير قريب من الهاتف :

ـ كان بيدي الجواب المطلوب من بغداد ..

وبعد ثلاث ساعات ونصف عاصفة حساسة ، توالت فيها بيانات الادانة ضد العراق ، من الخارجية المصرية ، ومؤتمر وزراء الخارجية في القاهرة ، مجلس الامن الذي اصدر قراراً جديداً .. تمكن بعدها الملك حسين من محادثة الرئيس المصري .. ودار بينهما حوار مقتضب :

قال الملك :

ـ هل اعجبك ما حدث ؟..

فأجاب مبارك :

ـ لقد كان هناك ضغط عليّ من الرأي العام لأصدر بياناً علنياً أحدد فيه موقف مصر ..

كان العراقيون والاردنيون معا يتوقعون ان تنتظر الحكومة المصرية نتائج اجتماعات وزراء الخارجية العرب في القاهرة قبل ان تصدر بيانا تحدد فيه موقفها من الازمة ، وان الرئيس حسني مبارك لابد سينتظر الجواب الذي عاد به الملك حسين من بغداد قبل اصدار مثل هذا البيان ، لكن المفاجأة كانت بليغة في بغداد عندما وجدت ان البيان المصري صدر في الرابعة والنصف بتوقيت القاهرة اي قبل ساعتين من موعد اجتماع وزراء الخارجية العرب ، فاعطى ذلك اشارة الى وجود تصميم مصري في اختيار اعلان الموقف قبل ان تظهر نتائج الزيارة الحاسمة التي قام بها العاهل الاردني الى بغداد .

ورجح التحليل الذي تبنته القيادة العراقية ان الرئيس الامريكي جورج بوش تمكن في وقت مبكر من السيطرة على القرار المصري ، وان فرص نجاح الحل العربي باتت ضئيلة وشاحبة .

وحرص العراق على ان يكون انسحاب الدفعات الاولى من قواته في الكويت علنيا وامام مرأى المصورين التلفزيونيين والصحفيين ، واعطت هيئة الاركان العراقية تعليماتها لانسحاب اول عشرة الاف جندي عراقي من الكويت في الساعة الحادية عشرة من صباح الاحد ٥/٨/١٩٩٠ ، اي نحو عشر القوات التي كانت قد عبرت الى

الكويت حتى ذلك التاريخ ، وصدرت تعليمات تالية بسحب عدد مماثل من الجنود بعد اربع وعشرين ساعة من انسحاب الدفعة الاولى ، لكن تسارع الاحداث بعد زيارة وزير الدفاع الامريكي دك تشيني الى السعودية واجتماعه مع الملك فهد الذي اعطاه موافقة رسمية على انتشار القوات الامريكية في المنطقة ، ثم مكوث الجنرال نورمان شوارزكوف في السعودية بصفته قائدا لعملية درع الصحراء ، فضلا عن الغاء اجتماع القمة الخماسي الذي كان مقررا في جدة جعل العراق يلجأ الى ايقاف عملية الانسحاب ، في انتظار الغامض والمجهول من احداث مرتقبة .

لم يكن تسارع الاحداث وحده السبب في اظهار رد الفعل العراقي على التفاعلات السياسية للحدث ، منكفئاً ويتسم بالانطواء ، إذ ان السرعة في تنفيذ عملية ٢ آب سواء في مرحلة الاعداد ومرحلة الشروع كانت سبباً في دخول العراق الى المواجهة من دون خطة للتحرك السياسي العربي لاحتواء تفاعلات الحدث في ساعاته الأول .

لذلك فان بغداد كانت تصدر ردود افعال على تفاعلات سياسية سريعة تحدث في الخارج ، بعد ان كان العراق قد اخذ المبادأة في صنع الحدث نفسه ، وأنشأ وضعاً جغرافياً وسياسياً جديداً هزت نتائجه العالم .

ولا يوجد شك اليوم في القول إن بغداد لم تكن تتوقع ان تتخذ مصر الموقف الذي اختارته بعد الازمة ، ناهيك عن المفاجأة التي اصابت العراقيين من جراء التدهور السريع في العلاقات العراقية ـ السعودية الى الحد الذي اتخذت فيه القوات الامريكية من شبه الجزيرة العربية مكاناً تقفز منه لتهديد العراق ، ثم لمهاجمته ، وتدميره .

□ □ □

وصل الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات الى بغداد بعد ان توقف

في القاهرة ثم الرياض ليعرض على العاصمتين العربيتين افكارا للحل تقوم على اساس عقد اجتماع بديل لقمة جدة التي عُلقت في لحظة حرجة من تطور الاحداث .

انتقل الرئيس الفلسطيني صبيحة ٩/٨/١٩٩٠ الى مكان خارج بغداد ليجد في انتظاره الرئيس صدام حسين وبعض مساعديه ، كان المكان بسيطاً ، اشبه باستراحة مؤقتة .

استمع الرئيس العراقي الى عرض للموقفين المصري والسعودي اشترك في تقديمه الرئيس عرفات ومساعداه صلاح خلف (ابو اياد) وهاني الحسن .

قال الرئيس الفلسطيني :

ـ انني اقترح ان يعقد اجتماع بينكم وبين الملك فهد ، خاصة انني حين عرضت المقترح في الرياض لم اجد رفضا له .. لابل انني جئت الى بغداد بموافقة مصر والسعودية .

فعلّق الرئيس صدام حسين :

ـ ليس هناك من مشكلة بيننا وبين السعودية ، وقد بنينا في السنوات الماضية علاقات جيدة مع الملك فهد ، وتوصلنا الى اتفاقية امن مشترك ، واننا نؤكد كل يومٍ حسن نيّاتنا تجاه السعودية ، ولو سمحت لنا الظروف الان لذهبتُ ازور الملك بنفسي ، لكنني مع ذلك أجد أن بامكاننا ان نجتمع في منطقة (عرعر) على الحدود .

عبّر الرئيس عرفات عن تقديره لموقف الرئيس صدام حسين ، وعرض فكرة عقد اجتماع عربي مصغر يؤمّن بقاء الحل بأيدي العرب .

قال الرئيس صدام حسين :

ـ اننا نشجعك ، وموقفنا واضح لك ، فنحن مع الحل العربي ، ولا يوجد اي شيء مبيّت ضد السعودية ، ولدينا الاستعداد لاظهار حسن النوايا .

وغادر الفريق الفلسطيني مكان الاجتماع ، ليباشر على الفور

الاتصال مع سفير فلسطين في الرياض وأبلاغه ان الرئيس عرفات يريد العودة الى الرياض حاملا معه الجواب العـراقي ، بكل مـا ينطوي عليه من ايجابية .

مكث الرئيس عرفات بضع ساعات ينتظر اشارة من الرياض تُبلغه باستعداد الملك فهد لاستقباله ، لكنه فوجيء بمن يتصل به من السعودية ليبلغه ان الملك السعودي قد توجّه الى القاهـرة .. واذا كان يريد ان يراه فعليه ان يلتحق به هناك .

كان الفلسطينيون يفضلون ان يحصل لقاؤهم في الرياض وليس في القاهرة ، اذ ان اجواء القمة والحضور الكثيف للرؤساء والملوك يضيع فرصة اللقاء المنفرد كما لو حصل في السعودية .

وفعلا وجد الرئيس الفلسطيني ان الملك فهد قد تراجع عن فكرة الاجتماع مع الرئيس صدام حسين ، وان كل اهتمامه كان منصبا في القاهرة على خلق مناخ ادانة ضد العراق وتوفير غطاء عـربي لوجود القوات الامريكية في السعودية .

امـا القيادة العـراقيـة فقـد فـوجئت ، هي الاخـرى ، يـوم ٩/٨/ ١٩٩٠ بالدعوة التي وجهها الرئيس المصري حسني مبارك لعقد قمة طارئة في القاهرة خلال ٢٤ ساعة ، اذ لم تحصل بغداد على تفسير لالغاء اللقاء الخماسي الذي كان مقرراً عقده في جـدة ليضم العراق والاردن ومصر واليمن والسعودية ، ولم يتم التشاور بينها وبين القاهرة او اية عاصمة عربية اخرى حـول عقد قمـة موسعة خلال ٢٤ ساعة من موعد الدعوة اليها ، وكان امام القيادة العراقية خياران ، فأما ان تقاطع القمـة لعدم مشـاورتها بـأمر الدعوة اليها مع انها الطرف الاساس المعني بها خاصة ان اللقاء الخماسي الذي اتفق عليه من قبل كان الفرصة الانسب لانضاج الحل العربي ، على العكس من الظروف التي تسود اجتماعاً يضم اثنين وعشرين طرفاً ، واما ان يحضر العراق ليخوض المواجهة والى جانبه البلدان التي رفضت التدخل العسكري الاجنبي لمنع صدور قرارات تؤدي الى خروج الازمة برمتها من ايدي العرب .

وقرر اجتماع القيادة العراقية صباح ٩/٨/ ١٩٩٠ المشاركة في المؤتمر بعد ان تدخّل بعض القادة العرب لتشجيع العراق على هذا القرار ، وتشكّل وفد يرأسه السيد طه ياسين رمضان ويضم السيدين طارق عزيز وسعدون حمادي ، اعطاه الرئيس صدام حسين تفويضا كاملا للتصرف ، وَوضع امامه الاولويات الاتية :

☐ استكشاف دور الرئيس المصري في التطورات السريعة ، والتأكد ان كانت الطرق قد افترقت تماماً بينه وبين العراق .

☐ البحث عن اسباب الغاء اللقاء الخماسي بعد ان وافق العراق على عقده والمشاركة فيه وبعد ان تحدد موعده ومكان انعقاده .

☐ استكشاف اسباب الاستعجال في عقد القمة وعدم اخذ ظروف العراق بالاعتبار وعدم التشاور معه ، وهو الامر الذي يوجب معرفة الدوافع الكامنة من وراء الدعوة الى هذه القمة .

☐ الاعلان بوضوح عن استعداد العراق للتعامل مع أية صيغة عملية متوازنة في اطار الحل العربي .

☐ تقديم الضمانات التي تطمئن السعودية حول عدم وجود نيّات معادية من جانب العراق .

وعند وصول الوفد العراقي مساء ٩/٨/ ٩٠ الى مطار القاهرة ، نُقِل على الفور الى دار للضيافة منعزل عن الفندق الذي اقامت فيه بقية الوفود يعرف بدار الاندلس ، وهو أمر فسّره سفير العراق في القاهرة على انه تحديد لاتصالات الوفد مع الوفود الاخرى .

لكن الوفد العراقي لم يمكث غير ربع ساعة في دار الضيافة ، الذي وضع فيه ، حتى انتقل الى الفندق الذي يقيم فيه رؤوساء الوفود ، واجرى لقاءات متتالية مع الملك حسين والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات والرئيس السوداني عمر البشير والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد ، ووجد العراقيون ان القادة العرب الذين التقوا بهم كانوا في انتظار معرفة البرنامج الذي سيسير عليه

المؤتمر ، وقد ابلغهم الوفد العراقي ان بغداد مستعدة لتقديم كل مايبعث على الاطمئنان لدى السعودية ، وهو يرحب بتشكيل لجنة عربية تتوجه الى بغداد لتبحث كل شيء بما فيه موضوع الكويت .

□ □ □

وبينما كان الرئيس الليبي معمر القذافي يتحادث مع الوفد العراقي ، دخل موظف من المراسيم المصرية ، ليبلغ السيد رمضان ان الرئيس حسني مبارك بانتظاره ليتحدث معه ، وحده ، على ان لايصطحبه اي عضو آخر من الوفد العراقي .

وجد السيد رمضان ، ان الرئيس المصري قد جعل من فترة استراحة في انتظار وصول طائرة الرئيس اليمني علي عبدالله صالح موعداً للمقابلة .

جلس الاثنان .. معهما أسامة الباز مدير مكتب الرئيس المصري ونبيل نجم سفير العراق في القاهرة .

وقد روى لي السيد رمضان تفاصيل اللقاء ، الذي كان الاكثر اهمية بالنسبة له . بعد ان ابلغه الرئيس صدام حسين بالسعي لعقد هذا اللقاء ..

قال الرئيس المصري :

ـ ما هذا الذي حصل .. وكيف حصل ..

فأجاب السيد رمضان :

ـ لقد جئت اسأل اولاً عن اسباب الغاء اجتماع القمة الخماسية التي كان مقرراً لها أن تعقد في جدة .

رد الرئيس مبارك :

ـ .. والله .. لم نرَ فيها فائدة .. وقد طلبتُ منكم موقفاً معلناً عن الانسحاب من الكويت اولاً ..

قال المبعوث العراقي :

ـ كيف تريدنا ان نعطي موقفاً قبل ان نلتقي ، اذا اعلنّا موقفاً مسبقاً عن الانسحاب فلماذا تنعقد القمة اذن ..؟ مع ان الرئيس

صدام حسين وافق على تلك القمة المصغرة بدون اي شرط مسبق .. لكننا فوجئنا بدعوتكم لعقد قمة عربية موسعة في القاهرة بطريقة سريعة ، من دون التشاور معنا .

اجاب الرئيس المصري :

ـ لقد طلب بعض الرؤساء عقد القمة ، ومنهم الرئيس الليبي والرئيس السوري وملك المغرب ، لذلك دعوت لها .

فعلّق المبعوث العراقي :

ـ انكم في مصر تؤكدون دائماً ضرورة الاعداد الجيد لأي مؤتمر .. لكننا هذه المرة نجدكم في عجالة .. هل لنا ان نعرف ان كان هناك اي مقترح للمناقشة ؟

اجاب الرئيس مبارك بلهجة مصرية :

ـ ابداً .. مافيش حاجة .. مافيش اي قرار .. كل ما في الامر انني تلقيت طلبات لعقد القمة ، وقد تمت الدعوة بناءً على ذلك ، لنتداول بيننا حتى نجد حلاً ..

رد السيد رمضان :

ـ سنكون ايجابيين .. وسنجد الحل .. وانا مخوّل من الرئيس صدام حسين والقيادة العراقية للحوار ، ولدينا مقترحات محددة ، منها اننا مستعدون لاعطاء اية ضمانات تريدها السعودية ، إذ لا وجود مطلقاً لكل ما قيل عن وجود نيّات عسكرية عراقية ضدها تبرر قدوم القوات الاجنبية .. مستعدون لقبول فكرة احلال قوات عربية بين الجانبين .. ومستعدون لحضور اجتماع ثنائي او ثلاثي لبحث اية ترتيبات اخرى .

هنا .. علق الرئيس المصري :

ـ والله .. انهم لا يثقون بكم .. ولديهم الحق في ذلك ، فقد سبق ان طمأنّا الكويت ، ثم صار الذي صار .

وسأل السيد رمضان :

ـ .. متى كانت هناك طمأنة للكويتيين ؟

اجاب الرئيس مبارك :

ـ لقد حصل ذلك عندما جئتكم الى بغداد نهاية الشهر الماضي .

فتدخّل المبعوث العراقي مقاطعاً :

ـ لقد كنتُ حاضراً ، وكان هناك احد عشر شخصاً آخرون ، كنا واقفين ونستمع الى ما يدور بينك وبين الرئيس صدام حسين الذي قال لك : لن يكون هناك عمل عسكري حتى اجتماع جدة ، وطلب منك عدم طمأنة الكويتيين ، لأننا كنا نريد حل القضية ، اذ لعل الخوف يدفعهم الى قبول الحل .

هنا ، هَمّ الرئيس المصري بمغادرة الاجتماع ، وصاح من مكانه :

ـ هل انا كذّاب .. حتى تكذبني بهذه الطريقة ..

فما كان من السيد رمضان الا ان طلب من الرئيس مبارك ان يتعامل بهدوء مع مداخلته .

فسحب الرئيس المصري انفاسه وقال :

ـ على أية حال .. يجب ان تعرفوا ان الاميركان مستعدون لتوجيه ضربات قوية مدمرة ضدكم .

فعلّق المبعوث العراقي :

ـ اننا نتحمل كل النتائج .. ونحن لا نحملكم اية مسؤولية ، لأننا لم نأخذ رأيكم في قرارنا .. المهم هل لديكم صيغة تريدون طرحها قبل بدء الاجتماع الرسمي ؟

اجاب الرئيس مبارك :

ـ لا .. لا توجد صيغة مُقترحة .

عاد السيد رمضان يشرح موقف بلاده :

ـ اننا ندعو الى رحيل القوات الاجنبية ، وسنعطي أي تعهد يريده السعوديون ، ونرحب بلجنة على رأسها مصر او اية جهة اخرى تذهب الى بغداد لتلتقي بالرئيس صدام حسين .. وسيبُحث كل شيء هناك .

وسأل الرئيس المصري على الفور :

ـ .. الانسحاب ..؟

اجاب السيد رمضان :

ـ تبحثون كل شيء .. أنا لا اتحدث عن تفاصيل .

كان الرجلان قد نهضا من مكانيهما ، عندما شعر المبعوث العراقي انه لم يحصل على اجابة قاطعة ان كان هناك شيء يُدبّر ضد بلاده .

قال السيد رمضان :

ـ لقد تداولت مع بعض الرؤساء في الافكار التي عرضتها امامك ، وكانوا جميعاً مع فكرة العمل في الاطار العربي ، ولكنهم ايضاً كانوا يتساءلون ان كانت هناك صيغة مُعدة مسبقاً لمشروع قرار يعرض عليهم .. فهل هناك شيء من هذا القبيل ؟ .

اجاب الرئيس المصري وهو يضع آخر خطواته خارج الغرفة ليستعجل الوصول الى المطار ويكون في استقبال الرئيس علي عبدالله صالح :

ـ اخ طه اطمئن .. ولا توجد اية صيغة مقترحة .. لا شيء مطلقاً .

□ □ □

واتصل السيد طارق عزيز بالامين العام لجامعة الدول العربية والخارجية المصرية ليستفسر عن الاجتماع التمهيدي الذي اعتاد وزراء الخارجية العرب ان يمهدوا به للقاءات القمة ويعدوا مشروعات قراراتها ، وجاءه الرد المصري ان الوزراء لن يجتمعوا ، وان الملوك والرؤساء سيبحثون مباشرة في الازمة .

في تلك الاثناء كان الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات يتحادث مع الملك فهد :

ـ لقد اكد لي العراقيون سلامة نيّاتهم تجاه السعودية وتجاهكم شخصيا ، وهم مؤمنون بان امكانات العمل بينكم وبينهم كبيرة ،

وبالامكان احتواء ما حصل ، وقد وافق الرئيس صدام حسين على الاجتماع بكم في منطقة عرعر على الحدود .

كان الملك السعودي يُصغي الى محدّثه دون ان تصدر عنه اية اشارة في التجاوب مع العرض الذي عاد به الرئيس عـرفات من بغداد .

كان حديثاً اقرب ما يكون الى حوار من طرف واحد .

وخلال دعوة العشاء التي اقيمت في الساعة الحادية عشرة ليلا حرص السيد طه ياسين رمضان ان يُسلم على الملك فهد في طريق خروجه من القاعة ، ولم تتجاوز العبارات التي تبادلاها مفردات المجاملة التي انتهت بتمني السيد رمضان على الملك فهد ان يلتقي به على هامش المؤتمر ، فأجابه الملك السعودي : ان شاء الله ..

اما الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة امير البحرين فقد ابلغ رئيس الوفد العراقي انه يرى في العـراق معقد امـل العرب وان مشاعره نحو العراقيين لن تتبدل في اي ظرف من الظروف ، ولذلك فانه يتمنى ان تنسحب القوات العراقية من الكويت ثم يُصار الى حل يضمن حقوق العراق .

كان الرئيس علي عبدالله صالح قد التقى مع الرئيس السوري حافظ الاسد وحثّه على عدم تصعيد الموقف لأعطاء الفرصة الكافية للحل العربي ليأخذ مداه ، ولذلك طلب الرئيس اليمني من رئيس الوفد العراقي عدم التعرض لسوريا ورئيسها خلال المؤتمر فأجابه السيد رمضان :

- ان احد التوجيهات التي زودتني بها القيادة في العراق هي عدم التعرض للموقف السوري خلال المؤتمر ..

عند الواحدة فجـراً انفضت دعوة العشـاء وتحادث رؤسـاء الوفود مع بعضهم ، ولم تكن هناك حتى تلك اللحظة ايـة صيغة يبحث فيها كأساس يعتمد عليه المؤتمر او كورقة عمل يناقشها او كمشروع قرار يبحث فيه .

كان من المقرر ان يبدأ المؤتمر عمله الرسمي في الساعة الحادية عشرة صباحاً يوم ١٠/٨/١٩٩٠ .

ولم يتوقف العراقيون عن استطلاع رأي رؤساء الدول وعرض الافكار التي جاؤا بها ، وكان الرئيس الجيبوتي حسن جوليد آخر من التقاهم السيد رمضان قبل التوجه الى قاعة المؤتمر ، استمع السيد جوليد طويلا الى العرض العراقي ثم قال :

انني اؤيد الحل الذي جئتم به وسأكون معكم . (لكن العراقيين فوجئوا بان الرئيس جوليد كان اول المؤيدين للمشروع العشري عند التصويت له داخل المؤتمر) .

تدفق رؤساء الوفود واعضاؤها على الصالات المجاورة للقاعة التي تقرر ان ينعقد فيها المؤتمر وجلس رئيس الوفد العراقي جوار الرئيس السوداني عمر البشير يتحدث اليه ، فاذا بالسيد سعد قاسم حمودي عضو الوفد العراقي يدخل مسرعا ليقدم لرئيس وفده اوراقاً طبع عليها مشروع قرار مقدم من عشر دول (دول الخليج الست ومصر وسوريا والمغرب والصومال) .

وكانت مفاجأة صاعقة .

التفت رئيس الوفد العراقي يخاطب الرئيس السوداني :

ـ لقد اكد الرئيس مبارك لي مساء امس انه لا يوجد اي مقترح او مشروع قرار يتضمن عقوبة للعراق وان اجتماعا سيكرس للتداول بالخروج بحل .

وتبين لاحقاً ان كثيرا من الاشاعات قد نسجت على هامش الفوضى التي عمت أروقة قاعات قصر المؤتمرات ومنها ما روجته وكالات الانباء من ان السيد طارق عزيز وزير خارجية العراق قد رمى بأطباق الطعام في وجه الشيخ صباح الاحمد وزير خارجية الكويت ، وتبين بعدئذ ان لا صحة لما عُرف في ما بعد بحكاية الصحون الطائرة ، غير ان الوزير العراقي كان قد رد على صباح الاحمد الذي استغرب كيف يتهمه العراق بانه عميل للامريكان ،

فقال له : ان لدينا من الوثائق التي وجدناها في مكتبك مايبرهن ذلك ، وهو الامر الذي جعل الوزير الكويتي يدور في دوامة ويتعثر ثم يسقط بعد ارتطامه بالجدار وهو يهم بمغادرة المكان .

وتناثرت الاوراق على رؤساء الوفد ومساعديهم ، وحصل ما يشبه الهرج والمرج ، نقاش بصوت عالٍ ، القادة ينتقلون من مكان الى آخر ، في الممرات وانحاء الصالة ، همس في الاذان بينهم اثنان .. اثنان ، الرئيس عرفات أبدى استغرابه مما يقرأ على الورق ، الرئيس القذافي نهض ليترك مكانه بعد ان تسلم نسخة من مشروع القرار ، الرئيس المصري دخل متوتراً وهو يحمل مجموعة اوراق ، الرئيس اليمني سأل المبعوث العراقي مرة اخرى ان كان العراق يدعو لاحلال قوات عربية كبيرة بدل القوات الاجنبية في السعودية ، فأجابه السيد رمضان بالايجاب ، ثم جاء الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد وكأنه يطرح سؤالا للمرة الاخيرة على رئيس وفد العراقي :

ـ اريد ان اسمع منك ان العراق مستعد لاستقبال وفد من المؤتمر يبحث معه كل جوانب المشكلة بما فيها موضوع الكويت .

قال السيد رمضان :

ـ اذا لم تقتنعوا بعد زيارة بغداد ، سيكون من حقكم آنذاك ان تحاربوا مع الامريكان ضدنا .

في تلك الاثناء كان الرئيس الليبي معمر القذافي قد دخل في جدل بصوت عال مع الكويتيين حول مسؤولية مجيء القوات الاجنبية الى المنطقة .

وانزوى الرئيس السوداني مع مساعديه ليضع مقترحاً مكتوباً يكون بديلا عن مشروع القرار الذي وزعه المصريون ، وعرض المقترح السوداني الجديد على عدد من رؤساء الوفود الذين رحبوا به كحلٍ وسط يتضمن فكرة توجه وفد عربي مشترك الى بغداد .

وذكر الرئيس السوداني عمر البشير في حديثه إليّ انه قرر المشاركة في قمة القاهرة على أمل ان تخرج هذه القمة بقرار يعبّر عن الاجماع العربي ولايدع المشكلة تخرج من أيدي العرب الى أيدى الآخرين .

وقال انه فوجيء بمن يريد ان يوجه المؤتمر لتبرير استقدام القوات الاجنبية الى المنطقة العربية ، وكان من سوء الحظ (الكلام للبشير)أنني كنت اول المتحدثين الذين علقوا على مشروع القرار الذي جاءت به دول الخليج ومصر ، ووجدت ان القوات الاجنبية لايمكن ان تكون قوات صديقة ، ولاينبغي ان نأتي بها تحت أية ذرائع واسباب ، ويبدو ان كلامي أثار الملك فهد الذى شعر انه هو المقصود بالملاحظة لأن السعودية هي الجهة المعنية بقدوم القوات الاجنبية ، ولذلك كان رد فعله حادا .

وروى لي البشير انه لم يكن ليتقدم بمشروعه لايفاد مجموعة من القادة العرب الى بغداد لولا معرفته الشخصية السابقة بالرئيس صدام حسين ، وانه كان على ثقة بأن الرئيس العراقي لن يجعل الوفد يعود خائبا من بغداد ، وكان بالامكان حل المشكلة عبر هذا الوفد لو ذهب ، لكنه لم يذهب مع الأسف لأن المقترح الذي تقدمت به قد تم تجاهله من قبل رئاسة المؤتمر .

كان الملك حسين في تلك اللحظات يدير نقاشا هادئا مع رؤساء الوفود ويشجع على تبني فكرة الحل الوسط وعدم اصدار قرار يمكن ان يكون سببا في انقسام العرب .

في تلك الاثناء كان الرؤساء والملوك قد تناولوا وجبات اكل خفيفة بعد ان ظلوا خارج القاعة ست ساعات بين الحادية عشرة صباحا والخامسة عصرا .

سحب رئيس الوفد العراقي ورقة كتب عليها الاتي :

(الى السيد الرئيس : ان هناك خطة مدبرة لاصدار قرار يوفر غطاء عربيا لضرب العراق ، ويقود العملية كل من مبارك وفهد) .

خلال لحظات كانت البرقية قد وصلت بغداد ، في حين دخل رؤساء الوفود الى القاعة حيث تقرر ان يبدأ المؤتمر رسمياً .

□ □ □

بعد ساعتين من وصول برقية الوفد العراقي في القاهرة وجه الرئيس صدام حسين نداء الى العرب والمسلمين للجهاد ضد القوات الامريكية التي وطأت ارض السعودية ، وانتقد ملك السعودية والرئيس المصري باسميهما .. للمرة الاولى ، باعتبارهما المسؤولين عن استقدام القوات الامريكية الى ارض العرب . (نص النداء مرفق بالفصل) .

□ □ □

تجاهل الرئيس المصري التقاليد التي اعتاد مضيفو مؤتمرات القمة اعتمادها بدعوة رئيس آخر قمة الى المنصة ليسلم ادارة المؤتمر الى رئيس الدولة المضيفة ، ربما كان الرئيس مبارك يمنع بذلك اعطاء الكلمة في بداية المؤتمر الى رئيس الوفد العراقي على اساس ان بغداد كانت قد ضيفت آخر قمة عربية طارئة عُقدت منذ اقل من شهرين ونصف على هذه القمة .

كان المؤتمر ما يزال مستمراً عندما علم رؤساء الوفود بمضمون النداء الذي اعلنه الرئيس صدام حسين في بغداد ، في حين كان الانقسام قد حفر مساره داخل المؤتمر .

وشوهد وزير الخارجية االسعودي يسلم الملك فهد ورقة تحمل نص نداء الرئيس صدام للجهاد في وقت كان الرئيس المصري قد أبلغ هو الاخر بالنداء .

القى الرئيس المصري كلمة مكتوبة ثم اعطى الكلام الى وفد الكويت وبعده الى رئيس وفد العراق الذي كان قد اعدّ مع السيدين طارق عزيز وسعدون حمادي كلمة خلال الساعات الست التي جرت فيها المداولات قبل بدء المؤتمر .

وكان من ابرز ماورد على ألسنة رؤساء الوفود المداخلات الآتية ..

قال ولي عهد الكويت :

ـ ان العراق يبيّت خطة مدبرة تتجاوز ضم الكويت لتشمل مناطق اخرى في الخليج ، واننا من ناحيتنا سنلجأ الى اي اجراءات لاسترجاع بلدنا .

وردّ رئيس وفد العراق السيد طه ياسين رمضان قائلا :

ـ لقد تمت الدعوة لهذا المؤتمر بدون التشاور معنا ، ونحن نرى ان من الصعب ان نتوصل الى حل تحت التهديد الامريكي والاسرائيلي ، اما ما يتعلق بالحديث عن تهديد عراقي للكويت والسعودية فاننا مستعدون لتقديم كل ما من شأنه ازالة المخاوف ، وسنقاوم اية محاولة لتوفير غطاء عربي للتدخل الاجنبي في المنطقة .

اما عن الكويت فقال :

ـ ان حكام الكويت كانوا يدبرون مؤامرة ضد العراق ، ولدينا ادلة مادية تؤكد التنسيق الكويتي ـ الامريكي ضدنا ، وينبغي ان يكون واضحا لدى الجميع انه ليس بيننا وبين اية دولة عربية مايشبه العلاقة بيننا وبين الكويت .

اما الرئيس اللبناني الياس الهراوي فابدى مخاوفه من ان يصبح لبنان فريسة سهلة بسبب انشغال العرب باوضاع الخليج ودعا الى الاعتماد على جهود الجامعة العربية وعدم اللجوء الى مجلس الامن لحل المشكلة .

وتحدث الرئيس السوداني الفريق عمر حسن البشير فقال :

ـ لايجوز اللجوء الى استعمال القوة لحل الخلافات وينبغي الاولوية لانسحاب القوات الاجنبية من المنطقة فورا لتحل مكانها قوات عربية وان مشروع القرار المطروح علينا الآن يعالج الازمة خارج الاطار العربي وهو ليس اساسا سليما للوفاق العربي ، واذا

ما لجأنا الى مجلس الامن فان ذلك يعني تدويل الازمة ، وبناء عليه فان السودان تتحفظ على بعض فقرات مشروع القرار ونقترح ارسال لجنة الى العراق لمقابلة الرئيس صدام حسين لبحث عن حل لهذه المشكلة .

وردّ الملك السعودي فهد بن عبدالعزيز بانفعال على الرئيس السوداني قائلا :

ـ ان الاخ السوداني لايعرف مايقول ، وفي كلامه كثير من الخلط ، وانا ارفض شريعة الغاب وقد طلبنا من الدول الصديقة ان تدافع عنا ، وان هذه القوات لن تهاجم اية دولة عربية ، واني احتج على كلام الرئيس السوداني بما انطوى عليه من مس لكرامة السعودية .

ثم تحدث عاهل المملكة الاردنية الهاشمية الملك حسين بن طلال فنبّه الحاضرين الى ان المرحلة التي يعيشها العرب اليوم هي اخطر مراحل التاريخ العربي على الاطلاق ، وحدد اولوية العمل بقوله :

ـ اننا نسعى لكي نحل الثقة محل الشك والتعاون محل الخلاف .

أضاف الملك حسين:

ـ في اعتقادي ان هناك اخطارا قديمة وحديثة تجابهنا جميعا ، تتمثل بالحركة الصهيونية واستمرار احتلال فلسطين واراضٍ عربية اخرى وتأثير الصهيونية على دوائر صنع القرار في وقت يستمر تدفق المهاجرين اليهود وتتلقى اسرائيل دعما ماديا كبيرا ، ناهيك عن ما نواجهه من خطر اعادة الهيمنة الاستعمارية على الطاقة بل على النظام العربي برمته .

وقال العاهل الاردني :

ـ لقد كان هناك من يريد تحجيم العراق واضعافه والقضاء عليه ، وهو البلد الذي ظل ثمانية اعوام يدافع عن النظام العربي وما كاد يخرج من المعركة حتى بدأت الاضواء تُسلط عليه لتشويه صورته وعشنا حالة من التعبئة ضد العراق ، ولكن هذا لايعني

بحال من الاحوال اننا لن نقف ضد احتلال اراضي الغير بالقوة . فامامنا مأساة اليوم ، وامامنا امتحان عسير .

وتساءل الملك حسين :

- هل بامكاننا التصدي للمهمة وحل قضايانا بانفسنا ؟ ام ان هناك من يريد ان ينتهي عملنا بـالفشل ؟ هـل نقول للعـالم اننا عاجزون عن حل قضايانا بانفسنا ؟ وفي كل الاحوال يجب فرض الحل العربي الذي يخاطب الجميع بالروح العربية .

وجاء دور الرئيس السوري حافظ اسد الذي وصف الموقف بانه خطير جدا ، وان المتغيـرات الدولية وانعكـاساتهـا على الوضـع العربي تحتاج الى دراسة جيدة وقال :

- لا احـد يأتي بـالاجنبي مالم تكن هنـاك ضرورة قصـوى لاستدعائـه ، ولو كان بـاستطاعتنـا ان نحقق لهم الطمأنينـة لما استدعوا الاجانب الى بلاد العرب ، وانني اتعهد بالنضال لاخراج القوات الاجنبية بعد حل الازمة .

وتدخّل رئيس الوفد العراقي ليتحدث ثانيـة معقبا عـلى كلام الرئيس السوري فقال :

- ان حكام لبنان لم يتآمروا على سوريا ومع ذلك فقـد دخلت سوريا على لبنان وبسطت نفوذها عليه ، امـا حكام الكـويت فقد تـآمروا عـلى العراق .. وليكن واضحـا اننا سنهـاجم المصـالح الامريكية وسنضرب اينما تصل أيدينا، وسنضرب اسرائيل التي تضع علامات امريكية على طائراتها وتنقلها حاليا الى قواعد تركية ، ونحن لم نحمل اية دولة عربية مهمة الدفاع عنا ، ولكننا مستعدون للحوار حتى نصل الى موقف عربي سليم .

ثم تحدث الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات :

- انتم تعرفونني جيدا ، مامن مشكلة الّا وتحركت من اجل حلها حتى عندما حصل خلاف بين السعودية والامارات في منطقة واحة الدورين تدخلت في مسعى للخير ، ولكن مع الاسف هناك من ينفجر

ضد الفلسطينيين ويتوعدهم ويستخدم الاعلام العربي ضدهم كما يفعل الاعلام الغربي تماما .. واليوم اذا وقعت الحرب فاننا جميعا وبلا استثناء سندفع ثمنها غاليا لذلك فان واجبنا ان نجد وسيلة لنزع الفتيل بحل مشرف للجميع يحمي الحقوق ويصون الامن القومي العربي ، وينبغي ان يكون الحل عربيا لا حلا دوليا ، اذْ لو حصل الحل الدولي فلن تبقى الخرائط كما هي الآن .

وبناء على ذلك فاني اقترح تشكيل لجنة للاتصال بالقيادة العراقية ومحاولة حل الازمة .

وجاء الاقتراح الذي قدمه الرئيس الفلسطيني بمثابة تثنية على مقترح الرئيس السوداني وهو امر يكفي لان يحال الاقتراح الى التصويت ، الا ان الرئيس المصري حسني مبارك تجاهل الاقتراحين السوداني والفلسطيني وبدأ يقرأ مشروع القرار داعيا الحضور للتصويت عليه .

فاعترض الرئيس الفلسطيني وطلب نقطة نظام وقال :

ـ ان لديّ اقتراحا بارسال وفد الى العراق لمقابلة الرئيس صدام حسين ، فلماذا لا نتوقف عنده ؟.

اجابه الرئيس مبارك :

ـ خلاص يا ابو عمار .. مفيش فايدة .

واقترح الرئيس عرفات ان يذهب الرئيس المصري الى بغداد ، فاجابه قائلا :

ـ ما عنديش وقت اضيعه وانا مش رايح بغداد .

واعلن التصويت على القرار الذي دخل به الى المؤتمر .. وما كاد يجمع اثني عشر صوتا ، وهي اغلبية بسيطة حتى اعلن انتهاء اعمال المؤتمر .

فضرب العقيد القذافي على الطاولة ، وصاح :

ـ ان مشروع القرار الذي قدمتموه ينبغي ان يكون بالاجماع .

ولفت الامين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي انظار

الرئيس المصري الى عدم جواز تمرير هذا القرار الآ بالاجماع .

فرد الرئيس المصري :

ـ ان الاغلبية البسيطة تكفي .

كانت الايادي مرفوعة يطلب اصحابها الكلام ، الملك حسين ، الرئيس عرفات ، الرئيس القذافي ، الرئيس البشير .

تجاهل الرئيس المصري طلبات القادة العرب ، واغلق الحاكية الموضوعة امامه ، بينما كان الرئيس عرفات يصرخ من مكانه :

ـ ان دم فلسطين في رقبتكم .

اما الرئيس الليبي فقد مزق مشروع القرار ونثره في القاعة في حين غادر الرئيس المصري مسرعا في اتجاه الباب الخارجي حيث لحق به السيد طه ياسين رمضان ليستوقفه :

ـ اشكرك يا سيادة الرئيس !.

فقال الرئيس مبارك :

ـ مافيش حاجة يا اخ طه .. ده مجرد كلام .

□ □ □

رفض العراق وليبيا القرار وتحفظت موريتانيا والسودان وفلسطين عليه ، وامتنعت الاردن واليمن والجزائر عن التصويت ، وغابت تونس، وأيدت القرار دول الخليج الست ومصر وسوريا والمغرب والصومال وجيبوتي ولبنان.

وكان معروفا مستوى ثقل الصومال وجيبوتي ولبنان والظروف التي جعلت ممثليها يوافقون على مشروع القرار ، في كل الاحوال كانت نتائج التصويت،برغم الظروف المعقدة التي جرى فيها، ايذاناً بالاعلان عن انقسام عميق في مؤسسة العمل العربي المشترك ، كما لم يحدث في تاريخ الجامعة العربية منذ قيامرا سنة ١٩٤٥ □

نداء من صدام حسين الى العرب والمسلمين كافة

بسم الله الرحمن الرحيم

نداء من صدام حسين

الى جماهير العرب ، والى المسلمين حيثما كانوا .. (انقذوا مكة وقبر الرسول من الاحتلال) ايها العرب .. يا احفاد رجال القادسية الاولى ، واليرموك ، وحطين ونهاوند ..

ايها الاخوة المناضلون .. ايها الشرفاء المجاهدون حيثما كنتم ..

إن امتكم امة عظيمة اختارها الله لتكون امة القرآن وشرّفها بعد الاختيار وعبر مراحل الزمن ، ان تحمل مبادىء كل الرسالات السماوية ، وتكون مبشرة وداعية لمبادئها ، وما ورد فيها من قيم واحكام .. ومنها تعاقب الانبياء والرسل ليؤدي كل دوره العظيم ..

وقد كانت امتكم داعية مبادىء وقيم الى الانسانية ، فاصبحت بموجب هذا ، وبموجب شمائلها المتميزة راية عالية ، يقتدى بها في مشرق الارض ومغربها .

هكذا كانت امتكم ، وهذا هو دورها يوم كان يقودها رجال آمنوا بربهم ، وقد وضعوا الثروة والاموال في خدمة الناس ، وليس في خدمة الملذات والمنكر .. ويوم احترموا انفسهم وعناوين المسؤولية فكانوا كفءا لها فاحترمتهم شعوبهم ، واحترموا دورهم القيادي ، فكان امرهم بمثابة ارادة الله لعمل الخير وارادة الامة والشعب على طريق اختياراتهما الشريفة .

وطبقا لهذه الصورة كان الاجنبي يحترم ارادة العرب ، ويحترم قيمهم ومبادئهم ، فلا يدوس ارضهم ، ولا يستهين بمقدساتهم وبمحرماتهم ..

وكان العرب فعلا ، وليس قولا فحسب ، امة واحدة وموقفا واحدا .. كان العرب من اقصى مشرق الوطن ، حيث العراق ، الى اقصى مغرب الوطن ، حيث مراكش ، اعزاء بقيمهم ومعاني الرسالة والحياة التي يحملونها على كاهلهم ..

كان القائد او الحاكم فيهم اكثرهم حكمة وثقافة ، وكان من بين اشجع الرجال فيهم ، يتقدم الصفوف حيثما اشتدت المنازلة ، او يكون موقعه ضمن الصفوف الاولى فيها .. وكان اكثرهم كرما ، او من بين اكرم الرجال فيهم ..

كان الحاكم صادقا لايكذب اهله في امر ونزيها وعفيفا .. وكان في كل الاحوال يخاف الله ، ويحب ويحترم شعبه ...

وكان ذا قدرة على الاجتهاد في شؤون الدنيا والدين ، ليكون قائدا فعليا للدولة والمجتمع ..

وكانت ثروة الامة توزع على المحتاجين ، اما المقتدرون من عرق جبينهم ، وعملهم الشريف فكانوا عناصر متعاونة ومتفاعلة مع الاغلبية من اجل اعلاء قيم المجتمع ، ومن اجل خير المجتمع ..

كان الحاكم آنذاك مقنعا ويأتمر بما يرضي الله والمجتمع ، وليس باوامر الاجنبي .. كان الحاكم قريبا من الله وبعيدا عن المنكر ..

فما هو حالنا اليوم ؟.

لقد تغير حال العرب على مستوى الشعب والامة ، وعلى مستوى الحكام ، بعد ان دخل الاجنبي ديار العرب ، وبعد ان قسم الاستعمار الغربي هذه الديار .. ومن خلال تقسيمه للديار فقد أنشأ دويلات ضعيفة نصب عليها العوائل التي قدمت له خدمات سهلت له مهمة احتلال ارض العرب ، والامعان في تقسيم ديارهم ، وقد راعى الاستعمار مصالحه في البترول ، وتأمين المواقع الجغرافية على سواحل البحار والمحيطات والخلجان ، عندما انشأ تلك الدويلات البترولية المسخ .. وبذلك ابعد الثروة عن الكثـرة من ابناء الامـة والشعب ومن خلال خططه وبفعل واقع حال الثروة الجديدة ، التي اصبحت فجأة في يد القلة من الامة ، تستغل وتستثمر لصالح الاجنبي ولصالح القلة من الحكام الجدد ، ومن يلتف حولهم ، انتشر الفساد المـالي والاجتماعي في تلك الدويـلات واستخدم حكـامها اساليبهم الخبيثة يعاونهم الاستعمار لتسهيل مهمتهم ، فافسدوا من اوساط الكثرة في الاقطار العربية الكثير ..

وهكذا اصبح هذا الوسط ينخر في جسم الامة وينفث فيها كل ماهو فاسد ..

وبسبب حالهم هذا صاروا يعطون اسوأ صورة عن العـربي في البلدان الاجنبية ، بسبب تفكيرهم الشائه والقاصر ، وبسبب سلوكهم المشين وكان المسؤول الاول في هذه الصورة الحكام من عملاء الاجنبي وخدمه .

وامام هذه الصورة كان لابد من القيام بتصحيح جذري لهذه الصورة المخزية التي افسدت الكثرة من الاقلية في هذه الدويلات ، وراحت تفسد القلة في اقطار العرب الكبيرة لتنشر المرض في صفوف الاكثرية وتصيبهم فيه ، بعد ان اعياهم العوز والفقر .. فكان الذي كان في جنوب العراق ، في يوم النداء في الثاني من شهر آب ، هذا الشهر ، يوم لبى العراق النداء لينقذ الكويت من آفة الضعف والفساد ، وحالة العزلة التي بقيت فيهـا الكويت بعيدة عن اهلها والاصل في العراق العزيز ..

فكان الذي كان في يوم الكويت .. يوم النداء .. فجن جنون الماجنين والخونة .. اولئك الذين خانوا الشعب والامة ، يوم مكنوا الاجنبي من رقاب بعض العرب .. بعد ان مكنوه من رقابهم هم ، حتى صاروا اذلاء ، وهم يقدمون خـدماتهم له .. وجن معهم جنـون الدوائر الامبريالية والصهيونية .. لانهم يدركون بان لاحياة بشرف للعرب ، وليس هنالك مدخل جدي لحل مشاكلهم ، من غير ان ينجح هذا المدخل الشريف .

وهكذا اصبح تحرير الكويت ووحدتها مع امها العراق ، هو معركة العرب ككل .

انها معركة التحرر من الجوع والعوز والاطلالة على حياة عزيزة مرفهة ، بعيدة عن الذل والمسكنة ، قريبة من الله واحكامه ، بل هي واحكام الله في تطابق تام .. انها المدخل ليحترم الاجنبي حقوق العرب ، وان يستجيب لها في كل مكان ...

انها المدخل الذي يساهم مساهمة عظيمة في تقوية الارضية التي يقف عليها شعب الحجارة ، وما يناضل ويجاهد من اجله الفلسطينيون والعرب ...

وهكذا رأت الصهيونية ، وهي تتعامل بصورة محمومة مع الحدث ، وتنسق جهود العدوان مع امريكا ، وكأن الحريق في مواقعها ، او ان ارض فلسطين قد تحررت ..

وعلى هذا الاساس اصطف في جانب ومرة واحدة الامبريالية والمنحرفون ، وتجار وسماسرة السياسة ، وخدم الاجنبي والصهيونية ضد العراق ، ليس لشيء ، الا لأنه يمثل ضمير الامة واقتدارها ، وعنوانا معلنا للمحافظة على شرفها وحقوقها من الاذى والدنس .

ان العراق ايها العرب .. هو عراقكم .. وهو شمعة الحق لينزاح الظلام .

.. وبعد ان اصطف الكفر كله في صف واحد .. فليصطف الايمان كله مع العراق ، في الصف المقابل ، وسيرعى الله هذا الصف المبارك ، كما رعى الاولين من اجدادنا ، وهم ينازلون عتاة وكفار الجزيرة ، وكفار وعتاة الفرس والروم في معارك صدر الاسلام .

وسينصر الله صفوفنا وستندحر صفوف الاعداء الاشرار ، مهما بلغت قوتهم وازداد صلفهم ، ومهما ازداد خبث الخبثاء من الخونة اصحاب قارون الكويت واذناب الاجنبي .

لهذه الاسباب وفي هذه الظروف ، جاءت القوات الامريكية وانفتحت لها ابواب السعودية ، تحت شعار ادعاء كاذب وباطل ، بان جيش العراق سيواصل مسيرته الجهادية باتجاههم ، ولم ينفع النفي والتوضيح ، مما يعني ان التدبير مقصود لغايات عدوانية على العراق ، لانهم غير قادرين ، بعد ان انفضحت وفشلت دسائس السياسة المشتركة ، بينهم وبين الاجنبي ، ودسائس الاموال ، ان يقوموا هم بمفردهم في هذا العدوان .

وهكذا فان الحكام هناك ، لم يستهينوا بشعبهم وبامة العرب عندما فعلوا فعلتهم النكراء ، ومن قبلها كل اعمالهم وافعالهم الاخرى التي يندى لها الجبين ، وانهم في هذا لم يتحدوا الامة العربية والاسلامية وشعبهم فحسب ، وانما راحوا يمعنون في الضلال ليتحدوا الله سبحانه وتعالى ، يوم وضعوا مكة المكرمة التي يحج اليها المسلمون ، وضعوها ، وقبر الرسول محمد (ص) تحت حراب الاجنبي .

ايها العرب .. ايها المسلمون .. ايها المؤمنون بالله حيثما كنتم .. هذا يومكم لتهبوا ، وتنفروا خفافا ، لتدافعوا عن مكة الاسيرة بحراب الامريكان والصهاينة .. هذا يومكم لتهبوا ، وتنفروا خفافا ، لتدافعوا عن الرسول محمد بن عبدالله ، الذي حمل الرسالة الكريمة في هذه الارض الكريمة لتبقى مقدسة .. ثوروا على الظلم والفساد والخيانة والغدر .. ثوروا ضد حراب الاجنبي التي اهانت مقدساتكم .. ابعدوا الاجنبي عن ديارنا الشريفة المقدسة ، ارفعوا اصواتكم ، واستنخوا من ينتخي من حكامكم ، ليقف الجميع وقفة عز واحدة ، ولنطرد الظلام ، وافضحوا الحكام الذين لايعرفون النخوة .. وثوروا على من يقبل ان يستعرض امراء البترول نساء العرب بالسوء ، ويدفعوهن الى الفحشاء .

قولوا للسماسرة من الحكام ، وهم يمارسون دورهم هذا في خدمة الاجنبي ، او يمارسون السمسرة في خدمة امراء البترول على نساء العرب .. وقولوا للخونة ، ان

لامكان لهم على ارض العرب ، بعد ان فرطوا بحقوق الشعوب ، واهانوا الكرامة والشرف .

احرقوا الارض تحت اقدام المعتدين الغزاة ، الذين يريدون بأهلكم في العراق شرا ، ليعم شرهم الوطن العربي من بعد ذلك ، وليسكت الى حين صوت الحق في الامة العربية ، بعد ان يمنوا النفس ، خاب فألهم ، باسكات صوتكم في العراق .

اضربوا مصالحهم حيثما كانت .. وانقذوا مكة المكرمة ، وانقذوا قبر الرسول محمد (ص) في المدينة المنورة .

ايها الاخوة في مصر الكنانة .. يا احفاد الرجال المؤمنين ... يا ابناء ثورة عرابي وثورة ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليو .. يا احفاد عرابي وسعد زغلول ... يا ابناء جمال عبدالناصر .. انه يومكم ودوركم لتمنعوا على الاجنبي واساطيله ، ان يمر من سماء مصر وقناة السويس ، لكي لا تتدنس سماؤكم ومياهكم ، ويكتب عنكم التاريخ ما لا يليق بمصر ...

يا ابناء مضيق هرمز .. امنعوا على اساطيلهم المرور .. انتم والرجال المؤمنون في رأس الخيمة والشارقة ..

ايها العرب في كل مكان ..

لقد صمم اخوانكم في العراق على الجهاد ، من غير تردد او تراجع ، ومن غير مهابة تجاه قوى الاجنبي ، ليحوزوا على الحسنيين باذن الله ... النصر ورضا الله العزيز الحكيم .. ورضا الامة .

واننا لمنتصرون بعون الله ، وسيندحر الغزاة ، وسيندحر باندحارهم الظلم والفساد حيثما كان ، وستطلع على امة العرب والمسلمين شمس لاتغيب ، وسيكون الله راضيا عنهم ... بعد ان نطهر النفس والارض من رجس الاجنبي ، وما علق بها من فساد المفسدين ..

ايها الاخوة ..

قاوموا الغزاة ونددوا بهم ، وافضحوا المتعاونين والمتواطئين والخائرين المتخاذلين ، وناصروا العراق ..

وان الله معكم والنصر حليف المؤمنين المجاهدين ، وهو حليف القوميين المناضلين .. وحليف كل حر شريف ..

(الذين قال لهم الناس ، ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

(صدق الله العظيم)

والله اكبر وليخسأ الخاسئون .

صدام حسين
١٩/ محرم/ ١٤١١هـ
١٠/آب/ ١٩٩٠م

مبادرة الرئيس صدام حسين في ١٢/٨/١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مساهمة منا في خلق اجواء سلام حقيقي في المنطقة ، وتسهيلا لوضع المنطقة في حالة استقرار ، وكشفا لزيف امريكا وحليفتها المسخ اسرائيل ، وفضحا لعملائهـا الصغار وجرائمهم ضد الامة وتوكيدا للحق من موقع الاقتدار المؤمن بالله والشعب والامة .

قررنا ان نتقدم بالمبادرة التالية :

لقد حاولت الولايات المتحدة الامريكية ان تغطي على تحركاتها المعاديـة للانسانيـة وشعوب المنطقة بدعوى ان قرارات المقاطعة الاقتصادية للعراق هي احتجاج على مساعدة العراق لاهل الكويت الذين انقذوا انفسهم من حكم آل الصباح ، ثم طار صوابها يوم قرر الكويتيون والعراقيون اعادة وصل ماقطعه الاستعمار الانكليزي بين العراق والكويت ، بعد ان كانت الكويت جزءا من العراق حتى الحرب العالمية الاولى ، ولم يعترف العراق بما اقدم عليه الاستعمار من جريمة حتى الوقت الحاضر .. ثم راحت اميركا تحشد الاساطيل الحربية واسراب الطائرات وتدق طبول الحرب ضد العراق بدعوى مواجهـة التهديـد العراقي للسعودية ، ولان شرارة الحرب ان هي ابتدأت ستحرق الكثيرين وتسبب لمن يكون في ميدانها ويلات كبيرة ، وبغية وضع الحقائق كما هي في مواجهـة الرأي العام العالمي ، والغربي منه بوجه خاص ، وكشف زيف ادعاءات اميركا في انها تناصر قضايا وحقوق الشعوب وتسعى للمحافظة على الامن ومصالح الغرب فحسب .. فاني اطرح ان تحل كل قضايا الاحتلال او القضايا التي صورت بانها احتلال في المنطقة كلها وفق اسس ومبادىء واحدة ومنطلقات يضعها مجلس الامن وكما يلي :

(١) اعداد ترتيبات انسحاب وفق مبادىء واحدة ، لانسحاب اسرائيل فورا وبلا شروط من الاراضي العربية المحتلة في فلسطين وسوريا ولبنان ، وانسحاب سوريا من لبنان ، والانسحاب بين العراق وايران ، ووضع ترتيبات لحالة الكويت ، وان تنسحب الترتيبات العسكرية في توقيتاتها وكل مايتصل بها من ترتيبات سياسية ، على كل الحالات ووفق نفس الاسس والمبـادىء والمنطلقـات المعتمدة ، آخـذين بنظر الاعتبـار الحقوق التاريخية للعراق في ارضه ، واختيار شعب الكويت ، وان تكون البداية في تطبيق البرنامج بما هو اسبق للاحتلال او ما سمي احتلالا ، مبتدئين بتطبيق كل ماصـدر من قرارات لمجلس الامن وهيئة الامم المتحدة لكل الحالات ، وهكذا وصولا الى اقرب حالة فيها ، وان تطبق نفس الاجراءات التي اتخذها مجلس الامن حيال العراق ، تجاه من لايلتزم بهذا الترتيب او يتجاوب معه .

(٢) بقصد اظهار الامور على حقيقتها امام الرأي العام العالمي ليحكم وفق شروط موضوعية بعيدا عن الرغبة والضغط الامريكيين ، نرى ان تنسحب فورا من السعودية

القوات الامريكية والقوات الاخرى التي استجابت لمؤامراتها وان تحل محلها قوات عربية يحدد حجمها وجنسيتها وواجباتها واماكن تواجدها مجلس الامن يعاونه الامين العام للامم المتحدة وبالاتفاق على جنسيات القوات العسكرية بين العراق والسعودية وان لايكون من بينها قوات من حكومة مصر التي اتخذت منها امريكا متكأ لها في مؤامراتها ضد الامة العربية .

(٣) ان تتجمد فورا كل قرارات المقاطعة والحصار ضد العراق وتعود الامور الى مجراها الطبيعي في التعامل الاقتصادي والسياسي والعلمي بين العراق ودول العالم ولاتعود تلك القرارات الى البحث والتطبيق الا على من تنطبق عليه في حالة خرقه لما ورد ذكره في (١،٢،٣) اعلاه .

وفي كل الاحوال وعندما لاتتجاوب اميركا هي وحلفاؤها والصغار من عملائها مع مبادرتنا هذه ، فاننا سنقاوم بقوة ، نحن والخيرون من ابناء الامة العربية وشعب العراق العظيم ، نزعاتها الشريرة ومخططاتها العدوانية ، وسننتصر بعون الله ، وسيندم الاشرار على فعلتهم بعد ان يخرجوا مدحورين ملعونين من المنطقة يجرون اذيال الخزي والعار ..

والله اكبر وليخسأ الخاسئون .

صدام حسين

٢١ / محرم / ١٤١١ هـ

١٢ / آب / ١٩٩٠ م

بغـــــداد ـ واشنــــــطن
الممكـــــن والمســـــتحيل

كلّما التقى مسؤولان ، عراقي واميركي ، تصرفا وكأنهما داخل غرفة معتمة ، لايرى احدهما الاخر . ويحاول الاثنان معرفة بعضهما ، فلا يجدان غير ان يتلمس كل منهما وجه الاخر باصابع يديه .

كان الاسلوب الذي فضل العراقيون التعامل به مع الولايات المتحدة اقرب الى التطابق مع مثل امريكي ترد فيه كلمة (Bush) التي تحمل مفردات اسم الرئيس الامريكي ، وهي في هذا المثل تدل على معناها الدارج ، اذ يتداول الامريكان مثلا يقول Don't Beat Around The Bush ويعود هذا المثل في اصله الى مواسم الصيد ، حيث اعتاد الصيادون ان يدوروا حول الاحراش (Bush) ليقرعوا الطبول بانتظار ان تخرج الطرائد من اعماق الاحراش لتصبح صيدا ممكنا امامهم ،.. وصار المثل يُضرب عندما يُراد من المقابل ان يذهب الى موضوعه مباشرة بدون لف ، أو دوران ، يشبه الدوران حول الاحراش .

وقد تلمس السيد جورج شولتز عندما كان وزيرا للخارجية سنة ١٩٨٨ خاصية المباشرة والابتعاد عن اللف والدوران في الشخصية العراقية .. اذ قال غير مرة للمقربين منه بعد لقاءاته مع السيد طارق عزيز وزير خارجية العراق آنذاك :

ـ ليس هناك مشكلة مع العراقيين ، ومع وزير خارجيتهم ، اذ ليس لديه لغتان .. فهو صريح ومباشر ، وكان يقول لنا صراحة ما تقبل به بلاده ومالا تقبل .. اما الوزراء العرب الآخرون فانهم مزدوجون .

ظلت العلاقات بين واشنطن وبغداد تتأرجح طوال ربع قرن في اجواء انعدام الثقة المتأتي من عاملين :

الاول : تحسس العراق من قوة النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة .

الثاني : عدم معرفة الطرفين لبعضهما ، وحداثة علاقة كل منهما بالآخر ، قياسا الى علاقة العراق ببريطانيا مثلا .

وزاد هذين العاملين حساسية وتعقيدا سعي العراق للتعامل كطرف مستقل لا كطرف تابع ، سواء في لحظة التوافق ، ام لحظة الاصطدام .

وفي كل الاحوال .. كان هناك منطقان مفترقان ، فكلما ضرب العراقيون المثل الاول ، اجابهم اميركيون بمثل آخر يقول : If you can't beat them Join them . (اذا لم تتمكن منهم .. فانضم اليهم) .

وبدا ان المثلين يضربان للتفريق بين منطقين .. وهو امر كاف للتنويه بعمق سوء الفهم وانعدام اللغة المشتركة ..

□ □ □

هل يؤدي سوء الفهم بين حضارتين الى الحرب احيانا ..؟.. ام ان سوء الفهم بين نموذجين يؤدي الى الصدام حتما ..؟

وهل كان العراق يعرف امريكا ؟ وهل كانت امريكا تعرف العراق ؟

اسئلة شغلت سياسيي البلدين الى الحد الذي صار بعض العراقيين يستنتجون ان الصدام صار محتما في اللحظة التي افترض الاثنان انهما عرفا بعضهما .. فادركا انهما مفترقان .. مع إنهما لم يكونا قد عرفا بعضهما حقاً ، بعد ان كانا قد جربا تأسيس علاقات بناءة يسبقها حوار ومحاولة تفهم ، لكن الحوار في نوعه وطريقة اجرائه وتوقيته لم يقطع الطريق على الصدام المحتم .

كان التداخل عميقا الى الحَد الذي شعر الامريكيون والعراقيون انهم لكي يعرفوا بعضهم بعضا يحتاجون معا لوضع قاموس مشترك حتى في مفردات التخاطب ، وطوال المدة من سنة ١٩٨٤ ، عندما اعيدت العلاقات الدبلوماسية بين واشنطن وبغداد ، وحتى ١٩٨٨ عندما انتهت الحرب العراقية الايرانية ، نشط العراق ليحذف وصف التطرف عن سياسته الخارجية وصورة قياداته امام المتلقي الامريكي ، فاستبدل السياسيون والباحثون الامريكان وصف (متطرفون) Extermists الذي كانوا يطلقونه على العراقيين باستخدام وصف (معتدلون) Moderates ، وكأنهم ارادوا بذلك ان يوسّعوا دائرة التفاهم ، لكن العراقيين تحفظوا على هذا الوصف ايضا ، وكان السيد طارق عزيز الذي اعتاد ان

يتحدث أمام مجلس الشؤون الخارجية الامريكي في نيويورك ، لدى حضوره اجتماعات الجمعية العامة سنويا ، يرى في شرح تحفظه على وصف المعتدلين .. ان الامر اعمق من المشكلة الاصطلاحية ، ويتعلق بتقديم الوصف المختزل السريع الذي يمكن ان تتشكل منه صورة بلاده في امريكا ولدى الغرب عموما ، وخاطب مستمعيه من الباحثين :

ـ اننا لانميل لتسمية نظامنا بالنظام المعتدل ، لان ذلك يخلق التباسا في تحديد درجة الاعتدال وطريقة القياس ، ثم مع مَن يكون الاعتدال واين يكون ..؟.. لذلك نفضل ان يوصف نظامنا بانه نظام (مسؤول) Responsible .

يذهب السيد عزيز الى ان مدرستين في التفكير حول طريقة التعامل مع العراق نشأتا في امريكا منذ اعادة العلاقات الدبلوماسية سنة ١٩٨٤ ، بعد ان تيقّن الامريكان ان العراق لن يهزم في الحرب امام ايران .

ظهر دعاة لايترددون في التصريح بان العراق هو ركيزة قوية مضمونة في منطقة مضطربة ، ويطرحون سؤالا اكثر تحديدا : لماذا لانتحالف مع العراق اذن ؟.. وكان من بين هؤلاء الدعاة اعضاء في مجالس البحوث ، وامريكان من اصل عربي ، وسياسيون ، ومعظم هؤلاء كانوا قد زاروا العراق ودرسوا اوضاعه مباشرة ، لكن هذه المدرسة لم تكن قوية بحيث تؤثر مباشرة في صنع القرار السياسي رغم ان اصوات اصحابها كانت مسموعة .

جاء امريكيون من اصل عربي ليبلغوا العراق رسالة واضحة منتصف الثمانينيات :

« ان هناك اوساطا امريكية تفكر جديا بتسليم ملف الشرق الاوسط الى العراق ، بما في ذلك دعوته ليتفاوض مع اسرائيل لمعالجة ازمة المنطقة ، بعد ان توصلت هذه الاوساط الى ان الرئيس

المصري حسني مبارك لايملك تأثيرا يذكر في العالم العربي ، وان دور مصر ووزنها لا يؤهلانها الآن لتقود الجانب العربي في اتجاه حل ازمة الشرق الاوسط) .

لم تكن الرسالة التي تلقاها العراق عابرة او منقطعة الجذور عن خطوات تالية تعززها ، وتطرح جديا خيار ان يتسلم العراق ملف ازمة الشرق الاوسط ، فقد فاتح سياسيون امريكيون الدبلوماسيين العراقيين حول اقامة اتصال مباشر بين العراق واسرائيل ، وسألوهم : لماذا لاتتكلمون مع الاسرائيليين ؟ ان من يتولى ملف المنطقة سيكون بحاجة من الناحية العملية لأن يتكلم مع الاسرائيليين .

كان جواب العراقيين على عمليات جس النبض المتتالية التي وُجهت اليهم : اننا لسنا طرفا مباشرا من الناحية القانونية والدستورية ، واذا كان هناك من يتكلم مع الاسرائيليين فانهم الفلسطينيون وليس العراقيين .

وفوجىء السيد طارق عزيز مرة اخرى منتصف سنة ١٩٨٦ ان صحفية امريكية قالت له قبل ان تنهي مقابلة صحفية :

ـ ان عزرا وايزمن يسلم عليك .. وقد طلب مني عندما عرف انني آتية الى العراق ان ابلغك سلامه .

فاجابها السيد عزيز :ـ « ليس لدي اي شيء مع وايزمن او سواه من الاسرائيليين ، ولايوجد موضوع ثنائي بيننا ، هناك القضية الفلسطينية وازمة الشرق الاوسط ، واذا اراد ان يتحدث مع احد في هذه القضية فليجد شخصا آخرا غيري ..

وتكررت المحاولة في خريف السنة نفسها عندما جاءت سيدة امريكية تعمل في الجمعية العراقية الامريكية لتبلغ السيد عزيز الذي كان موجودا في نيويورك : ان رئيس وزراء اسرائيل اسحق شامير يطلب لقاءً مع الرئيس صدام حسين ، فابلغها عزيز رفض هذا الطلب .

عندها قالت له :ـ انك ترفض الطلب قبل ان تبحثه في بغداد ، فاجابها :ـ انني اعرف مـاذا سيكون رد الرئيس صـدام حسين عندما اعرض عليه الامر فخذي الجواب منذ الآن ، واذا كان لدى شامير شيء يريد ان يتحدث به فليقابل السيد ياسر عرفات ويبحث معه القضية الفلسطينية » .

وتناغمت عمليات جس النبض الاسرائيلية نحو العراق ، مـع الترويج بنشوء (لوبي) في الخارجية الاسرائيلية ضد التعامل مع ايران وبيعها الاسلحة ويتبنى فكرة فتح قنوات اتصال مع العراق باي ثمن كان .

وقد اعقبت ذلك محاولة من احد اعضاء الكونغرس عقد اجتماع لسفير العراق لدى واشنطن نزار حمدون مع وزير اسرائيـلي من اصل عراقي ، هو موشيه شاحال ، من كتلة العمل ، لكن السفير العراقي اعتذر عن حضور الاجتماع .

واستنتج العراقيون ان هناك دافعين لهذه المحاولات ، الاول : ادخال العراق في عملية اللقاء المباشر مع اسـرائيل ، والثـاني : تحسس مدى استعداد العراق لتولي ملف ازمة الشرق الاوسط ، وهو الامر الذي يثير مسألة الطموح الاقليمي للعراق في اداء دور (الدولة الاقليمية القائد) .. ومحاولة الامريكان سبر اغوار العقل العراقي في اتجاه هذا المطمح .

حصل جس النبض في لحظة حرجة مرت المنطقة فيها بعد تراجع الحظرين السوفيتي والايراني ..

هنا ..

وقع الاحتكاك بـين دور الحمايـة العراقيـة ، ودور الحمايـة الامريكية .. للخليج .

كانت ملامح دور الحماية العراقية للمنطقة تتكون في لحظة بروز نزعة حاسمة في واشنطن لفرض الحماية الامريكية على الخليج .

العراق اثبت امكانيته على الحماية في صد الثورة الايرانية من

ناحية .. وحماية الانظمة السياسية المحلية من محاولات التفجير الاجتماعي الداخلي .. وطرح نفسه حامياً اقليمياً ..

ومقابل ذلك كان هناك منطق اخر في الخليج بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية يرى ان الحماية المضمونة ستوفرها قوة دولية وليست قوة اقليمية ..

فاذا كان هناك خطر فان امريكا هي التي ستوفر قوة الصد والغطاء السياسي لمقاومته ، ولن يُعطى هذا الدور للعراق ، وكان واضحاً ان حكام المنطقة فضلوا الحامي الامريكي على الحامي العربي ، ولم يكن من الصحيح ان يتوقع احد العكس ، في اللحظة التي دخلت الكويت فيها الى اوركسترا العزف الصاخب الذي يدق الطبول على ابواب العراق حين تجمعت لدى القيادة العراقية معلومات عن عملية تطويق منظمة ذات ابعاد سياسية واقتصادية وعسكرية وامنية تهدف الى اضعاف البلاد الى درجة الانهاك والوقوف على شفا الانهيار الاقتصادي .

وصارت بغداد تسأل عندها : هل كانت الكويت قادرة على الاحتكاك بالعراق لولا توفر غطاء الحماية الامريكية ؟ « بمعنى ان الحماية لم تعد ضد الخطرين التقليديين (السوفيتي والايراني) ، ولكن ضد الاخ الحامي الذي رُفض دوره في الحماية » .

والا لماذا لم توفر الولايات المتحدة الحماية للخليج طوال ثماني سنوات من الحرب مع ايران ، وكان العراق هو الذي يتولى هذه الحماية من الناحية العملية باشغال قوة ايران واستنزافها ، حتى الحق بها الهزيمة بحيث صارت عاجزة عن تهديد الخليج .

ويذهب هذا التحليل الى ان من وفر الحماية في السنوات الماضية ، هو الاحق في مواصلة ممارسة هذا الدور .. ثم لماذا تطرح الولايات المتحدة الحماية على الخليج بعد ان زال الخطران الايراني والسوفيتي .. اليست الحماية في هذه اللحظة موجهة ضد العراق ؟ .

وكان مما عزز هذا الاستنتاج ، الكلام الذي استمعت بغداد اليه من زوارها الخليجيين الذين افادوها ان امريكا وبريطانيا بدأت بتحذير دول الخليج من الخطر العراقي ، ومن مبرر وجود ١٠٠ فرقة عسكرية مثيرة فيها الذكر من خطر عراقي .

وابلغ الملك فهد العراق ان (جون كيلي) وكيل الخارجية الامريكية زار دول الخليج ونبهها الى خطورة تعاظم القوة العسكرية العراقية على هذه الدول . وقد اشار الى ذلك الجنرال نورمان شوارزكوف في محاضرة له سنة ١٩٨٩ عندما ذكر « ان العراق صار قوة مهددة لامن حلفاء امريكا في الخليج » بعد زيارة له الى السعودية والامارات ، والكويت التي زار احدى قطعاتها المتقدمة في الشمال ، وعاين مع ضباط قواتها المسلحة طاولة الرمل لخارطة المنطقة وقد صوبت سهام حركة المدرعات عليها في اتجاه العراق ، كما اظهر لاحقا شريط عثرت عليه القوات العراقية بعد دخول الكويت عن زيارة شوارزكوف في ٩/ ١٠/ ١٩٨٩ .

اذن .. صار العراقيون يشكّون بأن كل خطوة عسكرية امريكية في الخليج .. ستقترب من حافات العراق ، ولن يكون بصرها مصوبا لسواه .. هذا ماتوصلت اليه بغداد من استنتاج في لحظة احتكاك دوري الحماية : العراقي والامريكي في منطقة الخليج .

□ □ □

لم يكن من المتوقع ان تكتفي الولايات المتحدة بمراقبة اوسع عملية نقل للتكنلوجيا قام بها العراق في هذا القرن ، خاصة بعد ان توقفت الحرب مع ايران وصار الغرب يراقب خطوات العراقيين وجهودهم لبناء قاعدة تكنلوجية لم يعتد اي بلد في العالم الثالث على السعي للحصول عليها ، وكانت الادارة الامريكية تعلم جيدا ان العراق اخذ معظم ما يحتاجه من الغرب ومنهم الولايات المتحدة ولم تشأ الادارة ان تخبر الكونغرس بالصفقات التي عبرت الى العراق ، في حين كان مساعد وزير الدفاع الاميركي «ريتشارد بيل» المعروف بتعاطفه مع اسرائيل يسرّب المعلومات

عن الصفقات العراقية ويعرقل ما عدَّه أخطرها ، وهي صفقة الكومبيوترات العملاقة التي تستخدم في التقنيات الأكثر تعقيداً ، مع ان وزيره « واينبرغر » كان يومئذ من أشد المتحمسين ضد ايران .

□ □ □

مهمة في واشنطن

فاز جورج بوش برئاسة الولايات المتحدة في الانتخابات التي جرت في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨ ، ولكنه من الناحية العملية لم يباشر مع طاقمه الجديد مسؤولية ادارة البلاد الا في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٩ .

كان موقف الولايات المتحدة من تسلّح العراق خلال حربه مع ايران غير موقفها منه بعد انتهاء هذه الحرب ، وهو الامر الذي كان يفرض على العراق ان يتحرك جدياً لاحتواء التغيير في موقف الادارة الامريكية حتى لايصبح عداءً علنياً ، ويمضي في طريق لاعودة منها .

وعلى الرغم من الميل العام لصالح العراق خلال مدة الحرب العراقية ـ الايرانية فان بغداد لم تتوصل الى استنتاج نهائي لجذور عملية ايران ـ غيت ، وكان ثمة تساؤل : هل كانت ايران ـ غيت تعكس موقفاً استراتيجيا في ولاية الرئيس رونالد ريغان أم أنها كانت تصرفاً لمجموعة من صنّاع القرار ؟ ولكنها مجموعة مهمة ...

ومن الغريب ان العراق لم يؤسس تقاليد في دراسة السياسة

الامريكية سواء على مستوى صنع القرار او اتخاذه ، اذ لايوجد مركز لدراسة السياسة الامريكية في حين توجد في العراق مراكز بحثية في الشؤون الايرانية والتركية والاسرائيلية .

وليس بالامكان القول ان العراق دخل المواجهة مع الولايات المتحدة وهو يعرف آلية صنع القرار الامريكي ، وآلية اتخاذه ، اذ ان وجود اشخاص مثل السادة طارق عزيز ونزار حمدون وعبد الامير الانباري يعرفون كيف تفكر امريكا وكيف تصنع قرارتها لم يكن كافيا لخلق تقاليد معرفية بالولايات المتحدة ، اذ لم تقم في العراق عشية انفجار الصراع مؤسسة متفرغة لرسم تقاليد لتعامل العراق مع اكبر دولة في العالم .

كانت ثمة تقاليد في التعامل العراقي مع ايران عمرها اكثر من أربعة قرون من التنازع افرزت حسا شعبيا عفويا في النظرة الى النموذج الايراني والتعامل معه ، ونضجت حاسة الشم العراقي بأتجاه ايران بعوامل المحاددة الجغرافية ، والتداخل الديني مع نقيضه في الصراع الثقافي ، ولذلك قاتل العراقيون ايران وهم يعرفونها ، وكانت لديهم مؤسسات وخبراء في الدبلوماسية ، والمخابرات والجيش والاعلام والاقتصاد يستطيعون ان يقدموا اجابات مباشرة وسريعة في كل صفحة من صفحات الصراع مع ايران .

وكذا الامر مع اسرائيل التي حاربها الجيش العراقي سنة ١٩٤٨ ، وكانت الموضوع الشاغل في البرامج السياسية لجميع الاحزاب والحركات السياسية والحكومات العراقية منذ قيام دولة اسرائيل ، مع توافر ميزة نادرة هي وجود اجماع على معاداتها رتب نشوء تقاليد راسخة في مؤسسات الجيش والمخابرات والدبلوماسية والاعلام .

أما امريكا فكان الامر معها مختلفا اختلافا عميقا .

على المستوى الشعبي كانت صورة امـريكا هي نـاتج بعـدها الجغرافي الممتزج بترسبات الدعاية الامريكية من جهة حيث تقدم صورة محسنة تغري الاحلام وتشبعها الى جانب نقيضها من صور التفكير التي يتبناها الشرق عن بلد مستلب القيم يغرق في الجرائم والمخدرات والامراض المستعصية وانحلال القيم .. ولم يكن لهذا الخليط الا ان ينتج في الضمير الجمعي العراقي صورة من نصفين متناقضين يلعن أحداها نصف النهار ، ويعجب بنصفه الآخر في ماتبقى من نهاره .

صورة مضببة تعكس مرة مشهد مجتمع دموي كان ابناؤه قتلة في حـروب كوريـا وفيتنام ، وتعكس مـرة اخرى مشهـد مجتمع الرفاهية والدعة والاسترخاء والمتع ، حيث لايبدو ان أحدا مستعد لبذل حياته من اجل قيمة عليا ، او حروب خارج الحدود .

اما على مستوى النخبة من المثقفين والسياسيين والدبلوماسيين فأن الصورة كانت مختلفة عن ملامحها في الضمير الشعبي .

فأمريكا هي دولة حديثة التكون في جانب .. وقوة حديثة العهد في معـرفة العـراق في جانب آخـر ، ومادامت امـريكا هي ليست بـريطانيـا التي استعمرت العـراق وخرجت منـه دون ان ينتهي اهتمامها فيه فأن العلاقة مع واشنطن يمكن ان تقوم في مناخ اقل تعقيدا واقل كراهية واقل نفورا عن حاله مع بريطانيا .

لذلك كان من الممكن بناء علاقات قابلة للنمو مع واشنطن ..؟ وهي محاولة بدأت منذ منتصف الثمانينيات قبل ان تبدأ بالانحسار منذ عام ١٩٨٩ .

وفي بغداد كان هناك قلق غير معلن بعد مغادرة رولاند ريغان البيت الابيض ومعه وزير خارجيته جورج شولتز ، اذ ان الرجلين اتخذا من ايران موقفا متشددا لم تتخلله غير قضية واحدة ازعجت

العراق ، عندما باعت الولايات المتحدة اسلحة امريكية وارتضت قيام اسرائيل ببيع اسلحة اخرى الى ايران بما عُرف لاحقا بقضية (ايران غيت) ، وما رافق ذلك وسبقه من تسهيلات استخبارية يعتقد العراق ان ايران حصلت عليها من الولايات المتحدة لتسهيل احتلال الفاو جنوب البلاد .

وتوصل الرئيس صدام حسين الى ان هناك حاجة للقيام باستطلاع مباشر لمعرفة الاتجاهات التي ستختارها الادارة الجديدة في واشنطن بقيادة الرئيس الجديد للولايات المتحدة جورج بوش ، ولذلك طلب من وكيل الخارجية العراقية نزار حمدون (الذي كان قد مثل بلاده سفيراً في واشنطن بين ١٩٨٣ و١٩٨٧) ان يتوجه الى الولايات المتحدة ليقدم عرضا لسياسة العراق ، ويستكشف الطريقة التي يتعامل بها الامريكان مع بغداد بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية .. وليؤسس قاعدة للحوار مع الادارة الجديدة في واشنطن .

□ □ □

كلما التقى مسؤولان عراقي وامريكي ، تصرفا وكأنهما داخل غرفة معتمة ، لايرى احدهما الآخر ، ويحاول الاثنان معرفة بعضهما .. فلايجدان غير ان يتلمس كل منهما وجه الآخر باصابع يديه .

محاولة معقدة للاكتشاف ..

وليدان من نبتتين مختلفتين ، بعيدتين عن بعضهما ، وكل منهما يرى الآخر ، فيغرق في الدهشة والعجب .. حتى بالنسبة لاكثر الناس معرفة بالآخر وخبرة فيه .

وحين دخل الدبلوماسي العراقي الشهير نزار حمدون في ١٩٨٩/٣/٢٢ على المستشار الجديد للامن القومي الامريكي برنت سكو كروفت . لم يخف مشاعر الاستغراب في محاولة اكتشاف شخص ينتمي الى احدى عجائب امريكا من وجهة نظر الشرق ، والاسلام ، والعرب .

لقد انتقل الجنرال المتقاعد والمستشار في شركة مملوكة لوزير الخارجية الاسبق هنري كيسنجر ليصبح مستشارا للامن القومي بأمرة الرئيس الجديد جورج بوش .. فكيف سيتصرف نحو العراق رجل وليد عن ديانة محدودة الانتشار خليطة المصادر ، تشابه بعض الديانات الموشكة على الانقراض في الشرق العربي .

كل انسان هو وليد حضارة وعقيدة .. وهاهي امريكا اليوم خليط من اديان واجناس ، وهي هذه المرة ليست مسيحية ويهودية .. وحسب .. وليست بيضا وهنودا حمرا ، وحسب .. ان فيها من الاجناس والاديان الثالثة الكثير .

كيف سينظر منتم الى دين ثالث نحو العرب والمسلمين ، ومنهم العراقيون اذن ؟

اما العراقي ، فكان هو الاخر يرى العالم من خلال الاسطورة التي تمثل احد مصادر تكوينه ، فعبْرَ منافذها يرى نفسه والعالم ، وتتشكل ردود فعله من خليط من الدوافع الظاهرة والكامنة ، تظللها بكائية متقطعة النحيب منذ سقوط بغداد على يد المغول سنة ١٠٥٢ للميلاد .

كيف سينظر رجل ينتمي الى احدى اغرب الاقليات الدينية في العالم الى الشرق ؟.. فالمسؤول الامريكي الكبير ، يعتنق ديانة المورمونية Mormonism التي تأسست سنة ١٨٣٠ على يد جوزيف سميث «Joseph Smith» ويبلغ تعداد مريدي هذه الديانة ٢,٥ مليون شخصا ، ينتشر ٨٠٪ منهم في الولايات المتحدة ويتوزع الآخرون في انكلترا وسويسرا ونيوزلندة ، وكندا .. وقد قامت على اساس اعتناق المفاهيم الصهيونية ، لما يعرف باليهودية العالمية ، ويؤمن اتباعها بالملكية الجماعية ، وتعدد الزوجات ، وهم يؤمنون بشعار (الشعب المختار) . وحاول (المورمونيون) اقامة دولة مستقلة لهم سنة ١٨٥٢ عندما اصبح زعيم الديانة (كراهام يونغ) «Graham Youny » حاكما لولاية «UTAH» غرب الولايات المتحدة ، فاعلن الخروج عن طاعة الحكومة

الاتحادية ، حتى هاجمتهم القوات المركزية واخضعتهم ، ثم ارغمتهم بعدئذ عن التخلي رسميا عن تعدد الزوجات ، رغم انهم ظلوا من الناحية العملية يدرجون على الزواج المتعدد .

اذن هذا ليس يهوديا .. وهو ايضا ليس مسيحيا .. سأل سكوكروفت المبعوث العراقي :ـ ما هدف زيارتك الى واشنطن ..؟ ثم استطرد : اليست بهدف التعرف على الادارة الحكومية الجديدة ؟ .. انني معروف لديكم .. ومن حسن الحظ اننا ، شخصيا ، تعارفنا من قبل .

كانت شخصية المستشار الجديد للامن القومي خليطا من « التواضع » و« القتامة » .. ولكن الحديث معه كان عمليا ، لانه يتحاشى الدخول في التفاصيل ويحدد ما يريده مباشرة :

ـ ما الذي نستطيع ان نفعله ، اليوم ، في منطقة الخليج لمواجهة ايران ؟

كان سؤال سكوكروفت متأخرا ، من وجهة نظر العراقيين ، اربع ، او خمس سنوات ، فالحرب انتهت ، والخطر الايراني انحسر ، ويكاد يتلاشى في اتجاه منطقة الخليج ، لذلك فان بغداد كانت ترى ان حماية المنطقة من الاندفاع الايراني قد تحقق بفعل العراقيين وجهدهم ، ولذلك لم يطلب الدبلوماسي العراقي من سكوكروفت غير مساعدة بلاده في تأييد الدعوة للمفاوضات المباشرة بين العراق وايران ومساندة مطالب بغداد بالتبادل الفوري لاسرى الحرب .

استنتج المبعوث العراقي ان المسؤول الامريكي كان معنيا بالدرجة الاولى ، بثبات استقرار منطقة الخليج ، لحيويتها بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة ، وان واشنطن تضع مسألة تدفق النفط باسعار غير مرتفعة ضمن اولوياتها .. اذا لم تكن اولى اولوياتها !

□ □ □

في اليوم التالي ، ١٩٨٩/٣/٢٤ ، قابل السيد حمدون ، الوزير الجديد للخارجية جيمس بيكر ، صديق الرئيس جورج بوش ،

والمنحدر ـ من تكساس ، المكان نفسه الذي خرج منه الرئيس . وتسلم الوزير الامريكي رسالة مكتوبة من وزير خارجية العراق ، ثم مالبث ان وصف العلاقات مع العراق بانها مُرضية ، خاصةً ، وان بغداد تحتل المرتبة الثـانية في تعـامل العـرب التجاري مـع واشنطن .

وتوزعت الموضـوعات التي اثـارها الوزيـر بيكر عـلى متابعـة التعويضات المقرر دفعها من العراق الى ضحايا الفرقاطة الامريكية ستارك التي تعرضت لهجوم جوي عراقي بالخطأ في ١٩٨٨ ، وقلق الولايـات المتحدة من وجـود السادة ابـو العباس وابـو ابراهيم والعقيـد هواري في بغـداد ، ثم عاد ليصف مـوقف العـراق من مفاوضات تحريم الاسلحة الكيمياوية بانه موقف بنّاء ، وقال ان بلاده في جانب آخر تتابع بارتياح اعداد دستور جديد في العراق واطلاق التعددية السياسية واختيار الاتجاه الذي اثبت نجاحه في اماكن عدة من العالم .

اما السيد حمدون فاكد للوزير بيكر التزام العراق بعدم تشجيع الارهـاب وابلاغ السلطات الامـريكية عن ايـة عملية تستهـدف مصالحها ، وطلب ان يكون للولايات المتحدة دور ايجابي فعّال في دعم المفاوضات المباشرة وتبادل الاسرى بين العراق وايران .

لكن الامر الاكثر اهمية في اللقاء تركز على الحوار حول اوضاع منطقة الشرق الاوسط ولبنان والخليج مما يعطي الجانب العراقي استنتاجا مريحا حول اعتراف الولايات المتحدة بالدور الاقليمي للعراق واعتباره شريكا اساسيا في قضايا المنـطقة التي تتجـاوز اوضـاع الخليج والعلاقات العراقية ـ الايرانية .

□ □ □

قبل ان يغادر المبعوث العراقي واشنطن التقى بمساعدي وزير الخارجية الامريكي ورئيس قسم الشرق الاوسط وعدد من اعضاء الكونغرس ورؤساء مراكز البحوث ومدراء بعض الشركات المتعاملة

مـع العـراق ومجمـوعـة من الصحفيـين ، وعـاد الى حكـومتـه بالاستنتاجات التالية :

ـ اولا : ان الادارة الجديدة تتصف بانها اقل تشددا في الجانب الايديولوجي من الادارة السابقة ، وهي ذات طبيعـة براغمـاتية وتبدو مستعدة للخوض في صفقات سياسية على اساس حسابات الربح والخسارة في المجـالين الداخلي والخـارجي ، وان اسلوب الرئيس الجديد في السياسة الخارجية سيعكس خلفيته الشخصية كطيار سابق خلال الحرب العالمية الثانية ، وعضو في الكونغرس ، وسفير في الصين ومندوب في الامم المتحدة ومدير للمخابرات ، ثم كنائب للرئيس ، وهو الامر الذي يجعله اكثر الرؤوساء الامريكان منذ الحرب العالمية الثانية خبرة في الشؤون العالمية .

ـ ثانيا : ان التحـديات التي ستـواجه الادارة الجـديدة هي مشكلة الحد من الاسلحة النووية ، ومعالجة المشاكل التجارية مع اليابان ، والتكتل الاوربي الجديد والتعامل مع المسألة الالمانيـة ومـع الوضع القـابل للتـدهور في امـريكا اللاتينيـة ، الى جانب الاحتكـاك بالتصلب الاسـرائيلي من عمليـة السـلام في الشـرق الاوسط ، وستظل عقدة (ايران غيت) تلقي بظلالها على الادارة الجديدة وتحدد اسلوب التعامل المقبل مع ايران .

ـ ثالثا : ان هناك من يراهن على بروز العـراق كقوة اقليميـة سياسية واقتصادية ايجابية مع التخوف من استخدام العراق قوته العسكرية في التعرض ضد اسرائيل وحلفاء امريكا الآخرين .

على ان اخطر ما عاد به المبعوث العراقي ورد في عرضه لورقة كانت تعّد خلال وجوده في واشنـطن عن الخيارات المحتملة التي يتوجب على الولايات المتحدة ان ترتب سياساتها للتعامل معها في منطقة الخليج .

وقد جاءت الخيارات حسب التسلسل التالي :

- استئناف الحرب بين العراق وايران .
- حدوث ميل في ايران لصالح الاتحاد السوفيتي .

■ تحوّل العراق الى معاداة الكويت والسعودية .

□ □ □

بدا منتصف الثمانينيات ان العراق يؤسس أول مرة صالونه السياسي في الولايات المتحدة يوم كان باستطاعة سفير العراق في الامم المتحدة الذي اصبح لاحقاً رئيساً للجمعية العامة ، الدكتور عصمت كتاني ، ان يخاطب نائب الرئيس الامريكي باسمه الاول :

ـ جورج .. انت مدعو على الغداء في منزلي اليوم (وكان يقصد نائب رئيس الولايات المتحدة يومئذ ، جورج بوش) .

وتسنى لوزير الخارجية العراقي السيد طارق عزيز ان يلتقي معظم صناع القرار في الولايات المتحدة اواسط الثمانينيات ، بمن فيهم الرئيس رونالد ريغان ونائبه جورج بوش ووزير الخارجية الاسبق هنري كيسنجر والوزراء الاساسيون في الحكومة الامريكية .

ويذكر السيد طارق عزيز ان نائب الرئيس انذاك ، جورج بوش ، استقبله بطريقة ودية قبل دخولهما معاً على الرئيس رونالد ريغان ، وكانت سابقة ان يحضر نائب الرئيس لقاءات رئيس الولايات المتحدة مع مبعوثي الدول الاخرى .

وفي تلك المدة كان سفير العراق في واشنطن ، نزار حمدون ، قد بنى شبكة علاقات لم يتمكن سفير عربي حتى ذلك الحين من تأسيسها في اروقة السياسيين والاقتصاديين والمستشارين ورجال الاعلام .

لكن العراق لم يكن وحده الذي يعمل ...

فقد حفّز هجومه الدبلوماسي الصالون السياسي الصهيوني والقوى المؤيدة لاسرائيل على تنشيط العمل ضده ... ومِثْلَ الظل كانت هناك قوىً تقتفي اثر خطواته في اشد حرب خفية بين

دبلوماسية عربية من جهة ، وبين مراكز الضغط اليهودي من جهة اخرى .

□ □ □

لم يتـردد المثقفون العـراقيون في اثـارة اسئلة شغلت العقل العراقي : هل كان العراق يعرف خصمه ..؟ وهل لديه تقاليد في معاملة السياسة الامريكية ؟.. وهل كانت للدبلوماسية العراقيـة قـدرة التحسس المبكر للايقـاع الذي يضبـط القـرار السيـاسي الامريكي وهل كانت لديها امكانية وضع بدائل وخيارات في مقابلته والتعامل معه ..؟ وهل كان في امرة وزير الخارجية فريق قادر على تمثيل مدرسة دبلوماسية ذات تقاليد في التعامل مع العالم .. ومنه امريكا التي حلت محل بريطانيا عدوا « رقم واحد » للعـراق ؟.. وهل سعى العراق لخلق صالون سياسي يتفهمه في امريكا ويُديم معه الحوار في اللحظات الحرجة ؟

يلج السيد طارق عزيز مناخ هـذه الاسئلة ليمسك بجـذورها فيرى : « أن العراق لم يكن يتمتع بدور دولي قبل ثورة ١٧ تموز ١٩٦٨ ، ومن ثَمَّ فـان من لا يملك دوراً دولياً لا يملك تقـاليد في التعامل مع العالم ، بمعنى أن العراق لم يكن يملك قبل ذلك التاريخ تراثاً في فهم الوضع الدولي » .

وذهب الرجل الذي قاد الدبلوماسية العـراقية في اثنـاء ازمة الخليج ، خلال مداخلة له في ندوة مغلقة عقدت في بغداد ، الى « أن النظام السياسي في العراق حتى سنة ١٩٥٨ كـان نظامـاً تابعـاً للاخرين في النظرة الى العالم وفهمه ، ولم يكن هنـاك اي منظور عراقي خاص للوضـع الدولي ، حتى بدأ الرئيس صـدام حسين بالتنظير والعمـل معاً لتـأسيس دور دولي للعراق .. فنشر وعيـاً واهتماماً واسعين لم يكونا قائمين من قبل . »

لكن السيد عزيز يعتقد « ان الباحثين الاكاديميين والسياسيين في العراق لم يطورّوا المنهج الجديد في العراق ، ولم يغنوه ، برغم ان العراق صار يملك دوراً دولياً حاسمـاً ، واحيانـاً دوراً دولياً

مرجحاً ، وكانت المواجهة مع ايران احدى الاحداث التي لعب فيها العراق دوراً حاسماً . »

على أن اهم معضلة واجهها العراق كانت في الكيفية التي يعرض بها مضمون خطابه السياسي ، والآلية التي يرمم بها صورته التي تتهشم ، ولاسيما في الولايات المتحدة واوربا .

□ □ □

وساعدت اخطاء قاتلة في الاعلام العراقي على تدمير صورة العراق لدى المتلقي الغربي ، اذ لم يكن المتحدثون العراقيون في وسائل الاعلام الغربية على قدر متساو في الكفاءة ، ولا على معرفة متساوية بحساسية الرأي العام الغربي ولذلك فان احاديث بعضهم عم ما عرف بأكل الطيارين وهم احياء ، وهو امر مبالغ فيه ولايعكس الشخصية العراقية حقيقة ، قد ادى الى توفير فرص اضافية لهدم صورة العراق واثارة حفيظة المتلقي الغربي وحشد التعبئة من اجل الحرب .

مع ان العراق لم يكن بحاجة الى تقديم صورة دموية له ، بعد ان اختار هويته كمركز استقطاب للنهضة العربية المعاصرة ، حاملا رسالة قومية وانسانية .. كان الرئيس صدام حسين يبشر بها في احاديثه ورسائله طوال الازمة ، حينما اختار ان يخاطب العالم بلغة المبادىء ، مترفعا على ما هو ادنى منها في سلم اتهامات الحياة ، وكان السيد عزيز قد وصف الطريقة التي كان يفكر بها العراق عشية الازمة والتي تعرضت للتحريف .. بقوله :

« الرئيس صدام حسين يدعو في العلاقات الدولية الى التوافق لا الى الصراع ، وان اكبر عملية تزوير حصلت في العالم هي تصوير دعوات الرئيس على انها سبب لزعزعة الوضع الاقليمي والدولي » .

كان العراق قد اعترف بامتيازات الدول الكبرى في العلاقات

الدولية من جهة ، وفي بعض مناطق العالم من جهة أخرى، ولكنه أظهر تحفظاً على طريقة ممارسة هذه الامتيازات ، وهنا وقع الاختناق في قناة التفاهم بين بغداد وواشنطن . فالرئيس صدام حسين ابلغ سفيرة الولايات المتحدة « ابريل غاسبي » ، وبعدها القائم بالاعمال الامريكي « جوزيف ويلسون » في أثناء لقائه بهما على التوالي قبل دخول الكويت وبعده : ان العراق يتفهم حرص امريكا على ضمان تدفق النفط اليها وباسعار متوازنة وانه يستطيع ان يضمن ذلك لامريكا .

انطوت تلك الاشارة على مفهوم (احترام امتيازات الدول الكبرى) ، ولكن بغداد تحفظت على سياسة فرض الامتيازات التي يصفها السيد طارق عزيز بانها اسلوب متسلط ومذل ، مع ان العراق كان يدعو الى (علاقات سلمية حضارية بين الشعوب) .

منذ أعيدت العلاقات الدبلوماسية بين بغداد وواشنطن سنة ١٩٨٤ اراد العراق ان يزيح عن صورته صفات (العدوانية) و(التطرف) و(اللاواقعية) ليقدم في الضد منها صورة العقلانية القادرة على تمثيل الذات الوطنية والارادة العربية ، حتى يُعامل العراق بالثقل الذي يسعى ليكون عليه .

ـ هل كنتَ راضيا عن الطاقم الدبلوماسي الذي عمل معك لينفذ مشروع بناء الصورة الجديدة للعراق في العالم ؟

سألتُ السيد طارق عزيز فاجابني :

ـ المهم كيف تشغّل هؤلاء الدبلوماسيين ، بحيث تستخدم الطاقم المناسب باتجاه الهدف الذي يناسبه .. وبحسب اهمية الساحة التي يعمل فيها ، ففي النزاع العراقي ـ الايراني لم تكن لدينا مشكلة في طريقة التخاطب للتعبير عن موقفنا من قبل ممثلينا في الخارج الذين عملوا في الساحات المهمة التي تؤثر في صنع القرار الدولي ، ولكن كانت لدينا مشكلة في ساحات اخرى اقل اهمية لم يكن فيها ممثلون بالقدرة نفسها ، فأنتَ اذا استخدمتَ لكل مهمة الفريق المؤهل لها تستطيع ان تصل الى النتيجة التي تريدها ، وفي

كل الاحوال فان لدى العراق دبلوماسيين هم الاكفأ في العالم .

- لكن المشكلة مع امريكا ، ان السفير الذي اختاره العراق فيها اظهر في اللحظات الاخيرة تخليه عن مواصلة تمثيل خطاب بلاده بعد ان كان مفروضاً ان يعود الى بغداد اثر قطع العلاقات الدبلوماسية ، اليست مفارقة بان يكلف رجل لم يكن مستعداً حتى النهاية لتبني خطاب بلاده في التعامل مع امريكا ؟ ثم هل كان ذلك احد اسباب الاختناق في قناة الاتصال ؟

كان الاستنتاج الذي توصلت اليه الخارجية العراقية ان سفيرها في امريكا وقع ضحية الخوف ، وكان تحت طائلة تأثير الاعلام الامريكي والضخ السياسي اليومي باتجاهه لاضعاف ارادته ، وقد انتبه الرئيس صدام حسين الى هذه النقطة مبكراً ، فاوصى في احد تعليقاته على مراسلات سفارة العراق في واشنطن بتنبيه السفير وتحذيره من الوقوع ضحية عمليات التخويف الموجهة ضده .

وانزوى الدكتور محمد المشاط ، آخر سفير عراقي في واشنطن في مدينة فانكوفر الكندية ليستعيد ذكرياته ويسكن الى حياة مسترخية بعيداً عن صراع قرر عدم التعايش معه حتى النهاية .

□ □ □

نقل المبعوث السوفيتي يفغيني بريماكوف الى الرئيس الامريكي جورج بوش عند لقائهما اواسط تشرين اول (اكتوبر) ١٩٩٠ الاستنتاج الذي تكوَّن لدى العراق حول تورط الولايات المتحدة في العمل على تغيير نظامه السياسي ، واغتيال قيادته ، والتواطؤ مع اسرائيل من جهة والكويت من جهة اخرى لتهديده في جانب واستنزافه في جانب .

وقد اظهر الرئيس بوش استغرابه مما سمع ، وقال لبريماكوف : لماذا هذا الانطباع لدى العراقيين ، نحن ساعدناهم في الحرب مع ايران .

حين استمع الرئيس صدام حسين الى هذه الرواية كما نقلها

اليه بريماكوف في لقائهما الثاني يوم الثامن والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٩٠ قال للمبعوث السوفيتي :

ـ اذا كان بوش يعتبر مناقشات مجلس الامن والعمل على وقف اطلاق النار مساعدة .. فلا هو ولا غيره اوقف اطلاق النار (بين العراق وايران) .. نحن الذين اوقفنا اطلاق النار .

واصل بريماكوف ينقل اقوال الرئيس الامريكي :

ـ لقد كرر بـوش امامي ان امـريكا لم تكن تـطوق العراق او تحاصره .

فكشف الرئيس صدام حسين ان « ضلوع الولايات المتحدة في التآمر على العراق كان امرا معروفا لدى عدد من القادة العـرب الذين وجهوا في شهر حزيران (يونيه) ١٩٩٠ (قبل شهرين من دخول الكويت) رسائل خـطية الى الرئيس بـوش يحذرونـه من مخاطر العمل ضد حياة الرئيس العراقي .

وذكّر الرئيس صدام حسين بالتحذير الذي نقله السيد طارق عزيز الى وزير الخارجية الامريكية جيمس بيكر في لقـائهما الاول بواشنطن في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٩ وقال لبريماكوف :

ـ معلوماتنا اكيدة وموثّقة .. ونحن لم نطلب من القادة العرب الذين كتبوا لبوش ان يرسلوا تلك الخطابات ، ولكنهم فعلوا ذلك بناء على ما تجمع لديهم من معلومات .

وقد ذكر السيد طارق عزيز في مقابلة لاحقة انه كان في نيويورك خلال تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٩ عنـدما تلقى اشـارة عن استعداد وزير الخارجية جيمس بيكر لملاقاته في واشنطن ، على غير ما اعتاد اسلافه من وزراء الخارجية الامريكان في اللقاء مع ممثلي دول العالم في نيويورك خلال وجـودهم للمشاركـة في اجتماعـات الجمعية العامة ، وليس في واشنطن .. ولكن السيد بيكر كان قد استـوزر لتوه ، ولم تكن هنـاك فرصـة ليلتقي السيد عـزيـز في نيويورك ، وقد أشعر الوزير العراقي بغداد بالامـر ، فبعث اليه الرئيس صدام حسين يطلب التوجـه الى واشنطن للاجتمـاع مع

الوزير الجديد في الخارجية الامريكية وابلاغه انزعاج العراق من ضلوع الولايات المتحدة في (مؤامرة لاغتيال القيادة العراقية وتغيير نظام الحكم) .

وبالفعل وضع السيد طارق عزيز المعلومات التي زودته بها بغداد على طاولة الوزير الامريكي الذي ابدى استغرابه من تلك المعلومات وعدم معرفته بها .

لم يستبعد الوزير العراقي ان بيكر لم يكن يعرف فعلا ما خُطط ضد العراق ، لان احدث سابقة في الادارة الاميركية تدل على امكانية اخفاء المعلومات في مثل هذه العمليات عن وزير الخارجية ، كما حصل مع الوزير السابق جورج شولتز الذي قال ان تفاصيل (ايران ـ غيت) قد اخفيت عنه ولم يكن يعلم بها .

فطلب السيد عزيز منه ان يعود الى مساعديه والمعنيين في وكالة المخابرات المركزية الامريكية للتزود بالمعلومات الكاملة عن المخطط الموضوع ضد العراق .

التقط الوزير الامريكي اشارة غير قابلة للتأويل ، على عدم ثقة بغداد بالادارة الامريكية وشكها العميق بكل ماقيل لها ، او يمكن ان يقال بهدف التطمين وزرع الثقة .

وكانت القيادة العراقية من ناحيتها قد وضعت يدها على ملف عن عملية امريكية مخططة داخل العراق تشترك فيها اطراف اقليمية .. هدفها الاساس اغتيال الرئيس صدام حسين .. وهو امر كان كافياً لاشعار العراق بان الحوار مع واشنطن لم يكن عميقاً بحيث تتخلى الادارة الامريكية عن معاملته كبلد معادٍ ، رغم كل ماكان يُلمس من مظاهر التعاون التجاري وفتح قنوات الاتصال الدبلوماسي ، ورغم مقاومة الادارة الامريكية لضغوط الكونغرس لتحجيم العلاقات مع العراق .

لم تكن تلك هي المرة الاولى التي يرصد العراق فيها خططاً امريكية موجهة ضد قيادته ، فقد تجمعت معلومات من مصادر عدة سنة ١٩٨٣ عن عملية تستهدف الطائرة التي كان الرئيس صدام

حسين يستخدمها في سفراته خارج العراق ، على ان تنفذ اسرائيل هذه العملية بتسهيلات امريكية ، ولم يتوقف ضخ وكلاء المخابرات الامريكية من حملة الجنسيات غير العراقية الى العراق بهدف العمل ضد نظامه السياسي .

وكان كل حدث مستجد كافياً للتـذكير بـارث سابق من عـدم الثقة ، والتوجس ، والشك ..

□ □ □

تحكمت بالعراق وامـريكا عقـدة واحدة ، نشـأت وتكونت في ظروف مستقلة الواحدة عن الاخرى ، ولكنهـا متماثلة من حيث مصادرها . ويمكن تسمية هذه العقدة بـ(عقدة صناعة العدو) .

فـامريكـا بعد اضمحـلال الخطر السـوفيتي وانهيـار الكتلة الشيوعية في اوربا لم تعد في مواجهة عدو يستحق تعبئة الرأي العام ضده ، وبالتالي كان من الممكن الاستنتاج أن غياب العدو سيؤدي تلقائيا الى انفجار الازمات الداخلية ، اذ تقوم قاعدة الصلة بين السياسة الخارجية والسياسة الداخليـة على اسـاس ان افضل مجـال لتفريـغ الازمات الداخليـة هو صنـاعة عـدو خـارجي .. وتساءلت صحف امريكية عدة بعد تلاشي الخطر السوفيتي : من هو العدو ؟ اهو الاسلام ؟ اهو العالم الثالث ؟ .

ويعتقد السيد نزار حمدون سفير العراق في واشنـطن اواسط الثمانينات ان امريكا قد تكون من النـاحية العمليـة بحاجـة الى صناعة العدو ، ولكنها لاتشعـر بهذه الحـاجة ، بمعنى انهـا قد لاتكون تحسست حاجة واقعية خرجت الى السطح ..

وقد حصل هذا الانحسار في موقع العدو في اللحظة التي اندفعت فيها صورة العراق الى المقدمة .. وقد تكـون الادارة الامريكيـة وجدت ان لا احد يشكل تحدياً جاهزاً مباشراً يمكن تصنيع صورته كعدو يستحق المواجهة غير العراق ، الذي ظهرت صـورته قـوة اقليمية نازعة لتزعم المنطقة وبلدا من العالم الثالث يتجاوز الخطوط الحمر التي تحجز بلدان هذا العالم خلفها .. فهو قوة عسكريـة

هائلة تتكون من مليون جندي مدرب واسلحة كيمياوية وبايولوجية ومشروع نووي غير معروف في اهدافه ، وتصدر عن قيادته تحديات سياسية علنية مباشرة ضد السياسة الامريكية ، من طراز ما اعلنه الرئيس صدام حسين في مؤتمر القمة العربي الاستثنائي ببغداد نهاية ايار (مايو) ١٩٩٠ عندما علق على طلب امريكي الى المؤتمر بعدم وصف الولايات المتحدة كقوة امبريالية بقوله : انه لم يعد منذ زمن طويل يطلق هذه الصفة ، وبدا له انه لم يعد يحبذ استخدامها ، ولكنه اليوم يستخدمها تحدياً طالما ان الخارجية الامريكية طلبت من العرب المجتمعين ببغداد ان يتخلوا عن هذا الوصف .

ولم يكن امرا معقدا على الادارة الامريكية ان تعمل على تبشيع صورة القيادة العراقية ، وفتح الملف الاكثر اثارة حول حقوق الانسان والديمقراطية والاقليات في العراق . الى جانب اثارة المخاوف من التهديدات بحرق نصف اسرائيل اذا وجهت ضربة نووية للعراق .

وهكذا بدا وكأن العراق هو انسب عدوٍ تختاره امريكا بعد غياب العدو السوفيتي ، فهو جزء من القوة الثالثة التي لاتحتمل الولايات المتحدة ان تواجه منها تحدياً ، وسيكون ضرب هذه القوة درساً لأية قوى اقليمية صغيرة او متوسطة تتحدى الولايات المتحدة التي وجدت نفسها مرة واحدة قوة لا ينازعها احد في العالم .

ولم يغب عن العراق أن التاريخ الامريكي سجل لكل رئيس للولايات المتحدة حربه التي يثبت من خلالها انه صنع امرا كبيراً ، ويعتقد العراقيون ان بعضهم كان يفتش عن حرب وان بوش هو أحد هؤلاء .

كانت حرب الرئيس (ترومان) هي الحرب العالمية الثانية قبل ان يدخل حرب كوريا ، اما الرئيس (ايزنهاور) فقد اكمل حرب كوريا في حين دخل الرئيس (كندي) أزمة الصواريخ مع كوبا وبدا على شفا حرب مع الاتحاد السوفيتي ، اما الرئيس (جونسون)

فكانت حصته حرب فيتنام ، واختار الرئيس (ريغان) ان تكون حربه ضد ليبيا وغرينادا . اذن الحرب هي احد عناصر التكوين الرئاسي في الولايات المتحدة .. هذا ما استنتجه العراقيون مع التقاط الاشارات الأول عن تهديدات امريكية موجهة ضد بلادهم اذن صار العراق موضوعاً في مختبر « صناعة العدو بواشنطن » منذ ربيع ١٩٩٠ .

اما العراق فبدا هو الاخر وكأن به حاجة لتحديد عدوه الجديد ، فقد خرج من حرب ثماني سنوات مع ايران كانت سببا في تحفيز عوامله الذاتية وخاصة في مجالات التنظيم وادارة الدولة وبناء الجيش والتعبئة والصناعة الحربية والتقدم العلمي ، حتى صار التهديد الخارجي الايراني محفزاً لاختصار الزمن ، وتحقيق مستويات من النمو لم يكن بمقدوره في ظروف الاسترخاء والسكون ان يبلغها في ضعف الزمن الذي حقق فيه هذا النمو ، وكان الخروج من الحرب مع ايران ينذر في جانب اخر بفتح جميع الملفات المحلية التي وُضعت على الرف او أُدخلت في المجمدات تحت وطأة الاحساس بالخطر الخارجي ، واعطائه الاولوية على اية قضية تتصل بالحاجات العامة للبلاد ، وفوجئت القيادة العراقية التي انتصرت على ايران انها غير قادرة على توفير الحاجات الاساسية للفرد العراقي الذي طالما أجّل المطالبة بها في ظروف الحرب ، لكنه لم يعد مقتنعاً بالتخلي عنها بعد تضحيات ٨ سنوات في حرب خرجت بلاده منها منتصرة ، فهو ينزع الى مستوى عالٍ من الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية ، ويبحث عن مكانة لبلاده بمستوى ماتحملته من صعوبات وقدمته من خسائر .

وفوجئت القيادة العراقية أيضا أن حالة السلم التي اعقبت انتهاء الحرب مع ايران شهدت محاولات عدة للعمل على تغيير نظام الحكم او تدبير مشاريع انقلابات عسكرية ، واكتشفت خلايا تعمل لصالح عدة اطراف منها ايران ، ومنها الولايات المتحدة الامريكية نفسها ، او قوى اقليمية متحالفة مع الولايات المتحدة مثل المملكة

العربية السعودية ، وهو امر اشتكى منه وزير الخارجية خلال اجتماعه في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨٩ مع جيمس بيكر وزير الخارجية الامريكي عندما التقاه في واشنطن ..

في تلك الظروف ربما كانت صناعة العدو حاجة لابقاء حالة الشد في الداخل ، وتحفيز قوة العمل المحلي وادامة الشعور بالخطر ، ولم يكن للعراق ان يختار عدوا صغيرا بعد انتصاره على ايران الدولة التي يزيد عدد سكانها ٣ مرات على عدد سكانه وتزيد مساحتها ٤ مرات على مساحته وكان جيشها يعد خامس جيش في العالم ، ثم حاربته ، وهي ترفع شعار تكوين جيش الفدائيين تعداده ٢٠ مليون مقاتل .

لذلك فان امريكا بدت العدو الذي يتحسب له العراق ويخشى منه ويترتب عليه ان يقاومه ، وطبقا للمفاهيم التي يتبناها حزب البعث ومريدو الحركة الوطنية العراقية والحركة القومية العربية فان امريكا هي العدو المتحالف بلا حدود مع اسرائيل ، وهي القوة الدولية التي تستخدم مجموعة من الاطراف الاقليمية لتنفيذ خططها ، وكان الخطاب السياسي الديني الذي اتجه العراق لاعتماده في النصف الثاني من تاريخ حربه مع ايران عاملا مساعداً في ايجاد مصدر فكري مضاف لمقاومة الغرب المسيحي ، الى جانب ما اتسمت به القيادة العراقية من شعور عميق بالشك ازاء كل ما يصدر عن الغرب وبخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا .

وصار على منتصرين ان يتقبلا ..

احدهما هزم الشيوعية وصار سيد العالم .. والآخر هزم ايران ويريد ان يحصل على دور يناسب ما حققه ..

ولعل اشد لحظات المجابهة تفجراً هي تلك التي تقع بين طرفين ، يعتقد كل منهما انه منتصر ، ويستحق اكليل الغار ، ولا يتحمل أن يأخذ منه المقابل بعضاً من اضواء النصر .. ولذلك تصبح مجابهة من هذا النوع قاسية ، وبلا خطوط تراجع .

هكذا جاهر العراق بملاحظاته وانتقاداته للسياسة الامريكية في

المنطقة واتخذ مواقف علنية هي بمثابة التحدي المباشر للولايات المتحدة ، مثل الدعوة لسحب الاسطول الامريكي من الخليج العربي بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية ، وهي الدعوة التي وردت واضحة قوية في خطاب الرئيس صدام حسين خلال قمة عمان لمجلس التعاون العربي في شباط (فبراير) من سنة ١٩٩٠ .

□ □ □

اذن كل شيء يصدر نحو العراق هو محط شك ، باعتباره مظهرا او انعكاسا او نتيجة لمؤامرة مدبرة او تدبر ضد البلاد وقيادتها ..

شخص الرئيس صدام حسين هذا التحسب العراقي خلال حديثه مع المستشار الالماني الاسبق فيلي برانت (٧/١١/١٩٩٠) ببغداد بقوله :

ـ ان من حق بغداد ، في ضوء الفجيعة التي مرت بها عبر التاريخ ، أن لا تطمئن الى ان من يتعامل معها يكون خالي الغرض ، وأن وأن لا تطمئن الى الذين يسعون لاضعافها أو تحطيمها .

وظهر كتّاب عراقيون يروجون لنظرية (المؤامرة) . في تفسير كل مايصدر من الولايات المتحدة وحلفائها نحو العراق .

على ان هذا التيار السياسي والفكري لم يكن مقطوع الجذور عن ما سبقه من بدايات تكوين الفكر القومي العربي المعاصر في مطلع الاربعينيات من هذا القرن .. الى الحد الذي كان يذكر عن المفكر السوري زكي الارسوزي احد مؤسسي فكر البعث الى جانب المفكر الاول للبعث ميشيل عفلق ، انه اذا عثر في الطريق . صاح : ان الانكليز والفرنسيين تعمّدوا وضع الحفرة في طريقه ، وقام منهجه في التعامل مع الاخرين على اساس ان هناك امرا مدبرا في الضد من حركة التجديد العربي ، وان الغرب لابد ان يقصد ما هو سيء من كل ما يقوم به او يصدر عنه ..!

□ □ □

خرج السيد جون كيلي مساعد وزير الخارجية الامريكي من

لقائه مع الرئيس صدام حسين في كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ بانطباع ايجابي عن امكانية تطوير العلاقات الثنائية ، بعد ان استمع الى كلمات اشادة بسياسة الرئيس الامريكي ومواقف وزير خارجيته آنذاك.

اما العراقيون فاستنتجوا ان المبعوث الامريكي متفهم للدور الاقليمي الذي يتمتع به العراق ، وان الادارة الحكومية في واشنطن ستظل ترفض العقوبات التي اقترحها اعضاء في الكونغرس ضد العراق .

وفي واشنطن دافع كيلي عن فكرة المحافظة على العلاقات مع العراق طبقا لمفهوم : ان افضل وسيلة للضغط على بغداد هي في ادامة الصلة معها ، وليس العكس .

ظل جون كيلي يدافع عن سياسة احتواء العراق لعدة اعتبارات وضعها في شهادته امام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ يوم الخامس عشر من حزيران (يونيه) ١٩٩٠ .. وهذه الاعتبارات كما وردت نصوصها في الشهادة هي كالآتي :

اولا : ان العراق سينهض الآن ، وفي المستقبل بدور كبير في الخليج ، مهما تكن سياسة الولايات المتحدة ، وان هذا الدور قد يكون ايجابيا وقد يكون سلبيا .

ثانيا : تشكّل الطاقة عاملا بارزا في دور العراق الجديد ، إذْ تشكّل احتياطاته النفطية ثاني أكبر احتياطي بعد المملكة العربية السعودية .

ثالثا : عدا عن ان العراق ينتج كمية كبيرة من النفط ، فانه يملك تأثيرا كبيرا ، سلبا او ايجابا ، على استقرار منطقة الخليج كلها وعلى نفطها ايضا .

رابعا : ان برامج العراق الكيماوية والنووية والبايولوجية والصاروخية تقلق الولايات المتحدة .

لكن العراق لم يكن في وضع يقبل فيه بسياسة الاحتواء ، او

الخضوع لمنطق If you can't beat them join them .

□ □ □

في تلك الاثناء كان القرض الزراعي الامريكي للعراق قد عُلق بسبب ما عدَّه الامريكان (اسبابا فنية) وعدّه العراقيون (اسبابا سياسية) حول مسألة الفروقات في اسعار البضائع المشتراة للعراق ، واحتمال وجود مشتريات تدخل في الصناعات العسكرية يجري تمويلها من القرض الزراعي .

تعززت الشكوك لدى بغداد بوجود تحول في موقف واشنطن عندما اذاع من راديو صوت امريكا تعليقا يعبر عن رأي الحكومة الاميركية انتقد العراق بشدة حول مسألة حقوق الانسان والحريات ، وقد استاء العراقيون كثيرا ، وعدوا الامر جزءاً من خطة كاملة منظمة ، وطلبوا توضيحاً من واشنطن التي ابلغت بغداد اعتذاراً رسمياً مع اعلامها بفصل الموظف المتسبب في اذاعة التعليق .

لكن التراشق لم يتوقف ..

فقد هاجم الرئيس صدام حسين بعد اسبوعين من اجتماعه مع جون كيلي السياسة الامريكية في المنطقة ، خلال استقباله لوزراء من مجلس التعاون العربي .. حتى اذا جاء خطابه في عمان يطالب برحيل الاسطول الامريكي من الخليج بعد ان انتفت مبررات وجوده هناك .. نزل الامر كالصاعقة على واشنطن .

كان رد الفعل الامريكي جديا .. وغاضبا .. كما لم يكن في اية مناسبة من قبل .

ونقلت سفيرة الولايات المتحدة في بغداد الآنسة ابريل غاسبي الى الخارجية العراقية رسالة (انزعاج شديد) وهي تتساءل عن مبررات هذه الدعوة في الوقت الذي كان عدد قطع الاسطول الامريكي في الخليج في حالة تناقص ، إذْ نزل عددها من خمسين قطعة سنة ١٩٨٨ الى ست قطع اليوم ..

في شباط ١٩٩٠ بدأ التخطيط الجدي في الولايات المتحدة للعمل علناً ، وبقوة ، ضد العراق ، بلا حذر او تردد .. وبدا ان المعركة قد انفتحت .

□ □ □

لم يكن بالامكان التعبئة في الولايات المتحدة ضد العراق قبل تبشيع النموذج العراقي ، فالجمهور يحتاج عادة ليقبل او يرفض الى صورة مفصلة للهدف الذي يتعامل معه ، وكان ميسرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ان يحتك الامريكي بالصورة المصنعة للنموذج الروسي الذي يقترن بابدان ضخمة ووجوه شاحبة ونظرات كئيبة ، حتى يلحق بذلك تكريه بكل ما يتميز به الخصم بما في ذلك شرابه الوطني « الفودكا » او ما ينتسب لحليف خصمه حتى ولو كان تبغا كما حصل مع السيكار الكوبي الذي منع من دخول الولايات المتحدة .

وتبع النموذج الروسي المبشّع في الضمير الجمع الامريكي نموذجا آخر منذ سنة ١٩٧٩ .. انها ايران هذه المرة بكل ما اقترن باللحى الطويلة والعباءات السود وصور احتجاز الدبلوماسيين في طهران والعصابات المشدودة على جباه انصار ايران ومؤيديها والمعممين الذين يحملون رشاشات الكلاشنكوف الروسية .

اما العراق فقد كانت صورته حتى الثاني من آب تمثل حالة الشعب الاكثر تقدما في منطقة الشرق الاوسط ، ورغم التعرض المباشر للسياسة العراقية في الاعلام الغربي الا ان صورة النموذج العراقي لم تكن مهشمة بمنطق الغرب الذي كانت آخر لقطة حفظها عن العراق انه البلد الذي يقاوم ايران وحارب الخميني ، وهذا يعني انه نقيض النموذج الايراني الذي تمثله العباءات السود والعمامات وصورة مختطفي الرهائن والمدنيين من حملة الرشاشات .

واستنجد الرئيس جورج بوش بصورة هتلر ليعيد تسويقها

مجددا من خلال مقارنتها بصورة الرئيس صدام حسين لوصف حالة القوة العسكرية النازعة للسيطرة على الآخرين ، في الوقت الذي استثمر فيه الاعلام الامريكي تصريحات ادلى بها احد المسؤولين العراقيين .. قال فيها .. اننا سنأكل الطيارين الامريكان حين يقعون بايدينا ، وقد يكون هذا التصريح المتلفز عرض مئات المرات بلقطة مقربة للمتحدث في لحظة انفعال بقصد تركيب صورة جديدة لخصم جديد يتسم بالقوة التي تستحق من الامريكان ان يقاوموها ، مضافا الى ذلك التحريض ضد العراق الذي تأسس عن صور الغربيين الممنوعين من مغادرة العراق خلال الازمة .

□ □ □

انتهت حرب المواعيد بين بغداد وواشنطن عندما اتفقت العاصمتان على ان يجتمع وزيرا الخارجية في جنيف يوم ١٩٩١/١/٩ . وهناك اكتمل اهم مشاهد اعداد الرأي العام الدولي للتعامل مع حرب محتمّة الوقوع .

وقد لخّص الوزيران جيمس بيكر وطارق عزيز ما دار في ست ساعات من المناقشة ، توزعت على جلستين ، كل على طريقته ..

سأل الوزير الامريكي :

ـ من يبدأ مؤتمره الصحفي اولا ؟

فأجاب الوزير العراقي :

ـ انت .. اما انا فسأراقب المؤتمر عبر شاشة التلفزيون في غرفتي .

وابتدأ جيمس بيكر لقاءه مع الصحفيين ليعلن ان الوفد العراقي لم يأت بجديد ، ولم يعط أية اشارة عن استعداده للانسحاب من الكويت .

اما طارق عزيز فقال انهما تبادلا الآراء ، واستمعا الى بعضهما جيدا ، واستخدما لغة دبلوماسية لائقة في التخاطب بينهما .

وافترق الرجلان .. وكل منهما متأكد من قدوم الحرب ، ولم يكن قد خطر في بال احدهما قبل المجيء الى جنيف انهما سيخرجان بنتيجة غير هذه .

ـ شكرا ايها السيد الوزير .
ـ شكرا لك .

كانت هاتان العبارتان . هي آخر ما تخاطب به الاثنان ليختتما أخر حوار رسمي بين الولايات المتحدة والعراق .. رغم ان طارق عزيز كان قد استكشف خلال الاجتماع مدى استعداد الوزير الامريكي ، لمواصلة الحوار ، عندما اقترح عليه ان يزور بغداد . الا ان جيمس بيكر اجاب على الفور :

ـ it is too late

ولم يقع خلال جلستي الاجتماع اي حدث صارخ ، يغير من مجرى التبادل الاخير للافكار والآراء ، وكأن الرجلين يجريان مراجعة اخيرة قبل بدء الحرب ... وعندما قدم بيكر رسالة مكتوبة من الرئيس الامريكي الى الرئيس العراقي ، قرأها طارق عزيز مليا ، ثم اعادها في منتصف المسافة بينه وبين الوزير الامريكي ، معتذرا عن حملها الى بغداد لانها كُتبت بلغة وجدها اقل من مستوى اللياقة اللازمة لمخاطبة رئيس الدولة .

... وظلت الرسالة في مكانها لتخلف وراءها هاجسين ؛ الاول : لماذا لم يلجأ الوفد العراقي الى ابقاء الرسالة الاصلية معه وقتا قصيرا ليقوم باستنساخها ؟ والثاني : هل ان النص الذي أذيع عن الرسالة كان هو النص الحرفي للرسالة التي قدمت في الاجتماع .. ام ان لغتها في النص الاصلي كانت فعلا ، اكثر حدة وخشونة ..؟

الا ان الرسالة ظلت في منتصف المسافة ، قبل ان يحفظها موظفو فندق الانتركونتيننتال بجنيف مع الحاجات التي لايسأل اصحابها عنها في العادة .

لم يكن الوزيران وحدهما في جنيف ، فقد وصل اليها وسطاء سريون ، ومسؤولون رسميون ، كل منهم يريد ان يسجل حضوره في المشهد التاريخي الاخير ، قبل القطيعة بين واشنطن وبغداد ؛

فوزير الخارجية الجزائري آنذاك سيد احمد غزالي قدم للوزير العراقي قبل الاجتماع عرضا للموقف الاوروبي ، واراد ان يستمع آراء العراقيين ، وان كان ثمة اي تغيير قد طرأ عليها ، اما رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية فاروق قدومي فقد توصل في العرض الذي قدمه للوزير العراقي أن الحرب صارت محتمة قبل ستة ايام من تاريخ انتهاء موعد الانذار الذي وجهه مجلس الامن الى العراق ...

في حين كان إدغار بيزاني رئيس معهد العالم العربي ومستشار ميتران للشؤون العربية قد بدأ قبل ٢٤ ساعة اتصالات غير معلنة في الوقت الضائع مع ممثل العراق لدى المكتب الأوروبي للأمم المتحدة في جنيف السيد برزان التكريتي، وهو الرجل الثاني الذي جلس إلى جوار الوزير طارق عزيز، دون أن يتكلم، طوال الاجتماع. وقد يكون وجد من المناسب أن يتكلم شخص واحد هو ذلك الذي يقود الفرق في اجتماع حاسم من هذا النوع حتى أن الوزير العراقي لم يبدُ سعيداً عندما قدم المشاور الثانوي رياض القيسي مداخلة قصيرة.

اما الوزير جيمس بيكر فكان هو الآخر المتحدث الوحيد ، عدا المرة الوحيدة التي وجه فيها الاسئلة الى مساعديه عندما سألهم عن برقيات كانت مرسلة من بغداد لمتابعة الجوانب الاجرائية للقائه مع الوزير العراقي .

وكانت اهم ملاحظة أوصى بها طارق عزيز المترجم الذي جاء به معه ، قبل الدخول الى الاجتماع :

ـ لن اتكلم الانكليزية .. سيكون حديثي بالعربية فكن انت دقيقا للغاية .. هذا لقاء شديد الحساسية ولابد أن تصل افكارنا بمنتهى الدقة الى الوفد الامريكي ..

فالعراق اراد في تلك اللحظة ، ان يكون مفهوما لدى الولايات المتحدة ، وان يقدم خطابه واضحا دقيقا ، ليجعل آخر جلسة

للحوار خالية من سوء الفهم المركب الذي ظل يلاحق العلاقات الثنائية ..

اراد ان يكون مفهوما .. دون ادنى درجة من الالتباس او الخلط ..

وعندما انتهى الاجتماع ، اعتمد العراقيون الملاحظات التي دونوها باقلامهم ، بالعربية والانكليزية ، اما الامريكان فكانوا يسجلون على الورق ايضا .. لكنهم في حقيقة الامر كانوا يسجلون بالصوت كل ما دار في الجلسة .. ويحصون أنفاس الحاضرين ، ليعودوا الى واشنطن بشريط مسجل عن لقاء لم يكن احد ليتوقع منه صنع المعجزة .

□ □ □

كان على وكيل الخارجية العراقية نزار حمدون ان يعود لاجراء فحوصات طبية بعد ثلاثة اشهر على انتهاء الحرب ، فتقدم بطلب للحصول على سمة الدخول الى الولايات المتحدة ، التي لم تتأخر في منحه اياها ..

لكنه عندما بدأ يستكشف ، من خلال اتصالاته باصدقائه القدامى ، امكانية اعادة بناء حوار منهار ، وجدهم ، يتحولون من الحديث في هذا الشأن الى موضوعات شخصية ، حتى اذا ألحّ في فتح مناقشة سياسية ، وجد اكثر من شخص بينهم يقترح عليه البقاء في الولايات المتحدة ، والتمتع بعيش هادىء فيها ، فلم يجدْ غير ان يجمع حاجاته ، ويعود الى بغداد ، متيقناً ان الحوار صار مستحيلا ، وانه ليس ثمة بوادر في المستقبل المنظور لحصول تغيير جوهري في السياسة الامريكية نحو العراق ، طبقاً لثبات العوامل التي تتحكم بالمنظور الامريكي تجاه البلدان العربية ، القائمة على عدم التمسك بمصالح الولايات المتحدة في الخليج حيث يوجد مستودع النفط العالمي ، ومبدأ الدفاع عن اسرائيل ، ومبدأ إيلاء

مصر اهتماما كمركز لتكتيل موقف عربي تصالحي مع اسرائيل وغير معادٍ للمصالح الامريكية .

لذلك فإن صورة العراق التي تكونت قبل ٢/٨/١٩٩٠ وبعده، ما تزال ماثلة في واشنطن بعد سنتين على بدء الأزمة، فهو الذي تجاوز الخطوط الحمر، وشكل تهديداً لأمن إسرائيل، ولأمن أصدقاء الولايات المتحدة، ثم ما ترتّب على ذلك من خطر عدَّهُ الأمريكان تهديداً لمنابع النفط في المنطقة.

ولن يحصل تغيير في سياسة الولايات المتحدة نحو العراق الاّ بحصول متغيرات جيو ـ سياسية جوهرية مثل :

■ عودة الخطر الايراني ليهدد الاقطار العربية في الخليج ، واقترابه من منابع النفط ومصالح الولايات المتحدة في المنطقة .

■ حصول تغيير جذري في دولة رئيسة من دول المنطقة سواء كانت مصر أم سوريا أم السعودية بحيث تتغير التحالفات التي انشأتها الحرب .

■ وقوع حرب بين تركيا وإيران بحيث يصبح العراق عاملاً مرجحاً في صراع جديد.

■ او ان تعقد بغداد وواشنطن صفقة كبرى حول نفط العراق ونفوط المنطقة .

وحتى تحصل متغيرات بهذا الحجم ، وقد لاتحصل ، فان التفجرات ستستمر ، ويستمر معها تشقق الأرض من تحت أقدام الواقفين عليها زمناً طويلاً مليئاً بالمفاجآت الصاخبة .



الرئيس صدام حسين يجتمع في مدينة الموصل مع وفد الكونغرس
الامريكي برئاسة السناتور روبرت دول بتاريخ ١٣/٤/١٩٩٠

محضر مقابلة الرئيس صدام حسين مع الانسة ابريل غلاسبي سفيرة الولايات المتحدة في بغداد ١٩٩٠/٧/٢٥

الرئيس صدام حسين :

تعرفون ان علاقاتنا كانت مقطوعة مع الولايات المتحدة الى عام ١٩٨٤ ، وتعرفون الظروف والاسباب التي ادت الى قطع العلاقة ، وقد بينا لكم ان قرار اعادة العلاقة مع الولايات المتحدة كان قد اتخذ في الواقع في عام ١٩٨٠ ، وربما خلال الشهرين اللذين سبقا قيام الحرب بيننا وبين ايران .

ولكن عندما قامت الحرب ، مع ملابساتها المعروفة ، ولأننا حريصون على ان نتصرف بالقضايا الكبيرة بما لا يجعل المقابل يفسر الامور الا في اطارها الصحيح ، اجلنا اعادة العلاقة على أمل ان تنتهي الحرب .

ولان الحرب استمرت طويلا ..وتأكيداً لمبادئنا التي تقول اننا جهة غير منحازة ، كان لا بد ان نعيد العلاقات مع الولايات المتحدة .. فجاء التوقيت لاعادتها في عام ١٩٨٤ .

ومن الطبيعي ان نقول ، ان الولايات المتحدة ليست مثل انكلترا مثلا ، من حيث قدم علاقاتها مع دول الشرق الاوسط العربية ومنها العراق ، واذا اضفنا الى هذا ، انه لان العلاقات بين البلدين كانت مقطوعة طيلة المدة بين اعوام ١٩٦٧ ـ ١٩٨٤ لابد ان نقول انه سيصعب على الولايات المتحدة ان تفهم الكثير من الامور في العراق كما ينبغي ، وكان مؤملا ، بالعلاقة الجديدة التي استؤنفت ، ان نعاون بعضنا ، لكي يفهم كل منا الاخر ، لاننا نحن ايضا كنا وما زلنا ، نجهل الكثير من الخلفيات والامور التي يستند اليها القرار الامريكي .

تعاملنا مع بعضنا اثناء الحرب ، واجرينا الحوار على المستويات التي اتاحتها الفرص ، لان تجري العلاقة والحوار فيما بيننا ،وكان اهم مستوى في اجراء الحوار هو مستوى وزير الخارجية .

وكنا نأمل ان تزداد مساحة الفهم المشترك ، وان تتسع فرص وامكانات التعاون بما يعود بالمصلحة على الشعبين العراقي والامريكي ، بل وعلى الامة العربية كما كنا نأمل ، وكلما وجدت الاطراف المعنية ان هذا ممكن .

غير ان العلاقة وهي حديثة عهد ، تعرضت الى بعض المنغصات والضربات وهي في خط سيرها على الطريق .

اهم ضربة تعرضت لها العلاقات كانت في عام ١٩٨٦ (بعد سنتين من اعادة العلاقات) ، فيما سمي بقضية (ايران ـ غيت) وصادف في ذلك العام ، احتلال الفاو من قبل ايران .

ومن الطبيعي ان نقول ان كل علاقة ، تستطيع مع قدمها وتشابك المصالح ، ان تغطي ارتكاب الاخطاء التي تحصل فيها ، ولكن عندما ما تكون المصالح في هذه العلاقة صغيرة الحجم ، ولم تتسع بعد ، وعندما تكون العلاقة ليست قديمة بما يكفي ، لتوجه اطرافها ، لكي تتفهم بعضها البعض ، لابد ان يترك كل خطأ في طريقها ، نوعا من الاثر ، هو بحجم الخطأ وربما في بعض الاحيان اكبر من حجمه ، ولكن في كل الاحوال لا يكون الاثر اقل من حجم الخطأ .

مع ذلك ، قبلنا الاعتذار الذي قدمه الرئيس الامريكي (حول ايران غيت) عن طريق مبعوثه الينا ، واعتبرنا ذلك يكفي عن الماضي ، وينبغي ان لا نحيي الماضي الا اذا ارتبطت به خطوات لاحقة ، تُذكّر بان الخطأ الماضي ليس مجرد خطأ عابر .

استمرت علاقاتنا هكذا ، وبدأت الهواجس تزداد بعد ان حررنا الفاو ، فاختلط الاعلام بالسياسة ، وبدأت هواجسنا تظهر على السطح من جديد ، وبدأت علامة الاستفهام ترتسم متساءلة ماذا تريد الولايات المتحدة عندما تكون غير مرتاحة لنتائج القتال التي حررنا بها ارضنا ؟

كان واضحاً لدينا بما لا يقبل الشك ، ان هنالك اوساطا في الولايات المتحدة ، ولا نقول الرئيس الامريكي ، لانه ليس لدينا ما هو ملموس على هذا ، ولكن هناك اوساطا في الولايات المتحدة يرتبط بعضها بأوساط جمع المعلومات والمخابرات او الاستخبارات ، وبعض الاوساط في الخارجية ، ولا استطيع ان اقول وزير الخارجية .. اقول بدا لنا ان هذه الاوساط غير مرتاحة لتحرير اراضينا ، وبعض الاوساط مما ذكرنا تجمع معلومات تحت عنوان « من الذي يخلف صدام حسين » ؟ ثم بدأت تجري الاتصالات مع دول الخليج ، على اساس تخويف هذه الدول من العراق ، وتعلن الرغبة او توحي بها ، لكي لا تقدم دول الخليج ، اية معاونة اقتصادية للعراق ، وقد لمسنا بما لا يقبل الشك تأثير هذه النشاطات . **واضاف الرئيس** : خرج العراق من الحرب وهو مدين للاخرين بحدود (٤٠) مليار دولار .. عدا المساعدات التي قدمت للعراق ، والتي ما زالت مسجلة عليه كديون من قبل بعض الدول العربية ، مع انهم يعرفون وانتم تعرفون بانه لولا العراق ، لما بقيت هذه المبالغ وغيرها عند اصحابها ولأصبح مستقبل المنطقة على غير ما هو عليه .

انتم وغيركم نظمتم مشروع مارشال لكل حلفائكم بعد الحرب وكنتم خلال الحرب تقدمون مساعدات سخية لهم ، هذه كلها كانت تقدم لهم من دافعي الضرائب الامريكان .

ثم بدأنا نواجه بسياسة خفض اسعار النفط ، ثم بدأت امريكا التي تتحدث عن الديمقراطية ، تضيق ذرعاً بالرأي المقابل ، بدأت الحملة الاعلامية ، تشن على صدام حسين من مركز الاعلام الامريكي الرسمي ،وفي ظن الولايات المتحدة ان حال العراق مثل الحال في بولونيا او رومانيا او جيكوسلوفاكيا .انزعجنا من الحملة ، ولكن لم ننزعج كثيراً ، على امل ان نترك فرصة كافية ، عدداً من الاشهر ليعاين صاحب القرار الامريكي بنفسه وليلمس ، هل ترك هذا الاعلام اثراً ما في حياة العراقيين ما كان يراد ان يتركه من اثر ام ان الامر مختلف ؟

كان املنا انه بعد هذه الفرصة الطويلة ، سيصبح بمقدور المسؤولين الامريكيين ، ان يتخذوا قرارات اكثر صوابا في العلاقة مع العراق .

من المسلم به ان العلاقة ، حتى وهي ترتقي الى اي مستوى من مستويات الصداقة ، لاتفترض التطابق .. بل وان الامريكان يرون انه حتى داخل القيادة الواحدة لا يفترض ان يكون هنالك تطابق في الاراء .

ولكن عندما تخفض اسعار البترول بشكل مخطط ومتعمد وبدون سبب تجاري او اقتصادي ، فهذه حرب اخرى على العراق ، لان الحرب تقتل البشر بعد ان تسيح دمهم ، والحرب الاقتصادية تقتل انسانية البشر بعد ان تسلبها فرصتها في الحياة الكريمة .

ونحن كما تعلمون ، اعطينا انهاراً من الدم في حرب استمرت ثماني سنوات .. ولم نتنازل عن انسانيتنا ، اي حق العراق في ان يعيش بكرامة وعليه ، لا نقبل على الاطلاق (واذا كنا لا نقبل هذا بدرجة معينة قبل الحرب ، فالان لا نقبله بدرجة مضاعفة) ان يخل احد بكرامة العراقيين او بحقهم في العيش حياة سعيدة ومرفهة ومزدهرة .

الكويت والامارات ، كانا وجه هذه السياسة التي تريد ان توصل الى ما يذل العراق وتسلبه فرصة الحياة السعيدة ، وانتم تعرفون ان علاقاتنا كانت جيدة مع الامارات والكويت .

نضيف الى هذا ، ان دولة الكويت ، ونحن مشغولون بالحرب كانت تتوسع على حساب اراضينا .

قد تقولون ان هذا في حكم الدعاية ، لكننا نقول ، بامكانكم ان تعودوا الى وثيقة واحدة ، والتي تسمى (خط الدوريات) وهو الخط الذي اعتمدته الجامعة العربية ، لتجعل اية قوة عسكرية في عام ١٩٦١ بعيدة عن هذا الخط ، اي على الحافة القريبة منه .

عاينوا وقفوا في الحافة الاخرى التي هي باتجاه الكويت ، وانظروا .. اكانت توجد عليها مخافر شرطة او مزارع او منشآت نفطية والى عمق بعيد ، من هذا الخط .. اي خط الدوريات .

ان كل هذه المرافق والمنشآت ، استحدثت بتخطيط مقصود لفرض الامر الواقع على العراق . ومن الطبيعي ان نقول ، انه خلال هذه المدة كانت حكومة الكويت مستقرة ، بينما الحكومة في العراق تتغير .. وحتى بعد عام ١٩٦٨ والى عشر سنوات بعدها ، كنا نحن مشغولين بامور كثيرة .. مرة في الشمال ، واخرى في حرب ١٩٧٣ ، وغيرها من الانشغالات ، ثم جاءت بعد ذلك الحرب مع ايران التي مضى عليها الان عشر سنوات .

في تقديرنا يجب ان تفهم الولايات المتحدة بان المرفهين المتمكنين اقتصاديا ، يستطيعون ان يتفاهموا معها على ما هو مشروع من المصالح المشتركة ، فيما لا يستطيع ذلك من يجوع ، او تسلب فرصته في حياة سعيدة .

نحن لا نقبل التهديد من احد ، لذلك لا نستخدم التهديد .. لكننا نقول بوضوح ، نأمل ان لا تتوهم الولايات المتحدة كثيراً ، وان يكون سعيها لكسب اصدقاء ، وليس اضافة ارقام جديدة الى الاعداء .

انا اطلعت على التصريحات الامريكية التي تتحدث عن الاصدقاء في المنطقة .. واقول ، من حق كل جهة ان تختار اصدقاءها في المنطقة .. ومن حق كل جهة في العالم ان تختار اصدقاءها .. نحن لا نعترض على هذا .. ولكن انتم تعرفون ، انكم لستم الذين حميتم اصدقاءكم خلال الحرب مع ايران .. وانا اجزم لو ان الايرانيين إندفعوا في المنطقة ، لما استطاعت الجيوش الامريكية ان تصدهم وتوقفهم الا باستخدام القنابل النووية .

هذه ليست نظرة استصغار لكم ، وانما مرتبطة بطبيعة الجغرافية وبطبيعة المجتمع الامريكي ، التي تجعله لايستطيع ان يتحمل في معركة واحدة عشرة الاف قتيل .

وانتم تعرفون ان ايران وافقت على وقف اطلاق النار ليس بسبب ضرب امريكا منصة صغيرة من منصات تحميل النفط بعد تحرير الفاو .. فهل هذه هي مكافأة العراق على دوره في استقرار المنطقة وحمايتها من طوفان لم نكن نعرف على أي شاطىء كان سيضعها ؟

ماذا يعني قول امريكا الان اننا ملتزمون بحماية اصدقائنا بصورة فردية وجماعية ؟

انه يعني بوضوح ، انحيازاً واضحاً ليس الى جانب الجهة الفلانية من دون الجهة الفلانية الاخرى ، وانما انحياز واضح ضد العراق في هذه المرحلة .

هذا الموقف فيه تشجيع واضح للكويت وللامارات ، ومع التصريحات الاخرى والمناورات ، لكي لا تحترم دولتا الامارات والكويت حقوق العراق .

اقول لكم بوضوح .. ان حقوق العراق التي وردت في المذكرة سنأخذها واحدة واحدة .. قد لا يحصل هذا الان .. او بعد شهر او بعد سنة .. ولكننا سنحصلها كلها ، لاننا لسنا من النوع الذي يسكت على حقه .. وليس هناك استحقاق تاريخي او شرعية او حاجة لتستحوذ الامارات والكويت على حقوقنا .. فان كانوا (محتاجين) فنحن ايضا محتاجون .

اذن على الولايات المتحدة ان تكون منسجمة مع هذا الموضوع ، ويجب ان تظهر بوضوح انها تريد الصداقة مع الجميع حيثما رغب الجميع بصداقتها ، وتعادي من يعاديها .. ويجب ان لاتعادي من يختلف معها في وجهة النظر في الصراع العربي الاسرائيلي او شؤون الحياة الاخرى .

نحن نفهم تماما قول امريكا بانها حريصة على تدفق النفط ، ونفهم قول امريكا بانها تريد علاقات صداقة مع دول المنطقة ، وان تتسع مساحة المصالح المشتركة في المجالات المختلفة ، ولكن لا يمكن ان نفهم محاولات تشجيع البعض لكي يلحق الضرر بالعراق .

تريد الولايات المتحدة ضمان تدفق النفط .. هذا مفهوم ومعروف .

تريد امريكا السلام في المنطقة .. وهذا هو الذي نسمعه .. هذا مفهوم .

لكن عليها ان لا تعمل بالطرق التي تقول انها لا تحبها وهي طرق الضغط واستعراض القوة .

اذا استعملتم طرق الضغط والاكراه .. نحن سنعمل بطريقة الضغط واستخدام القوة .

نحن نعرف انكم قادرون على الحاق اذى بنا .. ونحن لا نستخدم التهديد ضدكم .. لكن نحن ايضا قادرون على الحاق اذى بكم .. وكل واحد يلحق اذى بقدر حجمه .

نحن لا نستطيع ان نأتي اليكم في الولايات المتحدة .. ربما يصل اليكم افراد عرب .

انتم تستطيعون ان تأتوا الى العراق بطائرات وبصواريخ .. نعرف هذا .. لكن لاتوصلونا الى ان نستخف بكل هذا !!! متى نستخف بهذا ؟

عندما نشعر انكم تريدون ان تذلونا وان تنتزعوا فرصة العراقيين في العيش بكرامة وسعادة .

عند ذلك الموت يكون هو الافضل .

وعند ذلك .. لا نأبه اذا وجهتم علينا مقابل الصاروخ الواحد ، مائة صاروخ ، لانه من غير هذه ، لا كرامة للانسان ولا حياة ذات قيمة .

ليس من المعقول ان نطلب من شعبنا ان ينزف كل انهار الدماء طيلة ٨ سنوات ، ثم نقول له الان عليك ان تقبل العدوانية الكويتية او الاماراتية او من الولايات المتحدة او من اسرائيل .

نحن لا نضع هذه الدول بمستوى واحد .. اولا نحن متألمون ان يحصل بيننا وبين الكويت والامارات هذا ، والحل لما حصل يتم ضمن الاطار العربي .. وبالعلاقة الثنائية المباشرة .

لا نضع امريكا كعدو .. ولكن نضعها حيث نرغب ان نكون اصدقاء .. وحاولنا ان نكون ، ولكن يبدو من تصريحات امريكا المتكررة خاصة خلال السنة الماضية بانها لا تضعنا كمشروع صداقة .. وهي حرة في تصرفها هذا .

نحن عندما نسعى لان نصادق ، نريد مع الصداقة ، الكرامة ، الحرية ، الحق في اختيار فرصنا كما نجتهد ، وخاصة الفرص التي لا تلحق اذى بطرف الصداقة .

نريد ان نتعامل بحجمنا ونعامل الاخرين بحجومهم .

نريد مصالح الاخرين ، في الوقت الذي نتعامل مع مصالحنا ، وعلى الاخرين ان يروا مصالحنا في الوقت الذي يتعاملون مع مصالحهم .

ماذا يعني استدعاء وزير الحرب الصهيوني في هذا الوقت الى امريكا ؟

ثم ماذا تعني هذه التصريحات الملتهبة التي تخرج من (اسرائيل) في الايام الثلاثة او الاربعة الاخيرة ، والحديث عن احتمالات اقتراب الحرب اكثر من السابق .

نحن لا نريد الحرب .. لاننا نعرف معناها .. ولكن لاتدفعونا الى ان نعتبرها هي الطريق الوحيد امامنا لنعيش بكرامة ويعيش بقيتنا بسعادة .

نحن نعرف ان لدى الولايات المتحدة قنابل نووية .. ولكننا مصممون على ، اما ان نعيش بكرامة اونذهب كلنا ! ولا اعتقد ان هناك انسانا شريفا في الكرة الارضية لايفهم هذا المعنى .

نحن لا نطلب منكم ان تحلوا مشاكلنا .. انا قلت ان مشاكلنا العربية نحلها فيما بيننا .. ولكن لا تشجعوا بعض الناس ان يتصرفوا باكبر من حجومهم وعلى الباطل .

الذي يصادق العراق لا اظنه يخسر .. ما زال الرئيس الامريكي في تقييمي انه لم يرتكب خطأ تجاه العرب ، وان كان قراره بتعليق الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية قراراً خاطئا .

ولكنه قرار يبدو انه ينطوي على مجاملة ما لتيار الضغط الصهيوني ، وربما ينطوي على تكتيك ما ليمتص التعبئة الصهيونية ويعيد الكرة . نحن نأمل ان يكون استنتاجنا الاخير صحيحا .. لكن سنظل نقول انه قرار خاطىء .

تجاملون المغتصب بعشرات العناوين والمفردات في الاقتصاد وفي السياسة وفي الاعلام وفي الاسلحة .. متى يحين الوقت لتجاملوا بعد كل ثلاثة عناوين للمغتصب بعنوان واحد للعرب ؟ ! ومتى تجد الانسانية فرصتها الحقيقية في القرار الامريكي العادل ، بحيث يوازن في الحقوق الانسانية ل (٢٠٠) مليون انسان مع (٣) ملايين يهودي ؟

اذن نحن راغبون في الصداقة من غير ان نركض وراءها .. نقوم بواجبنا .. نرفض الايذاء من اية جهة جاءت .. واذا حصل اصرار على ايذائنا سنقاومه .. وهذا حق انساني ، سواء جاء الايذاء من امريكا او الامارات او الكويت او اسرائيل .

طبعاً لا اضع هذه الدول على مستوى واحد .

اسرائيل تغتصب ارض العرب .

امريكا تساندها .

لكن الامارات والكويت لا تساعدانها ، وهم عرب في كل الاحوال ، اما عندما يصرون على اضعاف العراق ، فهم يساعدون الاعداء .. عند ذلك من حق العراق ان يدافع عن نفسه .

في عام ١٩٧٤ ، التقيت مع ابن الملا مصطفى البارزاني في هذا المكان الذي تجلسين عليه .. وكان اسمه ادريس .

جاءني بطلب تأجيل تطبيق الحكم الذاتي في كردستان العراق كما اتفق عليه في بيان ١١ آذار لسنة ١٩٧٠ . فقلت له لدينا اصرار على ان نلتـزم بتعهداتنـا وعليكم كذلك الالتزام بتعهدكم .. وعندما رأيت ان هنالك نوايا شر من البارزاني ، قلت له سلم لي على ابيك وانقل له ان صدام حسين يقول مايلي : وحدثته عن توازن القوى بالارقام والمعطيات مثلما تحدثت مع الايرانيين في رسائلي المفتوحة اليهم اثناء الحرب .. وخرجت من الحديث حول هذه الامور بنتيجة اوجزتها له بالقول ، انه اذا حصل قتال عسكري سننتصر .. وقلت له اتعرف لماذا ؟ لكل هذه الاسباب التي ذكرتهـا زائدا سببـا سياسيـا .. انتم تعتمدون على خلافاتنا مع ايران (الشاه) .. وايران مستندة في خلافها مع العراق على اطماعها بالحصول على نصف شط العرب فاذا كان الاختيار ان نحافظ على العراق كله ومعه شط العرب ونكون بخير فسوف لن نتنازل عن شط العرب .. واذا وضعنا في زاوية اما نصف شط العرب او كل العراق ، فاننا سنعطي نصف شط العرب لنحافظ على العراق كما نتمنى له .

نأمل ان لاتدفعوا الامور لتذكرنا بهذه الحكمة في علاقاتنا مع ايران .. لكن بعدهـا اعطينا نصف شط العرب والبارزاني مات ودفن خارج العراق وخسر معركته .

وقال الرئيس موجها الكلام الى السفيرة الامريكية :

فنأمل ان لاندفع الى هذا .

ان كل الذي يعطل العلاقة بيننا وبين ايران الان هو شط العرب . فعندما نرى اننا امام ان يعيش العراق بعز وكرامة او شط العرب ، سنقف لنناقش على اساس الحكمة التي قلناها في عام ١٩٧٤ .. وعند ذلك مثلما خسر البارزاني فرصته التـاريخية ، سيخسر كثيرون فرصتهم التاريخية .

مع تحياتي للرئيس بوش .

وآمل ان يطلع الرئيس على هذا وان لايتركه بيـد المجموعـة في وزارة الخارجيـة ، واستثني من هذه المجموعة وزير الخارجية وكيلي ، لاني رأيته ورأيت عقليتـه وتبادلت الحديث معه .

قالت السفيرة :

اشكـركم سيادة الرئيس .. من دواعي السعـادة الكبيـرة لدبلومـاسي ، ان يلتقي ويتحدث مباشرة الى الرئيس .. وانا افهم بوضوح الرسالة التي تحدثتم بهـا .. وانتم تتحدثون سيادة الرئيس ، درسنا في المدرسة درس التاريخ .. كانوا يعلموننا ان نقول الحرية او الموت .

واعتقد انكم تعلمون جيدا اننا كشعب لنا تجربتنا ضد المستعمر .

سيادة الرئيس .. ذكرتم اشياء كثيرة خلال هذا اللقاء .. ليس بوسعي ان اعلق عليها نيابة عن حكومتي .. لكن بعد اذنكم اعلق على مسألتين :

تحدثتم عن الصداقة واعتقد انه كان واضحا من رسائل رئيسنا اليكم بمناسبة العيد الوطني انه يؤكد ..

قال الرئيس :
كان كريما وتعبيره محل تقديرنا واحترامنا .
قالت السفيرة :
وكما تعرفون انه وجّه الادارة الامريكية بالرفض القاطع والحثيث لمقترح فرض العقوبات التجارية .
قال الرئيس مبتسما :
لكن لم يبق لدينا شيء نشتريه من امريكا .. فقط الحنطة .. لانه كل مانريد ان نشتري شيئا ، يقولون هذا ممنوع .. ونخشى ان تقولوا ان الحنطة ايضا تصلح للبارود !!
قالت السفيرة :
ان لديَّ توجيها « مباشرا » من الرئيس شخصيا ان اعمل على توسيع وتعميق العلاقات مع العراق .
قال الرئيس :
ولكن كيف ؟ نحن ايضا لدينا هذه الرغبة ، والامور تجري من حيث النتيجة خارج الرغبة .
قالت السفيرة :
اعتقد كلما ناقشنا هذه القضايا ، يتقلص الاحتمال الذي اوردتموه .. مثلا اوردتم قضية المقال الذي نشر عن طريق وكالة الاستعلامات الامريكية .. لقد كان محزنا فعلا .. وقدمت اعتذارا رسميا حوله .
قال الرئيس :
موقفكم كريم .
نحن عرب .. يكفينا ان يقول لنا المعني انا آسف ، قد اخطأت .. ونمضي على الطريق .. لكن الاعلام بشكل عام استمر . ومليء بقصص مع الاسف ، لو انها موجودة لاتسبب الزعل .. لذلك نفهم من استمرار هذا النهج ان هناك اصرارا .

قالت السفيرة :
انا رأيت برنامج دايان سوير في محطة A.B.C. الذي جرى في هذا البرنامج امر رخيص وغير عادل ، وهو صورة حقيقية لما يجري في الاعلام الامريكي حتى لسياسيين امريكيين .. هذه هي طريقة الاعلام التي يعمل بها الاعلام الغربي .
انا مسرورة انكم تنضمون الى الدبلوماسيين لمواجهة هذا الاعلام .. لان ظهوركم في الاعلام حتى ولو لمدة خمس دقائق ، يساعدنا على ان نجعل الشعب الامريكي يفهم العراق .. وهذا شيء يزيد من الفهم المشترك . ولكن لو كان بامكان الرئيس الامريكي ان يسيطر على الاعلام ، لكان اداؤه لوظيفته اسهل .
سيادة الرئيس .. لا اريد ان اقول ان الرئيس بوش يريد علاقة افضل واكثر عمقا مع العراق فحسب ، بل يريد ان يكون للعراق اسهام « تاريخي » في السلام والازدهار في الشرق الاوسط .
ان الرئيس بوش ذكي ، ولن يعلن اي حرب اقتصادية على العراق .
انتم محقون .. صحيح الذي اوردتموه من اننا لانريد اسعارا عالية للنفط .. لكن اسألكم ان تتأملوا احتمال الرغبة في ان لاتكون اسعار النفط مرتفعة جدا .

قال الرئيس :

نحن لانريد اسعارا عالية جدا للنفط .. وسأذكر لك انه في عام ١٩٧٤ امليت افكار مقال كتبه السيد طارق عزيز مضمونه انتقاد شديد لارتفاع اسعار النفط .. وكان اول مقال يظهر من عربي بهذا الاتجاه .

قال السيد طارق عزيز :

وسياستنا في منظمة الاوبك ضد القفزات في الاسعار .

قال الرئيس :

غير ان السعر (٢٥) دولارا .. ليس عاليا .

قالت السفيرة :

عندنا كثيرون من الامريكان ممن يتمنون ان يرتفع السعر الى اكثر من (٢٥) دولارا ، لانهم من ولايات تنتج النفط .

قال الرئيس :

كان قد وصل السعر في هذه المرحلة الى (١٢) دولاراً .. فعندما تنخفض من ميزانية العراق المتواضعة ٦ـ٧ مليارات .. فان هذا تدمير .

قالت السفيرة :

اعتقد انا افهم هذا .. وعشت سنين هنا وانا اعجب بجهودكم غير الاعتيادية من اجل اعادة البناء .. وافهم ان هذا البناء يحتاج الى اموال .. وهذا نفهمه .. ولدينا رأينا في هذا الموضوع .. وهو ان تتاح لكم الفرصة لاعادة البناء ، ولكن الذي لايتوفر لدينا رأي حوله هو الخلافات العربية ـ العربية ، مثل خلافكم الحدودي مع الكويت .

انا خدمت في اواخر الستينيات في سفارة امريكا بالكويت . وكانت التوجيهات لنا في تلك الفترة . ان لا علاقة لكم بهذه القضية ولا علاقة لامريكا بهذه القضية . وقد وجه جيمس بيكر متحدثنا الرسمي لان يعيد التأكيد على هذا التوجيه .. ونتمنى ان تتمكنوا من حل هذه المشكلة وبأية طريقة مناسبة ، عن طريق القليبي او الرئيس مبارك .. كل ما نأمله ان يجري حل هذه الامور بسرعة . ومع كل هذا هل اطلب منكم ان تنظروا في كيف يبدو هذا الامر بالنسبة لنا .

ان تخميني بعد (٢٥) سنة خدمة في المنطقة ، هو ان تلقى اهدافكم الدعم القوي من اخوانكم العرب .. انا اتحدث الان عن النفط .

ولكن انتم سيادة الرئيس ، قاتلتم بحق حربا اليمة مرعبة ونحن بصراحة لايمكن الا ان نرى انكم قد نشرتم قطعات كبيرة في الجنوب .

بالشكل الاعتيادي هذا ليس من شأننا .. ولكن عندما نرى ان هذا الشيء يحصل في سياق الكلمة التي القيتموها في ذكرى الثورة ، ثم نقرأ ونطلع على التفاصيل في رسالتي وزير الخارجية ومن ثم نطلع على وجهة النظر العراقية ، من ان اجراءات الامارات والكويت هي من حيث التحليل النهائي لها موازية لعدوان عسكري على العراق ، يبدو ان من المعقول لي على الاقل ، ان اقلق ، ولهذا السبب تلقيت توجيها بان اتوجه بالسؤال بروح الصداقة وليس بروح المواجهة ، عن نواياكم ..

هذا هو الوصف البسيط للقلق الذي ينتاب حكومتي .. انا لا اقصد ان الوضع هو وضع بسيط .. انما قلقنا هو قلق بسيط .

قال الرئيس :

لانطلب من احد ان لا يهتم بالسلام .. او ان لا يقلق عندما يرى السلام يتكدر .. هذا شعور انساني صميم .. نحن نشعر به ، وانتم كدولة عظمى امر طبيعي ان تقلقوا ، لكن الذي نقصده ان لايعبر عن هذا القلق بطريقة تشعر المعتدي ان هنالك من يعاونه على العدوان .

هذا هو الذي نقصده .

نحن نريد ان نتوصل الى حل ينصفنا ولا يأخذ من حقوق الاخرين .. لكن في الوقت نفسه نريد ان نشعر الاخرين بانه لم يعد لنا مجال للصبر تجاه تصرفاتهم التي وصل ضررها الى حليب اطفالنا والى رزق الارملة التي استشهد زوجها في الحرب ، والى رزق الايتام الذين فقدوا آباءهم اثناء الحرب .

ثم نحن بلد من حقنا ان نزدهر ، وطالما ضاعت علينا فرص .. وعلى الاخرين ان يقدروا دور العراق في حمايتهم وحتى هذا العراقي (يقصد السيد الرئيس القائد .. المترجم) اصبح في شعور صعب .. هذا شعور كل عراقي .. نحن لانريد ان نعتدي ، لكن لانقبل ان يعتدى علينا . ارسلنا لهم مبعوثين ورسائل خطية ، وحاولنا معهم بكل الطرق .. تمنينا على خادم الحرمين الملك فهد ان يعقد اجتماعا « رباعيا » على مستوى القمة ، فاقترح ان يكون على مستوى وزراء النفط .. ووافقنا ، وانعقد اجتماع وزراء النفط في جـدة كما تعرفون .. وتوصلوا الى اتفاق لايمثل الذي يفترض ان يكون ، لكن وافقنا عليه .

بعد الاجتماع بيومين فقط ، صرح وزير النفط الكويتي بما يخالف الاتفاق .

كذلك طرحنا الموضوع اثناء قمة بغداد .. فبعد انجاز جدول اعمال القمة ، قلت للملوك والرؤساء العرب ، ان بعض الاشقاء يشنون علينا حربا اقتصادية ، وان الحروب ليست كلها تستخدم الاسلحة هذا النوع من الحرب نعتبره بمستوى العمل العسكري ضدنا .. لانه اذا هبطت كفاءة جيشنا من الممكن عندما تعاود ايران الحرب ، ان تحقق اهدافا لم تحققها في الماضي ، واذا هبط مستوى برنامجنا الدفاعي قد يشجع هذا اسرائيـل لان تعتدي علينا .

وقلت هذا امام الملوك والرؤساء العرب .. فقط لم اشر بالاسم الى الكويت والامارات لانهم كانوا ضيوفي .

ثم انا كنت قد ارسلت لهم مبعوثين قبل هذا لكي اذكرهم بان القتال الذي قمنا به يتضمن دفاعا عنكم ، فلا يجوز ان تبقى المساعدات التي قدمت لنا بصيغة قروض .

قمنا باكثر مما تقوم به الولايات المتحدة تجاه من يعتدى على حقوقها .

وتحدثت بالموضوع مع الدول العربية الاخرى .. حكيت للاخ الملك فهد عدة مرات عن طريق المبعوثين وبالهاتف .

وحكيت مع الاخ الملك حسين .. ومع الشيخ زايد بعد انتهاء اعمال القمة ، والى ان اوصلته الى الطائرة وهو يغادر الموصل الى الامارات .. وقال لي ، فقط انتظرني الى ان اصل الامارات ، ولكن بعد وصوله ظهرت تصريحات في غاية السوء ليس منه ، وانما من وزير النفط .

كذلك بعد اتفاق جدة ، وصلتنا اخبار ، انهم يتحدثون عن ان مدة الاتفاق شهران ، وبعدها يتنصلون من الاتفاق . اذن قولوا لنا ، لو ان الرئيس الامريكي وضع في مثل هذا الموقف ماذا يفعل ؟

انا قلت ان من اصعب الامور علي ان اتحدث علنا .. ولكن لابد ان نقول للعراقيين الذين يجدون نقصا في ارزاقهم من هو المسؤول عن ذلك .

قالت السفيرة :

قضيت اربع سنوات جميلة في مصر .

قال الرئيس :

مصر شعب كريم .. طيب .. عريق . يفترض ان اهل النفط يساعدون شعب مصر .. لكن مع الاسف بعضهم بخلاء الى الحد الذي لايصدق .. ومن المؤلم ان بعضهم غير محبوب عند العرب بسبب بخلهم .

قالت السفيرة :

سيادة الرئيس .. يساعدنا ويكون من دواعي اهتمامنا اذا اعطيتمونا تقييما للجهود التي يبذلها اخوانكم العرب ، واذا كان هناك اي نجاح ؟

قال الرئيس :

في هذا الموضوع .. خلاص .. اتفقنا مع الاخ الرئيس مبارك ، ان يلتقي رئيس وزراء الكويت مع نائب رئيس مجلس قيادة الثورة من عندنا في السعودية .. لان السعودية كانت البادئة في الاتصال معنا .. وجاءت جهود الاخ الرئيس مبارك تصب في الاتجاه نفسه .. وكان الان معي على الهاتف .. وقال ان الكويتيين موافقون .

قالت السفيرة :

مبروك .

قال الرئيس :

سيعقدون في السعودية اجتماعا « بروتوكوليا » .. ثم ينتقل الاجتماع الى بغداد ، ليبحثوا امورهم بعمق بين الكويتيين والعراقيين مباشرة .. ونأمل ان نصل الى نتيجة .. ونأمل ان النظرة البعيدة والمصلحة الحقيقية تتغلب على البخل الكويتي .

قالت السفيرة :

هل من الممكن ان اسألكم متى تتوقعون ان يأتي الشيخ سعد الى بغداد .

قال الرئيس :

يفترض السبت او الاثنين بالكثير كما قال لي الاخ الرئيس مبارك .. وقد قلت للاخ مبارك ان الاتفاق ان يكون في بغداد السبت او الاحد .. لكن تعرفون ان الاخ مبارك (يمون علينا) .

قالت السفيرة :

هذه اخبار سعيدة .. وانا اهنئكم .

قال الرئيس :

قال لي الاخ مبارك ان الكويتيين خائفون ويقولون يوجد عسكر على بعد عشرين كيلومترا من خط الجامعة العربية . فقلت له بغض النظر عما يوجد سواء اكان الموجود شرطة او جيشا وكم عدد الموجود وماذا يفعل ، طمئن الكويتيين .. ونحن من جانبنا لن يحصل اي شيء الى ان نلتقي معهم .. وعندما نلتقي ونرى ان هنالك املا ، لن يحصل شيء .. وعندما نعجز عن ايجاد مخرج ، فأمر طبيعي ان لايقبل العراق ان يموت .. ومع ذلك الحكمة هي فوق كل شيء آخر .

فأذن الان عندك اخبار جيدة .

قال السيد طارق عزيز :

هذه اخبار سبق صحفي .

قالت السفيرة :

كنت قد خططت لاسافر الى الولايات المتحدة يوم الاثنين القادم .. واملي ان التقي الاسبوع المقبل في واشنطن بالرئيس بوش .. لكن بسبب الصعوبات التي بدأنا نواجهها فكرت بتأجيل السفر .. اما الان فأني سأسافر يوم الاثنين .

نص لقاء الرئيس صدام حسين مع القائم بالاعمال الاميركي في بغداد جوزيف ويلسون الساعة ـ٢/ ظهر يوم ١٩٩٠/٨/٦

الرئيس : ماهي اخبار السياسة والدبلوماسية ؟

ولسن : وزيركم من خلال CNNلديه معلومات اكثر مني .

الرئيس : بعثت عليك حتى ندرس المستجدات التي حصلت بعد لقائنا مع السفيرة . بعد ذلك اللقاء فشلت المحادثات بيننا وبين الحكومة السابقة في الكويت وحصل الذي حصل .

ولسن : الوزير اطلعني بشكل مبكر .

الرئيس : انا مطلع على الموقف الاميركي بتفاصيله ، حتى الآن نحن نفهم انه عندما يحصل مثل هذا الوضع فان امريكا تتخذ موقفا سواء يحصل في الوطن العربي ، اوربا ، آسيا او امريكا اللاتينية . ولسنا مستغربين من ان تشجب امريكا عملاً من هذا النوع وخاصة عندما لاتكون طرفا فيه . ولكن اردت ان اقول ان على امريكا ان لاتندفع تحت استشارات مخطوءة الى عمل تجد نفسها معه قد وضعت موضع الاحراج .

وانا اقول هذا لان من طبيعتنا مهما تكن قناعتنا او قناعة الطرف الآخر ان نبذل مانراه ضـروريا ، لمنـع الضرر الذي يمكن ان يقـع بضوء تـطورات الظروف في الحاضر او المستقبل .

ولاشك انكم قد اطلعتم على رسائلنا الى ايران خلال الحرب وقد ضمناها استشارة مخلصة ومجانية لرؤية الحاضر والمستقبل ، ولانها صريحة جدا تصور الايرانيون بانها تكتيكية . ولكننا قلنا كل مانفكر به لاننا كنا نريد السلام ونتألم من استمرار الحرب ، وتعرفون النتيجة . الاستشارة التي قدمناها الى ايران لو اخذت بها لما حصل الذي حصل ومن اسوأ ماحصل استمرار الحرب لفترة طويلة .

انا سأتحدث عن العلاقة بين العراق وامريكا في ضوء التطورات وماذا سيكون عليه المستقبل فيما لو اخطأت امريكا التصرف .

وابتداء اريد ان اتحدث عن ثلاث نقاط الترابط فيما بينها يحصل من خلال الحديث اللاحق .

الكويت كانت دولة ومازالت ضمن حدود غير معروفة ، اي دولة بلا حدود . وحتى ١٩٦١ لم تكن الكويت دولة من وجهة نظر الكثيرين . حتى حصل الذي حصل في زمن عبدالكريم قاسم عندما اصدر مرسوما جمهوريا يعين حاكم الكويت قـائممقامـا تحت البصرة . ويجعل الكويت قضاء تابعا للبصرة .

لماذا حصل هذا في ١٩٦١ . كان عبدالكريم قاسم وكل العراقيين يعرفون جيدا ان الكويت عراقية وان حاكم الكويت كان قـائممقامـا فعلا وانـه يستلم الراتب من حاكم البصرة في العهد العثماني .

وهذا الحال استمر على هذا النحو حتى ١٩١٣ . ثم بعد ذلك جاءت الحرب العالمية الثانية التي ادت الى ظروف جديدة . اذن الكـويت لحد الآن هي دولة ولكن ليس لهـا

حدود . اذن بغض النظر عن التفاصيل ، تطورات الوضع التي حصلت داخليا في الكويت والدخول العراقي لاتصلح مقياسا للعمل بها في عموم الوطن العربي .

النقطة الاخرى (العراق والسعودية) انتم تعرفون اننا بنينا علاقة جيدة جدا مع السعودية تدرجت من عام ١٩٧٥ وحتى الآن تطورت بشكل جيد حتى قبل ٢ آب .

والثقة بيننا والتنسيق حتى ٢ آب كان يجري على كل المستويات . وعلى حد ما نعرفه مما هو معلن في سياسة امريكا ، اذا كان المعلن هو كل سياسة امريكا او جوهرها ، فاننا لم نجد ان علاقة جيدة بين العراق والسعودية تلحق ضررا بالمصالح الامريكية . فاذا كان هذا المثل صائبا فان العلاقة الجيدة بين العراق والسعودية لن تلحق ضررا بالمصالح الاميركية وانها كانت احد عوامل الاستقرار في المنطقة لذلك فان اللعب فيها يلحق ضررا كبيرا بأمن المنطقة وبمصالح الولايات المتحدة .

ومن هذا فاننا لانفهم معنى التحول الفوري في القول بان الاميركان يخافون من القوة العراقية على السعودية وتواتر الاحاديث والتصريحات بان الدور بعد الكويت سيكون على السعودية .

ولانعرف فيما اذا كنتم تريدون ان تسبقوا الامور لتدفعوا السعودية لعمل ما ضد العراق مما يؤدي الى رد فعل عراقي عليها لتحقيق شيء ما تريدونه .

الكويت كانت جزءا من العراق وبدلا من ان تتصرف بشكل صحيح تصرفت بشكل خاطىء وهذا هو غير الوضع مع السعودية التي لها سيادة كاملة .

انتم تعرفون باننا اول من عرض اتفاقية امن مع السعودية تتضمن عدم التدخل بالشؤون الداخلية وعدم استخدام القوة ، وقد وقعنا على ذلك .

وعرضناها على الكويت ولم توقعها معنا ويبدو انها استلمت نصيحة غربية وقد تكون بريطانية .

كما تعلم كانت بعض الاوساط الغربية متضايقة جدا وتستهزئ من فكرة اتفاقيات عدم التدخل بالشؤون الداخلية وعدم الاعتداء وتقول كما لو ان نفس الحالة عرضت بين بريطانيا وفرنسا . والحمد لله ان الكويت لم توقع معنا هذه الاتفاقية .

وانا كنت في غاية السرور عندما قررنا دعم المجموعة الثورية في الكويت لانه لم تكن هناك الاتفاقية . لانه لو كان لدينا معهم مثل هذه الاتفاقية لما قمنا بنفس العمل .

اذن السعودية اخواننا وساعدونا في الحرب وبمبادرة منهم حصلنا على انبوب النفط وساعدونا بمساعدات نقدية كمنح وليس كقروض بعضها لم نطلبها وانما بمبادرة منهم . اذا مشت الامور كما هو عليه فهم اخواننا الا اذا انتم خربتم الامور بيننا ودفعتموهم علينا عند ذلك فسيكون لكل واحد حقه بالدفاع عن مصالحه الشرعية .

اذن اذا كنتم فعلا قلقين على السعودية فان قلقكم غير واقعي . واذا كنتم تتظاهرون بالقلق لكي تدفعوا بالسعودية للقلق فهذا شيء آخر .

نحن سنقول لاشقائنا السعوديين نفس الكلام واننا مستعدون لاية ضمانات مطلوبة لازالة قلقهم وجعلهم مطمئنين . بل على العكس نشعر ان من واجبنا الدفاع عن السعودية اذا ماتعرض امنها للخطر من اجنبي . اما عن العلاقات مع العرب فيمكن ان تتصلح بين

ليلة وضحاها ويمكن ايضا ان تتدهور بين ليلة وضحاها . ونحن حتى الآن لم نلمس منهم اي قلق . والضمانة موجودة اصلا لدى السعوديين ونحن اصحاب عهد ونحرص على ذلك .

النقطة الثالثة تتقدم على النتيجة التي سأقولها . هو انه حصلت اشاعات ان صدام حسين اعطى وعدا لبعض المسؤولين العرب بان لايستخدم القوة باي شكل من الاشكال وتحت كل الظروف ضد الكويت .

وعلمنا بصورة او باخرى بان بعض المسؤولين العرب اعطوا للامـريكان مثـل هذا الاستنتاج . والذي يهمني هو ان لايأخذ الامريكان اي انطباع باننا لانهتم بمصداقيتنا .

انا لم اعط مثل هذا التعهد لاي عربي والذي حصل ان بعض الاشقاء المسـؤولين العرب كانوا يتحدثون معي عن وجود حشود للعراق باتجاه الكويت وكانوا يقولون لي بان الكويتيين قلقون وخائفون .

قلت لهم بانني اتعهد لهم بان لانقوم باي عمل عسكري قبل ان ينعقد الاجتماع الذي اتفقنا عليه في جدة . وهذا حصل ، ولم يحصل اي عمل عسكري كلي او جزئي قبل ذلك الاجتماع ، بل ولاننا كنا ننتظر نتيجة جدية من اجتماع جدة فاننا لم نتخذ القرار الا بعد رجوع نائب الرئيس ليقول لنا الموقف الكويتي كما هو .

ثم هنالك من يتحدث عن السرعة التي حصل بها العمل وان هذا يعني ان النـوايا سبقت اجتماع جدة ، نعم مثل هذا الاحتمال سبق اجتماع جدة والترافق مـع العمل الوطني الكويتي ، ولكن لم يكن هذا هو الاحتمال رقم واحد الذي كنا نتصرف بموجبه وانما الاحتمال الاساس هو ان نسترجع حقوقنا بالمفاوضات ، ثم اننا عرب فأمر طبيعي عندما يؤذينا من يؤذينا فنحن نقدر ان نؤمن صلة مع المعارضة مثلما يكون الكويتي او غيره قادرا على ان يتصل بالمعارضة في العراق اذا ما آذاهم .

عندما تعرضت مصالحنا الحيوية الى خطر اكيـد مع سبق الاصـرار وعجزت كـل الوسائل الاخرى عن تقديم حل استخدمنا القوات العسكرية ، والسؤال هنا الى الرئيس الامريكي والمسؤولين الامريكان : اين هو الخطر على المصالح الامريكية ان كان في الكويت او خارجها ؟

انتم تعرفون ان نفط العراق يباع لكم منذ جئنا الى الحكم رغم ان العلاقـات كانت مقطوعة آنذاك ، وازداد حجم التعامل بعد اعادة العلاقـات في١٩٨٤ والى ان اتخذتم قراركم بمقاطعة النفط العـراقي . انكم تستوردون بحـدود ثلث الكمية التي نسـوقها للخارج . وهذا حصل ليس بمبادرة من الفنيـين وبتفضيل الاسـواق وانما تم بقـرار سياسي .

نحن نعرف ، الذي هو معلن ، ان مصالحكم هي تجارتكم واستمرار حصولكم على النفط ، فاذن اين هو الخطر الذي يجعلكم تناقشون العمل العسكري الذي سوف تهزمون به واقول لكم كيف ستهزمون .

انتم دولة عـظمى ونعرف انكم قـادرون على ايـذائنا كمـا قلت للسفيـرة ، ولكنكم ستخسرون المنطقة بعدها ، وسوف لن تستطيعوا اركاعنا لو استخدمتم كل اسلحتكم .

تستطيعون ان تدمروا الحلقات العلمية والفنية والاقتصادية والنفطية . ولكن كلما دمرتم اكثر كلما اصبح عبئا عليكم . ثم اننا بعد ذلك لن نسكت ازاء مصالحكم في المنطقة .

متى ضربنا في الكويت ؟ عندما اصبح واضحا لدينا أن المؤامرة ونتائجها الخطيرة او العراق العزيز المسالم المقتدر .

لاتضعونا مرة اخرى بموقف مماثل . عندما نرى بان فرص الحياة تضيق امامنا فسوف نمنعها على غيرنا ، انا اعرف انكم دولة عظمى وقادرون على الايذاء والتدمير ولكن لا احد يستطيع ان يقضي على الانسان الا الله .

ثم لماذا تريدون معاداتنا ، لقد ارتكبتم اخطاء شنيعة عندما اضعفتم اصدقاءكم الى حد كبير حتى اصبحوا غير قادرين على التأثير في نظر شعوبهم .

وادعوكم الى ان تعطوا اصدقاءكم فرصة للعمل والاجتهاد ليعيدوا النظر ولتكوين شخصياتهم ليصبحوا لائقين من وجهة نظر شعوبهم .

وفيما نرى بانكم قادرون على تدبير مصالحكم مع العناصر القوية القومية الواقعية اكثر مما انتم قادرون على ضمان مصالحكم مع الضعفاء .

تتحدثون عن عدوانية العراق . اذا كان العراق عدوانيا لماذا كنتم تتحاورون معه وهو في الحرب مع ايران ، هل تحبون العدوانيين ؟ اما اذا كنتم تتحدثون عن تصريح ٢ نيسان الماضي فانتم تعرفون اننا لم نصدر مثل هذا التصريح قبل واثناء وبعد الحرب .

لماذا صرحت بذلك ؟ ان بعض الاوساط الغربية والامريكية كانت ترتب الاوضاع لعدوان اسرائيلي ضدنا . فكان لابد من ذلك قبل ان ترتكب حماقة ضدنا .

ونعتقد ان هذا انفع للسلام من السكوت ومن ثم ترتكب اسرائيل حماقتها ثم نرد عليها .

تتذكرون اننا اثناء الحرب تلقينا قصفا مستمرا من ايران على بغداد لحوالي السنة . ثم لما امتلكنا الصواريخ لم نستخدمها وانما هددنا ايران باستخدامها .

لو ان ايران استمعت للنصيحة لما استخدمناها ، والحمد لله ان اسرائيل حتى الان استمعت الينا .

هل هذا افيد للسلام ؟

بغداد تتحمل صواريخ كثيرة ولكن مدن اسرائيل لا تتحمل ذلك .

اذن نحن مسرورون لعدم حصول ذلك .

أليس ان الذي هو مسرور لعدم حصول شيء هو المسالم ام الطرف الذي كان يريد الضرب ؟

الخلاصة : اذا كان الذي يريده الرئيس الامريكي هو المعلن عن سياسته عن المصالح الامريكية في المنطقة كما تحدثنا عنها ، فاننا نرى بان التصعيد والتوتر والتصرف العسكري هو ضد هذه المصالح ، اما اذا كان هناك مصالح اخرى لامريكا لا نعرفها مما هي غير ماذكرنا فهذا شيء اخر .

وفي كل الاحوال نحن نريد الاستقرار ونريد السلام ولكننا نكره الخضوع ولن نقبله .

ونكره الجوع لان شعبنا جاع لألف عام ولن يعود اليه ، ونتطلع بشـرف وبمجهودات انسانية مشروعة للمستقبل بما في ذلك بناء علاقات متطورة وجيدة مع الولايات المتحدة الامريكية ان ارادت هي ذلك .

هذه في رسالتي الجديدة التي اريد ان تصل الى الرئيس بوش .

ولسن : شكرا سيادة الرئيس وسأنقلها بالتأكيد الى حكومتي ، وبالبداية سوف انقل هذه الكلمات هاتفيا حال وصولي للسفارة وبعد ذلك سأرسلها مكتوبة . كما بينتم بحق ان هذا زمن خطير ليس فقط للعلاقات العراقية ـ الامريكية ولكن بالنسبة للاستقرار في المنطقة والعالم .

الرئيس : لماذا خطيرة للعالم ؟

ولسن : كما اعتقد ان في الاسواق العالمية إضطرابا وعدم استقرار .

الرئيس : انتم عملتم ذلك ، ونحن قبلنا ٢٥ دولاراً للبرميل والان لولا موقفكم بالمقاطعة لاستمر البرميل ٢١ دولاراً او اقل او اكثر .

لكن عندما تحصل المقاطعة لخمسة ملايين برميل مرة واحدة يحصل الاضطراب ، نحن نلتزم بقرار الاوبك لـ ٢١ دولاراً للبرميل .. وربما آخرين من التجار سيستفيدون من الزيادات وليس الشعب الامريكي ، وحجتنا قوية ، جزء صغير من العراق بدلا من ان يحترم العراق الاكبر ومصالحـه شجع من البعض لدور تـآمري عـلى العراق ليسحق اقتصاده . فدافعنا عن انفسنا دون تعرض للاضرار بأي طرف اخر مثل امريكا .

ولسن : اشعر وكأنني لست عصبيا بذلك والواقع ان الذي اردت ان اقوله انه خلال هذه الايام العصبية والخطيرة يبدو لي من الضروري جدا ان نبقي الحديث بيننـا لنتجنب الحوادث واساءة الحسابات وهذا الاسلوب هو وحده الذي يجعل هذا الموقف المتـوتر والعاطفي اسوأ .

لهذا ارحب بهذه الفرصة لنقل هذه الرسالة ، اود ان ابدي ملاحظتين ومن ثم اعود للتأكد من النقاط التي اثرتموها .

وسوف انقل جواب رئيسي اليكم او الى السيد الوزير .

في الجزء الاول من رسالتكم ، ذكرتم ان الكويت جزء من العراق .

الرئيس : هذا تأريخيا صحيح وعندما نقول ذلك لنؤكد بان كان على الكويت ان تتعاون معه وليس ان تتآمر عليه ، ولكن عقدتها جعلتها تتآمر عليه .

هذا خصوصية للعلاقة بين العراق والكويت كان يجب ان تتصرف بموجبها وهي لا توجد مع كل الدول الاخرى مثل مصر والسعودية والتي لديهـا افضل العـلاقات مـع العراق .

ولسن : المهم جدا بالنسبة لي ان افهم طبيعة العلاقة بالضبط .

الرئيس : هذه تحددها طبيعة العلاقة بين شعبي البلدين ولا احددها انا او الامريكان او السوفيت او غيرهم ، ونرى يجب ان تبنى على الاخوة المشتركة والاحترام المتبادل .

ولسن : وهل هذا ما افتقدته العلاقات مع الكويت ؟

الرئيس : نعم وخاصة في الاشهر الاخيرة ، اركض وراء جابر لكي نؤشر الحدود وهو يقول

لا اتركها على الاخرين . ولدينا وثائق على ذلك وكنا نستغرب لماذا يحدث هذا ثم ظهر انه كان يقوم بدور تآمري .

ولسن : شكرا ، النقطة الثانية تحدثتم عن علاقاتكم الاخوية مع السعودية وتحدثتم عن اتفاقية عدم الاعتداء معها .

وانا اود ان اطلعكم على قلق حكومتي ازاء النوايا العراقية الان . واشعر انكم قد اجبتم على ذلك القلق بشكل عام ولكن اسمح لي ..

الرئيس : ما الذي يطمئنكم لازالة القلق ؟

ولسن : انا لا اعلم ولكن سوف اسأل رئيسي ولكنني اعرف انكم رجل واضح وصريح وارجو ان تعطوني تأكيداتكم بانه في ظل ظروف هذا اليوم الذي نحن فيه الذي لم يشهد عملاً عسكريا امريكيا ولا عملاً سعوديا وتحت هذه الظروف التمس منكم التأكيد بانه ليس بنيتكم اي عمل عسكري ضد السعودية .

الرئيس : تستطيع ان تأخذ التأكيد الى السعودية والى كل انسان في الشرق الاوسط . الذي لا يهاجمنا لا نهاجمه . الذي لن يؤذينا لن نؤذيه . الذي يريد صداقتنا نحن نتحمس أكثر منه للصداقة . وهذا منهج نحن نحتاجه ليس لفترة زمنية كما يتصوره البعض وانما لاسباب انسانية ولشعبنا .

اما بالنسبة للسعودية فلم يخطر ببالي مثل هذا السؤال فالعلاقة بيننا متينة الا اذا كان لديكم شيء لا نعرفه .

الملك فهد عندما يزوره جابر وولي العهد الكويتي السابق فمن الطبيعي ان يستقبلهم ولا ننزعج من ذلك . ننزعج فقط اذا ما اعطوا الفرصة لعمل ضد العراق من السعودية .

بالمناسبة سلم لي على الرئيس بوش وان يعتبر جابر والمجموعة التي معه بانهم انتهوا واصبحوا جزءاً من التاريخ . عائلة الصباح اصبحت تاريخاً .

ليس أمراً غير مشروع ان يقلق احد على مصالحه . نريد ان نفهم تماما اين هي المصالح المشروعة لامريكا وكيف نطمئنها على مصالحها ؟

انا اقول لك هذا الكلام ليس تكتيكا ليس لانكم تقاطعوننا ، وانا حرصت ان لا اراك الا بعد ان تقاطعونا ، وانا لا اسعى هنا الى رفع المقاطعة ولا القول بان العمل الذي حصل يجب ان يرحب به من قبل امريكا . وانما ان نفهم اين هو المشروع من مصالحها وان ننصح امريكا بان لا تندفع بعيدا ويصعب بعدها التراجع .

ولسن : انا سأنقل هذا الى حكومتي .

جئت هنا بثلاثة افكار في ذهني تعكس قلق حكومتي :

الاول : طبيعة الغزو . وتعلمون جيداً موقف حكومتي منه .

الثاني : النيات المستقبلية تجاه السعودية وقد اجبتم حول ذلك .

الثالث : يتعلق بسلامة المواطنين الامريكان وخاصة توفير الفرصة للمواطنين الامريكان للمغادرة . وكما تعلمون ان الامريكان حساسون جدا من مسألة ان يمنعوا من المغادرة . وهذا يشمل الامريكان في الكويت وبرغم الانسحاب .

الرئيس : كيف تقولون انه لم يحصل انسحاب ثم تقولون شيء آخر بعد ذلك .

ولسن : انا شاهدت ثلاث قوافل من البصرة وقد ابلغت واشنطن بذلك .
الرئيس : اخذت ثلاثة ايام لقواتنا للدخول الى الكويت وبالنسبة للانسحاب لا يمكن ان يتم بيوم واحد . وان انسحاب القوات يعتمد على الجو الدولي ولن نترك الكويت لقمة سائغة لأحد ولو قاتلنا الكون كله .

ولو ازداد التهديد على الكويت سنضاعف القوات هناك . وكلما التهديد كان بحجم معين كلما تغير حجم القوات . وعندما ينتهي التهديد تنسحب كل القوات ولا نريد تحويل الكويت الى لبنان .

واعتقد ان ليس من المصلحة ان ينسحب الجيش العراقي بسرعة وان تترك الكويت للاطراف المتصارعة .

الحكومة المؤقتة استلمت نصائح بتشكيل ميليشيات مختلفة ونحن نصحناهم بالاكتفاء بالجيش الشعبي .

وما يتعلق بالامريكان الموجودين في الكويت والعراق الان ممنوع السفر للجميع عراقيين واجانب في العراق والكويت . ومصادركم تعلم بان جيشنا هناك تصرف بمنتهى الانضباط تجاه الاجانب مع ذلك حسب بيان الحكومة الكويتية التي سمحت لهم بالسفر الى العراق وهنا الامن واضح ومؤمن .

ولسن : هل يمكن ان اسألكم مباشرة ؟ متى ستسمحون للمواطنين الامريكان المقيمين والزائرين بالمغادرة ؟
الرئيس : بل متى سنسمح للاجانب عموما بالمغادرة ؟
ولسن : انا مسرور للاعمام ولكن لا اسمح لنفسي بالحديث نيابة عن الآخرين .
الرئيس : اردت ان اوضح بان الموضوع لا يشمل الامريكان فقط . ومن المؤكد اننا سنناقش هذا وبوقت غير طويل . وسوف يكون لديكم علم .
ولسن : اسمحوا لي ان احثكم على ان تأتي دراستكم لهذا الامر عاجلا وليس آجلا لانها مسألة عاطفية حساسة لحكومتي وشعبي .
الرئيس : نفهم ذلك ونقدره والقضايا الانسانية مفهومة .
ولسن : اخيراً اود ان اقول شيئين .

اشرتم الى حسن تصرف القوات العراقية وقد تم تأكيد هذا الامر عليّ من قبل الوزير ووكيل الوزارة . ويتوفر لدي كل ما يجعلني اؤمن بان هذا هو طبيعة الامر . لهذا اسمحوا ان اجلب انتباه حكومتكم على اعتبار انها قضية مهمة . ليلة امس بيت مستشار السفارة الامريكية في الكويت تم اختراقه بواسطة بعض الجنود العراقيين وذلك مغاير للسياسة التي اشرتم اليها ، اضافة الى كونه خرقا للحصانة الدبلوماسية . ما كنت طرحت هذا الموضوع لولا انكم طرحتموه .

الرئيس : يوم امس قابلت احد ضباطنا وتحدث لي عن عناصر تقوم باعمال ضد الامن في بعض المخازن (اسيوية وسعودية وغيرهم) وعلى اية حال فاذا كان جنود عراقيون قد قاموا بذلك فسوف نقول ذلك لكم وسنقول لكم انه كان خطؤنا واننا سوف نحاسب لانه ضد سياستنا .

ولسن : ملاحظة اخيرة ، خلال هذه الايام العصيبة وخاصة حول سلامة مواطنينا الامريكان .

الرئيس : هل تنوون الهجوم علينا ولذلك تريدون اخلاءهم ؟

ولسن : كلا وانما واجبي اعطاؤهم حق المغادرة .

انا سوف ابقى هنا وانا احب الحياة . ولكن اريد القول انه خلال الازمة فتحت امامي كل الابواب وامام زملائي في وزارة الخارجية من الساعة ـر٨ صباحا وحتى ـر٤ صباحا وانا اقدر ذلك . وانا اقدر رغبتكم في ان تلتقوا معي وان تضعوني بصورة واضحة عن مصير مواطنينا في الكويت .

الرئيس : اطمئن عليهم بقدر تعلق سلطتنا وصلاحيتنا وجيشنا في الكويت .

ولسن : ولكن اود ان اثني على الحرفية العالية لعمل وزارة الخارجية . الحوار هو شريان الحياة بالنسبة للدبلوماسيين وكذلك للسياسيين .

الرئيس : امر طبيعي انك تثني على زملائك ولكنك لم تثن عليّ بطلبي لك شخصياً لنقل الرسالة الى بوش .

ولسن : آخر مرة قابلت رئيسا في افريقيا طلبت منه الرجوع الى كاتب المحضر ووجد ذلك في المحضر ، واذا رجعتم للمحضر ترون انني شكرتكم جدا .



لقــاء الرئيس صدام حسين مع جوزيف ويلسون القائم بالأعمال الأمريكي يوم ٦/٨/١٩٩٠ ببغداد



الرئيس صدام حسين مع سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية في بغداد ابريل غلاسبي ٢٥/٧/١٩٩٠ ـ بغداد

الكويت :العسل المسموم

انقذوا الكويت قبل ان تبكوا دما عليها

نداء من شباب الكويت
الى الملك غازي ١٩٣٣

حرص الرئيس صدام حسين منذ توليه الرئاسة سنة ١٩٧٩ على عدم زيارة الكويت مطلقاً في الوقت الذي كان نائبه السيد عزة ابراهيم ووزراؤه ومساعدوه يترددون على زيارة الكويت ، ولم يكن امتناع الرئيس عن القيام بمثل هذه الزيارة بصورة رسمية منفصلا عن ماكان قد ترسب في ذهنه من صور عن زيارات رؤساء جمهورية ورؤساء وزراء سابقين نتج عنها اعتراف ضمني بالتعامل مع الكويت كدولة ، مع ان مفردات التعامل الاخرى كانت تدل على التعايش معها كدولة ، وهو أمر متحقق من الناحية الفعلية والعملية والدبلوماسية ، ناهيك عن الجانب الاعلامي الذي قدّم للكويتيين تطميناً مبالغاً فيه خلال سنوات الحرب العراقية ـ الايرانية ، وبخاصة في الحرص على استخدام صفة (الدولة) مقترنة بكلمة الكويت حيثما وردت .

ولكن يبدو ان التعايش لم يقتل المارد السابت ، بل أطال اغفاءته بعضاً من الوقت ، بحيث انهار كل شيء مرة واحدة فجر ٢ آب (اغسطس) ١٩٩٠ .

فمنذ ١٩٠١ وحتى دخول الكويت سنة ١٩٩٠ أبدى ملوك العراق ورؤساؤه ودعاته السياسيون مقاومة لفكرة الاعتراف والتعايش مع حالة الكويت ، فقد قاد رجب النقيب أول حركة عسكرية عراقية للمطالبة بالكويت سنة ١٩٠١ ، عندما اتجه بباخرته مع مجموعة من الشبان ، ووجه انذاراً لشيخ الكويت بان ينصاع له أو يرحل .

اما المحاولة الثانية فقد جرت سنة ١٩٠٢ وقادها الناشط العراقي يوسف بن ابراهيم الذي عرّفه المؤرخ الكويتي عبدالعزيز الرشيد بانه بطل واسطورة ، واستخدم ابن ابراهيم السفن والزوارق وهو ينطلق من شط العرب في اتجاه الخليج على رأس قوة محلية متواضعة ليطالب مشايخ الكويت بالانصياع له . الا ان قطع البحرية البريطانية التي كانت تحمل اعداداً كبيرة من الجنود الهنود اعترضت طريقه وافشلت محاولته .

وعندما بدأ الملك فيصل الاول بن الشريف حسين بن علي سنة ١٩٢٢ بنـاء الدولة الحديثـة في العراق وتكـوين الجيش الوطني ووضع الميزانية .. شجّع رئيس وزرائه ياسين الهاشمي على اثارة قضية الكويت في سنة ١٩٢٤ حين طالب بعودتها لتكون تحت ولاية العراق .

واظهر الملك غازي الذي حكم العراق منذ ١٩٣٣ نزوعا صريحاً وقويا لاستعـادة الكويت ، وكـرّس اذاعته التي نصبهـا في قصر الزهور ببغداد لبث نداءات كان يذيعها بنفسه الى شباب الكويت الذين كانوا قد دعوه لرفع الراية الهاشمية على منطقتهم اسـوة بالعراق ... وخاطبه يومها ستـة من الشباب الكـويتي في رسالة مفتوحة قالوا فيها :

« نحن عراقيون لحماً ودماً وتاريخاً وجغرافيا ، نحيا ونموت تحت الرايـة الهاشميـة ، انقذوا الكـويت ، قبل ان تبكـوا دمـاً عليها .. » .

كان اولئك الشباب من عناصر انتفاضة وقعت في ١٠/٣/١٩٣٣ بمـدينة الكـويت ، وطالبت بالحـاق المدينـة بالعـراق ، ومـازال العراقيون يعتقدون ان الملك غازي قد قتل في حادث مُدبّـر سنة ١٩٣٩ بسبب مـطالبته بـالكويت ، خـاصة بعـد ان رحب بقرار المجلس التشريعي الكويتي الانضمام الى العراق ، قبل ان يحل آل صباح ذلك المجلس ويلغوا قراراته .

وتردد اسم الكويت في خطب قادة ثورة مايس (مايو) ١٩٤١ (رشيد عالي الكيلاني وصلاح الدين الصباغ ورفاقهما) .

وعُدّت رسالة رئيس وزراء العـراق الى المعتمد البـريطاني في الكويت ١٩٣٢ اعترافاً من حكومة بغداد بالكويت ، وهي الرسالة التي حـددت احداثيـات الحدود بـوصفها جـزءاً لا يتجـزأ من الاعتراف ، وتدل صياغتها على انها متـرجمة من الانكليـزية الى العربية . وكانت أول وثيقة تشير الى تخلي العراق عن جزيرتي وربة وبوبيان .

وقد لقيت تلك الرسالة انتقاداً شديداً من لدن السياسيين العراقيين . فذكر السيد ناجي طالب رئيس وزراء العراق (١٩٦٦-١٩٦٧) وأحد وزراء ثورة ١٩٥٨ : ان الرسالة انطوت على ظلم كبير ، لأنها حرمت العراق من الكويت التي يراها ميناء طبيعيا له ، فضلاً عن أن أي تخطيط للحدود ينبغي الا يقل بمسافة خمسة عشر كيلومترا الى الجنوب من ميناء ام قصر .

إلّا أن السيد نوري السعيد رئيس الوزراء المحنّك كان قد عاد في ١٩٥٨/٣/٢٤ ليحاول تصحيح ماورد في الرسالة التي وقع عليها قبل ستة وعشرين عاماً ، فأثار قضية الكويت خلال مباحثاته مع ممثلي شركات النفط في الشرق الاوسط ، ومنها شركة (I. P. C) عندما اكد عزمه على مد انبوب للنفط والماء بين العراق والكويت .
فأبلغ السعيد المفاوضين البريطانيين ان بامكانهم مد انبوب النفط لانه يعتقد بان الاتفاقية التي وقعها البريطانيون مع شيوخ الكويت ١٨٩٩ باطلة ولاتصلح للاعتراف ، واردف دعوته تلك بقوله الشهير الذي تضمنته وثيقة سرية عن تلك المباحثات :

- لاتوجد حدود كويتية يُختلف عليها ، فكل شيء خارج سور الكويت الذي يبلغ طوله ٧٥٠ مترا هو عراقي ، وانا أضمن أن الكويتين لن يتدخلوا عندما نمد انبوب النفط لسببين ، الاول : انهم لن يجرؤا على استخدام القوة مع عمال النفط ، والثاني : اننا اذا دعت الضرورة سنجهز قوة مسلحة لضمان الحماية الكاملة .
وكانت تلك العبارة اول اشارة عن إستعداد حكومة العراق لاستخدام القوة المسلحة في قضية تخص الكويت ، وتقع في الكويت نفسها .

كانت محاولة سابقة قد بُذلت لتأمين دخول الكويت الى الاتحاد الهاشمي سنة ١٩٥٧ كحل لتلتحق بدولة العراق ، وفي حالة عدم تحقق ذلك هدد السيد نوري السعيد في رسالة له الى وزير خارجية

بريطانيا آنذاك بانه سيعيد الكويتيين الى ما خلف خط الجهراء (٨٠ كيلومتراً جنوب الحدود الكويتية في ٢/آب/١٩٩٠) .

وحين أعلنت بريطانيا انهاء حمايتها على الكويت بادر رئيس وزراء العراق عبدالكريم قاسم الى الاعلان في ١٩٦١/٦/٢٥ بأن انهاء الحماية البريطانية تعني عودة الكويت الى الوطن الام العراق ، وأصدر أمراً بتعيين الشيخ عبدالله سالم الصباح قائمقاماً للكويت تابعاً لمتصرف البصرة .

وهدد قاسم باستعداده لاستخدام القوة لفرض الطاعة على الكويت ، إلا أن بريطانيا عجّلت في إرسال خمسة آلاف جندي الى جانب قوات مصرية وسعودية لتشكّل حاجزاً مانعاً أمام أي زحف عراقي محتمل ، وشاعت منذ ذلك الحين تفسيرات عدة لأسباب عدم لجوء الحكومة العراقية آنذاك الى القوة ، على الرغم من اعلان رئيس الوزراء عن نيته استخدامها ، ومن المؤكد أن أمراً لم يكن قد صدر الى القوات المسلحة العراقية للمباشرة بعمل عسكري ، إذْ قد يكون السيد عبدالكريم قاسم وقع تحت طائلة الخوف ، لاسيّما وان الرئيس المصري جمال عبدالناصر اشترك في ارسال قوات مصرية الى الكويت لسببين لايتصلان بالخلاف على صلة العراق بالكويت ، اذ أنه أراد أن يُنشيء مركز استقطاب نفطياً بديلاً عن السعودية التي تقاسم معها العداء ، فوجد في الكويت المركز الذي يوفر له الحماية ، ويستميله ليضمن التحالف مع قوة نفطية خليجية ذات احتياطات عالية غير المملكة العربية السعودية ، فضلا عن ان سوء العلاقات بينه وبين حكومة عبدالكريم قاسم في العراق جعلته في وضع يختار فيه التضامن مع الكويت ضد العراق .

وقد روى الفريق صالح مهدي عماش الذي أصبح وزيراً للدفاع في الحكومة التي اعقبت وزارة عبدالكريم قاسم ان الرئيس المصري جمال عبدالناصر أبلغ وفداً عراقياً التقاه في القاهرة بحضور عماش ، أنه مؤمن بأحقية العراق في المطالبة بمينائه الطبيعي في الكويت ، ولكنه أتخذ موقفه ضد استخدام القوة

لاستعادتها حتى يفوّت على البريطانيين فرصة الاستفراد بدور الحماية من خلال استثمار الازمة التي نشأت بعد مطالبة العراق بالكويت وتهديده باستعادتها بالقوة ، الى جانب ما عرفته العلاقة بينه وبين قاسم من خصام وعداء ومنافسة .

على ان محضر ١٩٦٣ كان موضع خلاف وجدل في العراق ، اذ قدمت حكومة الكويت مبلغ ٣٠ مليون دولار مساعدة للعراق في محاولة للحصول على اعتراف بالحدود ، وعرضت مبلغا على رئيس الجمهورية آنذاك السيد عبدالسلام محمد عارف رفض قبوله بصفة شخصية وقدمه في اجتماع مجلس الوزراء ، وهو الاجتماع الذي شهد انشقاقا في موقف اعضائه أدى الى عدم قيام أية مؤسسة تشريعية في العراق بتصديق محضر ١٩٦٣ ، برغم ان رئيس الوزراء آنذاك السيد احمد حسن البكر كان قد زار الكويت في تشرين الأول من ذلك العام .

وتكررت المحاولات الكويتية للضغط على حكومات العراق اللاحقة لانتزاع قرار بترسيم الحدود ، وحين استقبل رئيس الوزراء السيد ناجي طالب الوفد الكويتي برئاسة الشيخ عبدالله الجابر سنة ١٩٦٦ طلب منه الكويتيون ترسيم الحدود اجابهم :

ـ تُقطع يدُ من يوقع لكم على الحدود ...

ويذكر السيد ناجي طالب ان الكويتيين لجأوا الى تقديم الهدايا في محاولة للتأثير على الساسة العراقيين ، وعرضوا تقديم اربع سيارات للسادة عبدالسلام عارف وطاهر يحيى وعبدالرحمن عارف وناجي طالب .

ويعتقد السيد طالب ان زملاءه فعلوا مثله عندما رفضوا قبول تلك الهدايا .

كان شيوخ الكويت حريصين على النفاذ في مراحل التخلخل من تاريخ العراق السياسي المعاصر ، الذي اتسم بانه عاصف وشديد التقلب وحاشد بالانقلابات والحروب ودموية العلاقات بين اطرافه ، الا ان تعدد مشارب السياسيين وانتماءاتهم منذ مطلع

القرن العشرين لم يكن مانعا في ان يتفقوا على ان الكويت هي ميناء العراق الطبيعي وان بين ايديهم من القرائن التاريخية ما يجعلهم نازعين للمطالبة به ، ولعلهم كانوا قد قبلوا ، او سيقبلون لو نشأت بين العراق والكويت علاقة الاخ الكبير والاخ الصغير ، بكل ما يترتب للكبير من حقوق وامتيازات انكرها الكويتيون .

□ □ □

وحين آلت السلطة الى حزب البعث العربي الاشتراكي في تموز ١٩٦٨ ، كان هناك خياران محتملان تلجأ اليهما حكومة العراق هذه المرة ، الاول هو ان يستمر تسكين العلاقة مع الكويت والتعايش مع الامر الواقع ، وهذا يعني ان يستمر التعامل مع الكويت كدولة بدون ان يتم ترسيم الحدود معها ، والعمل من خلال المفاوضات على تمكين العراق من ايجاد صيغة ينفتح فيها على البحر سواء باستعادة جزيرتي وربه وبوبيان او بالتمتع بأحقية استخدام شريط اوسع على الساحل ، اما الخيار الثاني فكان ان يلجأ حزب البعث الى تصحيح خطأ ارتكبته حكومة العراق ١٩٦٣ ، عندما وقّعت محضراً مع الكويت حظي برضا قيادة حزب البعث آنذاك ولكنه لم يتمتع بالصفة الدستورية لعدم المصادقة عليه من أية جهة تشريعية مخولة في العراق ، وهذا يعني ان ترد القيادة الجديدة لحزب البعث على شعور كامن بالذنب متأت عن موقف صدر عن قيادة سابقة ولم يحظ برضا اعضاء الحزب ولاسيما مثقفيه .

لكن الحكومة الجديدة كانت تعاني من خواء الخزينة العراقية وعدم استقرار الوضع السياسي ، وعدم حسم المشاكل المزمنة التي يعاني منها العراق ، وبخاصة المسألة الكردية في الشمال ، ولذلك إنكبّت على معالجة همومها الداخلية حتى توصلت الى اتفاق سنة ١٩٧٠ مع قيادة الملا مصطفى البرزاني ، أعلنت فيه أول مرة في تاريخ المنطقة منح الحقوق القومية والثقافية للاكراد الى جانب حكم

ذاتي لكردستان العراق ، بعد ان خاضت أول مواجهة عنيفة مع محاولة لقلب نظام الحكم دبرها سياسيون عراقيون بدعم من الحكومة الايرانية سنة ١٩٧٠ .

ثم لم تلبث حكومة العراق أن دخلت في مواجهة طاحنة مع شركة (I.P.C) البريطانية لاستثمار نفط العراق عندما أعلنت في ١/حزيران (يونيو) ١٩٧٢ تأميم النفط، وبعد مفاوضات شاقة حصل العراق على مطالبيه وتحققت له الإدارة الكاملة لنفط البلاد في مجالات الاستكشاف والاستخراج والاستثمار والتسويق في ١/آذار (مارس) ١٩٧٣، ومنذ ذلك التاريخ صارت واردات العراق ترتفع في خط بياني متصاعد ارتبطت به مظاهر الانتعاش الاقتصادي والاستقرار السياسي.

وفي ذلك العام ١٩٧٣ وقعت اول حادثة مع الكويتيين ، عندما قررت قوات الحدود العراقية ايقاف عملية قضم تدريجي للاراضي العراقية في الجنوب ، وارجاع مراكز الحدود الكويتية بضعة اميال الى الخلف في منطقة اشتهرت باسم (الصامتة) ، وكادت تلك الواقعة تكون شرارة لمواجهة واسعة بعد ان اشتكت الحكومة العراقية من عمليات زحف تدريجية بدأت منذ عام ١٩٦٣ للخروج من آخر مركز حدودي كويتي في منطقة المطلاع في اتجاه الشمال ، حيث لم تكن هناك قوات عراقية .

وعلى مدى ثماني سنوات من الحرب بين العراق وايران وُضعِت مسألة الكويت في خزانة مقفلة .

وصار الخطر الايراني يهدد العراق والكويت معا ، ولم تجد حكومة الكويت مناصا من القبول بمنح العراق تسهيلات لتحريك قواته والمناورة بها في الجزر وعلى السواحل لمنع التفاف ايراني من الخلف على جنوب العراق ومنطقة الكويت ، ولكنها مقابل ذلك استثمرت انشغال العراق في الحرب مع إيران فتقدمت بنقاطها الحدودية مرة اخرى باتجاه الشمال حتى بلغت المسافة بين آخر نقطة حدودية سنة ١٩٦٣ وما بلغته في اواسط الثمانينيات ثمانين

كيلومترا ، كما قامت فرق استخراج النفط بامتصاص حقل الرميلة الجنوبي وتسويق نفطه والحصول على عائدات مضافة بلغت ٢٥٠٠ مليون دولار خلال عشر سنوات بين ١٩٨٠و١٩٩٠ .

وفي تلك الاثناء عرض العراق مرات عدة على الكويتيين ان يستأجر وربة وبوبيان لمدة ٩٩ سنة كحل وسط يعوض بغداد عن مطالبتها المزمنة باستعادة الجزيرتين «وهو العرض الذي كان قد تقدم به الشيخ عبدالله السالم الصباح عند زيارته الى بغداد سنة ١٩٦٥ ورفضه العراق .» ، الا ان امير الكويت الشيخ جابر كان يقول للمبعوثين العراقيين :

ـ انني لا استطيع ان ارى جنودكم في مكان يتمكنون اذا استقروا فيه ان يشاهدوا المارة في شوارع الكويت .

وكان كلام الامير ينطوي على مبالغة يستخدمها لرفض الطلب العراقي ، في كل الاحوال ظلت مسألة الحدود معلقة لان الطرفين كانا ينظران اليها من زاويتي تفكير مختلفتين ، فالعراق يتحاشى الخوض في التفاصيل لاعتقاده بان الكويت كلها هي جزء منه ، ولذلك فإن المسألة لاترتبط بصفقة على بضعة اميال ، وقد فضّل ان يحصل على إمتياز الأخ الأكبر وما يترتب له من حقوق مقابل استمرار التعايش مع وضع الكويت ، اما الكويتيون فكانوا يعتقدون انهم حصلوا على حقوق مكتسبة منذ اتفاقية الحماية مع بريطانيا ١٨٩٩ وان وجودهم هو جزء من التكوين السياسي المعاصر للمنطقة وان أي إعادة نظر باحقية استمرار كيانهم السياسي كدولة ، ينبغي أن تنشأ عنه إعادة نظر شاملة بكل ما رُسم من حدود واشكال دول .

ويتبين من المراجعة التاريخية أمران :

ـ الاول : ان انشغال العراق بمشاكله الداخلية ومعضلاته الاقتصادية وحروبه الخارجية ادى الى مرور مراحل طويلة متباعدة من الزمن خفتت خلالها دعوات استعادة الكويت .

الثـاني : ان جميع حكـومات العـراق على اختـلاف نـظمهـا السياسية وهوياتها الاجتماعية والفكرية نظرت الى الكويت كحالة خاصة تختلف العلاقة معها عن أية علاقة أخرى بإية دولة عربية أو مجاورة ، لكن كل الحكـام والسياسيـين الذين طالبوا بـالكويت صراحة دفعوا ثمنا كبيرا وغادروا مواقعهم في السلطة في ظروف مازال معظمها مبهما .

اذْ كلّما تطلع العراقيون نحو الكويت رأوا فيها موضع الميناء الذي افتقدوه .. فصاروا يحنّون للعودة اليـه ، فاذا بـه قارورة عسل ، ما إن يتذوقه المرء حتى يكتشف انه مرّ ومسموم .

العلاقات العراقية ـ السعودية :
الصعود والانهيار

« كل ما يرسم على الرمال تمحوه العواصف »

وضع السيد صدام حسين (نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في العراق) ورقة بيضاء أمام الامير فهد بن عبدالعزيز (ولي عهد السعودية) ، واعطاه قلماً ، وقال له :

- ارسم الحدود ، بين العراق والسعودية ، كما تشاء ، اذا كان هذا الأمر يشغلك .. فالعراق لا يبيّت موقفاً عدائياً ضدكم ، ولا ينبغي أن تبقى عوامل التوتر قائمة بيننا .. إذْ بامكاننا ان نعمل سوية .

اجتمع ، اثر ذلك ، وفدان من البلدين في بغداد لبحث موضوع الحدود ، وفاجأ رئيس الجانب العراقي الحضور عندما اعلن :

- ان بغداد هي حدودكم .

لم يجد رئيس الجانب السعودي ما يقوله فطلب تعليق الاجتماع ٤٨ ساعة للتداول مع حكومته ، التي تلقت نبأ بغداد ، بارتياح وامتنان .

وتمكن الوفدان خلال بضعة ايام من حسم مشاكل الحدود ، وتوقيع اتفاق جديد يطوي صفحة هذه القضية بما يرُضي الجانبين .

لكن الانفراج في العلاقات بين العراق والسعودية ، عمق شعور حكومة آل صباح في الكويت بالاحباط ، اذ تمكن جاراها الكبيران من حل التداخل في الحدود خلال بضعة ايام ، في حين ان التداخل بين العراق والكويت ، مزمن ،ومعقد ، ويمر في قناة مسدودة ، فاظهر اليُسر في حل المشاكل العراقية السعودية ، ان حالة الكويت والعراق مختلفة وقد لا تعالج بالمعايير نفسها ، بل ربما ، استحال ان تقبل بغداد بمعالجتها على الاسس نفسها التي تمت بها تسوية الوضع مع السعودية .

□ □ □

ترددت رواية هذه الواقعة التي يُفترض انها جرت سنة ١٩٧٥ ، غير مرة ، عن أول لقاء بين الجانبين ، وهو اللقاء الذي

فتح الابواب على مصراعيها لبناء علاقات حسن جوار ، وتفاهم سياسي ، وتعاون اقليمي ، بين نظامين مختلفين من حيث توجهاتهما السياسية والاجتماعية والفكرية ، وخياراتهما في النمو الاقتصادي ، ومصادر القرار لدى كل منهما ، وأسلوب التمثيل السياسي ، ومستوى المشاركة في الحياة السياسية .

واتسمت العلاقات الثنائية بالانتعاش التدريجي منذ منتصف السبعينات ، واستمرت في خط متصاعد بعد وفاة الملك خالد بن عبدالعزيز ، وتولى ولي عهده فهد منصب الملك ، وصولاً الى منتصف الثمانينات ، عندما حققت هذه العلاقات قفزة كبيرة في التطور ، في وقت اتضح فيه أن العراق لن يخسر الحرب مع إيران ، وأن استمرار نظامه السياسي بات أكيداً ، واتخذ التطور مساراته في التعاون السياسي والعسكري والمعلوماتي والاقتصادي ، ولم يكن ليمر اسبوع دون ان يتحادث الرئيس صدام حسين مع الملك فهد ، وكانت هناك زيارات سرية لمبعوثين شخصيين بينهما ، فقد اوفد الرئيس العراقي سكرتيره حامد حمادي مرتين على الاقل لملاقاة الملك فهد ، واوفد مسؤول التصنيع العسكري حسين كامل حسن مرة واحدة ، وقائد القوة الجوية السابق حميد شعبان اثنتي عشرة مرة ، بحيث ولدت لغة مشتركة بينهما ، ضيّقت فسح الافتراق ، وقرّبت من عناصر التوافق .

وكان الملك خالد قد تعهد ان يتبرع بتكاليف اعادة بناء المفاعل النووي العراقي الذي قصفته الطائرات الاسرائيلية في حزيران (يونيه) ١٩٨١ ، وسأل مبعوثا عراقيا :

ـ كم تتكلف عملية اعادة بنائه ؟

فأجاب :

ـ ٣٠٠ مليون دولار .

فاعلن انه مستعد لدفع المبلغ ، بعد ان يتوصل العراق الى اتفاق مع فرنسا على اعادة بناء المفاعل ، لكن رفض الفرنسيين الاستجابة الى طلب العراق لأعادة بنائه ، علّق دفع المبلغ ، الذي

مايزال العراقيون حتى اليوم ، يعتقدون انه مبلغ مستحق الدفع لهم . ويذهب مسؤولون عراقيون الى ان الطائرات الاسرائيلية المغيرة اختارت شمال السعودية ، حيث يمتد ممر للطيران المدني ، طريقا للعبور الى الاجواء العراقية ، وان السعوديين كانوا قد رفضوا طلبا عراقيا لاقامة قاعدة انذار مبكر في المنطقة تحسبا من استخدامها ، يوماً ما ، من قبل الطائرات الاسرائيلية .

واتخذ العراق من جانبه كل ما من شأنه امتصاص القلق من كل ما يثير الحفيظة عند السعوديين فتوقفت البرامج الاذاعية التي كانت مكرسة لاظهار عيوب سياسات حكام المنطقة ، وتجمد النشاط السري لتنظيم حزب البعث في السعودية ، وتوقفت مجلة سرية كانت معنية مطلع السبعينات بانتقاد السياسة السعودية ، ثم تقرر ايقاف أي نشاط سري لاجهزة الامن العراقية في السعودية بعد التوصل الى اتفاقيات امنية هي الاولى من نوعها بين العراق واية دولة اخرى .

□ □ □ □

كان هناك من يرى أن الحاجة الى دور العراق الاقليمي قد انتهت من وجهة النظر السعودية .

فقد قبل السعوديون التعامل مع العراق منذ منتصف السبعينات باعتباره القوة الاقليمية الوحيدة القادرة على التصدي للخطر الشيوعي ، محلياً واقليمياً ، بحيث يكون حاجزاً يحول دون امتداد هذا الخطر او انتشاره الى الحد الذي يهدد مصالح السعودية وشركائها الاقليميين . ثم حين تضاءل الخطر الشيوعي ، بدا العراق أكبر قوة في النطاق الأقليمي تستطيع مواجهة الخطر الايراني الذي جاءت به الثورة الاسلامية في إيران ، وأنه ليس هناك من قوة محاددة لهذا التيار بامكانها التعامل معه ، وتهشيمه او ردّه ، غير العراق ، ولذلك كان القبول بالدور العراقي قد استمر لعقد آخر ، انتهى بانتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية وزوال الخطر الايراني .

وكان يتردد في الخليج ، ان الملك فهد ، والشيخ جابر ، كانا كلما توجها بالدعاء الى الله عند الصلاة ، خلال الحرب العراقية ـ الايرانية ، رددا دعاءهما المفضل :

ـ اللهم اهزم الخميني .. اللهم لا تنصر صدام حسين

فالعراق وايران ، هما عقربان في انبوبة ، وينبغي ان يبقيا خلف سدادها المغلق ، فاما ان يموتا معا ، او يظل كل منهما متربصا بالآخر ، منشغلين ببعضهما ، ليرتاح الآخرون منهما .

كان في تقدير العراق ان الحرب مع ايران ستتوقف بعد اسابيع قليلة من اندلاعها ، واذا ما ولدت أزمة في توريد النفط الى اوربا والولايات المتحدة واليابان نتيجة توقف صادرات النفط من العراق وايران ، في الفترة الاولى من بدء الحرب ، ثم معاودتهما التصدير بكميات قليلة ، لكن الصدمة العراقية كانت كبيرة عندما باشرت السعودية ضخ ثلاثة ملايين برميل اضافي الى الخمسة ملايين برميل التي كانت تضخها الى العالم ، فحالت دون حصول ازمة عالمية في الطاقة ، مشابهة لتلك التي حصلت خلال حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ولذلك وجد العراقيون ان تعويض السعودية عن نفط العراق وايران كان سببا في اللامبالاة التي تعامل بها الغرب والولايات المتحدة مع الحرب ، فلم تسعَ القوى الدولية من خلال مجلس الأمن وخارجه الى ايقاف القتال الذي استمر اطول فترة عرفتها حرب نظامية بين دولتين في التاريخ (٨ سنوات) .

اذن كانت شرارة إطالة أمد الحرب .. سعودية ، من حيث اختيار سياسة إنتاج نفطية مهلكة للعراق .

وبرغم ان السعودية وافقت على مد انبوب نفط عراقي عبر اراضيها ينتهي عند ميناء « ينبع » على البحر الأحمر ، بعد ان استحال على العراق تصدير نفطه عبر الخليج العربي بعد تدمير منصات التحميل في ارصفته البحرية ، وقيام الطيران الايراني بملاحقة أية ناقلة تحمل النفط العراقي، الا ان الرياض ، اتخذت

سنة ١٩٨٦ موقفاً ضاغطاً ضد العراق في منظمة الاوبك عندما وقفت حاجزاً أمام سعيه لمساواة حصته بحصة ايران في طاقة التصدير ، عندما كان العراق في حاجة ماسة لتوفير مصادر تمويل للحرب التي بلغت ذلك العام ذروتها بعد ان اعلنت ايران انها تريد ان تجعله عام حسم الصراع مع العراق عن طريق احتلال جنوبه كاملاً ، وتدمير القوة العسكرية العراقية فيه .

ونقل سفير الولايات المتحدة الامريكية الى الاردن اواسط ١٩٨٨ المعلومات التي تلقاها من واشنطن عن اجتماع سعودي ـ ايراني انعقد في المانيا ، للبحث في ترميم العلاقات الثنائية ، وتحديد نقاط الالتقاء ضد العراق ، وقد ابلغ الاردنيون تلك المعلومات الى بغداد ، في سنة الحرب الاخيرة ، قبل ان تباشر القوات العراقية عملياتها الواسعة لاستعادة مدينة (الفاو) في الجنوب .

□ □ □ □

اما بعد ذلك التاريخ فلم تعد هناك حاجة الى العراق كقوة صد إقليمية ، ولذلك عادت ترتيبات الامن السعودي لتشتغل بموجب فرضيتها الاساسية : لا جار قوي ، سواء كان العراق ، ام ايران ، ام مصر ...

أما وان مصر قد انكفأت الى مشاكلها ، وتخلت عن دورها العربي الذي بشّر به الرئيس جمال عبدالناصر طوال الستينات ، وفشل برنامج الامتداد الايراني عسكرياً وسياسياً ، فلم يبق غير العراق جار قوي إتجه العمل لاستنزافه وإضعافه ليلحق بالجارين اللذين ضعفا من قبل .

العراق كان مقبولاً حين قاتل بدمه ، وقدراته ، وبالنيابة عن السعوديين . أما ان تنتفي الحاجة اليه فذلك ، سيُنشئ تلقائياً وضعاً جديداً يرتب تعاملاً آخر ، لاسيما انه اظهر نزعة في لعب دور

الدولة المنتصرة القائدة في نطاقها الاقليمي ...
هذا امر كان يعلن ميلاد مقدمات تصادم محتمل ..

□ □ □

وقد يكون العراق تنبّه مبكراً الى ان تلاشي الخطر الايراني ربما يتسبب في تولد اجواء سوء التفاهم بين بغداد والرياض ، بحيث تتراجع علاقات التعاون العراقي ـ السعودي بعد انتفاء الحاجة الى دور العراق في الحماية الاقليمية .

كان السعوديون انفسهم قد تسلموا اشارات من الولايات المتحدة تزرع الشك حول نيّات العراق في منطقة الخليج ، وهو الامر الذي دفع الملك فهد لمفاتحة العراقيين حول المخاوف التي تثيرها الولايات المتحدة من تعاظم قوة العراق العسكرية رغم انتهاء الحرب مع ايران ، ووضع في رسائل مفصلة حملها مبعوثوه معلومات كاملة عن عملية تخويف منظّمة موجهة الى السعودية وشقيقاتها الاصغر في الخليج .

ولم يكن مستبعداً ان العراق والسعودية اللذين التقيا على خط المواجهة ضد ايران سيفترقان في مناطق تصادم اخرى سواء في لبنان او على جبهة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وربما في ساحات اخرى .

بعد سنة من انتهاء الحرب مع ايران توجّه الرئيس صدام حسين الى الدار البيضاء ليستقبله هناك مذيع التلفزيون المغربي مردداً :

ـ مرحبا ايها البطل القومي .

في تلك اللحظة كان الرئيس صدام حسين يعانق الملك الحسن الثاني الذي استضاف قمة عربية طارئة تصدّر لبنان جدول اعمالها ، وجرت في المؤتمر مناقشات عاصفة بين العراقيين والسوريين ، وقد حصر العراق رؤاه بضرورة خروج جميع الغرباء

من لبنان ، وفي مقدمتهم السوريون ، ونزع الغطاء العربي عن وجودهم فيه ، وكان العماد ميشيل عون في تلك الاثناء يقود حكومته العسكرية الرافضة للوجود السوري في لبنان والمدعومة من العراق .

توقع الوفد العراقي ان يجد تفهماً ، واستجابة ، من السعوديين ، تحديداً ، والخليجيين بصورة عامة ، الذين طالما اشتكوا لدى العراق من الوجود السوري في لبنان ، وما اكثر المرات التي عبّر فيها الملك فهد عن انزعاجه مما يسميه تهديداً سوريا دائما لأمن الجزيرة والخليج من خلال وجودهم داخل بعض المنظمات الفلسطينية وادارتهم لشبكات امنية واقتصادية فاعلة في الخليج . لكن الرئيس صدام حسين فوجىء ان السعوديين يطوقون المشروع العراقي الذي كان يهدف الى تقييد النفوذ السوري في لبنان ورفع الغطاء عنه .

كان ذلك كافيا ليطلق اول اشارة جادة جعلت العراقيين يتساءلون : أثمة سياسة سعودية وخليجية جديدة نحو العراق ؟ ام ان هذا الموقف هو جزء من سياسة سعودية خليجية طويلة الامد تقوم على تقييد الدور الاقليمي للعراق ؟ وهل كان موقف السعودية خلال الحرب مع ايران تجميدا مؤقتا لسياسة ثابتة تقوم على اضعاف الجيران الثلاثة الاقوياء : مصر والعراق وايران ؟ .

ولم يكدْ مؤتمر الدار البيضاء ينتهي حتى اكتشفت المخابرات العراقية شبكة تجسس سعودية تعمل في العراق مستخدمة عدداً من الصحفيين الذين كلفوا بجمع معلومات عسكرية حساسة برغم ان المخابرات العراقية والسعودية كانتا تنسقان رسميا ، وتتبادلان المعلومات السياسية والعسكرية ، وكان بامكان المخابرات السعودية ان تتوجه باي سؤال لتحصل على جوابه من المخابرات العراقية ، لذلك كان اكتشاف شبكة جمع المعلومات السعودية في

العراق صدمة لبغداد ، ولم يكن النمو العلني الواسع للعلاقات الرسمية يسمح بالاعلان عن اكتشاف الشبكة التي كادت تطيح برأس اثنين من المراسلين العراقيين .

واستنتج العراقيون ان علاقات الهدنة لم تؤجل استئناف عمل طويل الامد تتولاه السعودية ، فانتعشت روح الشك في بغداد ، وكان أفضل تفسير يتوصل اليه العراقيون يومئذ لايتجاوز الاعتقاد بان هناك تيارين داخل العائلة السعودية الحاكمة ، يدعو احدهما للتوفيق في السياسة الخارجية ، ويتبنى الثاني سياسة قديمة تقوم على اضعاف العراق واستنزافه ، وتغيير نظامه السياسي ، وان احد اركان هذا التيار هي المخابرات السعودية التي يتولى رئاستها الامير تركي بن فيصل المحسوب على الجيل الثاني من السياسيين السعوديين الشباب ، وهو الجيل الذي يضم ايضا بندر بن سلطان سفير السعودية في واشنطن .

ومع ذلك اعتقدت بغداد ان وجود فهد ملكا على السعودية سيحد من اتساع نفوذ الجيل الثاني ، ولذلك مضىٰ العراق لتوقيع اتفاقية عدم اعتداء وتعاون امني بين البلدين خلال الزيارة التي قام بها الملك فهد الى بغداد .

واتسعت ، برغم ذلك ، فسحة الافتراق ...

فقد جاء مؤتمر الطائف ليكرّس العمل في الضد من دعوة العراق لاخراج الغرباء من لبنان ، اما في المسألة الفلسطينية ، فقد ظهر تياران متصارعان في اجتماع وزراء الخارجية الذي سبق لقاء القادة في قمة بغداد ايار (مايو) ١٩٩٠ ، وكان طرفا التصادم العراق وفلسطين من جهة ومصر والسعودية من جهة اخرى .

كان التعليق الذي طالما ردده العراقيون امام السعوديين :

- ان توفير الغطاء العربي للوجود السوري في لبنان ، وابقاء اجزاء من الاراضي اللبنانية تحت الحماية السورية يمثل سابقة ، اما ان نرفضها حتى لاتفتح الطريق لسواها ، واما ان نقبل بها

جميعا وتكون فاتحة لنمط جديد من العلاقات العربية ، وبخاصة بين الدول الكبيرة من جهة وبين الاجزاء المستقطعة منها التي قامت فيها كيانات سياسية صغيرة من جهة اخرى .

كـان ذلك الكلام يتـردد حتى نهايـة ١٩٨٩ ، ولكن يبدو ان السعوديين لم يفهموا المداخلة العراقية جيداً

□ □ □

كان ثمة سبب عميق للخوف والهلع تلبَّس السعوديـين ، وهو سبب اكبـر من احتمال عبـور القوات العـراقية الحـدود لتحتل الظهران والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية ..

فالملك فهد بن عبدالعزيـز كان يعـرف ـ من خبرتـه بالقيـادة العراقية ، وتلمسه لحرص الرئيس صدام حسين على عدم الاساءة الى السعودية ، ولادراكه عدم وجود مشاكل حادة بين البلدين ، وانتفاء اية احتكاكات حول الحقوق في الارض او المياه او النفط ـ ان القوات العراقية لن تعبر الى السعودية ، بهـدف الاحتلال أو التدمير ..

لكن الزحف العراقي ايقظ مارداً من قمقمه ، بعد أن كان هناك ما يشبه عقداً عرفياً غير موقع بين جميع الاطراف في شبه الجزيرة والمشرق وساحل الخليج لابقاء هذا المارد سابتاً ، واطالة اغفاءته بحيث تنتفي قدرته عـلى التأثـير مع مـرور الزمن ، حتى اذا ما استيقظ يوماً ، فانه لن يجد من تثور فيه نزعة البحث عن حقوق في مُلك او ارض او سيادة او ثروة .

استيقـظ المارد في لحـظة اضطراب وتـرقب ، لتستيقظ معـه الحقوق المهضومة ، ولتولد معه الحاجة الى اعادة رسم الخريطة السياسية للجزيرة والخليج والمشرق .

وبرغم ان المملكة العربية السعودية تُعد الشريك الاكبر بين دول مجلس التعاون الخليجي الست ، الا ان مساحتهـا المتراميـة ، وعدد سكانهـا الاكبر نسبيـا من سواه لدى الشقيقـات الخمس الاخريات ، لا يعفيانها من الخطر الذي لا تستطيع هضم احتماليه اللذين لا ثالث لهما :

□ فاما ان تتوسع لتضم الامارات الصغيرة من شرقها .
□ وإما ان تتقلّص لتعيد ما سبق ان سيطرت عليه من أراضٍ يمنية او عُمانية او سواهما .

وفي الحالتين فان آل سعود يواجهون خطراً .

ففي الاحتمال الاول ، لا يريد السعوديون الانفتاح لاستيعاب الاخرين الذين ينضوون تحت امرة عوائل حاكمة اخرى ، بعد ان تشبعوا بتقاليد حياة تختلف عن النموذج السعودي المغلق .

وفي الاحتمال الثاني ، الذي برز بعد الثاني من آب (أغسطس) ١٩٩٠ ، فان انحساراً في الدور السياسي السعودي سيترتب على اية محاولة لاعادة رسم خريطة المنطقة .. وهو امر يقود الى ما هو اعمق .. واخطر .. الا وهو رفع الغطاء عن الاحقية في الولاية السياسية على الجزيرة العربية .

فمن هو الأحق .. ؟ .. الهاشميون من اشراف مكة الذين أُنتزع منهم المُلك برغم الاحقية في العمق الزمني والارث الديني .. ؟ ام آل سعود البدو الذين جاءوا من منطقة (الدرعية) قرب الرياض ، ليفرضوا الشكل السياسي الجديد لشبه الجزيرة العربية بعد توحيد نجد والحجاز والاحساء ، بحيث شكلوا دولة تحمل اسم عائلتهم منذ اقل من ثمانين سنة ، اي منذ تاريخ مقارب لظهور آل صباح في الكويت ؟ ..

ومن الصعب انتزاع الاستنتاج الذي شاع في المشرق العربي من ان الانكليز قد اخرجوا الشريف حسين بن علي من الولاية على مكة خشية ان تصبح مكة مركزاً لاشاعة الافكار المبشرة لقيام دولة العرب الكبرى ، فضلا عن ما تتمتع به المدينة المقدسة من مركز ديني كبير ، وخشي البريطانيون ان ينتقل مركز الولاية الاسلامية من اسطنبول الى مكة في اللحظة التي انتعشت المشاعر العربية بعد إعدام قادة الثورة العربية من قبل الوالي العثماني جمال السفاح .

وبناءً على هذا الاستنتاج فان البريطانيين شجعوا على وصول مجاميع مقطوعة الجذور الى مركز الولاية السياسية في شبه الجزيرة العربية ، وفضلوا ان يكون هؤلاء من خارج ورثة الولاية عن آل بيت الرسول محمد (ص) ، فكان آل سعود أنسب بديل يرضي الغرب بهدف تقييد انتشار الافكار القومية ومنع تحول مكة الى مركز إشعاع ديني معادي للغرب .

في كل الاحوال .. لم يكن العراق عندما اندفعت قواته لتدخل الكويت قد وضع هذا الاعتبار في حساباته ، لا مع نفسه ، ولا مع حلفائه العرب الذين شاركوه العمل المشترك عشية دخول الكويت ، وتضامنوا معه ضد ما تعرض له من خطر وحصار بعد دخول الكويت .

□ □ □

كان الرئيس صدام حسين دقيق التعامل مع السعوديين عندما يتعلق الامر بالصلات القوية التي تجمع العراق واليمن ، ولم تكن مصادفة انه بعد زيارة لمدينة الحديدة اليمنية ، يوم ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٩٠ ، وكان قد انطلق ليعود منها الى بغداد .. أن أبرق من طائرته وهو يمر في الاجواء السعودية الى الملك فهد ، مذكّرا بعمق العلاقات التي تربط بين بغداد والرياض ، في لحظة الذروة من نمو العلاقات بين بغداد ، وصنعاء ، وخاطب الملك السعودي قائلا :

(تحضر امامنا معاني الاخوة التي تربط بيننا وبينكم ، وبين شعبي المملكة والعراق ، حتى صارت علما معروفا يمد الامة بمعاني الاسناد والاقتدار) ..

وكانت تلك البرقية بمثابة اشارة طمأنة محسوبة في دلالات مفرداتها .. تومىء ضمنا ان العراق لايسعى الى تطويق السعودية

بما بنى من علاقات مع اليمن في الجنوب ، والاردن في الشمال .

ولكن .. هل تسلم الملك فهد الاشارة .. وهل فسرها كما قصد العراقيون ..؟

□ □ □

لقد كان من مصلحة السعودية ان تلجأ الى التفاهم مع العراق ، لا التصادم معه ، بحيث يعيد البلدان رسم الخارطة السياسية لمنطقة الخليج ، لكن ذلك المستوى من التفاهم لم يكن ممكناً أن يتحقق الا في حالة اسقاط عامل التأثير الاميركي على القرار السعودي ، والتداخل بين السياسات التي اختارتها الرياض ، والسياسات التي رسمتها واشنطن لحاضر المنطقة ومستقبلها .

وكان يمكن تخيّل صورة وضع اقليمي مختلف عن الوضع الذي كان قبل الثاني من آب ١٩٩٠ ، تقوم العلاقة فيه على التفاهم بين كتل جديدة في اطار مجلسي التعاون العربي والخليجي ،.. برغم ما كان سيترتب على ذلك من تصدع في الجدران المحيطة في تركيا وايران اللتين كانتا ستقاومان الخارطة البديلة للمنطقة .

أحقا ان العواصف تمحو كل ما يرسم على الرمال من حدود ، واشكال دول .. ؟

هذا سؤال لم يكن يشغل العراق ، مثلما شغل السعوديين .. فكل يئن من جراحه .. وجراح بغداد غير جراح الرياض .. لذلك استغرب العراقيون ما اصاب السعودية من هلع في لحظة عبورهم الى الكويت .. التي طالما تقاسموا مع السعوديين كراهية حكامها .

ولا ينفي المسؤولون السعوديون انهم ضاقوا ذرعاً من مواقف آل صباح خاصة عندما يتعلق الامر بتذكير اولاد سعود بان اجدادهم كانوا لاجئين لدى آل صباح مطلع القرن العشرين ، وانهم مدينون لمضيفيهم ، ناهيك عن تحفظ السعوديين على محاولات الكويت إظهار تجربتها طليقة من النفوذ السعودي ، سواء في قبول قيام برلمان منتخب أم صحافة كانت اقل تقيّداً من

سواها في منطقة الخليج ، يعمل فيها كتاب وصحفيون ممن عُرف بعدم ولائه للسعودية . وتضاعف التعقيد في العلاقة بعد واقعة الانفجار في مدينة (مكة) ، سنة ١٩٨٩ ، التي أُتهم كويتيون بتدبيرها ، ثم قيام الشرطة السعودية بالتسلل الى الكويت ، واختطاف المتهمين ونقلهم الى الرياض لمحاكمتهم ، ثم اعدامهم ...

وما اكثر ما اشتكت بغداد والرياض لدى بعضها البعض من الكويتيين .. وكان لكل منهما ، للعراقيين والسعوديين ، اسبابهما في عدم الارتياح ممن يحكم في الكويت .

□ □ □

وذكر الملك حسين في حديثه إليّ عن استذكاره لاحداث الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ ، ان معظم دول الخليج كانت غير مرتاحة لمواقف حكومة الكويت وسياساتها ، ولكن هذه الدول تلقت بتخوف شديد الاعلان عن وقوع حركة داخلية في الكويت ، يقوم على اثرها نظام جمهوري في الامارة ، فضلاً عن ان المفاجأة في الدخول العراقي الى الكويت عَمَقّت الشعور بالخطر ، وولّدت مخاوف لها أول وليس لها آخر .

□ □ □

نقل وسطاء عرب الى بغداد انزعاج السعوديين من اثارة العراق الخلفية التاريخية لعلاقته بالكويت ، لان الامر بالنسبة للسعودية يتجاوز موضوع مطالبة العراق بحقوق تاريخية في الكويت الى ماهو ابعد من ذلك بكثير .. اذ ثمة ماض جرى اتفاق عرفي على تناسيه وعدم احيائه ، ويعود ذلك الى مطلع القرن العشرين عندما رسمت الحدود من قبل بريطانيا للدول التي تكونت واستقلت لاحقاً ، لابل ان السعوديين جعلوا من ثوابت سياستهم الخارجية عدم اخراج الخلافات الحدودية الى العلن من جهة ، وعدم ترويج اية مراجعة

للأحقية التاريخية في الولاية على الانظمة السياسية التي تكونت في المنطقة ، ومنها المملكة العربية السعودية التي تكونت بعد سلسلة نزاعات شهدتها الجزيرة العربية وانتهت بسيطرة آل سعود على ولاية نجد والحجاز واعلانها مملكة تحمل اسم عائلتهم ، من جهة اخرى .

كما ان دولة عريقة مثل سلطنة عُمان ، تتمتع بكثافة سكانية متوازنة نسبياً ، وباقتصاد متنوع المصادر ، لها هي الاخرى حقوق على الارض لم تتخل عنها ، سواء ماضُم منها الى المملكة العربية السعودية أم دولة الامارات العربية .

وذهب السعوديون ابعد من ذلك وهم يفسرون ابعاد التأييد الذي منحته اليمن والاردن للعراق ابّان ازمة الخليج ، اذ وجدوا ان رفع العراق الغطاء عن قضية استمر تسكينها اكثر من سبعين سنة ، وتتعلق بحق في الارض وحق في الولاية السياسية ، وفّر سابقة في العلاقات بين دول المنطقة قد تستثمرها اليمن لاثارة مطاليبها في اراض سبق ضمها الى المملكة العربية السعودية ، وقد ينتعش تيار في الاردن يذكّر باحقية ولاية بني هاشم على الحجاز ، وفي الحالتين ، حالة اليمن والاردن ، هناك اكثر من وجهة للشبه مع طروحات العراق بشأن احقيته في استعادة ارض يعدها جزءاً من اقليمه الوطني ، واستعادة الولاية عليها ، وهو يعد ذلك استرجاعا لما كان يتمتع به والي البصرة من ولاية على الكويت .

ازاء هذه الهواجس ، سعى العراقيون لتهدئة مخاوف السعوديين ، سواء في ماقدموا من تفسيرات مقابلة لعرب كانوا على صلة ببغداد والرياض في وقت واحد ، او من خلال ماقالوه في خطابهم السياسي في بداية الازمة .

وقامت تطمينات بغداد على امرين :

الاول : ان علاقة العراق بالكويت تختلف عن اية قضية سواها

من المشاكل القائمة بين دول المنطقة ، وان العراق من ناحيته لايعاني من اية مشكلة مباشرة مع السعودية (برغم اعادة نشر خرائط تشير الى ان منطقة الاحساء في شرق السعودية كانت جزءاً من لواء المنتفك الذي تولى عليه العراقيون في نهايات القرن الماضي) .

والثاني : ان العراق عندما فتح ملف الكويت لم يكن معنيا بأية مشكلة اخرى تعاني منها السعودية مع جيرانها ، ولم يثر مع مؤيديه ، الذين يتحفظ عليهم السعوديون ، حقوقهم التي يمكن ان يجدوا في تفاعلات قضية الكويت فرصة تاريخية لاثارتها .

□ □ □

وبالرغم من رفض الملك فهد عقد لقاء مع الرئيس صدام حسين في مدينة عرعر على الحدود العراقية ـ السعودية كان قد اقترحه الرئيس ياسر عرفات في الاسبوع الاول للازمة ، وبالرغم من الغاء القمة التي كان من المقرر عقدها في مدينة جدة في اليوم الثالث او الرابع لدخول القوات العراقية الى الكويت ، الا ان الرئيس صدام حسين ظل يعتقد بان الحل ممكن اذا ما توصلت بغداد والرياض الى اتفاق ثنائي ، ولذلك ابقى قنوات ثالثة ، غير معلنة ، بينه وبين الملك فهد ، فقد وافق على ان يحمل رئيس وزراء بريطانيا الاسبق رسالة شفوية منه الى ملك السعودية ، ورحّب بأن يبذل محاولة مماثلة المبعوث السوفيتي يفغيني بريماكوف بشرط عدم القيام بمحاولة مماثلة مع القاهرة ، التي لم يجد الرئيس صدام حسين انها معنية بالمشكلة بالمستوى الذي كانت تعنيه بالنسبة للسعودية .

وتعاملت بغداد مع وسطاء غير رسميين من شخصيات اسلامية قامت بزيارات مكوكية بينها وبين الرياض وجدة لتنقل رسائل غير مباشرة ، وجاء السيد هاني الحسن المستشار السياسي للرئيس الفلسطيني في نهاية شهر اكتوبر ليتحدث عن وجود تيارين في

السعودية يمكن تطوير الحوار مع احدهما ، خاصة بعد صدور تصريح للأمير سلطان بن عبدالعزيز وزير الدفاع تحدث فيه عن امكانية اعطاء العراق حقوقه مقابل الانسحاب من الكويت .

لكن تلك المحاولات كلها لم تغيّر من اتجاه البوصلة ، كما حددته الاتصالات الامريكية - السعودية المبكرة عند اول زيارة قام بها وزير الدفاع الامريكي الى السعودية ...

وبهذه الطريقة اخترع السعوديون معركة وقرروا الخوض فيها ، وهي معركة اشبه ما تكون بحركة جيوش على الورق كما تقدمها عادة اجهزة المخابرات ، عندما افترضوا ان العراق عقد اتفاقاً سريا مع الاردن يعود بموجبه الهاشميون للولاية على مكة ، برغم ان هذا الافتراض لم يتعزز بأي قرين او مستمسك ، وهو الامر الذي كان الاردن قد رفضه لعدم معرفته مسبقاً بالخطوة العراقية في ٢ آب وعدم وجود اي اتفاق مسبق بين بغداد وعمان حول حاضر المنطقة ومستقبلها .

لكن السعوديين قرروا المضي في خوض معركة مفترضة كان النسغ النازل فيها يعلن ان الهاشميين قادمون لاستعادة ولايتهم على مكة ولذلك كان لابد للسعوديين ان يجعلوا النسغ الصاعد في الضد من خلال تشكيكهم في احقية الهاشميين في الولاية على القدس واعمار مساجدها عندما طرحت قضية ترميم المسجد الاقصى في المدينة المقدسة بعد سنة ونصف على الثاني من آب ١٩٩٠ .

وقد يكون السعوديون عملوا سراً على استمالة الوجوه ورؤساء العشائر في جنوب الاردن عن طريق تقديم الهبات واستغلال علاقات الجيرة القديمة لكي يؤسسوا موطىء نفوذ ضد الولاية الهاشمية في الاردن ، لكن تلك المحاولات لم تبلغ غاياتها بسبب تحوّل سكان المنطقة عن التعامل حسن النية الذي اعتادوه مع السعودية عندما كانوا ينظرون الى ما يقدم اليهم من اعانات مالية

على انه جزء من حقوق الجيرة والاخوة وحسب ، في اللحظة التي عوضت فيها الادارة الاردنية اهالي تلك المنطقة عن ما يحتاجونه لسد الطريق امام منافذ التسلل السعودي .

كان ثمة عقد غير موقع بين الهاشميـين وآل سعود . يتنـازل بموجبه الاولون عن احقيّة الولاية في نجد والحجاز على اساس ان تكون وحدة الجزيرة العربية جزءاً من وحدة كبرى للعرب . يتحقق فيها قدر واسع من التفاهم والتكافل والتعاون ، ولكن هذا العقد ليس ابدياً فهو مشروط ، حتى اذا اخل به السعوديون ، كان من حق الهاشميين استرداد ولايتهم على ارض شبه الجزيرة . لكونهم الامتداد التاريخي لآل بيت الرسول (ص) . ولأنهم ، مؤسسو حركة النهضة المعاصرة فيها ، وقد انشأت ازمـة الخليج ، ومـا تلاها ، وتفاعل من خلالها ، منـاخ عداء سعـودي متزمت ضـد الاردن ، مركز الولاية الهاشمية ، وهو امر عنى تلقائياً ، ان عقد التنازل قد انفرط ، ولابد ان يعود لاصحاب الحق حقهم .

ولعل من المفارقة ، ان نستمع الى هذا التحليل من السعوديين انفسهم ، قبل الاردنيين ، لان هاجس الشعور بالخطر الذي يتحكم بالسعودية ناشيء في مصادره الاساسية من اختلال لحظة النشوء والتكوّن ، ولذلك يُردّ كـل متغير ظاهـر في اللحظة المضـطربة الى جذوره في الامس .. وهو امس ليس بعيداً .

وقد نقلتُ الى الملك حسين ، ما روجه السعوديون والمصريون عن اتفاق عراقي ـ اردني ، سبق الثاني من آب بشأن مستقبل دول المنطقة ، فوجدته شديد التحفظ على هذا الاستنتاج ، وكان يسحب نفساً عميقاً من سيكارته ، ليقول :

ـ والله انا لم اشتغل كل حياتي في مثل هذه الامور ، ولم اكن طرفاً في التآمر على احد .

واعاد الى الذهن جذور المخـاوف السعوديـة منذ بـدء العمل

لانشاء مجلس للتعاون ، ضم العراق والاردن ومصر واليمن ، قبل اكثر من سنة ، سبقت الثاني من آب ١٩٩٠ .

ـ لقد كان هناك طرف في مجلس التعاون العربي ، مع الاسف ، يروّج للقول بوجود اتفاق مع الاردن قبل الدخول العراقي الى الكويت .

واضاف الملك حسين :

ـ لم يكن خافياً على احد حين بدأنا العمل لتكوين مجلس التعاون الرباعي اننا جميعاً دعونا لاعادة تنظيم انفسنا .. فالعراق دولة خليجية لكنه غير مقبول في مجلس التعاون الخليجي .. وكان الاتجاه ان يجمع المجلس الجديد الاردن ومصر والعراق وسوريا ، وقد تكلمت مع الاخوان في سوريا ، وقلت لهم انه لابد من ايجاد حل للعلاقة مع بغداد من جهة ، والقاهرة من جهة اخرى .. وكان جوابهم ان نبدأ في البحث وعندما تتبلور الامور نتفق على كل شيء .. وقلت لهم : كيف نعمل من دون علاقات سليمة ، وعلى كل حال فان موقعكم سيبقى محفوظاً .. وهكذا عدنا للعمل ثلاث دول ، وهي العراق والاردن ومصر ..

□ □ □

وصباح احد الايام التي سبقت اول اجتماع تأسيسي لمجلس التعاون العربي ، اتصل الرئيس صدام حسين بالملك حسين يقترح عليه دعوة اليمن للدخول الى المجلس الجديد .

رحب ملك الاردن بالمقترح ..

كان رأي الرئيس العراقي يقوم على ان اليمن منسي في اطراف الوطن العربي ، ولابد من ضمّه الى احدى التكتلات العربية الجديدة ، فضلا عن ان وقوف اليمن الى جانب العراق خلال الحرب مع ايران ، وما اتخذته قيادته من مواقف قومية يجعلها جديرة بالانضمام الى التجمع العربي الجديد .

طلب العراق من الاردن طرح المقترح على القيادة اليمنيـة .. وحين اتصل الملك حسين بالرئيس حسني مبارك لينقل اليه المقترح العراقي ، وجد ان الرئيس المصري يطلب منه ان يطرح الاردن على اليمن هذه الدعوة .

وبدا أنَّ السعوديين ، كانوا يراقبون تلك الاتصالات ،وهو ما اثار انزعـاجهم ، اذ ان ادامة عـزل اليمن ، يعدّ احـدى ثوابت السياسية السعودية ، في حين جاء مجلس التعاون العربي ليهشّم خط العزلة المحيط باليمن .

وادركت بغداد وعمان ، ما اصاب السعودية من قلق وتـخوف .. فبادرت كل منهما الى محاولة تطمين الملك فهد .

وطار الملك حسـين الى الرياض ، ليبحث مـع ملك السعوديـة موضوع مجلس التعـاون العربي بهـدف انتزاع جـذور الخوف والتردد السعوديين .

□ □ □

يتسم حديث الملك فهد ، بانه متصـل ، مطوّل ، فهـو لا يدع لمستمعه ان يقاطعه ليطرح الموضوع الذي يشغله .. ولشدّ ما كان صعبا على الملك حسـين الذي عُرف بتهـذيبه العـالي ، ان يقاطع مضيّفه الذي لم يتوقف عن حديث عائلي تتخلله اسئلة ودية طوال اللقاء الاول الذي جمعهما ..

ما كاد الملك فهد يتوقف لحظة حتى قال له الملك حسين :

ـ ان هناك موضوعات حيوية اريد بحثها معكم هذه المرة .

فاجاب الملك السعودي :

ـ ارتاحوا الآن .. ونلتقي ليلاً .

لم يكن الاردنيون بحاجة الى ساعات راحة يبددونها ذلك اليوم ، ولكنهم انتظروا حتى لقاء الليل ، ليجدوا ان ماشغلهم في هذا اللقاء لم يتجاوز العلاقات الثنائية والعلاقات الاقتصادية .. وكان حديث

الملك فهد متصلا هذه المرة ايضا حتى يفوت الفرصة على من يقاطعه .

وانتظر الملك حسين كثيراً حتى وجد له فسحة ليقول للملك فهد :

ـ ان هناك موضوعاً حيوياً آخر اريد بحثه معك ، فقال الملك السعودي

ـ غداً عندنا عرض جوي في قاعدة الظهران ، وسنلتقي ، ونتحدث هناك .

وظهيرة اليوم التالي ، كان ملك الاردن يتطلع الى السماء لمتابعة عرض جوي صاخب ، لكن حركة الطائرات لم تكن تشغل باله في تلك اللحظة ، اذ انه ظل بانتظار الفرصة لمفاتحة السعوديين بالموضوع الذي جاء من اجله .

وانتهى العرض الجوي ، وانطلق الموكب الملكي الى المطار .. ولم يبق غير التوقف الاخير عند باب الطائرة .

قال الملك حسين :

ـ لدي اشياء اريد ان ابحثها معك .

فاجابه الملك فهد :

ـ ان شاء الله .. مرة اخرى .

وكان اول سؤال وجهه الرئيس حسني مبارك للملك حسين لدى وصوله القاهرة قادما من السعودية :

ـ هل كلّمت الملك فهد في موضوع مجلس التعاون العربي وانضمام اليمن .

فاجاب الملك حسين :

ـ لم استطع الحديث معه في ذلك مع الاسف .

□ □ □

في تلك الاثناء ، كان الرئيس صدام حسين قد اتصل بالملك فهد ، وتحدث معه بشأن مجلس التعاون العربي واهدافه في انشاء

تعاون اقتصادي بـالدرجة الاولى ، يليـه ويترتب عليـه تعاون في الحقول الاخرى .. وطرح عليه ان يقوم تعاون جديّ بين مجلس التعاون الخليجي ـ والمجلس الجديد .

كان الملك حسين صاحب فكرة قيام فيلق يضم العراق والاردن ومصر ، وقد رأى الرئيس صدام حسين انه لا جدوى من تشكيل مثل هذا الفيلق (وكانت الفكرة قـد طرحت أواسط ١٩٨٨ قبـل انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية) ، لأن وجود فيلق عربي بهذا الحجم من دون تحديد واجب عسكري كبير له ينفي مبرر قيامه . لذلك فـان العراق وجـد أن تشكيل مجلس تعـاون يضم البلدان الثلاثة لينسق التعاون الاقتصادي ، ثم السياسي بينها ، هو البديل الأنسب .

هكذا .. نشط الملك حسين والرئيس صدام حسين لحث مصر على تفهم اهمية قيام المجلس المقترح ، قبل ان يضم لاحقاً اليمن ، بعد تجميد فكرة ضم سوريا اليه آنذاك .

أستنتج الملك حسين ان الملك فهد كان لايريد ان يعطي موقفاً معلنـاً من قيام مجلس التعـاون العربي ، ولذلك وجـده يتحاشى البحث في موضوع المجلس فلا هو معارض بقيامه ، ولا هو موافق عليه ، وكان اعلان أي من الموقفين صعباً على ملك السعودية .

فضّل السعوديون تخزين موقفهم ، واختيار الصمت المعلن

□ □ □

وعادت التسميات القـديمة للمملكـة العربيـة السعوديـة الى التداول بعد الثاني من آب لتذكّر بما حرص السعوديون على نسيان الاخرين له .

فلم تتوقف إذاعتا مكة والمدينـة المدعـومتان من العـراق عن التذكير كل يوم بان هذه البلاد هي الوحيدة في العـالم والاولى في

التاريخ التي تسمى باسم عائلة ، بعد ان درج العرب على اختيار اسماء دولهم منسوبة الى موقع او اسم مدينة او اسم تاريخي قديم ، فلبنان اخذ اسمه من جبل يحمل المفردة ذاتها ، والعراق هو تعريب للاسم التاريخي القديم أوروك ، وانتسب الاردن الى نهر يحمل الاسم نفسه ، اما المغرب فكانت من قبل تحمل اسم مراكش نسبة الى مدينة كبرى من مدنها ثم حملت اسمها الاخر للدلالة على موقعها في الغرب من خارطة العرب ، واخذت مصر اسمها من مفردة عبرية قديمة ، في حين اخذ اسم مصر بالانكليزية (Eygpt) تكوينه من المفردة القبطية القديمة آكتوبس ، وحملت الجزائر وتونس اسم عاصمتها ، اما السعودية فليست غير إسم مشتق من اسم عائلة ، رغم ان المنطقة حملت خلال ثلاثة الاف سنة اسماء مثل شبه جزيرة العرب وبلاد تهامة والربع الخالي ونجد والحجاز والاحساء .

اذن ساء السعوديين ان يأتي من يذكّرهم بهذا كله ، او حتى ان يتحدث عن مذابح آل الرشيد ومذابح الطائف ومكة التي قام بها آل سعود في بدء مراحل توليهم السلطة في شبه الجزيرة العربية .

كانت ثمة خصائص متباعدة في مصادر التكوين ، والسلوك الناتج ، بين ما يحمله آل سعود ويتصفون به ، وبين ما عُرف به الهاشميون وجسدوه ..

فآل سعود ، ظلوا بعد ثلاثة ارباع القرن على توليهم سلطة الحياة السياسية في شبه الجزيرة العربية ، مشدودين الى طبيعتهم البدوية ، بكل ما فيها من جفاء وتطرف ، تغطيهما وتغلفّهما نزعة للانكفاء على الذات ، والانغلاق ، ولذلك كانوا في العصر الحديث مجتمعاً مقفلا هو مجتمع البدو حين يتسيدون على المدن ، واظهروا عدائية لا تسامح فيها مع كل من اختاروه عدواً ، او ناصبهم العداء ، على حد سواء .

اما الهاشميون ، فقد كان تحدرهم من آل البيت سببا لتقييد التطرف في سلوكهم فاظهروا قدراً من المسالمة ، واتصفوا بانهم وسطيون ، مسالمون ، تصالحيون ، ولهذا مصدران في التكّون :

الاول : انهم امتداد تاريخي لآل بيت الرسول (ص) ، واشراف حواضر المسلمين في شبه الجزيرة والمشرق العربي ، وهو الامر الذي يرتب على جملة هذا الوصف حماية الاسم الذي يحملون .

الثاني : انهم ابناء مدن ، تواقون الى التصالح الاجتماعي والسياسي ، يتحاشون تخزين موقف باطن واظهار آخر سواه ، لتبدو مواقفهم مكشوفة واضحة ، لا مخفية مخزّنة .

في هذه اللحظة من الافتراق بين شخصيتين متباعدتين في الخصائص ، بدا ربما للسعوديين قبل سواهم ، ما يشبه الوهم ، بأن العراق ، مهيأ لمقاومة خاصية تخزين المواقف وما ينتج عنها من تطرف وعدائية في السلوك .. وان العراقيين بما عرفوا به من جمع للخواص ، من مصادر المدينة والبادية والريف ، وما اتسموا به من اعتداد بالذات ، قد يمثلون السد الذي يواجه التطرف السعودي ويوقفونه داخل حجرات بيته ، لا خارجها ، او قد يطوقونه من الخارج بانشاء مجلس تعاوني بين الدول المحيطة بالسعودية .

وهمٌ آخر .. أضاف تلافيف جديدة الى مستودع تخزين العقد في اشد مراحل العلاقات العربية غموضا ، وتحسبا وحساسية .

□ □ □

خرجت السعودية خلال حرب الخليج على تقاليد دبلوماسيتها المنكفئة ، التي كانت تتحاشى من قبل الصِدام ، وتلوذ بالاسترضاء ، مرة ، وبالتحريض السري مرة اخرى ، فاذا بها هذه المرة تخرج عنقها بالكامل لتصبح طرفاً اساسياً في اعنف صراع

اقليمي عرفته المنطقة طوال تاريخها .

فلاول مرة دخل السعوديون الصراع مباشرة ، وليس بوساطة الوكلاء سواء في شهور الازمة ، ام خلال الحرب ، ثم بعدها ، فتعاملوا مع المعارضة العراقية ، وتبنوا مشروع تقسيم العراق ، وروّجوا لدعوة الغاء دور الاردن في تحديد مستقبل النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وطرحوا انفسهم بديلا عن الهاشميين في رعاية مساجد القدس وصيانتها ، وترتب على عملية الخلط الجديدة ، ان طلبت السعودية لنفسها دورا علنيا في تسوية النزاع مع إسرائيل وتحديد مستقبل اليمن، وابتداع فكرة إحلال البترو دولار السعودي بديلا عن المظلة الاردنية ، والاحتواء بدل الرعاية في تحديد مستقبل الفلسطينيين .

وعلق الملك فهد امالا كبيرة على المضايقة الاقتصادية للاردن ، الى الحد الذي قال فيه لوزير الخارجية الامريكي جيمس بيكر في تموز (يوليو) ١٩٩٢ .

ـ كنا نتصور ان الاردن سيموت من الحصار ، لكننا اكتشفنا انهم اغنى مما كنا نتوقع .

وانشأ السعوديون محوراً مع مصر في محاولة لمحاصرة العرب الاخرين المنضوين في عملية السلام ، بحيث تتولى القاهرة دور الوسيط مع اسرائيل، وتتولى الرياض دور الوسيط مع واشنطن .

لكن سياسة اخراج العنق ، والتخلي عن القتال بالانابة ، للمقاتلة مباشرة ، وبالجذع الكامل ، ترتب خسائر ونتائج قد لا تكون السعودية مهيئة لاستيعابها وهي :

اولا : ان العمل على تشجيع تقسيم العراق طائفيا هو قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في السعودية نفسها . اكثر منها في العراق ، وسينشأ في هذه الحالة وضع لا قيد عليه ولا حد ينزع فيه شيعة المنطقة الشرقية للانجذاب الى مركز خارجي ، هو في الاكثر ،

النجف ، مقر الولاية الشيعية في العالم ، وهو يعني ان انسلاخاً في الجغرافيا سيلحق بالانسلاخ النفسي .

ثانياً : ان اي إعادة توزيع في الادوار ، لن يعفي السعودية من انحسار في الدور الاقليمي بعد اتساع الفجوة بينها وبين قوى سياسية واجتماعية كانت تقوم معها علاقات الهدنة والتسكين من قبل .

ثالثاً : ان للتحالف المعلن والواسع مع امريكا والغرب انعكاساً سلبياً على مستقبل مكانة السعودية التي تدير اهم مركز اسلامي في العالم . وستنشأ عن ذلك تفجرات اجتماعية محلية خارج نطاق السيطرة والضبط .

رابعاً : سيؤدي ازدياد التوتر على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية والجنوبية من السعودية الى الاخلال بفرضية الحدود الامنة ، التي تعايشت معها السعودية عقدين من الزمن منذ انتهاء حرب اليمن .

خامساً : لن يكتفي الجيل الثاني من السياسيين السعوديين الذي لعب دور المحرض الفعال في الخروج على التقاليد المحافظة للدبلوماسية السعودية ، بما يعطى من دور محدود او ثانوي ، وسيطلب تلقائياً دوراً رئيساً وقيادياً لينفرد بتحديد المستقبل السياسي للبلاد كلها .

سادساً : ان الارتباط بالسياسة الامريكية الى الحد الذي ظهر في خلال حرب الخليج سيحرم السعودية من المرونة في التراجع والتصرف طبقاً للمصالح الوطنية مستقبلا ، ويحدد قدرتها على الخروج عن طوع قوة عظمى متسيدة على العالم وصلت الى منابع النفط واستقرت فيها .

سابعاً : وسيقع في ضوء العناصر التي عرضناها ، الانقسام في الوطن العربي ، بين اغنيائه وفقرائه ، وبين المتمتعين بالحماية الاجنبية والمعتمدين على قدراتهم الذاتية ، وهو الامر الذي سيعمق

الافتراق الاجتماعي والنفسي والفكري مما لا يمكن ردمه في حياة هذا الجيل وربما لما هو أبعد من ذلك □

اليمن... البعيد القريب

نحن فقراء لكننا

لسنا عصابة..

نحن دولة

علي عبدالله صالح لجيمس بيكر

في ٢٢/١١/١٩٩٠

ما كاد الرئيس اليمني علي عبدالله صالح يجلس في البهو الكبير الذي جمعهُ مع نائبه علي سالم البيض ببغداد التي طار اليها بعد ثماني واربعين ساعة من عبور القوات العراقية الى الكويت ، حتى بادره الرئيس صدام حسين :

ـ ما أجمل الطريقة التي صنعتم بها وحدة اليمن ، لقد كنا نتمنى ان تتم وحدة العراق والكويت بالطريقة نفسها .. لكن مع الاسف لم يكن ممكناً صنع الوحدة على طريقتكم .

كان الوصف الأكثر تفصيلاً لدى القياديين العراقيين ، هو أن وحدة العراق والكويت هي توحيد لذات وطنية واحدة ، تماما ، مثلما أن وحدة اليمن هي تعبير عن توحد في ذات واحدة ، وتصحيح لوضع أنشأته القوى الاجنبية على أرض اليمن ، وهي الوحدة التي لجأ إليها اليمنيون للهروب من الحرب الاهلية ، ولتحاشي عملية ضم قسرية لأحد الشطرين بعد أن بدا لهم أن حرباً أهلية ستقع تحت وطأة الظروف الاقتصادية لكلا الشطرين وبعد أن بدا أن سقوط الاتحاد السوفيتي سيدفع احد الطرفين لضم الاخر بالقوة ..

كان الرئيس اليمني متوزعاً بين القلق والأمل ، فهو يشعر ان الاحداث تتطور سريعا وقد تؤدي الى انهيارات ليس بإمكان احد ان يوقفها عند حد ، وقد تأتي على الجميع من حلفاء العراق واعدائه سوية ، وان اليمن لن يكون معفياً من تحمل نتائج هذه الانهيارات ... لكنه في الوقت نفسه كان يستنجد بعلاقته العميقة مع العراقيين ، ليصنع حلاً يقبله المتنازعون ، رغم أن الصورة القاتمة للوضع كانت تجعل ملامح الأمل الذي شغله شاحبة .. ثم متلاشية .

قال الرئيس علي عبدالله صالح :

ـ إن العالم لن يسمح بالذي حصل ولذلك اخشى ان يتعرض العراق لضربة نووية ، وان مالدينا من معلومات يدل على ان هذا الخيار موجود وقائم ..

فرد الرئيس صدام حسين :

ـ إننا لانستبعد هذا الاحتمال ، بل اننا قد وضعناه في الاولويات ممكنة الوقوع ..

ثم دخل الرئيسان في حوار صعب ، بيّن فيه الرئيس العراقي انه تحاشى إعلام احد من اقرب حلفاء العراق بعملية الكويت قبل وقوعها حتى لايضعه في موقف حرج . في حين عرض الرئيس اليمني استعداده للعمل على إيجاد حل سياسي في اطار الاسرة العربية ، ووجد ان الرئيس صدام حسين يرحب بمسعاه شرط الاعتراف بحقوق العراق المعلنة .

ـ بماذا عدتَ من بغداد بعد زيارة يوم ٤/٨/١٩٩٠ ؟، حين طرحت السؤال على الرئيس اليمني ، سحبني من يدي بعيداً عن البوابة الخارجية لقصر الرئاسة لندخل الى مظلة نصبت وسط حديقة القصر على اطراف صنعاء . وماكاد يجلس حتى بادرني هو بالسؤال :

ـ هل تعتقد أنني سأتحدث عن كل الاسرار ..؟ ان الوقت لم يحن بعد ..

وصار عليّ ان ادخل في جدل حول حيوية اطلاق المعلومات ، دون تحسس مسبق . خاصة عن أزمة الخليج وحربه اللذين تركا اثاراً عميقة في حاضر العرب ومستقبلهم ..

ـ لابد أن تدلي بشهادتك سيادة الرئيس ..

قال الرئيس اليمني :

ـ لقد كنت شديد التفاؤل بعد لقائي مع الرئيس صدام حسين ببغداد ، وحصلت على اجابات محددة عن نقاط عدة ، بما فيها الانسحاب من الكويت ، ولكن كل شيء كان مشروطاً بالتزامات مقابلة .

واضاف : لم نكن مع الدخول العراقي الى الكويت ، لكننا بعد ان استمعنا الى المبررات العراقية ، ولمسنا استعداد بغداد لحل المشكلة شعرنا ان بالامكان العمل في الاطار العربي للخروج بحل .

كان الرئيس علي عبد الله صالح قد غادر بغداد الى جدة ، ليلتقي في مطارها بالملك فهد ، في حين انفرد السيد علي سالم البيض بالامير عبدالله ولي العهد السعـودي ... ودار حوار منفصـل ، الرئيس والملك ، والنائب وولي العهد .

نقل الرئيس اليمني استعداد بغداد للانسحاب والاتفـاق على صيغ للحل ، والمشاركة في قمة مصغرة تعقد بمدينة جدة بعد اربع وعشرين ساعة ، على ان ينظر في طلبات العراق ، وتتم مساعدته لحل مشكلاته الاقتصادية .

واجاب الملك انه مستعد للوصول الى حل تؤول بموجبه جزيرتا وربة وبوبيـان الى العراق ، فضـلا عن حقل الرميلة النفـطي ، والمساهمة في منح العراق سبعة عشر مليار دولار ... لكنه لم يكن قد انتهى من اعطاء هذا الوعد ، حتى وجد نفسـه يصارح الرئيس اليمني بانه يتعرض للضغط لاستقدام القوات الامريكية ، ولذلك فهو متردد وحائر ولم يحسم الامر بعد .

في تلك الاثنـاء كان الامـير عبدالله يقـول للسيد البيض : ان القوات الامريكية قادمة وقد حسم الامر وانه مع قدومها في الوقت الذي مايزال فيه الملك متردداً في هذه المسألة .

وتظهر المعلومات اليمنية ، حـول هذا الحـوار ، ان بعض ما اشيع عن معارضة ولي العهد السعودي لقدوم القوات الامريكية ربما لم يكن دقيقاً بما فيه الكفاية .

وطار الرئيس اليمني ونائبه الى الاسكندرية ليجدا ان الرئيس المصري حسني مبارك شديد الانفعال وهو يبلغهما : لا حل وسط مع العراق ، فإما ان ينسحب بدون شروط ، وإلا فإن الجنرالات الغربيين سيتحركون .. وعلى العراق ان يتلقى ضربة مدمرة .

□ □ □

كانت القيادات اليمنية التي صُدمت بالعبور العراقي الى الكويت قد تداعت الى اجتماع عاجل وقطع الرئيس اليمني زيارته لمحافظة

(حجة) شمال البلاد ، بعد ان تردد في اليمن وخارجه ان الرئيسين صدام حسين وعلي عبدالله صالح قد يكونان نسقا في وقت مسبق لعملية الكويت ، وان هناك التزامات متقابلة .. لذلك كان اول سؤال وجهه القياديون اليمنيون الى الرئيس يمس هذا الامر .

وسأل العميد مجاهد أبو شوارب ، نائب رئيس الوزراء ، وثاني أكبر شخصية في قبيلة (حاشد) الذي يتمتع بثقل اجتماعي وسياسي كبير في اليمن :

ـ أيها الاخ الرئيس ، ارجو ان تكون صريحاً معنا ، هل هناك اتفاق مسبق بينك وبين القيادة العراقية ، وهل هناك التزامات مسبقة تقع على اليمن ، وهل ثمة حق ادبي نحن ملزمون به .. انك تسمع مايُقال ، ولابد ان نعرف الحقيقة منك .

فرد الرئيس :

ـ لقد فوجئت مثل غيري بهذا الذي حدث ولم يكن هناك اي تنسيق مسبق مع بغداد وعلى اي مستوى ، ولم يكن هناك تفاهم من اي نوع بيننا وبين الاخوان في العراق .. صحيح أننا اعضاء في مجلس واحد للتعاون ، لكن هذا المجلس لم يكن اطاراً للقيام بأي عمل من هذا النوع ، او التنسيق له ..

وتيقّن الحاضرون أن الرئيس تحت وطأة المفاجأة .. وأنه لايعرف أكثر مما يعرفون عن الحدث الصاعق في الكويت ..

□ □ □

في كل مرة راجعت فيها ملفات الصراع ، او التقيت بالقادة الذين توزعوا المواقع على ساحته ، كان اسم الرئيس علي عبدالله صالح يتردد .برغم انه يقود دولة غير متلاصقة تماماً بحافة الاصطدام المباشرة ، وتبدو للوهلة الاولى ، جزءٌ من أجنحة مفروشة عند الطرف التحتي البعيد من شبه الجزيرة العربية ، إلا ان هذه الدولة هي في حقيقة الامر ، أكثر الاطراف صلة بصراع

الخليج . تؤثر فيه بمستوى .. لكنها تتأثر به بمستويات عدة .

واذكر ان الملك حسين عاهل الاردن قال :

ـ لقد وجدنا من المناسب دعوة الرئيس اليمني الى اجتماع جدة في ٥/٨/١٩٩٠ ، لانه صريح وجريء ولان اليمن جزء رئيس من المعادلة .

لذلك كان لابد لي ، لأستكمل الصورة ، من المجيء الى اليمن ، والالتقاء بالرئيس علي عبدالله صالح ، والفعاليات السياسية في البلاد ، اذ ان حياء اليمنيين ، وتجاهل الاخرين لهم اديا الى اعطاء انطباع خاطىء ، هو ان اليمن طرف هامشي في الصراع على الخليج .. وكان عليّ ان ابحث عن اجابة تناقض هذا الانطباع .

فاليمن جزء من الصراع على المنطقة ..

واليمن جزء من معادلة التوازن فيها ..

واليمن أشبه مايكون في موقعه ، عند تمعر الجزيرة ، بحال الغاطس الذي لابد منه ،، لينزل في اعماق البحر ، حتى يضمن سلامة السفينة واستقرارها فوق سطحه وبين امواجه .. فالجزيرة السفينة ... واليمن غاطسها .

لكن المسؤولين اليمنيين ، بذلوا جهداً استثنائياً للاعلان ان بلادهم ليست طرفاً في الصراع ، الى الحد الذي وصف الدكتور عبدالكريم الارياني اليمن بانها طرف لا علاقة له بالازمة ، مع وجود اطراف عربية اخرى ، ذات علاقة مباشرة او غير مباشرة بما حدث او يحدث ، وان صنعاء قد انتهت سياسة معلنة تتطابق حقيقة مع كل ما اتخذته من مواقف عُرفت ام لم تعرف من قبل الاخرين .. وان بلاده لم تقع في هاوية السياسات الباطنية .

وربما يكون السبب في اطلاق هذه الآراء هو وجود شبه اجتماع في اوساط السياسيين والمثقفين اليمنيين بعد انتهاء حرب الخليج على حاجة اليمن الى تهدئة علاقاتها مع الدول المجاورة ، وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية . وان اية حقوق في الارض او الحدود يمكن ان تكون مصدر توتر وخلاف . ينبغي ان تغطس

نصف عقد من الزمن على الاقل ، لحين اكتمال قدرة اليمن على تجاوز المرحلة الانتقالية وتحقيق الاستقرار في تجربة الوحدة والتنمية والديمقراطية ، وان اي انجذاب لاثارة المشاكل ، هو انسحاب الى موقع شبيه بالذي صار فيه العراق عندما استدرجته مقدمات الانفجار واستفزازاته ، وجذبه شعوره بالخطر الى الاقدام على عملية كان بالامكان تأجيلها نصف عقد من الزمن مادامت قد تأخرت أصلاً اكثر من عقدين من موعدها الذي كان يمكن ان يتيح لها النجاح . والى ابعد من ذلك ، يرى الرسميون اليمنيون ان اليمن ليست مهيئة لمواجهة احد ، وان بنية المجتمع اليمني الذي يتسيّده العرف قبل القانون ، وتكون فيه القبيلة بموازاة الحكومة ، وهي بنية اضعف من ان تكون قادرة على خوض معركة شاملة قد تؤدي الى انهيار اهم ما بنته هذه الدولة منذ ثورة ٢٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٢ ، وان اولوية الوحدة والديمقراطية والتنمية تسبق الاحتكاكات المحتملة او المؤجلة مع أية قوة خارجية .

إلا أن الرئيس علي عبدالله صالح الذي ادار البلاد منذ سنة ١٩٧٨ ، وامضى أطول مدة عرفها رئيس في اليمن ، يرى ان دور بلاده الاقليمي محفوظ وليس لاية قوة ان تهمش هذا الدور مستغلة الظروف الاستثنائية والطارئة التي مرت على المنطقة ، ويتطابق هذا الرأي مع الطموحات التي تنشأ تلقائيا عن نجاح اليمن في بناء الوحدة وقطع شوط كبير على طريق التنمية والديمقراطية ، فيترتب عندئذٍ دور طبيعي حتى لو أجّل صاحبه إعلان المطالبة به وممارسته عملياً ...

□ □ □

اعتادت الاقمار الصناعية الاميركية والسوفيتية منذ أواسط الستينات الانتشار فوق المناطق الساخنة ، حيثما توجد قوى متنازعة ، متوزعة الولاء بين موسكو وواشنطن ، لتراقب اقمار كل طرف حلفاء الطرف الاخر ، وتحركاته سواء على الجبهة

المصـرية ـ الاسـرائيلية او جبهـة الكوريتـين او الالمانيتـين او اليمنين .

وصارت الاقمار السوفيتية تراقب ، منذ اواسـط الستينات ، التحركات العسكـرية في الشـطر الشمالي من اليمن حتى حـدود السعودية ، لتغذي بمعلومات مركز التحكم والسيطرة السوفيتي في عدن ، وتعلم بها حكومة الشطر الجنوبي ، مما جعل صنعاء تلجأ لطلب المساعدة من الولايات المتحدة لتؤمّن لها مراقبة بـواسطة الاقمار الصناعية للتحركات العسكرية في انحاء اليمن .. فصـار لدى صنعاء مصدر للمعلومات في مقابلة المصدر السوفيتي الذي يغذي عدن بالمعلومات .

ولطالما حث المسؤولون اليمنيون الجانب الاميركي على مراقبة الحـدود الشماليـة لليمن مع السعـودية ، فكـان الجواب يـأتي بالرفض دائماً .

أما في أثناء أزمة الخليج ، فقد تولّدت الحاجة إلى مراقبة من هذا النوع بعد أن توصلت صنعاء الى أنها هدف محتمل في حرب شاملة محتملة الوقوع .

كان اليمنيون يلتقطون الاشارات المتناثرة التي تحملها وسائل الاعلام احياناً ، والتقاريـر الدبلوماسيـة والاستخباريـة أحيانـاً اخرى ، وصاروا يُرجحون قبول فكرة ان اليمن معـرضة لخـطر محتمل ، وتابعوا ، مع سواهم ، تصريحات الجنرال دوغان رئيس اركان القوات الجوية الاميركية (١٥/٩/١٩٩٠) ، التي كشف فيهـا عن خطة لضـرب بغداد ومهـاجمة مقـرات الرئيس صدام حسين ، ثم مالبثوا ، ان وجدوا ان صحيفة (الشرق الاوسط) السعودية الصادرة في لندن تنشر بعد اربع وعشرين ساعة مخططاً لمهاجمة اليمن يحاكي في اسلوبه واهدافه ، المخطط الذي تحدث عنه دوغان لمهاجمة العراق ، واستنتج المسـؤولون اليمنيون ان مانشرته الصحيفة هو رسالة جدية موجهة اليهم ، وان مقـرات الرئيس علي عبدالله صالح ، والمطارات ، ومنشـآت الكهربـاء في

الحديدة وعدن ستكون اهدافا لضربة جوية خاطفة ، واستبعد اليمنيون ان تكون المعلومات الصحفية مجرد جزء من حملة للضغط النفسي على اليمن ، برغم ان الصحيفة لم تحدد مصادرها بصورة دقيقة ، وجعلت المعلومات التي نسبت مصدرها الى عمّان ، معلقة بما يُعرف بمصادر مطلعة في نيقوسيا وهي التسمية التي يتخفى وراءها في العادة اولئك الذين يفضلون البقاء مستترين عند تمرير معلومات مضللة ، وربما صحيحة احياناً .

وتحادث الرئيس علي عبدالله صالح على الفور مع الملك فهد حول ماتردد من انباء عن ضربة ستوجه الى بلاده بعد تسريب إشاعات عن وصول طائرات حربية عراقية الى اليمن ، واقترح على الملك السعودي ان يجتمع نائب رئيس الاركان اليمني في (جيزان) مع مَنْ يختاره السعوديون لتمثيلهم ، ليقوما معاً بتفتيش الحدود بواسطة طائرة هيليكوبتر ، واذا ما وجدا اي تحشيد اضافي في المنطقة فلابد من سحب اية سلاح جديدة او حشد جديد على أي من الطرفين .

والتقى نائب رئيس الاركان اليمني محمد هيثم مع قائد منطقة (أبها) السعودي في مدينة (جيزان) ، لكن الضابط السعودي اعتذر عن التحليق بطائرة هيليكوبتر فوق الحدود .

ولم تطمئن صنعاء .

ولم يكن هناك من يعطيها مثل ذلك الاطمئنان الذي كانت تبحث عنه .. خاصة بعد ان استمعت واشنطن لشكوى اليمن دون ان تعطيها اية ضمانة ..

وسافر الدكتور عبدالكريم الايرياني الى موسكو يحمل معه نسخة باسم معاهدة صداقة ، كان السيد عبدالفتاح اسماعيل قد وقعها باسم الشطر الجنوبي من اليمن مع موسكو ، تلزم مادتها الحادية عشرة الطرفين بالتعاون وتبادل المعلومات خلال الازمات .

وحين التقى الايرياني مع وزير الخارجية السوفيتي ادوارد شيفرنادزه قال له :

ـ لقد جئت اليكم لأننا نشعر ان امننا في خطر ، ولكي تعرفوا موقفنا الحقيقي مما يجري ، خاصة حول مايردده الاعلام السعودي عن نيّات عدوانية يمنية ، وأنا هنا لاقدم لكم كامل الضمانات بأن اليمن لاتفكر مطلقاً في الاعتداء على السعودية .. ونحن لانريد منكم غير ان تقولوا لنا : اطمئنوا ، ولكم ان تفعلوا ذلك بابلاغنا ماتحصل عليه اقماركم الصناعية عن الموقف العسكري على الحدود الشمالية بموجب معاهدة الصداقة .

وبالفعل ، أبلغت موسكو اليمن مرتين عشية الحرب ، بأن اقمارها الصناعية لم تحصل على مايدل ان هناك تحركات عسكرية تشير الى هجوم محتمل ضد اليمن .

إلا ان هاجس الاحساس بالخطر ظل قائماً ..

وتذكرت حكومة اليمن ، في تلك اللحظة ، زائرها القديم ، نورمان شوارزكوف قائد قوات التحالف في السعودية ، الذي سبق له ان زار صنعاء ثلاث مرات في السنتين اللتين سبقتا اندلاع حرب جديدة في الخليج .. وقررت على الفور الاتصال بطرف اميركي ثالث تربطه بصنعاء وشوارزكوف صلات جيدة ، والطلب منه نقل رسالة الى الجنرال الاميركي تبلغه بان اليمن يشعر بالخطر ، ويحمل الاميركان مسؤولية اي عمل عسكري يقع ضدها ، وتعتقد الخارجية اليمنية ان تلك الرسالة كانت ضرورية في لحظة شعور بخطر محتم وتعود المخاوف المتبادلة في جذورها الى ثلاثين سنة مضت ، عندما انهار حكم الامام البدر إمام ثورة ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٢ ، وولدت جمهورية في اليمن ، لم تتمكن من انتزاع الاعتراف الرسمي السعودي بها حتى سنة ١٩٧٠ ، اثر حرب مدمرة اشترك فيها الجيش المصري ، وكلفت البلاد دماً كثيراً ... ولم يغلق الاعتراف الرسمي السعودي الباب امام المخاوف وانعدام الثقة والتحوط المتبادل ، حتى ان القاضي عبدالرحمن الايرياني صارح الملك فيصل في قمة لاهور الاسلامية اوائل السبعينات ان السعودية ماتزال برغم اعترافها الرسمي

باليمن ، تتحفظ على التعامل معه كدولة مستقلة ، فأجابه الملك السعودي :

ـ لقد صح القول أن الخير من اليمن ، والشر من اليمن ايضاً ، ونحن لا نحتمل وجود جمهورية ، على حدودنا فيها شيوعيون وبعثيون وناصريون ..

فقال الايرياني :

ـ إن هنالك جمهوريات قريبة منكم في العراق ومصر وسوريا والسودان وأنتم تتعاملون معها ، فلماذا هذه الحساسية من اليمن بالذات ؟

فقال الملك فيصل :

ـ ليس من سبيل لكم إلّا التخلص من الأحزاب بالبتر .

وأدى توصل قيادتي شطري اليمن إلى اتفاق لاعلان الوحدة ، واعادة اللحمة إلى البلد الواحد ، إلى اشاعة أجواء الشك والقلق والتحوط مرة اخرى ، وتردد في مطلع ١٩٩٠ ان قطعات سعودية تقدمت لتحتل مواقع على الحدود في منطقة (حضرموت) قبل ايام من موعد مجيء السيد علي سالم البيض الى صنعاء ، واستنتج اليمنيون ان الحادث هو رسالة الى قيادتي الشطرين ، واختبار لمعرفة ما يمكن ان يصدر عنهما ، فقرر الرئيس علي عبدالله صالح انتداب الشيخ عبدالله حسين الاحمر ليحمل رسالة الى السعودية :

ـ اما ان تنسحبوا .. او يتطور الموقف الى ماهو خطير على البلدين ..

وانقسم المسؤولون السعوديون امام الرسالة اليمنية ، فقد كان الامير سلطان متشددا في الدعوة الى عمل جدي لمنع اعلان الوحدة ، اما الامير عبدالله فكان يرى ان الوحدة يمكن ان تنتهار من الداخل ، وليس امام السعودية غير ان تنتظر ولادتها ثم انهيارها .. لكن الملك فهد ابلغ المبعوث اليمني : اننا نرحب بالوحدة اليمنية .. وستعود القوات السعودية الى مواقعها .

وبعثت القيادة اليمنية وزيري الوحدة في الشطرين يحيى العرشي وراشد محمد ثابت الى بغداد والقاهرة لتطلب منهما التدخل لدى السعودية لكي تترك اليمنيين يقررون شؤونهم بانفسهم ، وحصل الوزيران على اجابة مطمئنة من الرئيس صدام حسين الذي شجع على الاسراع في قيام الوحدة ووعد بالتدخل لدى السعودية وطمأنتها ، اما الرئيس حسني مبارك فقد قلل من اهمية القلق اليمني .

لكن الرئيس علي عبدالله صالح لم يكتف بذلك كله ، فقرر في كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ التوجه الى واشنطن ، مستخدما طائرة الرئاسة العراقية ، حيث قابل هناك الرئيس بوش ومساعديه ورجال الاعلام ومديري الشركات ، وكان همه ان يؤكد سلامة نيات بلاده نحو السعودية ويعطي التطمينات الواضحة بان الوحدة لن تشكل خطرا على جيران اليمن ، بل على العكس ستكون أحد مصادر استقرار المنطقة .

وعندما عقدت قمة مجلس التعاون العربي في عمان (شباط ـ فبراير) ١٩٩٠ ، اشتكى الرئيس علي عبدالله صالح من عدم ترحيب السعودية حتى ذلك الوقت بالوحدة اليمنية المنتظرة ، في الوقت الذي لقيت فيه ترحيب جميع العرب الآخرين ، واتفق القادة الاربعة على اهمية ترتيب لقاء قمة سعودي ـ يمني ، فاتصل الرئيس صدام حسين بالملك فهد وطلب منه استقبال الرئيس علي عبدالله صالح والاستماع مباشرة الى كل ما يطمئنه حول وحدة اليمن ، وطار الرئيس اليمني بالفعل من عمان الى حفر الباطن ، ليلتقي مع الملك فهد في جلسة مغلقة ، خرج منها الاثنان ، وعلامات الرضا على وجهيهما ، وادلى الملك السعودي باول تصريح يرحب فيه بالوحدة خلال لقاء تلفزيوني مع المذيع اليمني انور العنسي :

ـ اننا نبارك الوحدة ونرى فيها بركة للامة العربية والاسلامية .. ونؤيد الوحدة اليمنية بلا حدود .

وكاد ذلك الترحيب السعودي المقترن بعبارة (وحدة بلا

حـدود) ان يكون الاعـلان الرسمي اليتيم ، عدا مـاقاله وزيـر الخارجية سعود الفيصل في كلمته امام مؤتمر وزراء الخـارجية العرب عشية قمة بغداد اواخر شهر (أيار ـ مايو ١٩٩٠) .

وعلى العكس مما تردد عن مخاوف السعوديين من وجود أخطار قادمة من الجنوب ، فان اليمن نفسها شعرت بالحاجة إلى التحوط بعد أن سيطر عليها هاجس الخطر في الأيام الأول لدخول القوات العراقية إلى الكـويت ، بحيث حمل الرئيس عـلي عبدالله صـالح مشروع اتفاقية عدم إعتداء وعدم تدخل في الشؤون الداخلية بين اليمن والسعودية عندما توجه لحضور مؤتمـر القمة العـربي في القـاهـرة (١٠/٨/١٩٩٠) ، وعـرضـه عـلى الملك فهـد بن عبدالعزيز ، الذي تأمل الفكرة ، واقترح أن تحال للدراسة من قبل وزيري الخارجية (الايرياني وسعود الفيصل) ، وعندما جلس الاثنان لم يتوصلا إلى اتفاق ، ورأى الوزير السعودي أن الأمـر بحاجة إلى دراسة معمقة ولابد من تأجيله حتى وقت آخر ..

ولم يحدث أن أعاد أي من الطرفين بحث الأمر في وقت آخر .. خـاصة بعـد أن أشاع مسـؤولون خليجيون فكـرة (المؤامـرة الثلاثية) التي تجمـع العراق والأردن واليمن ، ثم صـدقوا مـا أشاعوا ، وسأل راشد عبدالله وزير الدولة للشؤون الخارجية في دولة الامارات خلال حضوره قمة القاهرة ، عضواً في الوفد اليمني هو سالم صالح عضو مجلس الرئاسة اليمني :

ـ ألستم مشتركين في مؤامرة ضدنا بعد أن عرض عليكم العراق ثلاثة مليارات دولار ؟

واعتقد سالم صالح أن الوزير الاماراتي كان يداعبه ، أكثر مما كان يحاسبه ، وفوجيء عندما نقل الأمر إلى رئيسه وأعضاء الوفد الآخـرين على الطائـرة في طريق العودة إلى صنعـاء ، أن الوزير الايرياني صاهمن مكانه :

ـ لو عرض العراق مثـل هذا المبلغ علينـا لكان الأمـر مختلفا حقا .. لكنه مع الأسف لم يعرض المبلغ ..

وضحك الجميع ، لكنهم في الأيام التالية تيقنوا أن الأمر ليس مجرد مداعبة ، بل قناعة تترسخ يوما بعد آخر ، بعد أن صار صحفيون كبار مثل جاك اندرسن يتحدثون عن سيناريوهات اتفاق سري يرعاه العراق ، ومنذ ذلك الحين نشط اليمنيون لدحض هذه الفكرة والبرهنة على استقلالية موقف كل طرف في مجلس التعاون العربي من تطور الأحداث في الخليج ، وبخاصة مسألة الدخول إلى الكويت .

وعندما تقابل وزير الخارجية اليمني مع وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد في القاهرة بعد شهرين من وقف إطلاق النار في الخليج ، ذكر المسؤول اليمني بما يردد حول (المؤامرة الثلاثية) وما يطلق من أوصاف على مجلس التعاون العربي :

ـ أنهم يسمونه مجلس التآمر العربي وليس مجلس التعاون العربي .

ثم ضحك وقال : الغريب أن الاسم المختصر في الحالتين ، باللغة العربية ، يحتوي الحروف نفسها (م . ت . ع) .

فاجابه هيرد : لانعتقد ان مثل هذا الكلام كان صحيحا .. وانا لا اذهب الى ماذهب اليه الآخرون .

نيويورك ـ صنعاء :

كانت اليمن أغلى الأصوات في مجلس الأمن ، يمثلها الدبلوماسي الناشط عبدالله الأشطل ، الذي أظهر قدراً من التفرد وعدم التوافق مع بعض التعليمات التي تلقاها من صنعاء .. ووقع في حيرة عندما كان مطلوبا منه إعطاء موقف في وقت مبكر لم يجد فيه من يعطيه الاذن بالتصريح ..

وعلى مدى أكثر من سنة ، كان الأشطل في مجلس الأمن هو الرافض ، الممتنع ، الحائر ، الغائب عن المشاركة ، المتحفظ ، الموافق .

فعند التصويت على أول قرار لمجلس الأمن يوم ٢/٨/١٩٩٠ ، وقع المندوب اليمني في حرج لأنه يمثل تلك المجموعة العربية في

المجلس ، وكان مطلوبا منه أن يدلي بصوته في مدة لا تتجاوز ثلاث ساعات ، عند الفجر بتوقيت البلدان العربية التي لم تكن جامعتها العربية قد توصلت إلى قرار جماعي مشترك من الأحداث . فاتصل بصنعاء ، بعد أن يئس من الحصول على قرار عربي يحمله إلى العالم ، لكن الرئيس علي عبدالله صالح كان ساعتها خارج العاصمة ، ولم يكن بمقدور عضو واحد من اعضاء مجلس الرئاسة اليمني الحاكم أن يصدر تعليماته في هذه الحالة ، وكان من حق المندوب اليمني أن يطلب تأجيل اجتماع مجلس الأمن أربعا وعشرين ساعة ، لكنه وجد أن مثل ذلك الطلب لم يكن مريحا للآخرين الذين استعجلوا في التعامل مع أزمة دولية خطيرة ، وصارت أمامه الخيارات الآتية في التعامل مع القرار ٦٦٠ :

- إما أن يعارض القرار .
- وإما أن يمتنع عن التصويت .
- وأما أن يتغيب عن الاجتماع ، أو لايشارك فيه ، ثم يعود ليشرح موقف بلاده بعد أن يكون القرار قد اتخذ .. وهذا ما لجأ إليه الأشطل لمعالجة الموقف حسب تقديره ، لتجد صنعاء نفسها أمام أمر واقع عند الصباح ، فتتبنى قرار مندوبها ، الذي نظر إليه الخليجيون على أنه موقف غامض غير كافٍ ضد العراق .

أما بغداد فكانت ترى أن مندوب اليمن لم يكن يستطيع مقاومة القرار وأن غيابه عن الاجتماع هو تصرف كافٍ بالحد الأدنى .

بعد أكثر من سنتين على صدور قرار مجلس الأمن ٦٦٠ قال لي الدكتور الايرياني : كان الأفضل لنا أن نؤيد القرار ...

وحين طرح مشروع القرار ٦٦١ الذي يقضي بفرض الحظر الشامل على العراق ، إمتنع الصوت العربي ، في مجلس الأمن عن التصويت ، واكتفى المندوب اليمني بالاعلان أن بلاده برغم تحفظها على القرار المعبر عنه في الامتناع عن التصويت ، إلّا انها ستلتزم بهذا القرار .. وقد أبلغ الرئيس الأمريكي جورج بوش ، في

وقت لاحق ، الرئيس علي عبدالله صالح أنه يتفهم موقف اليمن في الامتناع عن التصويت على قرار فرض العقوبات ضد العراق .

وفي الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠ كان المتوقع أن تستمر اليمن في الامتناع عن التصويت على مشروع قرار جديد يفرض الحظر الجوي على العراق ، لأنها كانت قد اتخذت هذا الموقف من القرار ٦٦١ الذي فرض جميع أشكال الحظر على العراق ، فأصبح تلقائيا أن يظهر موقف يمني مكمل للموقف السابق .. إلّا أن الأمر تطور في اتجاه آخر ، إذ كانت الحكومة اليمنية في مواجهة معضلة تدفق اليمنيين الذين طلبت المملكة العربية السعودية منهم مغادرة أراضيها ، فأرادت صنعاء عندئذ أن تستخدم صوتها في مجلس الأمن ورقة في انتزاع قرار سعودي ـ أمريكي لايقاف تهجير اليمنيين ..

في تلك الأثناء كان الروس يلحون على اليمن لتأييد القرار ، أما الأمريكان فقد قالوا لليمنيين ان أقل ما نتوقعه منكم هو أن تمتنعوا عن التصويت وتتحاشوا مقاومة القرار .

وخطر للرئيس علي عبدالله صالح أن يبلغ واشنطن وموسكو موقفا جديداً : مادام الاجتماع على مستوى وزراء الخارجية ، فان صنعاء ستؤيد القرار بشرط قيامكم بالضغط على السعودية لايقاف تهجير اليمنيين لمدة ستة أشهر ليكون في مقدور الحكومة اليمنية ترتيب مستلزمات استيعاب هؤلاء العائدين .

وصار على الدكتور الايرياني أن يبدأ اتصالات عاجلة مع المسؤولين السوفيت والأمريكان ، فتحدث مع جون كيلي وكيل الخارجية الأمريكية وادوارد غنيم (سفير واشنطن لدى الكويت بعدئذ) ثم هاتف المندوب الأمريكي لدى الأمم المتحدة وهو يقطع بسيارته شوارع نيويورك ، وكانوا جميعاً سعداء بالموقف اليمني ، وشجعوا الدكتور الايرياني على تأييد القرار ووعدوه بالتحرك لدى السعودية لتحقيق المطلب اليمني ، أما السوفيت فكانوا أكثر

سعادة وامتناناً ووعدوا من جانبهم بالعمل على إيقاف تهجير اليمنيين من السعودية .

عندئذ ، تلقى الدكتور عبدالعزيز الدالي (وزير الدولة للشؤون الخارجية) الذي مثّلَ بلاده في اجتماع مجلس الأمن أمراً محدداً : صوِّت لصالح القرار .

لكن عبدالله الأشطل ، كان شديد التحفظ على تعليمات بلاده ، وأبلغ وزارة الخارجية في صنعاء عدم جواز اتخاذ هذا الموقف بعد أن كان قد امتنع عن التصويت على القرار ٦٦١ الذي حمل مفهوم الحظر على العراق ، وسيخلق الموقف الجديد مفارقة لا يحبذ وقوعها .

وأعطى الدكتور الدالي صوت اليمن بالموافقة ، لكن موسكو وواشنطن اللتين كانتا قد وعدتا بالضغط لتجميد القرار السعودي ، لم تقدما لليمن غير التمديد شهراً واحداً فقط للانذار الممنوح لليمنيين بالمغادرة .. وهو الأمر الذي زاد من الشعور بالمرارة في صنعاء .. والمرارة في نفس مندوبها بنيويورك الذي تمنى لو لم تقع بلاده ضحية وعود غير قابلة للتحقق .

وعندما سألتُ الرئيس علي عبدالله صالح إنْ كان راضياً عن الأشطل وكل ما اتخذه من مواقف ، أجابني على الفور :

ـ آه .. راضٍ جداً ..

ثم استدرك : كان الأشطل شخصية متوازنة وهو ملتزم بكل ما تلقاه من تعليمات القيادة اليمنية ، ولم يكن ليقدم على أي موقف قبل أن يعود إلى القيادة ،

على أن أهم كلمة (لا) أطلقها اليمن كانت عند التصويت على القرار ٦٧٨ الذي أجاز استخدام القوة ضد العراق عندما وقف الأشطل ليعلن : أن هذا القرار يمنح المسؤولية في استخدام القوة ، لكنه لايحدد أية طريقة لمراقبة استخدام هذا الحق والمحاسبة عليه ، وهو أمر أثار غضب واشنطن ولندن وموسكو على صنعاء ، وصار لازمة في الحوارات اللاحقة التي جمعت المسؤولين

اليمنيين مع سواهم في الولايات المتحدة والدول المتحالفة معها ..
ولخص الدكتور عبدالكريم الايرياني رأيه بما حصل :
ـ لقد قلنا لا .. حتى لايلعننا التاريخ العربي ، ولسنا نادمين على موقفنا .

□ □ □

الرباط : ١٩٩٠/٩/٣

دخل إلى القصر الجمهوري بصنعاء فريق هندسي مغربي لتأسيس أجهزة التقاط وإرسال بالشيفرة السرية بين العاصمتين اليمنية والمغربية ، بهدف تمكين الملك الحسن الثاني من الاتصال الأمين غير القابل للاختراق مع الرئيس علي عبدالله صالح ، وذلك بعد أن جرت مداولات لاحياء ماعُرف بالحل العربي .

وكانت أطراف المحاولة الجديدة هي المغرب واليمن والأردن والجزائر وفلسطين بناءً على مبادرة يمنية حملها الدكتور عبدالعزيز الدالي إلى المغرب يوم ١٩٩٠/٩/٣ لعقد مؤتمر قمة عربي يبحث عن مخرج للموقف .

ووجد الملك الحسن الثاني أن عقد القمة قد لايكون مناسبا في توقيته ، يومئذ ، بعد أن انقسم العرب على أنفسهم ، فأوفد مستشاره السيد أحمد بن سودة إلى اليمن يقترح أن يتم تشكيل لجنة من الحكماء تذهب إلى العراق والسعودية ، وتضم في عضويتها المغرب والأردن واليمن والجزائر ، على أن يتولى اليمن نقل المقترح إلى العراق ، وتتولى المغرب نقل المقترح إلى السعودية ، للحصول على موافقتهما مسبقاً ..

وهكذا ، فتحت أبواب القصر الجمهوري للفريق الهندسي المغربي ليكون صلة وصل لاتصال آمن بين صنعاء والرباط .

وأبلغ بن سودة اليمنيين أن سلطنة عمان قد تنضم إلى لجنة الحكماء ، إلاّ أن الرئيس اليمني ظل يعتقد أن مثل هذه اللجنة قد

لا تكون أقوى في فعاليتها من مؤتمر قمة ، غير أن المبعوث المغربي طلب من الرئيس صالح أن يسعى لاستحصال موافقة بغداد على استقبال اللجنة ، وستكون تلك الخطوة مقدمة للتأكد من أن نصف الطريق سالكة ، بانتظار فتح نصف الطريق الآخر نحو السعودية .

هنا ، لم يكتم الرئيس اليمني شكوكه من أن الرياض قد لا ترحب بوجود اليمن في عضوية هذه اللجنة ، وقال :

ـ أراهن أن اليمن لن تُقبل في لجنة الحكماء .

وربما كان تيقّن الرئيس من عدم الترحيب ببلاده متأتيا من معلومات وُضعت على طاولته عشية وصول المبعوث المغربي .

وبالفعل .. أُستبعدت اليمن .. واقتصر الجهد العربي الجديد على الأردن والمغرب والجزائر ، وهو الأمر الذي جعل الرئيس علي عبدالله صالح يعاتب وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر حول تدخل واشنطن لاحباط تلك الجهود في وقت مبكر ..

وحين جرب اليمنيون المحاولة ، مرة أخرى ، مع الجزائر في ٢٨/١١/١٩٩٠ انتعشت آمالهم ، ثم لم تكد أن خبت وتلاشت . فقد نقل وزير الخارجية عبدالكريم الايرياني إلى الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد أن صنعاء تعد مبادرة للحل السياسي وتطلب دعم العرب الآخرين ، فاجابه :

ـ أشكر الجميع على جهودهم ، لكنني منشغل الآن بجهد خاص أقوم به بناءً على طلب جهات أوربية عالية ، وأنا على اتصال دائم مع العراق والسعودية ، لذلك أرجو تأجيل أي تحرك حتى أقوم بمهمتي . وأرجو إبلاغ أخي الرئيس علي عبدالله صالح أنني لن أغادر الجزائر إلّا بعد الحصول على ضمانات كافية لنجاح مهمتي من العراقيين والسعوديين .

وبدا في تلك الأيام ، أن الشاذلي بن جديد قد يتوصل إلى حل ، وهو يتنقل بين العواصم الأوربية ، حتى إذا وصل عمّان ، وجد أن

بياناً سعودياً يغلق الباب في وجهه عندما أعلن أن السعودية غير متحمسة لاستقباله والبحث في مشروع الحل الذي يحمله .

لم يكونوا قد أبلغوا الرئيس الجزائري أن مهمته مرفوضة ، وهو مايزال في بلاده ، ولكنهم انتظروه يخرج إلى العالم ، حتى يدرك هو والساعون الآخرون إلى حل خارج قرارات مجلس الأمن .. أنهم يستحقون معاملة من النوع الذي أظهره السعوديون ..

وكان اندحار الأمل بعد انتعاشه أشد قسوة من الفشل المبكر الذي يسبق نشوة الأمل ...

صنعاء : ٢٢/١١/١٩٩٠

لم يكن يومان قد مضيا بعد على أكبر مظاهرة في صنعاء رفع المشاركون فيها شعارات معادية للولايات المتحدة وتدخلها العسكري في منطقة الخليج .. حتى استقبل الرئيس علي عبدالله صالح وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر ، ضحى ٢٢/١١/١٩٩٠ ، قبل أسبوع واحد من التصويت في مجلس الأمن ـ الذي كانت ترأسه اليمن ـ على القرار (٦٧٨) الذي يفوض باستخدام القوة العسكرية ضد العراق .

ودار بين الرجلين حوار من أشد الحوارات نديّة وحسماً ، ولم يفوّت الرئيس اليمني ملاحظة أو رأياً إلا وثبت تعليقه عليه ، وكانت المفردات مدببة ، واضحة ، مباشرة سواء بما حملته من تهديد لليمن ، أو استقراء لمستقبل غامض في المنطقة .

وقد طلب بيكر تطوير الموقفين الأمريكي واليمني في مجلس الأمن ليكونا أكثر توافقا ، ملمحا أن واشنطن ستعمل على تخفيف درجة العداء السعودي لليمن .. ثم لم يلبث أن بيّن بقوة أن العمل العسكري قادم ضد العراق :

ـ إن إحداً لايحرك قوة عسكرية بهذا الحجم إلا إذا كان جادا للقيام بعمل عسكري كبير .

سأله الرئيس اليمني :

ـ هل هناك خلاف بين واشنطن وبغداد ..؟ إن علينا أن نفصل الحال بين العراق وأمريكا عن الحال بين العراق والأمم المتحدة ..

فعاد بيكر يشرح خطورة مابلغه العراق من قوة عسكرية تضم أسلحة الدمار الشامل بما فيها القنبلة النووية التي يبدو لها أن بغداد على وشك تطويرها ، فرد الرئيس علي عبدالله صالح :

ـ لكن العراق رغم قوته ليس أخطر من إسرائيل على السلام ..

قال بيكر :

ـ العراق هو الذي تحرك وهدد الآخرين ..

فعلق الرئيس :

ـ مع ذلك فان إسرائيل هي التي تبدو رافعة العصا دائماً ..

ـ إن الفرق بين إسرائيل والعراق ، هو أن صدام حسين يقوم بهذا العمل في لحظة حرجة بالنسبة للوضع الدولي .

كان الرئيس صالح يتتبع كل كلمة ويترك بصماته في إجابات محددة مباشرة لاتقبل التأويل ، وتطلع إلى الوزير الأمريكي :

ـ يبدو أننا سنختلف في بعض الأمور ، وأنت هنا ستجد الأشياء بوضوح ربما بمستوى لم تجده في عواصم عربية أخرى زرتها واستمعت إلى آراء قادتها .

فقال بيكر :

ـ إن لديك معرفة قوية بصدام حسين ، وأرجو أن تنقلوا إليه أن القضية ليست لعبة ، ونحن من ناحيتنا سنعمل للتأثير على السعودية لحل مشاكلها معكم .

فسأل الرئيس فوراً :

ـ هل تعتقد أن قرار مجلس الأمن هو لخدمة المجتمع الدولي والكويت ، أم أنه لخدمة آخرين في المنطقة ..؟

واستطرد : لو كنتم جادين وعادلين ، لرأيتم أوضاعنا ، إن لدي مليونا ونصف المليون من اليمنيين المهاجرين لم يتحرك أحد من أجلهم ، في حين تحركتم بجيوشكم وأساطيلكم في الخليج واتخذتم

قرارات في مجلس الأمن خلال وقت قصير جداً من الزمن .. إن الحرب كلها هي حرب عيش ، وحرب غذاء وخبز واقتصاد .. فلماذا لا تتدخلون من أجل مليون ونصف المليون من اليمنيين .

كان بيكر يستمع بدقة إلى الترجمة التي تلاحق كلام الرئيس دون أن يعلق بشيء على مشكلة اليمنيين الذين تدفقوا عائدين من السعودية والخليج ليضيفوا عبئاً اقتصادياً على البلاد ، وليتسببوا في اختناق منظومات الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية التي تتكفل بهم ، ناهيك عن خسارة أكثر من مليار ونصف المليار دولار من تحويلاتهم .

عاد الرئيس يستعيد ما حصل :

ـ لو كانت هناك ديمقراطية لما وُجدت كل هذه المشاكل ، وما زلت أرى أن الحل السلمي ممكن ، وعلينا أن نبحث عنه خارج قرارات مجلس الأمن ، لأن هذه القرارات لن تأتي بالسلام مادام العراق غير قابل بها ولم يكن قد اشترك فيها .

وحذر الرئيس اليمني ، الوزير بيكر من أولئك الذين يحرضون على توجيه الضربة للعراق :

ـ أما نحن فلسنا مع احتلال العراق للكويت وإذا افترضنا أن هذا خطأ ، فلايجوز أن نعالج الخطأ بالخطأ .

سأل بيكر : ماهو احتمال السلام إذن ؟

فأجاب الرئيس :

ـ إن علينا أن نبحث في الأسباب التي أدت بالعراق للقيام بعملية الكويت ، وآنذاك يمكن أن نتوصل إلى معالجات شاملة وجدية لأسباب المشكلة ونحلها ونصنع سلاما مستقراً .

فرد بيكر : هذه فكرة ممتازة ، ولكن ليخرجوا أولاً من الكويت .. أما أن نعطي العراق شيئاً فان هذا يعني لنا خسارة .

قال الرئيس : من أجل السلام ليست هناك خسارة ، والولايات المتحدة ليست غرينادا حتى تكون عاجزة عن حفظ السلام ..

وعاد مرة أخرى إلى عرض الموقف العربي يومئذٍ : لقد أصبحتم اليوم في مواجهة مع العرب وليس مع العراق وحده .

كانت شوارع صنعاء ماتزال في تلك الساعة التي التقيا فيها تموج بمجموعات متناثرة من المتظاهرين الذين يطالبون برحيل القوات الأمريكية ومساندة العراق في وجه هجوم محتمل ضده .

قال الرئيس علي عبدالله صالح :

ـ لقد صار يقال إن قرارات مجلس الأمن هي قرارات أمريكية ..

فعلق جيمس بيكر : نحن الدولة الوحيدة التي تقود المجتمع الدولي اليوم .

ـ إذن ابحثوا عن حل غير الحرب ..

وأضاف الرئيس :

ـ لماذا لاتقبلون بتسليم الجزر وحقل النفط إلى العراق بعد انسحابه من الكويت ؟

ـ نحن لانسأل ماذا نعطي للعراق .

هنا قدم الرئيس اليمني وصفاً لما يمكن أن يحصل بعد أن بدا الحوار متفرقاً بين الرجلين :

ـ ليكن واضحاً أن العراق لن يكون خاسراً إذا ما ضربتموه ، فسيقول أن الذي ضربه هي الولايات المتحدة وحلفاؤها وليس دولة صغيرة ..

فرد بيكر : سنضرب العراق بطريقة تؤذي صدام حسين .

فقال الرئيس : الضربة .. هي الضربة .. وفي كل الأحوال فان العراق مستعد للأنسحاب من الكويت ويمكن الأتفاق على كل التفاصيل ثم أن السعوديين على استعداد هم أيضا .

فعلق الوزير الأمريكي : إننا لانعتقد أن هناك حلاً عربياً .

فرد الرئيس اليمني : لقد انقسمنا .. وأضاف : أننا نؤيدكم في السلام وليس في استخدام القوة ، ونحن جزء من المنطقة وقريبون

من منطقة الانفجار .

وعاد جيمس بيكر يستعير وصف (سحابة صيف) كان الرئيس صالح قد أعطاه للموقف ليكرره ويعلق عليه :

ـ إنها سحابة صيف حقاً ولكنها ستُنزل مطراً كثيراً .. وبوارجنا ستبقى في الخليج لأنها هنا منذ سنة ١٩٤٧ ..

وأضاف : أما ما يتعلق بالوضع بينكم وبين السعودية فاننا لن نكون راضين إذا تحركت السعودية أو اليمن .

فعلق الرئيس اليمني :

ـ القوات الأمريكية في المنطقة أصبحت (حبوب شجاعة) لبعضهم .. ومن ناحيتنا إذا أعطينا كلمة فنحن ملتزمون بها ..

وازدادت كلمات الرئيس حزماً ودقة وهو يخاطب الوزير الأمريكي :

ـ نحن دولة ولسنا عصابة ، نعم نحن بلد فقير ولدينا هموم اقتصادية ، ولكن ليست لدينا أطماع في الآخرين ، وإن أي تحرش ضدنا سنعتبره تحركاً أمريكياً لأنهم لايستطيعون التحرك إلا بحمايتكم .

وسأل الرئيس :

ـ لماذا لاتهتمون بقضية فلسطين .. لاشك أنكم تكيلون بمكيالين .

أجاب جيمس بيكر :

ـ لانوافق على الربط بين قضية الكويت والقضايا الأخرى .

ـ على أية حال لدينا حل عندما تكونون مستعدين لذلك ، بشرط عدم استخدام كلمة حل عسكري ، ونحن نرى ، مع الأسف ، أن جميع الوسائل قد استنفذت وصار الحظر كاملاً على العراق ، ولم يبق غير القوة ..

قال الوزير الأمريكي : اعرف أن اليمن لن توافق على استخدام القوة .

قال الرئيس صالح :
ـ إننا لانريد أن يصدر قرار استخدام القوة ضد العراق ، في الوقت الذي تترأس فيه دورة المجلس .
ـ أما نحن فنفضل أن يصدر القرار قبل انتهاء رئاسة اليمن .
قال الرئيس : هل نقدم أفكارنا للحل السيـاسي لكم ، أم عن طريق ثالث .
فرد الوزير بيكر : أي تفاوض مع العراق قبل الانسحاب غير ممكن ..
فقال الرئيس : سنوّظف علاقتنا مع العراق من أجل السلام .
وطلب بيكر أن لاتصوّت اليمن ضد القرار ، بل تكتفي بالامتناع عن التصويت :
ـ لأن التصويت ضد القرار هو موقف ضد الولايات المتحدة .
فعلق الرئيس صالح : إنكم تبحثون عن مصالحكم وليس عن مصالح الآخرين .
فقال الوزير بيكر :.. لأننا لم نكسبكم لصالحنا ..
هنا وجه الرئيس سؤالاً حساساً للوزير الأمريكي :
ـ ماذا قدمتم لليمن ..؟
ـ لقد تدخلنا لمنع تسفير المغتربين اليمنيين من السعودية .
ـ نحن لاننتـظر مساعـدة من الآخرين ، ولكن من الولايـات المتحدة .
ابتسم بيكر وخاطب مضيّفه :
ـ لقد قال السعوديون لنا ان مهمتي ستفشل في اليمن ، وأن اليمنيـين سيستخدمـون الزيارة لصـالحهم ، وقد حـذروني من زيارتكم .
لم ينته الحوار بعد انتهاء جلسة العمل الموسعة التي جمعت نائب الرئيس اليمني علي سالم البيض ووكيل الخارجية الأمريكية جون كيلي ، إذ عاود الرئيس صالح والوزير بيكر حوارهما الصعب

على مائدة الغداء ، يتوسطهما الوزير الايرياني الذي تولى الترجمة بينهما .. قال الرئيس :

ـ يجب أن تقروا أنكم منعتم الحل العربي ولم تعطوه فرصة العمل ..

أجاب بيكر : لقد أعطيناكم أكثر من ثلاثة أشهر . وهذا وقت كافٍ .

فرد الرئيس : لا بل إنكم أفشلتم الحل العربي عندما تدخلتم لدى الملك الحسن الثاني في الوقت الذي كنا على وشك بلوغ مستوى مناسب لعمل ..

تدخل جون كيلي : لم نوقف جهودكم وجهد المغرب ، ولكننا قلنا للملك الحسن الثاني إن أي حل خارج القرار ٦٦١ مرفوض من قبلنا ...

سحب الرئيس أنفاسه العميقة وخاطب بيكر وكيلي :

ـ من الأحسن لكم إذن أن تذهبوا إلى الحرب .

وتعلّق الحوار .. فأدرك الجانبان أنهما مختلفان على كثير من الأمور ، رغم أنهما ، حتى في تلك الظروف ، كانا يفضلان دائماً أن يصفا العلاقات الثنائية بأنها جيدة .

بغداد : ١٤/١٢/١٩٩٠

في الوقت الذي كانت الفعاليات الشعبية في اليمن تتدافع للتطوع والالتحاق بالجبهة العراقية كانت حكومة اليمن تتشبث بأية فرصة للبرهنة على أنها تؤيد جهود إيجاد حل سياسي للأزمة ، وبخاصة عندما تكون هذه الجهود مقبولة من دول التحالف ، مستندة إلى مبدأ الانسحاب من الكويت ، مع توفير ضمانات عدم مهاجمة العراق ، والاستجابة إلى مطالبه ، لذلك ماكاد الرئيس جورج بوش يعلن ـ بعد صدور قرار مجلس الأمن ٦٧٨ الذي يجيز استخدام القوة ضد العراق ـ بأنه مستعد للمضي ميلاً في اتجاه السلام داعيا وزير خارجية العراق إلى واشنطن ، وعارضاً إيفاد وزير الخارجية

الأمريكي إلى بغداد .. حتى وجه الرئيس علي عبدالله صالح رسالة إلى الرئيس الأمـريكي سلمها وزيـر الخارجيـة اليمني إلى سفير الولايـات المتحدة في صنعـاء ، وكان مضمـون الرسالة يتحـدد بالآتي : « إن اليمن تؤيد إعلان بوش ، ونحن نضع يدنا في يدكم مادمتم قد قررتم الذهاب ميلاً آخر نحو السلام » .

ويبيِّن الدكتور الايرياني أن الخطوة اليمنية جاءت من منطلق أن الظاهر والباطن في الاعلان الأمريكي هو واحد ، وأن التعامل قد جرى مع السياسة المعلنة ، ويضيف : كنا نتحدث بدون أي تستر بالباطنية ..

واجتمعت القيادة اليمنية لرسم شكل الخطوة التالية وقـررت إيفاد وفد كبير إلى بغداد ، فاتصل السيد علي سالم البيض نائب الرئيس اليمني بالسيد عـزة إبراهيم نـائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي وأبلغه بقدوم وفد برئاسته إلى بغداد ، فلقي ترحيب المسؤول العراقي على الفور .

وكان الرئيس علي عبدالله صالح وكبار مساعديه قد اتفقوا في الاجتماع أن الحرب إذا بدأت فان أحداً لن يستطيع أن يضع لها نهايات منضبـطة ، وأن لهيب الانفجار سيصيب الجميـع ، ولن تقتصر آثاره على جبهة العراق والكويت وحدها . ولم يجد القياديون اليمنيون إلا انتداب نـائب الرئيس للتوجـه إلى بغداد ، وإبـلاغ القيادة العراقية رسالة جـرى وضع مفـرداتها بـدقة شـديدة ، وأودعت لدى السيد البيض ، وتحتوي المضمون الآتي :

ـ « إن احتمال عقد لقاء عراقي ـ أمريكي في واشنطن عندما يزورها طارق عزيز هو الفرصة الأخيرة لصنـع السلام ، ومنـع اندلاع الحرب التي لو وقعت فستؤدي إلى نتائج خطيرة على الجميع بمن فيهم أهل اليمن ، وإذا كنتم أنتم في العراق أقوياء وقادرين على التعامل مع هذا الاحتمال ، فاننا في اليمن ضعفاء ، ونشعر أننا مستهدفون في حالة الهجوم عليكم » .

وتقرر أن يطير الوفد إلى عمّان ، ومنها إلى بغداد ، ووجد الرئيس علي عبدالله صالح أن اللياقة تفرض أن يمكث نائبه في عمّان لملاقاة عاهل الأردن فيها ، فرفع سماعة الهاتف على الملك حسين يعلمه بقدوم البيض لملاقاته في عمان ثم التوجه منها إلى بغداد .. فرحب الملك الحسين وقال له :

ـ ليمر علينا الأخ البيض غداً ، وسنذهب سوية إلى بغداد ..

لم يكن الملك حسين قد أحيط علماً بوجود رسالة يحملها البيض إلى بغداد ، ولذلك اقتصر العرض الذي قدمه الوفد اليمني على استعراض خطورة الموقف وضرورة السماح بسفر جميع الغربيين المحتجزين في العراق قبل انعقاد اللقاء العراقي ـ الأمريكي المقترح .. ولم يخطر ببال أحد ، أن الجميع سيلتقون في لقاء قمة تلتئم بالصدفة في بغداد ، إذ بينما كان بعض أعضاء الوفود يتناولون القهوة في قصر رئاسي ببغداد ، دخل الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ، ليستنتجوا على الفور أن اللقاء قد توسع كما لم يكن يخطر ببال اليمنيين ، ولم يجر الاتفاق عليه ، لكن قمة رباعية غير مخططلها قد صارت محتمة الالتئام في بغداد لتجمع العراق واليمن والأردن وفلسطين يوم ٤/١٢/١٩٩٠ .

تحول اللقاء على مائدة الغداء في القصر الجمهوري ببغداد الى جلسة عمل ، عندما تحدث الملك حسين عن مسألة احتجاز رعايا الدول الغربية في العراق ، وكان يرى أن الوقت قد حان لحسم هذا الموضوع الشائك مادام وزير خارجية العراق سيتوجه إلى واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكي ، حتى لاتكون مسألة هؤلاء المحتجزين عائقاً أمام مهمته .

وأيّد الرئيس ياسر عرفات ، ماذهب إليه الملك حسين ورأى أن الفرصة قد حانت لطي هذه الصفحة واتفق السيد علي سالم البيض معهما على ما دعيا إليه ، أما وزير خارجية اليمن الدكتور عبدالكريم الايرياني فقد تحفّز ليبين أن العاطفة هي التي تسير

المجتمع الأمريكي ، وعندما يكون هناك فرد أمريكي واحد في محنة فان هذا المجتمع لايفتح عينيه على معاناة أمم كاملة ولا يرى عندئذ غير قضية فرد أمريكي واحد ، وذهب إلى أن الادارة الأمريكية والاعلام الأمريكي سيركزان على هذه المسألة لدى زيارة عزيز المتوقعة بهدف تحويل الاهتمام من صنع سلام مع العراق إلى مجرد مسألة رهائن .

ورأى وزير خارجية العراق آنذاك السيد طارق عزيز أن هناك فرصة ممكنة لتحقيق سلام شامل وعادل في الخليج ولبنان وفلسطين ونزع أسلحة الدمار الشامل من دول المنطقة لتنعم في مناخ الانفراج والاستقرار ، ولذلك لايجوز أن تنحصر المناقشات في مسألة الرهائن وحسب .

وأوضح الرئيس صدام حسين أن زعماء العالم الذين يقاومون الحرب وسياسات الاكراه والتسلط قد جاءوا إلى العراق واستمعوا إلى وجهة نظره ، ولولا وجود هؤلاء الرعايا الأجانب في العراق لما توافرت فرصة عرض آراء العراق ومواقفه ولما زار أولئك السياسيون البارزون بغداد في هذا الظرف .

ودعا الرئيس العراقي وزراء الخارجية للاجتماع بهدف وضع إجراءات عملية لدعم موقف العراق خلال محادثاته المرتقبة مع الولايات المتحدة والبحث في تفاعلات الأزمة على أساس أن الأفكار التي يخرج بها هذا اللقاء يمكن أن تجدد نشاط مجموعة الحل العربي عندما يلتقي في الجزائر وزراء خارجية الأردن واليمن وتونس والسودان ومنظمة التحرير الفلسطينية والجزائر وموريتانيا ، وربما المغرب أيضاً .

وأتفق طارق عزيز ومروان القاسم والايرياني وياسر عبد ربه وعبدالله الحوراني ، الذين ضمهم الاجتماع ، على حيوية الربط بين مشاكل المنطقة ، وإن وجدوا أن الصيغة العراقية ليست الوحيدة الممكنة في هذه العملية ، كما اتفقوا على إطلاق نصف

الرعايا الغربيين الموجودين في العراق .

في تلك الأثناء ، كان القادة الأربعة يواصلون لقاءهم في مكان آخر داخل القصر الجمهوري ، حيث قدم الرئيس صدام حسين عرضا للموقف العسكري ، وأثار الملك حسين والرئيس عرفات والسيد البيض كثيراً من الأسئلة حول احتمالات تطور الموقف ما لم يتم التوصل إلى حل سياسي .

وماكادت القمة ـ الصدفة تنتهي ، حتى انطلق الملك حسين عائداً إلى عمان ، وتوجه الرئيس عرفات إلى تونس ، أما السيد البيض فتكلم عبر الهاتف مع الرئيس علي عبدالله صالح في صنعاء ، وأعطاه عرضا لما دار في اللقاء ، وسأل الرئيس : هل نقلت رسالة القيادة اليمنية إلى الرئيس صدام ؟.. فأجاب البيض أن عرض الرسالة أمام القادة الحاضرين لم يكن ممكنا ... ومن هنا ، مكث نائب الرئيس اليمني في بغداد وطلب مقابلة الرئيس على انفراد ، لينقل إليه رسالة القيادة اليمنية :

استمع الرئيس صدام حسين بامعان وقال :

ـ اطمئنوا .. ولا تقلقوا .

كانت تلك آخر عبارة حملها السيد البيض من بغداد في آخر زيارة له قبل أكثر من شهر على اندلاع الحرب .

□ □ □

القاهرة : ١٩٩١/١/١٢

ـ أعداؤنا الذين يحرّضون الاعلام المصري على مهاجمة اليمن ، هم كمن يأكل الثوم بفم غيره .

قال الايرياني ، ففوجىء الرئيس مبارك بما يسمعه :

ـ ما هذا .. انت رجل حصيف ، ولم نتعود منك استخدام أوصاف قاسية من هذا النوع .

كان اليمنيون شديدي التحسس مما تنشره الصحافة المصرية ، حول موقف بلادهم في أزمة الخليج ـ وبخاصة ماتروجه

حول (المؤامرة الثلاثية) .. استدرك الايرياني :
ـ إنك تعلم قبل غيرك أن اليمن ليس طرفاً في مؤامرة ، بل لا توجد مؤامرة أصلاً ، حتى أننا في مجلس التعاون العربي كنا مع راي مصر حول عدم إعطاء المجلس اية صفة أمنية اودفاعية ، كما كان يقترح الاخوان في العراق والاردن .
وتطلع إلى عصمت عبدالمجيد وأسامة الباز اللذين حضرا اللقاء :
ـ عندما أقول هذا لا اعني ان العراق والاردن كانا متآمرين على احد .. وإذا كانت لديكم أدلة فاعلنوها .. وأين هي أدلتكم علينا .. إننا بصراحة نشعر باننا مجروحون ..
وسحب الوزير اليمني الورقة التي كتبت عليها مبادرة صنعاء للحل السياسي .. وبدأ أسامة الباز بقراءة الورقة ، ثم ماكاد ينتهي حتى سأل المصريون :
ـ هل أنتم متفقون مع العراق على هذا الكلام ؟.
كانت التعليمات التي تزود بها الايرياني تطلب إليه نفي أن تكون اليمن قد أعلمت العراق مبكراً بهذه المبادرة :
ـ إننا مستعدون للذهاب إلى بغداد إذا أخذنا موافقة مصر على مبادرتنا .
لم يعط الرئيس المصري رايأ محدداً ، تأمل المبادرة طويلاً ، ثم قال :
ـ هل تحب أن تقابل جيمس بيكر الموجود لدينا ..
كان اليمنيون قد استبقوا المصريين ، إذ أعلموا سفارة الولايات المتحدة في صنعاء أن وزير خارجيتهم سيكون في القاهرة أثناء وجود الوزير الاميركي ، برغم معرفة المسؤولين اليمنيين أن واشنطن مستاءة من صنعاء التي صوتت ضد قرار مجلس الامن ٦٧٨ ، ولكن ذلك لم يكن ليغلق الباب تماماً .
قال الرئيس المصري : سنرى إن كان بيكر يرغب في مقابلتك وسنتصل بك في الفندق .

بعد عشرين دقيقة ، رن جرس الهاتف في فندق الميرديان بالقاهرة ، ليجد الايرياني على الخط أسامة الباز وهو يقدم له الوزير بيكر الذي بدأ حديثه بلهجة حادة :

ـ لقد اطلعني المصريون على مقترحاتكم .. في جميع الاحوال لكم علاقة بالعراق .. وأريدك أن تذهب الى بغداد وتقول لهم .. إنه إذا جاء يوم ١٥ كانون الثاني (يناير) ولم ينسحبوا من الكويت فإن السماء ستمطر عليهم جحيماً ..

ساءت لهجة بيكر الوزير اليمني الذي قال : على أية حال جهودنا مستمرة كصنّاع سلام .

وانتهت المحادثة الهاتفية القصيرة ، بعد أن طلب الوزير الامريكي من جون كيلي وبوب كيميت أن يتوجها لملاقاة الايرياني ومناقشته في مقترحاته بالتفصيل .

كانت القيادة اليمنية قد قررت عدم تسليم الاميركان النص الكامل للمبادرة على أساس ان المقترحات تعني العرب ولابد من تداولها رسميا بينهم قبل أن تسلم إلى الاخرين ، ولذلك استعاضت الخارجية اليمنية عن المبادرة المدونة بصيغتها الكاملة ، بأن وضعت ، باللغة العربية ، على ورقة منفصلة ستة أفكار ، لم تكن بالنص الحرفي للمبادرة .

طلب كيلي وكيميت من الوزير اليمني نص المبادرة ، فاعتذر لهما ، وقدم بدلاً عنها الورقة غير الرسمية ، التي لم تكن تحتوي مبدأ عودة الحكومة الكويتية إلى السلطة بعد الانسحاب .. لم يتوقف الدبلوماسيان الاميركيان عند المبادىء التي عرضها الايرياني ، ولكنهما قاوما اقتراح رفع الحظر وابطال العقوبات المتخذة ضد العراق بعد الانسحاب من الكويت .

ـ ماذا تقصدون بهذا ؟

أجاب الايرياني : نقصد أن تنتهي فعالية العقوبات بصدور قرار جديد يلغي القرار ٦٦١ .

قال كيلي : إننا سنواصل فرض الحظر على التسلح في كل الأحوال .

فعلق الوزير اليمني : آسف .. إنني لا استطيع أن أنقل هذا إلى العراقيين لأنني أفهمهم وأعرف رد فعلهم ..

هنا ألح الجانب الاميركي أن تتضمن المبادرة اليمنية مبدأ استمرار حظر شحن السلاح إلى العراق وقال : ثم هل تكلمتم مع العراق .. وماذا يقولون ؟..

ـ آسف مرة اخرى .. إننا لانستطيع ذلك ، وفي هذه الحالة ، فإن مبادرتنا ستكون ملغية ، ونحن لانتكلم نيابة عن العراق ، ولكنني أتكلم من منطلق معرفتي بالعراقيين الذين لن يوافقوا على مبادرتنا ما لم تتضمن إبطال فعالية القرار ٦٦١ .. أما إذا أردتم منع السلاح ، فأنتم صُنّاعه ومنتجوه امنعوه من جانبكم ، وليس شرطاً عن طريق الأمم المتحدة .

قال كيميت : سننقل أفكارك إلى جيمس بيكر .

ـ في كل الاحوال أريد جواباً خلال ٢٤ ساعة لأنني أتوقع أن اكون عندئذٍ في بغداد .

ولم يجب الاميركان على المبادرة اليمنية .. أما الاعلام المصري فصار يتحدث عن نسختين من المبادرة قُدمت إحداهما للرئيس المصري ، وقُدمت الثانية للدبلوماسيين الاميركان ، وتبين للارياني الذي تكلم لاحقاً مع الصحفيين المصريين ، أن الخارجية المصرية طلبت منهم ترديد أن اليمنيين يراوغون ويقدمون نسختين متناقضتين من مبادرتهم لتحاشي ذكر عودة آل صباح إلى الحكم في الكويت .

بغداد : ١٤/١/١٩٩١

انطلق الوفد اليمني إلى بغداد عبر عمان وهو يضم رئيس الوزراء حيدر العطاس ونائب رئيس الوزراء العميد مجاهد أبو شوارب وزير الخارجية عبدالكريم الايرياني ، وعقد لقاء موسع مع

الرئيس صدام حسين ، أوجز فيه الجانب اليمني بما دار في القاهرة مع الرئيس المصري والدبلوماسيين الاميركان ، ثم صار لقاء بغداد بعدئذٍ موضوعاً يشغل الاعلام الخليجي الذي تحدث عن محضر سري للقاء حصل على نسخة منه كانت متروكة على طاولة أحد المسؤولين العراقيين في الكويت .

وذكر العميد أبو شوارب أن المحضر الذي نشر لاحقاً لم يكن دقيقاً وانطوى على حذف وإضافة ، وأكد الايرياني أن هناك نقصاً اساسياً في هذا المحضر خاصة من كلام الجانب اليمني بالدرجة الاولى .

ـ لقد عودتنا أثناء الصراع مع إيران بأنك صاحب مبادرات كبيرة .. ولذلك فإننا نتوقع منكم مبادرة في هذه اللحظة التي نواجه فيها الانفجار الكبير .

كانت تلك مداخلة العميد أبو شوارب ، أما رئيس الوزراء السيد حيدر العطاس فقد دعا إلى الانسحاب من الكويت وتقدير المخاطر المحتملة ، ثم استمع طويلاً الى الرئيس صدام حسين الذي تحدث عن الاستعداد لمواجهة حرب وشيكة الوقوع ، وعن مستقبل المنطقة بعدها .

لقد كان اليمنيون معنيين بمعرفة مدى استعداد العراق للانسحاب في الوقت الذي كانت بغداد قد استبعدت هذا الاحتمال في اللحظات الحاسمة القلقة المتبقية من مدة الانذار المعطى للعراق .

قال صدام حسين :

ـ ليس أمامنا إلا الصمود .. وإذا تراجعنا في هذه اللحظة فسيحصل الانهيار .. ولذلك نفضل المواجهة .. الافضل أن نموت في قمة الهرم بدلاً من الموت في القاع .. وليس لدينا أية ضمانات لو انسحبنا .. فلماذا نستسلم في اخر لحظة ..؟

وأبدى الايرياني مخاوفه في ضوء ما استمع إليه من جيمس بيكر :

- إنهم سيحاربون إذا لم تنسحبوا من الكويت .. هذا ما توصلتُ إليه في القاهرة ، فالجو هناك جو حرب .

قال الرئيس صدام حسين : إن الانسحاب دون أن يفاوضوننا على حل شامل وكامل أمر غير مقبول .. هذا بالنسبة لنا كفر ..

فأجاب الايرياني : سيادة الرئيس .. لكن ناقل الكفر ليس بكافر ...

كان الحوار كئيباً ، ومتقطعاً .. ينتقل من موضوع الى اخر ، ماذا دار في القاهرة ، ماذا اعدو للحرب ..؟ ماصورة المنطقة بعد الحرب لو وقعت ..؟ انسحاب أم لا انسحاب ..؟

توقع الرئيس صدام حسين أن يتصدع الموقف الاميركي الداخلي بفعالية الضغط من جانب الراي العام ، في حين رأى الايرياني أن كلام الاميركان يدل على أنهم متوجهون إلى الحرب ، وأنه بعد انتهاء موعد الانذار لن يتكلم أحد مع العراق ... وذكر أن الكونغرس أعطى موافقته لبوش على استخدام القوة البشرية .

في تلك الاثناء ادخل احد المرافقين الى الاجتماع رسالة عاجلة من الرئيس ياسر عرفات يذكر فيها ان ادغار بيزاني رئيس معهد العالم العربي في باريس قد اتصل به وأعلمه أن طائرة وزير الخارجية الفرنسي رولان دوما جاهزة للانطلاق الى بغداد اذا اعلن العراق استعداده للانسحاب .

وعلق الرئيس صدام حسين : لكم أن تروا بأنفسكم كيف يتعاملون معنا بعدم احترام .. فوزير خارجية فرنسا يصعب عليه المجيء إلى بغداد للتفاوض حول الازمة إلا إذا كنا قد التزمنا له مسبقاً .. أنهم لايتعاملون معنا بنديّة واحترام وتكافؤ ...

.. وانتهى اللقاء .. ويقول اليمنيون ، إنهم ودّعوا العراقيين وداع من قد لا يلتقي بعدها مرة اخرى .

□ □ □

يبدو الحكوميون اليمنيون ، من كثرة مايرددون حول عدم مسؤوليتهم عن الذي حصل في الكويت ، وكأنهم يدفعون تهمة

عنهم ، ناهيك عن التذكير بعدم وجود أية صفقة سرية مع العراق ، وكانوا يجدون في كل مرة يذكّرهم فيها الاميركان بأنهم أصدقاء للعراق ، ان هذا التذكير ينطوي على اللوم وعدم الرضا .. ويرى الايرياني فيه (توجيه التهمة ايضا) كما بدا له خلال المحادثة الهاتفية التي تلقاها من جيمس بيكر في القاهرة يوم ١٢/١/١٩٩١ .

ولاينسى الرسميون في اليمن أن ينوهوا بأن أول مظاهرة خرجت في العاصمة كانت ضد دخول القوات العراقية إلى الكويت وشارك فيها بضعة مئات من الناس ، قبل أن تخرج بعد يومين تظاهرة المليون المؤيدة للعراق ضد هجوم اميركي متوقع .

ويضع المسؤولون اليمنيون في حسابهم أن الولايات المتحدة ، عندما لاتكون راضية ، فإنها تلجأ إلى أشكال من الضغط ، أشدها على اليمن الضغط الاقتصادي الذي اتخذ مستويات عدة ، فإلى جانب ماترتب على العودة القسرية للمغتربين اليمنيين من تضخم نقدي وانحسار في إيرادات العملات الصعبة ، جمدت وكالة التنمية الاميركية منحة قدرها ٢٨ مليون دولار لعدد من مشاريع التنمية في اليمن ، ثم تم تجميد مبلغ ٢٠ مليون دولار لتغطية حاجات الغذاء على حساب برنامج الاغذية الاميركي ، فضلاً عن إلغاء ثلاثة ملايين دولار على برنامج التعاون العسكري .

ويعتقد السيد عبدالله بن حسين الاحمر شيخ مشايخ (حاشد) ، أكبر القبائل اليمنية ، أنه كان على حق عندما عارض دخول القوات العراقية إلى الكويت ، واتخذ لأجل ذلك موقفاً علنياً صريحاً ، وسعى خلال الأزمة إلى زيارة السعودية التي يرتبط بعلاقات وثيقة مع قياداتها ، ويقول إن حكومة صنعاء لم تشجعه على ترؤس وفد غير رسمي يقوم بهذه المهمة ، ولم يتمكن من اللقاء مع الملك فهد إلا بعد انتهاء حرب الخليج عندما اجتمع إليه بصفة شخصية ، والتقى الأمير سلطان بن عبدالعزيز وأخاه الأمير نايف بن عبدالعزيز ليدعوهما الى التعامل بصورة حسنة مع اليمنيين

الذين ظلت لهم ارتباطات عمل داخل المملكة العربية السعودية .

لكن الاحمر ، ذهب خلال لقائه معي إلى أن استمرار معاقبة العراق برغم خروج قواته من الكويت لم يعد عملاً صحيحاً أو مقبولاً ، وهو يبين أن الهدف لم يعد استعادة الكويت كما كان يُقال من قبل .. وقد أصبح هذا العمل عدواناً على العراق .

ويمثل الأحمر قوة تحريك اجتماعي وقبلي مؤثرة ويستمد قوته من الدور الذي لعبه في حرب التحرير ضد حكم الأئمة ومساندته ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ ، وقد قاد بعد حرب الخليج حركة سياسية باسم التجمع اليمني للاصلاح ، صارت واحدة من أقوى الحركات السياسية المتنافسة في البلاد ، ولم يعد في مقدوره الاصطدام بالمشاعر العامة لليمنيين التي لاتتردد في إظهار التعاطف مع العراق .. لا بل إنه هو نفسه لم يخف إعجابه بالرئيس صدام حسين ، إذ كان قد طلب من العميد مجاهد أبو شوارب عند توجهه إلى بغداد يوم ١٤/١/١٩٩١ أن يسلّم على صدام حسين ويقبّله من جبهته ، ويعلمه : « إننا ندعو إلى حل يمنع وقوع الحرب لا حرصاً على الكويت ولكن خوفاً على قيادة العراق القوية » .

ـ سلم لي على الشيخ عبدالله وقبّل جبهته .

كانت تلك آخر عبارة قالها الرئيس صدام حسين للعميد أبو شوارب وهو يودعه مع رئيس الوزراء حيدر أبو بكر العطاس ووزير الخارجية الايرياني عشية وقوع الحرب .

بغداد : صنعاء

تكاد تخلو العلاقة بين العراق واليمن من أية حساسية ، أو حسابات معلقة ، إذ لم يحتك البلدان في تاريخهما السياسي المعاصر حول أية قضية . ولم يتنافسا على أي دور ، ولم يصطدما حول حق في الارض أو الولاية السياسية أو الثروة ، وهو الامر الذي جعل التعاطف بينهما عاليا ، وتلقائياً أيضاً .. وربما يكون من حسن الحظ أن الجيش العراقي لم يتدخل في اليمن إبان الثورة اليمنية

عندما تلقى إبراهيم الولي القائم بأعمال سفارة العراق في صنعاء ، زمنئذٍ ، طلباً من محمد سعيد العطار يشعره فيه برغبة رجالات الثورة في قدوم قوات عراقية لمنع استفراد القوات المصرية باليمن ، فأبرق الولي إلى رئيس الوزراء العراقي آنذاك عبدالكريم قاسم ، الذي تأمل الطلب ، وأبرق يعتذر لأنه لم يكن يريد لصورة العراق أن تتهشم عبر مداخلة عسكرية غير مأمونة ، وفي ظرف دقيق ربما كان سيؤدي إلى اصطدام عراقي - مصري في غير زمانه ومكانه .

وقد يكون من الصالح أيضا أن خطة أول ثورة مدبرة ضد حكم الائمة في اليمن قد وضعت من قبل الضابط العراقي الشهير جمال جميل الذي كان منتدباً للعمل في الجيش اليمني ، فأعدمه الامام ، وجعل اسمه من بعده يتردد في أذهان اليمنيين رمزاً للشجاعة المنقذة الطامحة بالحرية لليمن .

لذلك ، كان التعاطف اليمني عالياً مع العراق إبان أزمات الخليج في العقدين الاخيرين ، وكان بالامكان عند كل جرح يصيب بغداد أن تستمع إلى أنينه في صنعاء ، وعند كل ألم يصيب اليمن أن تشعر بوجعه في العراق ..

ويردد اليمنيون المسكونون بالتراث والتاريخ والعتق : أن العراق واليمن يلتقيان دوماً ، برغم أن في المسافة بينهما فاصلاً واسعاً من الارض ، هو الحاجز .. وربما الحجاز ..

ليـرة واحدة لاستعـادة تركيـا العظمى

اخ يابغداد ..لم اعرف انك اجمل
بـلاد الدنيا .. ولكن مـا اتعسني حـين
تكون بغداد لغيرنا .. لذلك قـررنا بنـاء
زاويـة بـاسمهـا في قصـرنـا العـامـر
باستانبول ..آخ يابغداد .

(السلطان العثماني مراد الرابع)

في نهاية الخمسينات . فوجىء طالب عراقي يدرس الاقتصاد في الولايات المتحدة بزميله التركي وقد احتد في مناقشة مفتوحة حول العلاقات بين بلديهما ، ولم يهدأ الدارس التركي الا بجمع افكاره في حل للميلان الذي يدمغ علاقة بلاده بالعراق والعرب الاخرين ، اذ قال له :

«يجب على تركيا ان تبيع المياه الى العراق مثل ماتبيعون النفط لها . سنطالب بذلك يوما وسندافع عنه في المستقبل» ولم يدر في خلد الدارس العراقي انه سيصبح موظفا في بنك بمدينة استانبول ويصبح الدارس التركي تورغت اوزال رئيسا في انقرة !

□ □ □

تتبع كتّاب اتراك سيرة اوزال وتدرجه من مواطن مغمور فشل في زواجه الاول الى رئيس دولة طموح ينقل افكاره المبكرة الى حيز التطبيق ، وبخاصة في التعامل مع العراق ودول الجوار الاخرى المحيطة ببلاده ، ويذكر الكاتب التركي «امين جول آشان» في كتابه «من اين ينطلق اوزال ؟» ان مدينة (مالاتيا) الواقعة شرق الاناضول كانت موطن ولادة تورغت اوزال سنة ١٩٢٧ في احضان عائلة ميسورة تتبع احدى الطرق الصوفية ، وانه توجه الى انقرة بعد اكمال دراسته الثانوية ، ثم الى استانبول ليدرس الهندسة في جامعتها ، ولكنه فشل بعد التخرج في العمل كمهندس ، وتلا ذلك فشل اخر عندما تزوج فتاة صيدلانية ولم تمكث معه غير بضعة اشهر لتفترق بهما الطرق ، فيغادر بلاده الى امريكا حيث حصل على شهادة متخصصة في الاقتصاد ، ووجد على الفور فرصة للعمل في البنك الدولي بواشنطن ويبدو انه عثر في هذا البنك على فرصة العمر في التعرف الى عدد من صانعي السياسة الامريكية الذين يوجهون البنك ، واعجب بهم ، وتقرب من مساعديهم ، وعرف نفسه اليهم ، حتى اذا عاد الى بلاده كانت قد تولدت لديه رغبة

جدية في العمل السياسي وتوافرت له الفرصة الكبيرة ليكون احد مهندسي مشروع (جنوب الاناضول للمياه) الذي يشمل سد اتاتورك المثير للجدل بين تركيا وكل من العراق وسوريا حول اقتسام مياه نهر الفرات .. وبعد ان تزوج من امرأة اسمها (سمرة) حملت اسمه وانجبت له بنتا وولدين .

وصار حصوله على شهادة من امريكا وعمله السابق في البنك الدولي عاملا مساعدا لكي يتولى مطلع السبعينيات رئاسة دائرة التخطيط الوطني التركي المكلفة بمعالجة الازمة الاقتصادية في البلاد الناجمة عن سياسات عدنان مندرس في الستينيات .

وكانت سنة ١٩٧٧ حاسمة في حياته السياسية ، اذ رشح نفسه للبرلمان عن مدينة ازمير من حزب الانقاذ الوطني وهو الحزب نفسه الذي تغير اسمه الى حزب الرفاه وصار معارضا لاوزال بعد توليه الرئاسة . وعندما عمل مستشارا في حكومة سليمان ديميرل قبل سنة ١٩٨٠ ساءه ماظهره رئيس الوزراء من رغبة في تحسين العلاقات مع العراق ، بالرغم من ان اخاه يوسف اوزال كان قد حقق ارباحا كثيرة من عقود ابرمتها شركاته مع العراق .. ولطالما وصفه معارضوه بعد الانقلاب العسكري بانه ليس سوى اداة بيد المصالح الامريكية في تركيا ، وحافظ على فرصته مع العسكر الذين اعطوه منصب نائب رئيس الوزراء لشؤون الاقتصاد . ثم توالى صعوده السياسي حتى اصبح رئيسا لبلاده في تشرين الثاني ١٩٨٩ بعد ان كان قد اسس حزب الوطن الام ١٩٨٢ وظل شديد الحساسية من العراق ، حتى اذا زار العراق بصفته رئيسا للوزراء سنة ١٩٨٨ وقابل الرئيس صدام حسين عاد الى انقرة ليحرّض الصحفيين على انتقاد الصورة الرسمية التي نشرت في العراق «وظهر فيها الرئيس يتطلع اليه من علو» بحيث جعل الامر مسألة تشغل الصحافة ، رغم انه خرج من لقائه بالرئيس صدام حسين بنتائج كبيرة عززت مكانته في تركيا ، اذ فشل في مفاوضاته

التمهيدية مع طه ياسين رمضان (كان في منصب النائب الاول لرئيس الوزراء العراقي انذاك) في حل القضايا المتعلقة بالعقود التجارية ومتعلقات انبوب النفط ومشاكل الامن المشترك على الحدود ، ولكنه وجد لدى الرئيس صدام حسين تفهما ورغبة في ايجاد الحلول ، حتى انه هتف وسط اعضاء وفده بعد خروجه من المقابلة (لقد اعطاني كل ماتمنيت الحصول عليه) !

ويبدو ان فرحة اوزال كانت بحصوله على ماكان يتمناه في لحظة من الزمن ، وليس على كل مايتمنى الحصول عليه من العراق ، وهو يتذكر كل سنة ان على تركيا ان تقتنص الفرصة المناسبة في يوم من الايام ليصبح العراق الجار الضعيف وتستعيد بلاده دور المهيمن على المنطقة عبر بوابة العراق .. ففي نهاية سنة منقضية ومطلع سنة جديدة عليه ان يتأمل جيدا بابا ثابتا في مصادر الموارد عند مناقشة موازنة الخزينة العامة للبلاد .. في الحاشية الاخيرة عبارة تتكرر منذ اعلان استقلال العراق سنة ١٩٢١ (الموارد من بترول الموصل = ليرة واحدة) ، وتكفي هذه الاشارة الرمزية لتذكير الساسة الاتراك ان استقلال ولاية الموصل عن الادارة العثمانية واعتبارها جزءا من العراق الحديث المستقل هو امر ينبغي على تركيا عدم القبول به الى الابد .. وتكفي ليرة واحدة تضاف الى الخزينة كل سنة للتذكير بالطريق المؤدي الى الحلم الذي لم يشبعه تجاوب الرئيس صدام حسين مع طلبات اوزال في مناسبة واحدة فقط !

□ □ □

كانت المرة الاولى في حياة توركت اوزال التي يشهد فيها سقوط صاروخ بعيد المدى قطع ٨٠٠ كيلومتر من موقع اطلاقه لينفجر على بعد مئات الامتار من مكان اقامته في اول يوم يزور فيه طهران بصفته رئيسا لبلاده . وقد ساءه كثيرا ان يستقبله في العاصمة الايرانية صاروخ عراقي ، قدر ان مطلقيه العراقيين لم يأبهوا

بوجوده هناك ليرجئوا قصف طهران بضعة ايام ، ولم يكن من السهل عليه ان ينسى المرارة والارباك اللذين رافقا اليوم الاول من زيارته بسبب موجة الصواريخ العراقية لكن العراق لم يلبث ان اعلن في اليوم التالي لزيارة اوزال عن وقف مؤقت لهجماته بالصواريخ على طهران احتراماً لزيارة الرئيس التركي .

وعلى هامش زيارة اوزال الى طهران كانت ثمة مفارقة ... إذْ وفرت وكالة انباء الاناضول اسرع خدمة خبرية كان العراق يحتاجها في ادق اللحظات من تاريخ صناعة الصواريخ اذ أبرق مندوب الوكالة المرافق للرئيس التركي واصفاً مكان سقوط الصاروخ وقوة انفجاره ليعطي العراقيين خدمة كبيرة عندما كانوا في حالة استنفار لالتقاط اية إشارة عن نجاح اطلاق اول صاروخ يصل مداه الى العاصمة الايرانية !

كان اكبر حادث قد مر به من قبل محاولة اغتيال فاشلة تعرض لها في اجتماع حزبي عام بانقرة اجبره على التخفي وراء منصة الخطابة وحشد من رجال الشرطة ، وما عدا ذلك فان الرئيس التركي ظل يبدو طوال حياته السياسية اقرب إلى شخصية الخبير الاقتصادي المنغمر في قيم العلاقات التجارية التي تترك على صاحبها مسحة من المرونة وتجعل الحياة المفضلة لديه هي حياة الدعة والهدوء ، وكانت شخصيته تلك ، كاقتصادي ومهندس ، قد طبعت اسلوبه في التعامل مع العراق خلال الحرب العراقية ـ الايرانية ، يوم نجح في رفع حجم الميزان التجاري بين البلدين الى ثلاثة مليارات دولار سنويا ، بميلان راجح لصالح التجارة التركية ، ولكن العراق لم يكن البرتقالة الوحيدة التي امسك بها ، فقد كانت في يده الثانية برتقالة اخرى هي (ايران) يوم بلغ ميزان التبادل التجاري بين انقرة وطهران مليارين الى مليارين ونصف المليار من الدولارات ، وفي حين كان النفط العراقي يتدفق عبر الانبوب الممتد في اراضي العراق وتركيا وصولا الى مصبه في ميناء

(يومورتلك) على البحر المتوسط لم يقطع مفاوضاته مع الايرانيين لمد انبوب الغاز عبر الاراضي التركية وصولا الى الحلم المزمن الذي يشغل طهران لنقل غازها الى اوربا ليكون بديلا او منافسا على الأقل للغاز السوفيتي انذاك .

صارت تركيا خلال الاصطراع الدموي بين العراق وايـران ، يابان الشرق الاوسط ، تؤدي دوراً مقارباً من حيث الانتفاع للدور الذي لعبته اليابان في الجانب الاقتصادي خلال الحرب الكورية ، فانتعشت الصناعات التركية ، وخاصة تلك البديلة او المستنسخة عن الصناعات الاوربية ، ووقف اوزال يومـا امام مشـروع سد اتاتورك الذي اصبح احدى نقاط التصادم المحتمـل مع العـراق وسوريا ، فتأمل العمل فيه ، وخـاطب مستمعيه من المهنـدسين والعمال : « لولا الحرب بين العراق وايران لما تمكنا من بناء هذا المشروع » ! .. ولم تكد الحرب العراقية ـ الايرانية تنتهي حتى انفجرت مشكلة المياه في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ عندما اعلنت تركيا قطع مياه الفرات عن سورية والعراق لمدة شهر لملء خزانات سد أتاتورك . وهو امر الحق خسائر كبيرة بالقطاع الزراعي في العراق واضاف عامل استنزاف اخر للاقتصاد العراقي في توقيت متوافق مع بدء انهيار اسعار النفط .. ولم يكن من السهل عدّ اقتران الامرين مجرد مصادفة خاصة وان تركيا الحقت حصر المياه باعلانات رسمية عن مشروع تزويد اسرائيل بـالمياه عبـر (انبـوب السلام) طبقـا لتصريحـات السفـير التـركي في الاردن ١٤/٥/١٩٩٠ .. وكان العراقيون مجتهدين في العثور على تفسير للايقاع السريع الذي يتسم به السلوك التركي في مناخ الشعـور بوجود عمل كبير ضد بلادهم . في تلك الاثناء نشأ أكبر اسطول للنقل البري في تاريخ المنطقة كان يعمل في مسارين احدهمـا مع العراق الذي كانت تعبر اليه ثلاثة الاف شاحنة والآخر مع ايران حيث يتحتم على الشاحنات عبور جسر (قطور) الاستراتيجي على

الجانب الايراني من الحدود ، وهو الجسر الذي قصفته الطائرات العراقية لتعرقل حركة المرور البري الى تركيا في واحدة من اصعب المهمات نحو اهداف بعيدة داخل ايران نفذها الطيـران الحربي العراقي خلال سنوات الحرب الثماني بين العراق وايران .

وما كاد العراق يعلن عن تجربة اطلاق صاروخ العابد الحامل للاقمار الصناعية عام ١٩٨٩ حتى اثارت الحكومة التركية الشكوك حـول اهداف العـراق ونياتـه من تصنيع الصـاروخ واطلاقه ، واجابت الصحافة التركية بعناوين كبيـرة « الصاروخ العـراقي سيضـرب استانبـول وليس انقرة » وذهب بعض المحـرضين في الصحافة الى حد تحديد المكان الذي ستسقـط عليه الصـواريخ العراقية ، على امتداد ساحل استانبول على بحر البسفور ، في فترة لم تكن هنـاك مشكلات سيـاسية وامنيـة وعسكريـة حادة بـين البلدين ، ولذلك عـدت الدبلوماسيـة العـراقيـة روح الاثـارة في الصحافة التركية ناتجا لتحريض (قوى معادية لتحسين العلاقات بين انقرة وبغداد) ، وطارت من العراق وفود حكومية وبرلمـانية وشعبية ، لاشاعة مناخ من الاطمئنان ، كان اخرها وفد الاسبوع الثقافي العراقي الذي زار تركيا في يوليو (تموز) ١٩٩٠ وضم مائة وعشرين كاتبا وشاعرا وفنانا ، وجدت نفسي . بأعتباري رئيسـا للوفد ، ملزما بالحديث الى نخبة من شعراء تركيا وادبائها في المركز الثقافي العراقي بأنقرة ، وخاطبت الحضور بعد عزف عراقي مثير على العود اثار مشاعر السامعين الاتراك : « ان في بلادنا اسطورة تحكي ان للغزال صوتا اذا بكى هو اقرب الى صوت العود ، ولذلك اشعر ان روح الاسطورة لاتتلبس العراقيين وحدهم بل الاتـراك ايضا ، طبقا لمـا تركتـه من شجن في نفوسكم .. ويصـح القول اليوم . انكم شرق والعراق شرق وهما قادران على اللقاء اما الغرب فسيدير ظهره لكم مهما سعى السياسيون لاظهار امكانية الذوبان معه في حضارة جديدة تلم شمل الاثنين .. فنحن اقرب الى بعضنا . والغرب ابعد عن الاثنين .. » وقابل الحضور الاتراك ذلك الكلام

وايحاءاته بارتياح في مناخ من التفاهم والاطمئنان الذي يمتص روح عداء لم يكن العراقيون في حاجة لاشاعته في تركيا . ولم تكد تمضي بضعة ايام حتى اثارت الصحافة التركية ضجة حول مدفع القيامة العملاق الذي كان العراق يبنيه .. لتتساءل عن الاهداف التي يمكن له اصابتها ، فاذا بها ترسم اهدافه في عمق تركيا ، وليس على جبهة العراق الشرقية في اتجاه ايران او الغربية باتجاه اسرائيل .

□ □ □

كانت تركيا اول دولة غير عربية ، توجه اليها العراق بعد الثاني من آب ١٩٩٠ ، لمنع انضمامها الى تحالف سريع التشكل ضد بغداد ، فطار السيد طه ياسين رمضان في الخامس من آب يحمل رسالة من الرئيس صدام حسين الى الرئيس التركي يدعوه الى « نظرة شاملة معمقة للعلاقات ، بجذورها التاريخية ، ولوحدة الأمن الاقليمي ، والمصالح المشتركة ، والتجارة الواسعة ، وحيوية انبوب النفط العراقي للبلدين ، الى جانب ان دخول القوات العراقية الى الكويت هو شأن عربي ولن تكون له اية نتائج مسيئة الى تركيا التي تعتمد على النفط العراقي في تلبية اكثر من ٦٠٪ من احتياجاتها .» ، لكن الرئيس اوزال كان ينظر الى الأمر من زاوية اخرى ذات ابعاد ثلاثة :

الاول : ان امريكا اوعزت الى حلفائها الاغنياء في السعودية والكويت لتعويض تركيا على الفور عن خسائرها في حالة إغلاق انبوب النفط العراقي (تبلغ عائدات تركيا مليار دولار سنوياً) .

الثاني : صحيح ان دخول القوات العراقية الى الكويت ليس موجها مباشرة الى تركيا ، ولكن منظّري السياسة الخارجية التركية وجدوا في هذه الخطوة توسيعاً للدور الاقليمي للعراق على حساب ادوار دول اخرى في المنطقة ، منها تركيا التي كانت قد باشرت منذ انتهاء الحكم العسكري بناء علاقات اقتصادية وسياسية واسعة مع الدول العربية في المشرق ومنطقة الخليج .

وكان من ابرز دعاة هذا التفسير (جوشكن كورجه) ، وهو كاتب في صحيفة كونش لم يلبث ان أُتهم بالتجسس لصالح المخابرات الامريكية ، ومُنع بناء على ذلك من الكتابة في جميع الصحف التركية ، وكرس الاتجاه نفسه في التفكير كاتب آخر هو سامي كوهين وهو يهودي يعمل في صحيفة (ميلييت) .

الثالث : ان تركيا وجدت في انضمامها العاجل الى التحالف ضد العراق فرصتها النادرة لتأكيد استمرار وجود اهمية جيو - سياسية للاقليم التركي ، وهي الاهمية التي بدا انها مقبلة على الاضمحلال مع بدء انحسار الخطر السوفيتي ، حتى صار الانضواء الى عمل عسكري وامني وسياسي جديد هدفه تطويق العراق ، الفرصة غير المتوقعة للتعويض عن خسارة محتمة مع زوال الخطر السوفيتي .

وطلب المبعوث العراقي من الرئيس التركي ان تتخذ بلاده موقفاً محايداً اقرب الى موقفها خلال الحرب العراقية - الايرانية ، وان تلتزم بعناصر الاتفاق حول تشغيل انبوب النفط العراقي المار عبر اراضيها ، ملمحاً له ان العراق سينظر الى هذا الموقف بامتنان ولن ينساه في المستقبل .

وابلغ السيد طه ياسين رمضان الرئيس التركي ان العراق يرى ان جميع المشاكل بين البلدين بما فيها قضية المياه ستؤول الى حلول سريعة اذا ما وقفت تركيا على الحياد .. فرد اوزال ان بلاده ملتزمة بقرارات مجلس الأمن التي كانت قد بدأت تتوالى يومئذ . وان تركيا تطالب العراق بالانسحاب فوراً من الكويت ، لان دخول القوات العراقية الى بلد مجاور للعراق آثار حفيظة جميع جيرانه رغم إن هذا الدخول لا يبدو موجهاً بصورة مباشرة الى تركيا .

وذكر لي السيد طه ياسين رمضان انه كان أعرفَ القياديين العراقيين بشخصية الرئيس التركي ، إذْ عملا سوية لتطوير العلاقات الثنائية عند تولي السيد اوزال رئاسة الحكومة التركية ،

وتكررت اللقاءات بينهما بصورة دورية مرتين في السنة ، ومع ذلك يشعر السيد رمضان انه فوجيء بموقف الرئيس التركي :

ـ اذا كانت هناك مفاجأة فـانها تتمثـل في موقفي الرئيسـين التركي توركوت اوزال والمصري حسني مبارك ، فقد كنـا نعرف انهما مرتبطان بالسياسة الامريكية ، ولكننا لم نتوقع ، برغم ذلك ، ان يتخذا موقفاً مبالغاً فيه ضد العراق .

استمع اوزال الى المبعوث العراقي وهو يتحدث له عن عائدية الكويت الى العراق طبقا لوثائق الامبراطورية العثمانية يـوم كان العراق بولاياته الثلاثة الموصل وبغـداد والبصرة جـزءا من تلك الامبراطورية ، وكانت الكويت قضاء ملحقا بوالي البصرة .

لم يرفض الرئيس التركي ما استمع اليه من تحليل ، لكنه عاد ثانية ليخاطب السيد رمضان :

ـ مع ذلك كان بامكانكم ايجاد حل سياسي .

فأجاب المبعوث العراقي على الفور :

ـ لازالت هناك امكانية حقيقية لايجاد هذا الحل .. وارجو ان يكون لتركيا دور ايجابي في مثل هذه المحاولة مع اننا نعرف انكم قد تتعرضون الى ضغوط من جانب الولايات المتحدة .

هزَّ الرئيس اوزال رأسه وقال :

ـ نعم ستكون هناك ضغوط كبيرة ، على اية حال كنا نتمنى ان لايحصل ماحصل ، ونرى ان تنسحبوا الآن بسرعة ، اما نحن في تركيا فسنتصرف بما ينسجم مع مصالحنا ، وتتذكرون اننا كنا قد تعرضنا لضغوط كبيرة خلال الحرب العراقية ـ الايرانية من اجل غلق الانبوب العراقي ، ولكننا رفضنا غلق هذا الانبوب .

واعطت كلمات اوزال الاخيرة انطبـاعا اوليا للمبعوث العراقي ـ نقله فور عودته الى بغداد الى القيادة العراقية ـ خلاصته : ان احتمال ابقاء انبـوب النفط العـراقي مفتوحـا اكبر من احتمـال غلقه ..

لم يكن اللقاء الذي استغرق اربعين دقيقة ، تبدد نصفها في الترجمة ، كافياً لمعرفة الخطوات التركية التالية ، بما فيها تلك التي صدرت بعد بضع ساعات من اللقاء ..

لذلك سادت لقاء الرئيس اوزال مع الوفد العراقي لغتان مفترقتان من حيث النيات والاهداف ، وكان ذلك ايذاناً باعلان موقف تركي متشدد ضد العراق قام على المقامرة بـ (المضمون القليل) لكسب (كثير من مستقبل غامض) ، وصار على تركيا ان تلعب دور الشد في لعبة سحب الاطراف من الحافات الخارجية للعراق ، لتُظهر لامريكا واوربا انها الاقدر على لعب دور من هذا النوع . ولتطالب بمكافأة سياسية ومالية كبيرة من الكويت التي دفعت على الفور ملياري دولار ، والسعودية التي وعدت بالمحافظة على العلاقات التجارية والمالية المميزة التي حققت منذ سنة ١٩٨٥ انعطافاً حيوياً بموجب اتفاق اوزال مع وفد سعودي كبير على قيام السعودية بتمويل برنامج تصنيع طائرة (اف ١٦) وتقديم عون مالي سريع لمنع انهيار اقتصادي محتم نشأ بعد سلسلة الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها حكومة اوزال عندما لم يستوعب الاقتصاد التركي التحول المفاجيء والسريع الى اقتصاد السوق الحر ، وكان على تركيا ان تلتزم سرياً مع السعودية في اية خطط دفاعية لصالح المملكة مستقبلاً . اما الولايات المتحدة فقد اطلقت يدها للتحرك ضد الاكراد وفتحت امامها مصادر التبضع العسكري من المخازن الامريكية والاوربية على السواء .

وشنت الصحافة التركية حملة ضد العراق لم تخلُ من اثارة المشاعر عندما استغربت قبول اوزال ان يدخل عليه المبعوث العراقي يحمل مسدسه الشخصي ، ووضعت الدوائر حول المسدس لتؤشره امام قارئها ، في اطار حملة استفزاز للمشاعر ولمقاومة ضغوطات احزاب معارضة تحفظت على موقف اوزال وفعاليات اقتصادية تركية تلقت ضربة كبيرة بوقف التعامل التجاري مع العراق .

ما أن غادر المبعوث العراقي انقرة حتى اندفعت الكتيبة الاولى من الدبابات التركية عابرة من قواعدها في مدينة ازمير في اتجاه الحدود مع العراق !

ومرة اخرى ، كان جيمس بيكر وزير الخارجية الامريكي يلاحق المبعوثين العراقيين الذين انتشروا بعد الثاني من آب (اغسطس) . مثل الظل ، وسنجد ان ما سيحصل في انقرة . حصل في الرياض والاسكندرية . فقد طار طه ياسين رمضان عائدا في ٦ آب (اغسطس) . لتحط طائرة جيمس بيكر صباح ٨ آب (اغسطس) وليستقبله اوزال على الفور ليبلغه ببساطة انه رفض عرض العراق للوقوف على الحياد .

وانتعشت في تركيا دعوات الاحزاب القومية المتعصبة لقيام تركيا العظمى التي تضم مدينتي الموصل وكركوك العراقيتين ، وتبنى هذا الاتجاه (الباصلان توركش) رئيس حزب العمل القومي صاحب المنهج الطوراني القائم على المطالبة باجزاء من العراق ، وهو حزب صغير ذو نفوذ سياسي محدود لم يُمكنه من الحصول على أكثر من ٣٪ من مقاعد البرلمان عندما دخل الانتخابات عبر تحالف مؤقت مع حزب الرفاه ديني الاتجاه .

لم يخفِ اوزال نزعته في الحصول على ثمن كبير لموقفه في ازمة الخليج ، عندما ابلغ صحفيين كانوا يرافقونه في سيارته اثناء جولة له جنوب البلاد : « ان على الغرب ان لا ينسى دور تركيا .. فنحن من حكم هذه المنطقة لسنوات طويلة ومن حقنا اليوم ان تكون لنا حصة عظيمة . » وقد فهم الصحافيون اشارة اوزال فاعلنوا في اليوم التالي ان رئيسهم يعني « اننا نريد جزءاً من ارض العراق » . وهو الامر الذي حفز السفير الامريكي في انقرة لتطويق تصريحات الرئيس وتفسيرات الصحافة لها فوصفها بانها (ثرثرة) ، في وقت كانت الحرب لم تندلع بعد .

ورغم ان احزاب المعارضة وقفت ضد تورط تركيا في الحرب ، الا

ان مواقفها تراوحت بين التحفظ والمطالبة بانسحاب العراق من الكويت وممارسة الضغط الاقتصادي ، واضطر (اردال اينونو) رئيس الحزب الاجتماعي الى نفي تصريح كان ادلى به لجريدة الجمهورية لدى زيارته بغداد واعلن فيه (انهم لن يدعوا الامريكان استخدام قاعدة انجرليك ضد العراق) ، اذ صححت صحيفة جمهوري الناطقة باسم حزبه هذا التصريح وردته الى وجود التباس في فهم اصل السؤال الموجه اليه ، بما يُظهر ان المعارضة لم تكن قادرة على الاصطدام بخطوط حمر مانعة وضعها الامريكان عشية اندلاع الحرب .. واتخذ حزب (الرفاه) الذي يتزعمه (نجم الدين اربكان) وحزب اليسار الديمقراطي الذي يتزعمه (بولند اجويد) والحزب الاشتراكي الذي يقوده (دوغو برنجيك) مواقف متعاطفة مع العراق واداموا الحوار العراقي ـ التركي عبر قنوات مباشرة ، في حين تحفظ (سليمان ديميريل) رئيس حزب الطريق الصحيح على المغالاة في موقف اوزال ضد العراق عندما بلغ الأمر حد طرد الطلبة العراقيين وايقاف جميع اشكال التعامل التجاري .

□ □ □

وسط ضجيج المعارضة ، وفي حمى الاتصالات الدبلوماسية بين تركيا ودول الغرب وبلدان الخليج ، لم يتسرب الى العلن قرار وقعه رئيس الجمهورية في العاشر من آب (بعد يومين من زيارة جيمس بيكر) . (بإعلان حالة الحرب ضد العراق) جرى تعميمه على قيادات الجيش واجهزة الاستخبارات المدنية والعسكرية ، في وقت كان اوزال ما يزال يفاوض اعضاء البرلمان التركي على منحه هذا الحق دستوريا .. ويوم انتزع قرار المجلس يوم ١٤ آب (اغسطس) ، كان توقيعه على اعلان الحرب قد سبق التخويل بأيام ؛ بعد ان اغلقت تركيا انبوب النفط العراقي يوم ٩ آب (اغسطس) .

ادركت القيادة العراقية ان القوات التركية قد تعبر الحدود لاحتلال اجزاء من العراق مستغلة انتشار الجيش العراقي في الكويت وعلى الحدود السعودية . لذلك صدرت تعليمات محددة الى منظومات العمل العسكرية والاستخبارية شمال العراق لوضع خيارات لتحركها ـ في الدفاع او الهجوم الاجهاضي ـ ازاء التعامل مع احتمال من هذا النوع بعد ان جرى تعزيز الجيش الثاني التركي على الحدود ، المؤلف من فرقتين اضافة الى قوات حرس الحدود ، وبعد ان طالبت تركيا حلف شمال الاطلسي في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ارسال وحدات عسكرية لخوض حرب محتملة مع العراق ، ولكن التحرك الاهم لم يكن يسير على خرائط العسكريين وفي نياسم الارض ، بل اتخذ مساراته في عمل سياسي دؤوب ، لجمع قادة الاحزاب التركية المؤثرة ، لحثها على منع وقوع صدام عسكري من هذا النوع وبهذا المستوى . ورعت بغداد من اجل انجاح خطتها نوعا من المصالحة بين الحزب الاجتماعي وحزب اليسار وحزب الرفاه حيث حضر قادتها الى العراق في اوقات مختلفة ، واجتمعوا على انفراد مع الرئيس صدام حسين الذي تدارس معهم الاحتمال الذي ادخلته القيادة العراقية الى حساباتها ، واظهر تفهمه لتحفظ هذه الاحزاب على الوجود العراقي في الكويت ودعواتها من اجل انسحاب القوات العراقية الى مواقعها قبل الثاني من اب (اغسطس) ١٩٩٠ ، ولكنه اراد من قادة هذه الاحزاب تشكيل رأي عام تركي مضاد لاي صدام عسكري بين البلدين ، وبخاصة سد الطريق على احتمالات عبور البر العراقي في اي اتجاه من شمال العراق .

وكانت الاتصالات السياسية الهادئة ادق عمل وقائي لايجاد المناخ المانع لنشوب حرب برية بين العراق وتركيا يمكن ان تضيف ماساة اخرى الى مآسي المنطقة

□ □ □

هل كان العراق يتوقع التحول الحاسم في الموقف التركي .. الى

حد المشاركة في اعلان الحرب ومهاجمة العراق ؟... وللجواب على هذا السؤال ينبغي الاعتراف ان العراقيين اكثر خبرة بجيرانهم من خبرتهم بأعدائهم البعيدين عنهم جغرافيا . فهم يفهمون الايرانيين الذين حاربوهم ٦٠٠ سنة ويفهمون الاتراك الذين خضعوا لاستعبادهم ٣٧٣ سنة ، ولذلك صار وصف (العدو المحتمل) عنوانا لتركيا حيثما وردت في الملفات العسكرية والاستخبارية وهو الامر الذي جعل الموقف الذي اتخذه الرئيس اوزال قابلا للاستيعاب ثم الامتصاص في بغداد .. اذ ان العراق يرى نوعين من عوامل الاستقطاب في تركيا ، وهما متساويان في القوة ، احدهما في اتجاه اشاعة مناخ العداء والتنافس ، والثاني في اتجاه اشاعة روح التعاون والتفاهم ، وكلما اختلت الموازنة في قوة العاملين صار على العراق ان يعيد الامور الى نقطة التوازن للمحافظة على حيادية جزء من حدوده الملتهبة من كل مكان !

عندما اندلعت الحرب فجر ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، كان بامكان العراق تحاشي ربع الهجمات الجوية لولا فتح القواعد الجوية في تركيا امام الطيران الامريكي ، ولكان شمال العراق ، وبالاخص منطقة الموصل ، قد تحاشت معظم ما تعرضت له من هجمات جوية ، بعد ان استخدمت قاعدة (انجرليك) التركية كل خمس دقائق لطلعة جوية امريكية على مدى ثلاثة واربعين يوماً من الحرب ، ولم يكن على الطائرات الامريكية ان تقطع اكثر من ١٥٠ كيلومترا للوصول الى اهدافها التي توزعت بين المحطات الاذاعية والتلفزيونية ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ، ومراكز الاتصالات ، والمقرات المحتملة لوجود الرئيس صدام حسين ، ومعامل الطابوق والاسمنت ، ومصافي النفط ، ومواقع مدنية بينها كنائس وجوامع واحياء مكتظة بالسكان .

وما ان هدأت موجة القصف الجوي الآتية من تركيا ، حتى عرض الرئيس اوزال دوراً آخر لبلاده للتشجيع على تقسيم العراق

ثم اعادة جمعه في مشروع يفتت الكيان الدستوري العراقي ، ففي الوقت الذي عَدّ العراق ان الخطر الكردي هو الخط الاحمر الذي لا يمكن لتركيا تجاوزه ، وان هذا الخطر كافٍ لذاته في ايقاف السياسة الخارجية التركية خلف حاجز يمنع اشتراكها في اية خطة لتقسيم العراق ، خرج الرئيس اوزال بخطة عُرفت بـ (اصلاحات اوزال الكردية) و(مشروع اوزال) و(خارطة اوزال) تتجاوز هذا الخط الذي ظل مُحرّماً على الساسة الاتراك منذ عهد اتاتورك ، لتقديم بديل هو اشبه بعملية تهشيم تليها عملية جمع لزجاج متناثر من التكوين الجيو - سياسي للعراق . من خلال تقسيم البلاد الى ثلاثة اجزاء على اساس عرقي ثم جمعها في كونفدرالية عربية / كردية / تركمانية ملحقة بتركيا بضمانات اقليمية ، بحيث تكون لتركيا القدرة على احتوائها كمناطق حيوية للنفوذ ، من خلال احياء تقسيمات ما قبل سايكس - بيكو وعصر عصبة الامم .

☐ ☐ ☐

تحكَمَ في الموقف التركي دافعان ذاتيان مضافان لعوامل التأثير الخارجي ، ويتصل هذان العاملان بالنزوع لاستعادة دور ضائع .. استعادة مكانة لم تعد قائمة .

« العراق يخاف العثمانيين » بهذه العبارة لخص الرئيس التركي مشاعر خليطة بين التمنيات والاستنتاجات ، وبنى عليها فرضية ان العراق لن يهاجم تركيا في يوم من الايام لانه كان من قبل احد مستعمرات الدولة العثمانية !

لذلك كان ثمة خليط من دوافع قومية وجيوسياسية ودينية ، بعضها غامض ، وبعضها ظاهر ، تدفع لاظهار عاملين .. والبناء عليهما ، وهما :

- الاول : البحث عن دور حضاري ، اذ ان الزلزال الذي وقع في منطقة الخليج ، وماترتب عليه من صدام بين العراق ومن تحالف

واياه وتعاطف معه من جهة ، وبين الولايات المتحدة ومن تحالف معها من جهة اخرى ، كان ينذر بتوسيع صدام دولي بين الاسلام والغرب المسيحي ، ولذلك التقطت تركيا هذه اللحظة المتأرجحة لتقدم نفسها على انها طرف ثالث .

لقد تمنى الرئيس التركي توركوت اوزال صراحة في اول مؤتمر صحفي عقده في الحادي عشر من آب (اغسطس) ١٩٩٠ ان (تكون تركيا حلقة وصل بين العالم الاسلامي واوربا باعتبارها دولة حديثة يقع عليها دور توفيقي بين العالم الاسلامي واوربا) ، وسنرى لاحقا ان هذا الدور لم يتبلور من الناحية العملية ، اذْ ان قوى السحب المحلية التركية كانت تعطل هذه النزعة بعد نمو التيارات الاسلامية واتساعها في تركيا من جهة ، ولعدم ظهور مايدل على قبول الغرب المسيحي بمنح تركيا مثل هذا الدور .

ـ الثاني : ارادت تركيا ان تستثمر الى اقصى حد التفاعلات السريعة التي احدثها الزلزال بانْ تقدم نفسها نموذجا بديلا للنظم السياسية في المنطقة من جهة ، وللقيام بدور جيوسياسي جديد كدولة عظمى في النطاق الاقليمي .. لاينتهي طموحها باستعادة النفوذ في المحيط العربي المجاور والامتداد به الى منطقة الخليج ـ حيث يمكن تحقيق مستوى عال من المصالح التجارية ـ ولكنه يمتد من البوسنه والهرسك في الشمال الغربي وحتى جمهوريات اذربيجان وتركستان وشاشان في الشرق ، وقد لخص الرئيس التركي ماتمناه خلال مقابلة تلفزيونية مع برنامج (٢٢ يوم) قبل اسبوع من بدء الهجوم على العراق بقوله : (ان هدفنا ان نخرج من هذه الازمة دولة اقليمية قوية وان لانتعرض الى اية خسائر) .

ولن يتقرر مصير هذا الطموح في المستقبل القريب ، اذْ ان قوى اقليمية ودولية اخرى ستجد في الطموح التركي نزعة منافسة تُحفز المقاومة ، وقد تأتي هذه المقاومة من حلفاء تركيا الذين يشاركونها عضوية حلف الناتو الذي حصلت على عضويته في ظروف الحرب

الباردة سنة ١٩٥٢ ايام كانت في جبهة مواجهة امام الاتحاد السوفيتي ...

□ □ □

بعد ان انتهت الحرب بدا ان تركيا التي ظلت مترقبة حذرة محملة بجراحات انهيار ثلجي استمر قرنا كاملا صارت تتحول تدريجيا من سياسة اقليمية خجلة الى سياسة اقليمية جامحة لاستعادة دور مفتقد واحياء دعوات قيام تركيا «عظمى» تبسط

نفوذها على بقايا الاتحاد السوفيتي من دول اسلامية وسط اسيا ، وتصطدم باية قوة اقليمية منافسة ، متجاوزة مبدأ (الحياد الاقليمي) في نزاعات المنطقة الذي كان يتبناه كمال اتاتورك ، ثم تلاه بروز تدريجي للدور الاقليمي اثر اعلان مبدأ نيكسون في آسيا الذي وفر لانقره هذا الدور لتصبح واحدة من «اثافي» الحزام الذي يطوق منطقة القلب في بلاد العرب ، الى جانب ايران واسرائيل ..

اليوم يبدو ان تركيا ستكون ساحة واداة في اي انفجار مقبل تشهده آسيا من وسطها حتى حافاتها الغربية . ومن حافات تركيا الغربية حتى أعماق بلاد البلقان □

كعـــــــك لبعـض النـــاس
أم خبــــــــز أسود لكل الناس ؟

ولم يكن ثمة خيار الا اللجوء الى نظام التقنين ، وبعد شهـر واحد من دخـول الكويت أُعلن بطريقة حذرة عبر وسائـل الاعلام في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ عن بدء تطبيق النظام الذي كان قد استخدم أخـر مرة في اثنـاء الحرب العـالمية الثـانية في العـراق ولم تضطر البـلاد اليـه طوال ثمـاني سنـوات من الحرب مع ايران .

كان مقدرا ان تقع مجاعة في العراق تبتلع ستة الى سبعة ملايين شخص . اي ثلث عدد السكان خلال السنة الاولى من فرض حصار بري وبحري وجوي على البلاد .

وبعد يومين من دخول الكويت .. تراءت امام العراقيين صورة موت جماعي محتمل لاول مرة في العصر الحديث ، فقد استنتجوا عاجلا مما كانوا يلتقطونه من الاذاعات الاجنبية ان بلادهم صارت مطوقة وان الغذاء والدواء لن يدخلاها بعد ذلك اليوم .

واستعاد مسؤولون كبار ومواطنون عاديون صورة المجاعات التي طالما شاهدوها على شاشات التلفزيون وما يرافقها من انهيار اجتماعي يتخلله القتل والسلب من اجل الحصول على الغذاء .

وهرع السكان الى الاسواق التجارية ليجمعوا اكبر ما يستطيعون اقتناءه من غذاء ، فاذا بهم يجدون ان التجار قد سبقوهم واخفوا المواد الغذائية الاساسية ، فزاد ذلك من الهلع والخوف اللذين تلبسا اعدادا كبيرة من السكان وهم يتطلعون الى مستقبل غامض .

كان العراق نفسه ضحية مجاعات جماعية كبيرة خلال عقود سابقة ، وهو الامر الذي ترك في الذاكرة الجمعية للشعب شبحا بشعا محتمل العودة بحيث تتوارث الاجيال عن بعضها صورة مجاعة بغداد خلال حكم السلاجقة سنة ١٠٧٦ ميلادية عندما اقتات السكان على الحيوانات النافقة ولما نفد ذلك السبيل ، واختفت الفئران والكلاب من الطرقات حفروا القبور واخرجوا جثث الموتى ليأكلوا منها بعد ان انقطعت سبل توريد المواد الغذائية من خارج بغداد بسبب الحرب الاهلية ومحاصرة المدينة ، وعرفت مدن اخرى مجاعات قاسية انتشرت فيها الاوبئة التي اكتسحت احياء كاملة في غضون بضعة ايام .

وازدادت الصورة قتامة عندما اعلن عن تجميد الارصدة العراقية في العالم ، فاحدث ذلك ارتباكاً في التفسير لدى الجمهور العراقي الذي لم يتعود الاطلاع على ارقام دالة على امكانات بلاده

المالية ، بحيث ذهب العموم الى الاعتقاد ان تجميد الارصدة يعني فقدان العراق لنقـوده من العملات الصعبـة كليا ، خـاصة وان الادارة العراقية لم تلجأ في اي وقت سابق للتعريف بامكـاناتهـا المالية الاحتياط والمعلن ، ولذلك فان ضبابية الصورة ادت الى مزيد من التعقيد والحيرة .

في تلك الأثناء، لم يكن أحد من السكان قد عرف أن الرئيس أصدر تعليماته بتكوين غرفة عمليات للغذاء في البلاد، بدأت العمل في الساعة الثامنة صباح ٤ آب (أغسطس) ١٩٩٠. ووضع أمام الحاضرين أن العراق قد يتعرض لضربة كتلوية، وطلب الاستعداد لمـواجهـة حصـار يستمـر ثلاث سنوات، وتخزين الغذاء والماء، وافتراض أسوأ الاحتمالات.

ولم يكن بامكان غرفة عمليات الغذاء ان تقدم حلا سحريا لازمة خانقة وجدية صارت ماثلة امام ابصار السكان ، وكانت الاشارات التي صدرت عن سياسيين امريكان سابقين مثل الرئيس الاسبق جيمي كارتر ووزير الخارجية الاسبق سايروس فانس قد التقطت في بغداد على انها تأكيد أحد خيـارات المواجهـة ، فكارتـر وفانس ومعهما سياسيـون اخرون وجـدوا ان الولايات المتحـدة ليست بحاجة الى القيام بهجوم عسكري غير مضمون النتائج وقابل لان يكون باهظ التكاليف ماديا وبشريا .. اذ ان الحـظر الاقتصادي وفرض حصار بـري وجوي وبحـري يمكن ان يؤدي الى انهيـار العراق من دون اللجوء الى الخيار العسكري ، وادركت القيـادة العراقية ان سيناريو الحظر يقوم على دفع البلاد للوصول الى حالة المجاعة الجماعية الشاملة بحيث تنتشر الاوبئة وتنشـأ الظروف التي تؤدي الى الانفجار الاجتماعي وانهيار البنى الاقتصادية الى المستوى الذي تفقد فيه الدولة سيطرتها على البـلاد ويتم آنذاك تغيير النظام السيـاسي في العراق وارغـام القوات العـراقية عـلى الانسحاب من الكويت بعد ان يكون الجنود العراقيـون انفسهم ضحيـة المجـاعـة والاوبئـة والانهيـار النفسي ، وآنـذاك يكـون

العراقيون قد انشغلوا بالتنازع على الغذاء .

وكان لابد من ازاحة شبح المجاعة المحتملة ..

اظهرت التقديرات الامريكية الاولية ان العراق لن يستطيع المقاومة اكثر من ثلاثة الى خمسة اشهر ، وكانت تلك تخمينات السفارة الامريكية في بغداد في اول دراسة اعدتها عن الاوضاع الاقتصادية في العراق بعد دخول القوات العراقية الى الكويت ، واعلنها لاحقا الملحق التجاري الامريكي في بغداد بعد عودته الى واشنطن : العراق لايملك مخزونا من الغذاء يزيد على ثلاثة اشهر . واظهر مؤيدو العراق في الاردن واليمن قلقا عميقا على وضع الغذاء في العراق في ضوء التقارير التي اعدها ممثلوهم الدبلوماسيون في بغداد .

اما العراقيون فقد اعتادوا ان يخرجوا من حالة طوارىء ليدخلوا في حالة طوارىء اخرى بطريقة كانت تبدو احيانا كأنها غير واضحة الاسباب ، اذ ان تمرينا دائما على تقبل الصعوبات ومعالجتها كان يتكرر بصورة دورية كل ستة اشهر ، وكل سنة ، وكأن الدولة كانت تريد رفع مستوى الجاهزية للتعامل مع الازمات .

ففي الثالث عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨ ، وفي اللحظة التي كان العراقيون ينتظرون التمتع بمستوى مناسب من الرفاهية ، بعد شهر من الاعلان الرسمي للنصر على ايران ، اعلنت وزارة التجارة العراقية حالة طوارىء عندما اعلن في واشنطن عن اول مشروع للحظر التجاري المحدود على العراق ، وهو الحظر الذي يخل باتفاقية سبق ان وقعها وزير التجارة العراقي سنة ١٩٨٧ ، للتعاون الاقتصادي والفني مع الولايات المتحدة الامريكية ، وعاد يومها من واشنطن بعد توقيعه على القرض الشهير باسم (دي لافور) البالغ (٢٠٠) مليون دولار لشراء مستلزمات غير غذائية في اطار القرض الزراعي الامريكي ، وامر الرئيس صدام حسين على الفور بوضع خطة مواجهة تأخذ

بالاعتبار حدوث نقص اساسي في بعض المواد الغذائية بما في ذلك (٩٠٪) من الرز الذي يستهلكه العراق وكان يحصل عليه من الولايات المتحدة .

وبدأت معركة سرية بين ثلاثة اطراف ، الادارة الامريكية من جهة والحكومة العراقية من جهة اخرى ، والشركات الامريكية الضاغطة لادامة العلاقات التجارية مع العراق ، وخرجت من بغداد سلسلة من الطلبات عبر خطوط التلكس المكشوفة التي تلتقطها في العادة منظومات التنصت الدولية وفي مقدمتها منظومات المخابرات الامريكية ، وهي تحمل اسم زهير عبدالرحمن داود : (من وزارة التجارة بغداد الى شركات في بريطانيا ، فرنسا ، المانيا ، ايطاليا ، اسبانيا .. العراق يرغب ان تحلوا محل الشركات الامريكية في التعامل التجاري ، العراق قرر التحول عن السوق الامريكية) ، وكان مضمون تلك البرقيات يتحول عبر وحدات التجسس التجاري الى الشركات الامريكية الكبيرة التي باشرت الضغط على الكونكرس لمنع تمرير مشروع الحظر التجاري المحدود على العراق . اما بغداد فبدأت اجراءاتها العملية في ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨ ، باعداد الشعب للتحول في استخداماته اليومية من الاغذية الامريكية وفي مقدمتها الرز الى اغذية من مناشيء اخرى ، وذهبت الدراسة التي اعدتها وزارة التجارة الى ضرورة احداث تحول تدريجي في خيارات التذوق الغذائي للاسرة العراقية ، وحصلت قناعة في بغداد ان الحظر التجاري سيقع وكان ذلك يعني ان ٩٠٪ من الرز الذي يستهلكه العراقيون لن يأتي من الولايات المتحدة وهي كمية تمثل (٢٥٪) من مجموع صادرات امريكا من الرز الى العالم ، وكان الحظر يعني ايضا ان العراق لن يحصل على مليون طن من الحنطة تمثل ثلث احتياجاته في سنة ١٩٨٨ ، الى جانب جميع احتياجات وزارة الزراعة العراقية من الذرة والاخشاب ومستلزمات زراعة الاقطان ، والزبدة وبعض

مستلزمـات انتاج الحليب وبيض التفقيس والاعـلاف . وبحلول سنـة ١٩٨٩ ، تحول العـراق لتأمـين الرز والحنطة من تـايلند واستـراليا ، وفي شبـاط ١٩٩٠ توقف تـوريد الحبـوب كليا من الولايـات المتحدة ولم يتمكن فـاروق العبيـدي احـد المسـؤولين المخضرمين في وزارة التجارة العراقية من الوصول الى اتفاق يرضي العراق حول القرض الامريكي سنة ١٩٩٠ .

وفي الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ ، افترضت الولايات المتحـدة ان مـاتبقى في مخـازن العـراق من الحبـوب لن يكفي للاستهلاك اكثر من ثلاثة الى خمسة اشهر بقيـاس امرين الاول احتساب الكميات التي استوردها العراق من الحبوب الامريكية ، والثـاني احتساب مستـوى الاستهلاك البشـري والحيـواني في العراق ، وكان الحسـاب الامريكي صحيحـا تمامـا لاسيما انـه لايجوز من الناحية الاقتصاديـة والعملية تخـزين الاغذيـة مدة تتجاوز ثلاثة اشهر في الظروف الطبيعية وستة اشهـر في ظروف الطوارىء ولايجـوز تجميد رأس المـال في المخازن مـدة سنة او سنتين .. ولكنه اغفل دراسة مستوى المرونة والقدرة على المناورة التي سيلجأ اليها العراق لمعالجة خطر المجـاعة ، وادركت وزارة التجارة في العراق ان خزينها من الحبوب سينتهي فعلا في اشهر اذا استمر تصريفـه بموجب نـظام السوق الذي يلبي الاحتيـاجات البشرية والحيوانية وتتسرب كميات كبيرة منه للتهريب الى ايران وتركيا والسعودية (ومن قبل الى الكويت) وينطبق هذا الامر على الطحين والرز والعدس ، الى جانب عامل نفسي يتعلق بقلق السوق والمستهلك ترك آثاره بسرعة عـلى مستوى انخفـاض العرض في الاسواق .

ولاول مرة منذ ربع قرن تعرضت شاحنات الاغذية لعمليات نهب وسطو وهي تنتقل بين المدن ، وداخل الاحياء السكنية ، ونشأ في السوق على الفور قانون الاقوياء الذين يستحوذون على المعروض

من السلع والاغـذية ، ولم يكن ثمـة خيار الا اللجـوء الى نـظام التقنين ، وبعد شهر واحد من دخول الكويت أُعلن بطريقة حذرة عبر وسائل الاعلام في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ عن بدء تطبيق نظام التموين الذي كان قد استخدم آخر مرة في اثناء الحرب العالمية الثانية في العراق ولم تضطر البلاد اليه طوال ثماني سنوات من الحرب مع ايران .

وانطفأ الهلع بعد ان مر شهر ، وشهران ، وثلاثة اشهر وتأقلم السكان مع حياتهم الجديدة ونظام غذائهم الجديـد ولم يحصل نقص في الغذاء يمكن ان يؤدي الى المجاعة ، وظلت الاسعـار في السوق تواصل الارتفاع مع كل موجة تهـديد بقـرب شن هجوم عسكري على العراق ، وكانت معاناة الجنود في الكويت وعلى حدود السعودية واطراف البحر اكثر قسوة من معاناة المدنيـين ، ولكن خطر وقوع المجاعة عاد مرة اخرى ، بقوة مع بدء الهجوم الجوي والصاروخي على العراق في ١٧ كانـون الثاني (ينـاير) ١٩٩١ وبعد اقل من ستة اشهر على بدء الحصار برغم ان البلاد كانت قد رتبت اوضاعها لتخزين كميات من الاغذية تلبي مدة الحاجـة في الطوارىء وفي اثناء حالة الحرب التي كانت تبدو محتمة في الافق .

وكان وضع الجنود قد صار اكثر تعقيدا بما يتعلق بالحصول على الاغذية مع فقدان الوقود وتدمير الجسـور وصعوبـة التنقل واشتداد موجة القصف ، ولذلك انشغل الرئيس صـدام حسين بغذاء جنوده بمستـوى لم يقل عن اهتمـامه بـالاداء العسكري لقطاعات الجيش المنتشرة جنوبا ، واستدعى الفريق حسين رشيد رئيس الاركان العامة بعد اسبوع من بدء الهجوم الجوي الشامل ليسأله عن صحة التقارير التي وردته عن تغذية الجندي ، واجابه رئيس الاركان ان لدى القطعات الامامية اغذية طازجة تكفي يومين او ثلاثة واغذية معلبة تكفي اسبوعا كاملا حتى اذا لم تصل اليهم اية مؤن واغذية ، كان هناك غذاء .. ولكن الحاجة كانت اكبر ..

وكان هناك غذاء .. ولكن الماء كان يكاد ينفد لدى جنود الحافات الصحراوية ..

وكان على المخططين الاقتصاديين ان يختاروا بين حاجة الانسان وحاجة الحيوان .. هل يوفرون لقسم من السكان الخبز الابيض النقي المصنوع من الحنطة ويتركون بقية السكان من دون خبز ؟ ام يوفرون لجميع السكان خبزا اسود مصنوعا من الحنطة بكامل محتوياتها ونخيلتها والشعير والذرة وبعض البقوليات ، ويقترون على الحيوان في حاجته للغذاء ..؟.. وكان ان اختاروا الخبز الاسود .

تراجع على الفور اقبال الجمهور على الحاجات التكميلية ، وباع بعضهم الذهب وموجوداته الثمينة للحصول على كميات احتياط من الحبوب والرز والزيوت والبقوليات اليابسة والشاي والسكر والمعلبات والادوية وحليب الاطفال تحسبا لحصول نقص حاد في المواد الاساسية ، في حين مكث سكان آخرون حائرين يترددون في التصرف بحاجاتهم الثمينة لانهم يعتقدون ان قيمة هذه الموجودات ستزداد في المستقبل وقيمة العملة المحلية مقبلة على التراجع .. وبالفعل تراجعت قيمة الدينار العراقي الى اقل من ١ الى ٢٠ من قيمته في اثناء السنة الاولى بعد الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ .

وصار على قسيمة التموين العائلية التي تجمع اسماء افراد كل الاسرة ان تؤمن باسعار تحميها الدولة من ٥٠-٧٥٪ من الحاجات الاساسية للفرد من الطحين والرز والسكر والشاي والزيوت ، بما يؤمن ١,٥٠٠ الى ٢,٠٠٠ سعرة حرارية للفرد الواحد بما يقل ١,٠٠٠ سعرة حرارية عن متوسط ماكان يحصل عليه الفرد العراقي البالغ قبل نشوء الازمة .. وكانت هذه الحسابات نظرية اكثر منها عملية ، لان الاسواق غرقت في المقابل ببضائع وسلع واغذية من مناشيء شتى ، بعضها ورد من الكويت وبعضها الآخر

تسرب عبر المهربين في الصحراء الغربية المتصلة بالاردن ومنطقة الجزيرة الصحراوية المتصلة مع سوريا وكذلك عبر تركيا وايران ، وحتى السعودية .. وكانت اسعار السوق الموازية ترتفع يوما بعد آخر في وقت حصل القطاع التجاري الخاص الذي يضخ السلع والاغذية الى السوق على تسهيلات حكومية ، كانت محط عدم الرضى في كثير من الاحيان ، من قبل المستهلك الغاضب ، والعاجز عن الحصول على هذه السلع باسعارها الخيالية ، لكن وزارة التجارة كانت ترى في المقابل ان الحظر الدولي قد منع جميع السلع بغض النظر عن الاسعار ، لذلك وجدت ان دخول السلع باسعار عالية افضل من عدم وجودها لاعتبارات يتصل بعضها بتوفير الاطمئنان الى وجود السلع .. وتمكن العراقيون عمليا من منع وقوع المجاعة بعد ان ابتكروا اساليب تخزين تعود بعض طرائقها الى سنوات ماقبل الصناعة عندما اعتادوا الحفر في بطون الارض وتخزين الحنطة في اعماقها وبهذه الطريقة تم الحفاظ على مخزون غذائي اساس في اثناء الحرب بعد ان تعرضت المخازن المرصودة فوق الارض للدمار كليا او جزئيا ، وتمكنوا عن طريق الاختفاء تحت الارض والانتشار على مساحات واسعة من رقعة البلاد انقاذ المخزون الغذائي ومنع المجاعة الثانية التي كادت تقع عند بدء العمليات العسكرية ضد العراق .

واظهر العراقيون قدرة على التأقلم مع اوضاعهم المعاشية الجديدة ، فلم يعودوا يتذكرون مذاق الرز الامريكي واعتادوا رزا من مناشيء جديدة ، وهو الغذاء الاساس اليومي للاسرة ، وتآلفوا مع الخبز الاسود ، بل احبوه .. وصاروا يتحدثون عن ميزاته الصحية للسكر والسمنة وضغط الدم وامراض القلب ، وحين شح وقود السيارات ابتكروا اساليب غريبة للحصول عليه بأنْ عزلوا الوقود عن الغاز السائل من بقايا قناني الغاز في المنازل ، وعندما غابت الانارة عن البيوت بسبب تدمير محطات توليد الطاقة

الكهربائية توجهوا لاستخدام الشموع ، وحين شحت الشموع وارتفعت اسعارها ، لجأوا الى التمور بأنْ وضعوا حبة تمر على رأس كل قنينة مليئة بالنفط الابيض ومدوا قطعة قماش ملفوفة من داخل قنينة عبر التمرة ثم اشعلوها .. وصرت ترى من يقول لك .. كل شيء نستورده وسيختفي الا التمور ولذلك ستبقى بيوتنا مضاءة .

اذن لم تقع المجاعة في المرتين اللتين هددتا البلاد .. ولكن العراق تعرض لمشكلة سعرية هائلة اكبر من طاقة ذوي الدخل المحدود على استيعابها ..

وكانت العين تكتفي بان ترى .. ولكن العقل كان دائما يريد ، ولايرى سببا لان يحصل انسان آخر على سلع يستحيل عليه اقتناؤها .. فشبعت العين .. واصابت الحيرةُ .. العقل . بالقوة التي اصابت النسيج الاجتماعي وعمقت الفروقات بين الافراد والشرائح وفتحت الباب امام العنف والسرقة والجريمة .. لتجعل المجتمع امام اولوية اعادة اللحمة الى هذا النسيج الاجتماعي لمعالجة آثار متراكمة عن حربين امتدتا عشر سنوات □

ضيــوف رغمـا عنـهـم
أم ضيـوف غير مـرغوب فيهم ؟

.. وتطلع الرئيس صدام حسين في الوجه المستدير للسيد أدوارد هيث ، وشعره الابيض ، وكأنه يستقرىء جزءاً من تاريخ الازمة التي كان هيث أحد اطرافها وشهودها سنة ١٩٦١ عندما كان يشغل منصب مساعد وزير خارجية بريطانيا في يوم اعلان استقلال الكويت ثم مطالبة العراق بعودتها كقضاء ملحق به .. وقال :

ـ في الشهور الثلاثة المقبلة سيتضح كل شيء ، يا سيد هيث ، الحرب أو السلام .

لقاء في ١٩٩٠/١٠/٢١

كان العراق بحاجة الى تعطيل ضربة امريكية او اسرائيلية بدت امامه محتمة بعد الثاني من آب ، في وقت كانت الاشارات التي تُمرر الى بغداد كل يوم بعد ذلك التاريخ تدل على احتمال تعرض العراق لضربة جوية وصاروخية واسعة في اية لحظة .

لذلك كان اقتراح منع رعايا الدول التي وقفت حكوماتها ضد العراق من السفر ، وكان عددهم يربو على اثني عشر الف شخص ، يهدف الى خلق عراقيل تعطل وقوع ضربة محتمة ، ووجد اصحاب المقترح ان هذا الاجراء سيزيد في تعقيد الوضع في غرفة العمليات المقابلة لدى الطرف الآخر ، ويجعله في موقف المدافع الباحث عن الحلول حتى لاتكون يداه طليقتين في الحركة ، وعلى الاقل ، حتى يتعرقل ويتعطل العمل بتوجيه ضربة عسكرية ، قبل ان يكون العراق قد استكمل اجراءاته الدفاعية ، وبناء بدائله لاستيعاب هجوم جوي وصاروخي كان يلوح في الافق .

وتحول اكثر من عشرة آلاف امريكي وبريطاني وفرنسي ونمساوي والماني وياباني من رجال ونساء واطفال الى ضيوف رغما عنهم لدى العراق ، موزعين بين فنادق الدرجة الاولى حينا ، والمنشآت العسكرية والصناعية المرشحة لتلقي الهجوم الجوي المنتظر ، وعَدّهم العالم محتجزين في حين عَدّهم العراق ضيوفا بعضا من الوقت .. ثم ما لبث ان سمح بسفر النساء والاطفال ليبقي على الرجال وحدهم .

وكاد يكون مستحيلا اقناع الرأي العام العالمي بان هؤلاء ليسوا رهائن مرغمين على البقاء في العراق ، في مواجهة طوفان اعلامي وسياسي لم تقاومه حواجز صغيرة ومتناثرة نشرها العراق هنا وهناك .

□ □ □

لذلك كان هناك رأيان في بغداد .

الاول : وتتبناه الخارجية العراقية يرى ان العراق لم يكن في حاجة لمنع الاجانب من السفر ، وان هذا الاجراء لن يحول دون

وقوع الضربة العسكرية ، لو كانت هذه الضربة قد تقررت واستكملت مستلزمات تنفيذها ، وان الادارة الامريكية قد حصلت على عنصر فعال آخر لتأليب الرأي العام ضد العراق ، وتشويه صورة قيادته ، وسيكون من اليسر انعاش ذاكرة الجمهور حول صور الرهائن لدى ايران ، واستخدام هذا العامل في التعبئة للحرب ، وبناء على ذلك فان كل يوم يمر يلحق اذى معنويا بالعراق ، وينال من الصورة التي يريد بناءها لنفسه ، كحامل رسالة انسانية كبيرة ، كان خطابه السياسي والاعلامي يبشر بها كل يوم ، ويذهب هذا الرأي الى ان الجمهور الغربي عموما ، والامريكي خاصة لم يكن معنيا بمصير حكام الكويت ومالحق بهم ، ولم يكن مستعدا لاظهار اي قدر من الاستعداد للتضحية من اجلهم ، ولكنه ازاء الاستخدام الاعلامي الهائل لموضوع الاجانب في العراق صار مقادا لاظهار مشاعر كراهية ضد العراقيين الذين كان بامكانهم حرمان الادارة الامريكية والبريطانية والفرنسية من الحصول على هذا الامتياز .

وقام الرأي الاول على استنتاجات لاتجاهات الرأي العام الغربي بالدرجة الاساس .

اما الرأي الآخر فكان يعاين الامر من زاوية اخرى ،فعدا عن ان هذا الاجراء هو اجراء وقائي للحيلولة دون وقوع الحرب ، فانه ايضا عمل سبق لدول اخرى ان لجأت اليه اضطرارا كما حدث في الحرب العالمية الثانية عندما احتجز البريطانيون الالمان ، وفعلوا الامر نفسه الى جانب قيود اخرى مع الارجنتينيين خلال حرب الفوكلاند سنة ١٩٨٢ ، الى جانب ان بعض دول التحالف الغربي احتجزت بعد الثاني من آب (اغسطس) الرعايا العراقيين بمن فيهم اعداد من حملة جنسيات تلك الدول ، وطردت الطلبة العراقيين من جامعاتها ، ولكن تلك الاجراءات لم تقابل بادانة مماثلة لما قام به العراق .

ووجد اصحاب هذا الرأي ان التسفير التدريجي لهؤلاء الاجانب ، بعد وساطات يقوم بها سياسيون مرموقون من انحاء العالم ، اعطى العراق نافذة للتعريف بقضاياه وفتح امامه قناة للاتصال بالعالم بعد ان سدت عليه المنافذ دفعة واحدة .

وتضاعفت الآثار النفسية والاعلامية والسياسية خلال الاشهر الاربعة التي مرت على منع الرجال من رعايا دول التحالف من مغادرة العراق ، وصار واضحا ان الامر يستخدم في التعبئة لشن الحرب وجمع المؤيدين لها وتحريض الرأي العام ضد بغداد .

وبقي هناك رأيان مفترقان .

احدهما يرى انه مادام القرار قد اتخذ بالتحفظ عليهم فينبغي ان يستمر هذا التحفظ طالما استمر التهديد باستخدام القوة العسكرية ضد العراق وان التراجع عن القرار يعطي اشارات للضعف ستتعامل معها واشنطن على اساس ان الحملة الاعلامية والضغوط الدبلوماسية قد اثرت في القرار العراقي وانه بالامكان اللجوء الى هذا الاسلوب في اية قضية اخرى للضغط على العراق ، اما الرأي الآخر فظل يرى طبقا للاستنتاج الذي توصلت اليه الدبلوماسية العراقية ان استمرار بقاء الغربيين في العراق ادى الى تهشيم صورته في الخارج واعطى للرئيس الامريكي جورج بوش ذريعة مؤثرة في تعبئة الرأي العام لقبول خيار الحرب ، وان كل العوامل التي ظهرت بعد الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ لم تكن قادرة على تعبئة الرأي العام الامريكي ضد العراق بالقوة ذاتها التي اشتغل بها هذا العامل ، ذلك لأن الامريكان لم يكونوا معنيين بوضع الاسرة الكويتية الحاكمة ومستقبلها ....، ولم يكن القول بان العراق يسيطر على خمس احتياطي النفط ليقلق الرأي العام الامريكي بالقوة نفسها التي هزّ بها موضوع منع الغربيين من السفر .

وظل الرأيان على طرفي اجتهاد مختلف .. ولم يعط الرئيس صدام حسين كلمة قاطعة حتى صباح الخامس من كانون الاول

(ديسمبر) ١٩٩٠ حول مصير آخر ثلاثة آلاف رجل اجنبي كانوا في العراق ، عندما استقبل جون كونالي ، وهو الرجل الذي كان من المحقق ان يموت في حادث اغتيال الرئيس الامريكي الاسبق جون كندي ، اذ كان برفقته داخل سيارة الرئاسة وقتما كان حاكما لولاية تكساس عام ١٩٦٣ فاصيب بطلقات مباشرة ، وعُدّ قتيلا في الساعة الاولى لحادث الرئيس الا ان الحظ كان معقودا له فقد اجريت له عملية جراحية انقذته من الموت ، ويبدو انه اراد ان يجرب حظه ثانية في قضية مستعصية فحضر الى بغداد بصفته وزير خزانة سابق ومعه اسكي وايت رئيس وفد شركة النفط الساحلي الامريكية (Coastal) .

استمع الرئيس في اللقاء الذي جرى في القصر الجمهوري الى عرض مؤثر للطريقة التي يستثمر بها الرئيس بوش هذا الموضوع ضد العراق ، وذهب المتحدثان الامريكيان الى ان بوش يقنع الشعب الامريكي اليوم بان قيادة العراق تضمر الكراهية والعداء له كشعب وليس للادارة السياسية في واشنطن .. والدليل على ذلك هو منع الغربيين من مغادرة العراق .

كان ثلاثة من اعضاء القيادة العراقية هم طه ياسين رمضان وسعدي مهدي صالح ولطيف نصيف جاسم فضلا عن سكرتير الرئيس يستمعون الى حجج جون كونالي ، وقبل ان ينتهي اللقاء اعطى الرئيس صدام حسين وعدا قاطعا بالسماح للغربيين بمغادرة العراق .

وبالفعل اعلن يوم ١٩٩٠/١٢/٦ عن هذا القرار بصورة رسمية .. ليعود (كونالي) فخورا بحظه الذي جربه امام الملأ مرتين على الاقل .

وكان رؤساء دول من طراز كورت فالدهايم ، و رؤساء حكومات سابقون من مستوى فيلي برانت وناكاسوني وادوارد هيث ، ومرشحو رئاسة امريكان مثل جيسي جاكسون .. قد جربوا

من قبل محاولاتهم للحصول على النتيجة التي ظفر بها في النهاية (كونالي) .

وقبل اقل من شهرين ، في يوم الاحد ٢١/١٠/١٩٩٠ ، كان الرئيس صدام حسين يستمع الى ادوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا الاسبق الذي طلب منه السماح بسفر الرعايا الاجانب بمن فيهم البريطانيون ، فابدى الرئيس العراقي رغبته في عدم وضع اي قيد على حرية المغادرة لأي من هؤلاء ، ولكنه طرح حاجة بلاده الى « ضمانات بان السلاح لن يستخدم ضد العراق » ، وحدد الضمانات التي يريدها العراق باحد الخيارات التالية :

- تعهد علني من امريكا
- تعهد ثنائي من بريطانيا وفرنسا .
- تعهد باية صيغة من الصيغ يصدر عن الامم المتحدة .

واضاف الرئيس : اننا لسنا مرتاحين لوجود اجانب وقد قيدت حريتهم في السفر .. لكن هذا حصل لكي ندرأ الحرب ، كما نتصور .

علق السيد هيث : ان هذا لن يساعد على بلوغ الحل الشامل الذي يقول به العراق .

فاجابه الرئيس صدام حسين :

- نحن لانريد ان نتوصل الى الحل الشامل لكي نسمح للاجانب بمغادرة العراق .. انما نريد ان يتغلب منطق السياسة على منطق البندقية .

ثم تجاوب الرئيس العراقي مع رئيس الوزراء البريطاني الاسبق في طلباته لتسفير عدد من الاشخاص الذين انتهت عقود عملهم ، او كانوا طاعنين في السن الذين قال عنهم هيث : « ان هؤلاء لم يعملوا شيئا يسيء اليكم » .

فرد الرئيس :

- لو عملوا شيئا مسيئا ضدنا لخففوا ألمنا عليهم ، وهم ليسوا

مسؤولين عن كل ماحصل .. لكننا نأمل ان لايطول بقاؤهم .. وتطلع في الوجه المستدير لادوارد هيث ، وشعره الابيض وكأنه يستقرئ جزءاً من تاريخ الازمة التي كان هيث احد اطرافها وشهودها سنة ١٩٦١ عندما شغل منصب مساعد وزير خارجية بريطانيا في يوم اعلان استقلال الكويت ثم مطالبة العراق بعودتها كقضاء ملحق به .. وقال :

- في الشهور الثلاثة المقبلة سيتضح كل شيء ، ياسيد هيث ، الحرب او السلام ...

□ □ □

اما السيد فيلي برانت مستشار المانيا الاسبق فكان يرى ، في حديثه مع الرئيس صدام حسين (١٩٩٠/١١/٧) ، انه اذا حصل عدوان على العراق فان اصحاب القرار في امريكا لن تهمهم حياة اولئك الذين وضعهم العراق في المنشآت الحيوية ، بل ربما احدث احتجازهم العكس في امريكا ، بعد ان ادى الى توفير دعاية اضافية ضد العراق قد تسّرع في نشوب الحرب .

وقد اجابه الرئيس صدام حسين على ملاحظته بان قرار منع اي انسان من السفر هو قرار سيء :

- .. لكنه قرار الاضطرار .. وليس قرار الاختيار ..

□ □ □

كان المهم لدى العراق هو منح زائريه من كبار الشخصيات الامريكية والاوربية واليابانية ورقة سياسية للتحرك ضد الحرب ، من خلال تقوية مواقعهم في بلدانهم عبر السماح لهم باصطحاب اعداد من مواطنيهم الموجودين في العراق .

ولذلك كانت حصة ادوارد هيث كبيرة ، اذ عاد بصوت عال ليتحدث ضد الحرب ، ويدعو للحوار مع العراق ، بعد ان ارجع معه على طائرته عددا كبيرا من مواطنيه ، وحصل الامر نفسه مع

فيلي برانت المستشار الالماني الاسبق ، وناكاسوني رئيس الوزراء الياباني الاسبق ، وسواهما ممن اشترك في مد قناة دبلوماسيـة بديلة للقنوات التقليدية التي أُغلقت في وجه العراق .

عند بدء الحرب .. صارت المرارة تعتصر نفوس الكثيرين .. الى الحد الذي يعتقد بعض السياسيين ان العراق لم يتعود اتخاذ قرار والتراجع عنه في منتصف الطريق ، ولذلك كان يمكن له ان يستمر في موقفه مادام الضرر الناجم عن الخطوة الاولى في هذا الاتجاه قد اخذ مداه ، خاصة بعد ان بدا للجميع ان الحرب آتية

لامحالة ، وان اخلاء سبيل الغربيين صار مكسبا سياسيا للولايات المتحدة وحلفائها ...

□ □ □

سألت السيد طه ياسين رمضان نائب رئيس الجمهـورية عن الاسباب التي جعلته داعية متشدداً للتحفظ على سفر رعايا الدول الاخرى من العراق ، برغم ان مؤشرات مقابلة كانت تدل على ان قرار الحرب قد اتخذ بغض النـظر عن بقاء هـؤلاء في العراق او سفرهم الى خارجه .

اجابني الرجل بعد سنة ونصف على وقف اطلاق النار :
ـ انني اليوم أكثر ايماناً من اي وقت مضى بأن حجز خمسة آلاف اجنبي ، لو استمر ، كان يفرض احتمال تغير امور كثيرة ، برغم انني لست متحفظاً على صيغة القرار الاخير الذي اتخذ بشأن اطلاقهم .

وذهب الى ان خـروجهم من العراق قـد سهل العـدوان عـلى العراق ، حتى ان تحديد موعد الضربة قد تم بعد ذلك التاريخ .

واضاف :

ـ في كل الاحوال عاملناهم افضل مما يجري التعامل مع اي رعايا اجانب في اي مكان ، وافضل بكثير مما عومل به العراقيون في الدول التي تحالفت ضد العراق .

□ □ □

ولحظة بدء الهجوم على بغداد تمنى القياديون العراقيون لو كان الغربيون موجودين تلك اللحظة حيثما كانوا قبل اربعين يوما ... وهم يعدّون ما حصل خطأ وقد وقع... □



ـ الرئيس صدام حسين لدى استقباله وزير الخزانة الامريكي الاسبق جون كونالي ومعه وفد شركة كوستال النفطية الساحلية في ١٩٩٠/١٢/٥ .

باريس : خطوة الى الامام اثنتان الى الخلف

لابد للحوار الحميم بين فرنسا والعرب من ان يتجدد ، فالعالم العربي والاسلامي جار لاوربا فتهمنا مجاورته ، اما بالنسبة لامريكا فانه اشبه بهلوسة كاريكاتيرية ..

جان بيير شوفنمان

وزير الدفاع الفرنسي المستقيل

كان السيد ميشيل فوزيل رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الجمعية الوطنية الفرنسية هو السياسي الفرنسي الوحيد الذي اجتمع طوال الازمة مع الرئيس صدام حسين .. مع ان العراق كان قد اقترح ان يحضر الى بغداد مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ وفد يرأسه وزير فرنسي مخول ، الا ان باريس فضلت ايفاد شخصية برلمانية تحظى بثقة الرئيس ميتران وتحقق من خلاله معالجة لأي اختناق تواجهه الحكومة امام الجمعية الوطنية ، اذْ سيكون بمقدور الرئيس الفرنسي اذا فشلت مهمة فوزيل ان يذهب الى الجمعية الوطنية ويقول لقد ارسلت واحداً منكم ولم نصل الى شيء فلا يلومنّي احد على المشاركة في الحرب . وفي الوقت نفسه فان شخصية برلمانية لن تلتزم امام بغداد بالدرجة التي يمكن ان يلتزم بها احد اعضاء الحكومة .

ارتبط فوزيل بعلاقة حميمة مع الرئيس ميتران الذي كان شاهد زواجه ، ثم عمل معه خمس سنوات ناطقاً رسمياً باسمه منذ دخوله قصر الاليزيه ، ولطالما ردد ميشيل فوزيل ان الرئيس الفرنسي يعامله كابن له ، لذلك اختار في بدء حديثه مع الرئيس صدام حسين قبل منتصف ظهيرة السبت الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ان يشير الى العلاقة الشخصية التي تربطه بالرئيس ميتران وقال :

ـ ان ما أقوله سيبقى سراً وما ستقوله لي يا سيادة الرئيس سأنقله الى الرئيس ميتران فقط .

وقبل ان يعرض مهمته صار يلخص رأيه بالعلاقات العراقية ـ الفرنسية فقال : (ان فرنسا تعدُّ نفسها صديقة للعراق وقد استفادت من هذه الصداقة خمسة عشر عاماً ، وتأمل اليوم ان تستمر صداقتها مع العراق وان الرئيس ميتران يعلم جيداً انك انت الذي ارسيت دعائم هذه الصداقة وانت الذي تحافظ عليها) .

وفجأة توقف ميشيل فوزيل لحظة وكأنه شعر بأن الحديث عن

الصداقة قد استغرقه فصحح لنفسه : (مع ذلك الصداقة ليست كل شيء في السياسة رغم انها عنصر مهم فيها وفي حالة فرنسا والعراق هناك صداقة وهناك مصالح مشتركة ، وان فرنسا تريد ان تبقى دولة عظمى في المستقبل وتحتاج لأن تلعب دورها داخل المجموعة الاوربية وفي حوض البحر المتوسط وفي الشرق الاوسط . وهي قادرة على اداء هذا الدور اضافة الى انها اكثر دول اوربا انفتاحاً على دول الشرق الاوسط ... لقد انتهت المرحلة الكولونيالية ونحن نريد ان نقيم قواعد وعلاقات صداقة وتعاون مع العالم العربي بالاعتماد على شريك قوي مثل العراق الذي يقع في المرحلة الاخيرة من مجموعة الدول الشرق اوسطية) .

كان الرئيس صدام حسين الذي جلس الى جواره وزيرا الخارجية والاعلام وسكرتيره ومرافقه يصغي باهتمام الى كل كلمة يقولها ميشيل فوزيل ، واستنتج المبعوث الفرنسي ان ثمة سؤالا يشغل الحاضرين فبادر بنفسه يطرح السؤال :

ـ هناك سؤال يطرح نفسه بلا شك .. اذا كانت مثل هذه الصداقة قائمة بين البلدين فكيف شاركت فرنسا في هذا التحالف القائم في الخليج ؟ ومضى يجيب على السؤال : (لو لم تشارك فرنسا في هذا التحالف لما أمكنها لعب الدور الذي تلعبه الآن ، وبلا شك فان دور فرنسا كان فعالا في التحالف) ، وعاد ثانية يفسر الكيفية التي تراها بلاده لاداء دور سياسي بعد مشاركتها الفعلية في العمل ضد العراق اذ ان الامر بدا مركبا وغير واضح امام مستمعيه . قال فوزيل :

ـ اذا استطاعت فرنسا ارسال مبعوثين سريين وبشكل غير معلن الى السعودية والعراق فان ذلك سيكون امراً ساراً لها لايجاد حل عربي للازمة .. وان لفرنسا موقعاً مهماً داخل المجموعة الاوربية ويمكنها عن طريق اصدقائها تغيير المسيرة الحالية ، وانتم تعرفون ان الاوربيين مختلفون ، فالانكليز والهولنديون يسيرون في خط امريكا تماماً اما فرنسا واسبانيا وايطاليا والمانيا فهي دول تسير في

خط يمكن للعراق الاعتماد عليه لايجاد حل مناسب ، لان هذه الدول تعرف اكثر من غيرها الحقائق المتعلقة بالمنطقة العربية والاوسطية . واشار فوزيل الى خطاب رئيسه في الجمعية العامة للامم المتحدة في الرابع والعشرين من ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ وقال : ها هو ميتران يمد يده مرة اخرى فاذا كان من الممكن وضع قائمة من الضمانات التي يريدها العراق لضمان امنه فان فرنسا مستعدة ، وتوقف قليلا ليقول : « ان الجميع يقولون انتم تملكون بايديكم مفاتيح الحرب والسلام ».

وهنا قاطعه الرئيس صدام حسين :

ـ السلام موجود لديكم وليس عندنا .. فنحن هنا في منطقتنا ، وقد حصل اعتداء على مقدساتنا ، ونحن مهددون ضمن بلدنا ووطننا ، لذلك فان مقولتكم هذه مقلوبة ، مفاتيح الحرب والسلام ليست بايدينا ... لو كان مفتاح الحرب بايدينا لكنا قد ضربنا القوات الامريكية اثناء نزولها ولكننا لانريد الحرب ، وانتظرنا خمسة اشهر حتى تحضر القوات الامريكية بينما يقول المنطق العسكري اضرب عدوك ودمره قبل ان تتكامل قوته ، ولم نفعل ذلك لاننا نريد السلام مهما كانت بارقة الامل فيه محدودة . ان الفرنسيين والسوفيت هم اكثر الناس معرفة بان العراق يريد السلام بحكم تعاملهما الطويل معه . ان الذي بنى العراق هم نحن وليس غيرنا ونحن قوم نحسن البناء ونريد الفرصة للبناء ، اذن .. السلام والحرب هما بيد امريكا وفرنسا وغيرهما وليس بايدينا » .

شكر ميشيل فوزيل الرئيس صدام حسين على ملاحظته وقال : « هل يمكن لفرنسا ان تضع لائحة الضمانات الاقتصادية والعسكرية والحدود والتنمية والنفط والمؤتمر الدولي مع اعلان نية العراق في الانسحاب ؟»

كانت المفردات التي يختارها الطرفان خلال الحديث قصيرة تتحاشى الدخول في التفاصيل ، اذ ان فرنسا لم تكن مستعدة لاعطاء ضمانة بشيء ، ليس لانها غير راغبة ، ولكن لانها غير قادرة

من الناحية العملية ، اما العراق فلم يكن متوقعا ان يعطي اي شيء قبل ان يعرف الشيء الذي سيحصل عليه ، ولذلك بدا أن الكلمات تقترب من جوهر نقطة الاصطدام ، ثم لاتكاد تبتعد عنها .. فيلجأ المتحدثان بين حين وآخر الى الماضي والاستذكار لاسقاط مايمكن استنتاجه منه على الحاضر .

لم يعلق الرئيس صدام حسين على مسألة اعلان النية في الانسحاب ، ولكنه ذكرّ ميشيل فوزيل بانه اول مسؤول فرنسي يتحدث اليه منذ اكثر من سنة . ولعله اراد ان يثير حفيظته عندما أخبره : (ان الامريكان كانوا ولحد الان يجرون معنا صلات اكثر من الفرنسيين ويبدو اننا ظُلمنا كثيرا بسبب (الاشاعة الدولية) عن صداقة العراق مع فرنسا ، ربما لو لم نكن معروفين باننا اصدقاؤكم لتصرفت فرنسا بتأنٍ اكثر وباقتراب اكثر من الانصاف ، ولقد حاولنا عدة مرات ان نظهر الصداقة من طرفنا باجراءات ولكننا كنا نواجه دائماً بالصدود والاصرار على موقف فرنسي متعنت ، عندما سمحنا للضيوف الفرنسيين بالمغادرة بقرار خاص ووُجهنا بموقف فرنسي اصعب من السابق حتى لايقول الامريكان ان فرنسا صديقة للعراق ، وظلمنا باجراءات كثيرة حتى اني كنت امزح مع رفاقي اذ قلت لهم ان السماح للفرنسيين بالمغادرة يحرج ميتران وكان علينا ان نتفق على صيغة لا تحرجه .

نبه الرئيس صدام حسين ميشيل فوزيل الى انه لم يلتق من قبل مع الرئيس ميتران : « لست مسروراً لعدم توفر فرصة للقاء مع ميتران ليعرف كل منا الاخر ، ففي الحرب مع ايران كانت ظروفنا صعبة ولم نشأ احراج فرنسا وبعد الحرب قامت حملة في فرنسا قادتها زوجة ميتران ولم نشأ ان نلتقي في مثل تلك الاجواء .. ثم جاءت هذه الازمة ومع ذلك بقي انطباعي ايجابيا عن الرئيس ميتران بسبب تجربته الطويلة وما كان يعلنه عن اهتمامه بالتاريخ ، وتاريخ الشعوب والدول بوجه خاص ولموقفه تجاه ايران ، قام ميتران بجولة في المنطقة وزار الكويت والتقى بحكامها السابقين

وزار الامارات ولكنه لم يزر بغداد ، ولا اظن انه يحتاج ان نذّكره بتاريخ بغداد وتاريخ بابل وسومر ونينوى .. هذه الحضارات التي علمت الانسانية الكتابة وعلمتها القانون .

كان صدام حسين حريصاً على إنعاش الاحساس بالتاريخ منذ احيا الحوار التاريخي المبكر الذي بادر اليه الخليفة هارون الرشيد حين أقام اول حوار من نوعه بين بغداد و (اكس راشابل) ، إذْ استقبل سنة ٨٠٠ للميلاد مبعوثا من ملك الفرنجة (شارلمـان) يلتمس حماية الحجاج المسيحيين المتوجهين الى القدس ، فاجابه الرشيد على طلبه ، ورد اليه مع مبعوثيه هدايا ثمينة بينها ساعة دقاقة لم تكن اوربا تعرفها من قبل ولا كان (شارلمان) رآها في حياته .

شريط من الصور يمر امام الرئيس صدام حسين وهو يستمع الى السيد فوزيل ، وكأنهمـا يبحثان امكـانية احيـاء ميت .. هو العلاقات بين باريس ـ بغداد .

فمنذ زيارته الى باريس سنة ١٩٧٤ عندمـا كان نـائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة اشاع فرصا واسعة للثقـة والتعاون لم يكن الاتفاق النووي بين باريس وبغداد الشاهد الوحيد عليها ، يوم كسر الفرنسيون ، وفي مقدمتهم جاك شيـراك رئيس الوزراء آنذاك ، الحاجز الذي يفصل بين دولة من العالم الثالث وخفايا الصناعة النووية في الغرب حين استجاب شيراك لرغبـة صدام حسـين في ترتيب زيارة احد المفاعلات النووية الفرنسية ليختار بنفسه نموذج المفاعل الذي يحتاجه العراق .

لكن ايقاع العلاقات تعثر ، ثم تباطأ ، ولم تسر الامور كما تمنت بغداد ، وبحلول سنة ١٩٨٨ كان العراق يتوقع أن كسبه الحرب مع إيران يمكن أن يكون سبباً لتزيد فرنسا من مستوى علاقاتها السياسية والعسكرية معه ، لكن الذي حصل أن فـرنسا أوقفت شحناتها العسكرية في لحظة رجحان الموقف لصالح العراق ضد إيران مما خلق شكوكاً عميقة في بغداد حول دوافع التحول الحاد في

موقف فرنسا ، إذ أن القادة العراقيين كانوا يعتقدون من قبل أن وجود لوران فابيوس على رأس الحكومة الفرنسية منتصف الثمانينات عطل كثيراً خط النمو الصاعد في علاقات باريس وبغداد ، يوم غادر فابيوس رئاسة الحكومة بقي رولان دوما وزيراً للخارجية ولم يكن هو أيضاً من المتحمسين لتطوير العلاقات مع العراق وقد تلمس طارق عزيز وزير خارجية العراق ذلك بنفسه بعد شهر واحد من وقف اطلاق النار بين العراق وإيران عندما رتب سفير العراق في باريس آنذاك مكالمة هاتفية بين دوما بمكتبه في باريس وطارق عزيز الذي كان موجوداً في مقر البعثة العراقية في نيويورك لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وفوجىء الوزير العراقي أن دوما يتبنى التفسير الايراني لقرار مجلس الأمن ٥٩٨ حول وقف اطلاق النار وترتيب اجراءات السلام بين العراق وإيران وتجاهل دوما طلب العراق قيام مفاوضات مباشرة بينه وبين ايران .. وأشار الوزير الفرنسي صراحة أن على العراق أن يلتزم باتفاقية الجزائر لسنة ١٩٧٥ ما دام قد وقعها ، ورغم أن دوما كان على معرفة شخصية بطارق عزيز وتربطه ببغداد التي زارها خلال الحرب العراقية ـ الايرانية علاقة تفهم متوازنة ، ورغم أنه لم يكن هناك أي ود بين فرنسا وايران في سنة ١٩٨٨ الا أن الوزير الفرنسي لم يعارض فكرة تجزئة القرار ٥٩٨ كما كانت ايران تفسر القرار ، في الوقت الذي كان العراق يرى ان القرار وحدة متكاملة لا يجوز أن تتجزأ .

والتقط طارق عزيز الاشارة واضحة : ثمة تحول في الموقف الفرنسي يُقصد به ايقاف النسغ الصاعد في العلاقات باستخدام الكوابح التي « تفرمل » هذه العلاقات . وصادف خلال زيارة طارق عزيز الى نيويورك ان التقى مع جورج شولتز وزير الخارجية الامريكي آنذاك خلال دعوة غداء اقامها الوزير الامريكي لعدد من وزراء الخارجية العرب ، فاكتشف ان منطق الأمين العام للأمم المتحدة خافير بيريز دي كويار المدعوم من الوزير الامريكي

لايختلف عن منطق دوما في الوقوف ضد فكرة المفاوضات المباشرة بـين العراق وإيـران لتطبيق القـرار الدولي ،فـأدرك أن المـوقف الفرنسي الجديد هو جزء من موقف غربي عام في التعامل مع العراق بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الايرانية .

وتيقن سفـير العراق لدى فـرنسا ، ومن ثم وزارة الخـارجية العراقية ان هناك من يسحب العلاقات الى الخلف ، فما كان السفير يتوصل في مباحثات مضنية مع (شير) سكرتير عام الخـارجية الفرنسية الى اتفاقية لجدولة الديون المستحقة على العراق ، حتى يكتشف بعد ايام ان مجموعة المتنفذين في وزارة المالية الفرنسية ترفض مشروع الاتفاق ، لتجعله يدور في حلقـة مفرغـة ، بحيث مضت سنة ١٩٨٩ دون ان يتمكن البلدان من تسوية مشاكلهما المالية والاتفاق على حل .

عاد الرئيس صدام حسين يشرح لميشيل فوزيل رؤية بلاده للعلاقات مع فرنسا فقال : « لكل هذه الاسباب التي تحدثت عنها فقد اخترنا الصداقة مع فرنسا قبل ان تختار هي الصداقة معنا ، اخترنا الصداقة في اطار نظرة بعيدة وفي رؤيتنا اننا جزء من امة كبيرة وفي الوقت نفسه كان واضحا لدينا ان فرنسا جزء من اوربا وتلعب دوراً متميزاً فيها ، وعندما اخترنا الصداقة معها لم يكن ذلك على اساس مفردات معينة ولم نكن في حاجة الى السلاح او الى الاموال وانما كنا بحاجة الى اطار بنائي واضح ذي مدى مستقبلي بعيد . واضاف من هذا فان مبادرتنا للعلاقة مع فرنسا هي اختيار سياسي ستراتيجي وليس اختيار ظرف طارىء ، لذلك انا مسرور عندما تقول ان فرنسا تريد لهذه الصداقة ان تستمـر ، اما من ناحيتنا فلم نجر تغييرا على علاقتنا وصداقتنـا ونأمـل ان تكون فرنسا كذلك وطبقاً لهذا التحليل فاننا نشجع فرنسا على ان تلعب دور الدولة العظمى اكان في العالم او في مداخلاتها المشروعة في منطقتنا ، ولكننا نسأل احياناً هل ان فرنسا مهيأة لان تلعب هذا الدور ؟ اذ ان الواقع يؤشر لنا احيانا العكس . فأهم ما يتطلبـه

الدور الكبير هو استعـداد للتضحية من المستـوى نفسه ، فهـل فرنسا مستعدة لذلك ؟

وعاد الرئيس للحديث عن المتغيرات الدولية المستجدة بعد بروز نزعة امريكا في الانفراد بالسيطرة على العـالم : « امريكـا تريـد السيطرة على المنطقة وبترولها ، ولانها اصبحت منفلتة ومنفردة في العالم فانها ستحدد طموحات الدول الكبرى بما في ذلك فرنسا ، فهل لدى ميتران تصور بهذا المستوى كما كـان تصوره عميقـا للصراع الفارسي العربي ؟.. وهل ان هذا التصور لديه يمتد الى رؤية كما نراها وهي ان اسـرائيل التـوسعية حليفـة في المخطط الامريكي ؟ عندما يكون الجواب نعم فاننا لن نختلف بعد ذلك واذا توحدت الرؤية في هذا الاتجاه لن نجد اختلافات في اية قضية من القضايا .

صار واضحاً امام فوزيل ان الرئيس صدام حسـين يدقق في معـرفة النيـات ويبحث عن نقاط مشتـركـة في النـظرة الى الدور الامريكي الجديد على اساس ان الاطمئنان لوجود تماثل في الرؤيا سيجعل معالجة اي موضوع امراً ممكناً ومن خلال الازمة التي جاء فوزيل ليطرح استعداد فرنسا في ايجاد مخرج لها .

قال الرئيس صدام حسين لفوزيل بعبارات محددة :

- (ان العراق يريد السلام لانه يحتاج السلام اكثر مما تحتاجه امريكا) .

واستدرك يوضح لمستمعه :

- ليكن واضحاً بعد ان حدد الامريكان موعداً نهائياً لاستخدام القوة بعد عشـرة ايام من يـومنا هـذا اننا لن نقـدم شيئاً تحت التهديد .. وحدد طريق السلام بانه يمر عبر الحوار المعمق الذي يتناول قضايا المنطقة بمقياس واحد وليس بمقاييس مـزدوجة : « هذا حق واختبار لجدية القائلين بالحل الدولي والا فليتركوا للعرب ليحلوه بينهم كما سبق للعرب ان حلوا نزاعات اخرى .

استمر فوزيل يصغي ويدوّن الملاحظات حتى وصل الرئيس للاشارة الى الدعوة الفرنسية التي يحملها فوزيل فقال :

ـ انني انصح السيد ميتران ان لا يقدم على مبادرة قبل ان تستكمل امامه صورة كل التفاصيل وها انت اول فرنسي يجيء الينا وعليك اطلاع السيد ميتران على الحقائق ليكون الحوار بيننا شاملاً وواضحاً . واضاف : « اما اذا كان السيد ميتران متعجلا في مبادرته فسندرسها في ضوء مدى شموليتها واذا ماوجد ميتران ان الظرف الدولي لمبادرة بهذا الشمول فان الطريق الذي امامنا هو الحل العربي ».

قال فوزيل : « ان مشروع السلام المقدم منا الى الجمعية العامة للامم المتحدة مشروع مفيد وقد اضاف ميتران شروحات اليه في مؤتمره الصحفي في ١٥/١٢/١٩٩٠ وان رئيس فرنسا يقاسمكم الشعور بأهمية استقلالية بلاده فقد قال بالامس يجب الا يتصور بوش ان جنرالات فرنسا وجنودها من الدرجة الثانية ».

وربما اراد فوزيل بهذه الملاحظة ان يمرر الى العراقيين استياء فرنسا من الطريقة التي يعامل بها جنودها في السعودية من قبل القيادة العسكرية الامريكية التي كانت قد جمعتهم في منطقة حفر الباطن حيث لا تتوفر الخدمات التي يتمتع بها الجنود الامريكان الموجودون في المنطقة الشرقية وعلى الساحل بحيث تجمع الفرنسيون في منطقة صحراوية ذات مناخ صعب وتم وضعهم الى جانب القوات العربية التي ظل الامريكان ينظرون اليها على انها صنف من الدرجة الثانية ، وكان بيير شوفنمان وزير الدفاع الفرنسي قد عاد مستاءً بعد زيارته الى القطعات الفرنسية في حفر الباطن لما سمعه من جنوده عن التعامل الامريكي السيء معهم .

ونقل فوزيل رغبة الدول الاوربية في عقد لقاء مع وزير خارجية العراق ، فقال الرئيس : « ان وزير الخارجية لن يذهب الى اوربا قبل ان يزور الاوربيون بغداد كنوع من المقابلة بالمثل ، وسبق ان رحبنا باللقاء مع وزيري خارجية المانيا وايطاليا وكان هناك حديث

حول فرنسا لكن المواعيد الغيت بعد الغاء موعد امريكا وفي كل الاحوال نرحب بأي وزير خارجية اوربي في بغداد ». وهنا ذكر فوزيل : « ان سيادتكم اذا وافقتم ووافق الرئيس ميتران فان مبعوثه اليكم هو وزير خارجيته رولاند دوما ، ولكن فرنسا تريد من العراق ان يعطيها حجة امام شركائها وذلك بالاعلان عن النية بالانسحاب ، وقد فهمت الان ان هذا الاعلان يكون ضمن المسألة الفلسطينية والضمانات التي يريدها العراق ».

اختتم الرئيس المقابلة باعادة تحديد الموقف من الخطوة الفرنسية « لقد تحدثت معك بشكل شامل وانا اعتقد بضرورة مواصلة الحوار وعلى الفرنسيين ان يضعوا في بالهم ان هناك مبادرة يؤيدها العراق او بيانا يعلق عليه ايجابياً بدون الدخول في التفاصيل او تصريحاً يسكت عنه ، فهناك في الدبلوماسية مجالات كثيرة ». واستطرد : لو اطلع الرئيس ميتران على تصريح ادوارد هيث عندما كان وكيلا لوزارة الخارجية البريطانية لادرك كم هو معقد موضوع الحديث عن كلمة « انسحاب » فقد قال هيث في تصريحه الى اين ينسحب العراق ؟ ليست هناك حدود .. فمطلوب من فرنسا ان تتحرى عميقاً الحقائق التي توجد وثائقها في بريطانيا وتركيا ونحن حاضرون لمعاونتكم ».

□ □ □

وقبل ان يغادر فوزيل المكان كانت لديه فرصة لحديث قصير على انفراد مع الرئيس صدام حسين لم يحضره غير المترجم .

في باريس كان هناك شخصان في انتظار فوزيل الاول هو الرئيس فرانسوا ميتران الذي كان قد قابل مبعوثه قبل السفر الى بغداد واملى عليه تعليماته ، ولذلك كان اول شيء فعله فوزيل فور عودته الى باريس ان ينطلق الى قصر الاليزيه لمقابلة رئيسه وابلاغه بالذي سمعه في بغداد . اما الشخص الثاني الذي كان ينتظره فهو سفير العراق في فرنسا ، عبدالرزاق الهاشمي ، فقد استمع هو الاخر الى

انطباعات فوزيل « انني سعيد لان الزيارة كانت مفيدة جداً » .

بعد ايام قلائل تبلورت الافكار التي كان قد حملها فوزيل الى بغداد في مشروع فرنسي من خمس نقاط تسلمه السفير من وزير الخارجية دوما ، وتأسس المشروع الفرنسي على القاعدة ذاتها التي عرضها فوزيل وهو ان يعلن العراق نيته واستعداده للانسحاب بدون ضمانات مسبقة ، فبعد دعوة غداء يوم الخميس العاشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، التقى سفير العراق وزير الخارجية دوما بناء على طلب الاخير .. واستمع منه الى ما يدل على بقاء ما يمكن ان يحافظ على ما تبقى من علاقات بين البلدين وخاطب دوما الدبلوماسي العراقي :

ـ اننا نشكر الرئيس صدام حسين لثقته بمصداقية فرنسا طبقا لما قاله لميشيل فوزيل .. وان مصداقية بلادنا هي في الميزان اليوم ، ونحن نرغب في ان ترافقنا في مسعانا لحل المشكلة دول اخرى مثل الجزائر واسبانيا والاتحاد السوفيتي وقد استجمعنا الافكار الآتية لتكون مشروعا للحل .

سحب السفير ورقة وبدأ يسجل مايتلوه عليه الوزير دوما :

ـ الخطوة الاولى بعد الانسحاب هي ان يتم تشكيل قوة عربية من البلدان التي لم يكن لها موقف منحاز لاي من الطرفين كدول المغرب العربي ، وتأخذ هذه القوة على عاتقها تسيير شؤون الكويت خلال مدة انتقالية ـ ثم تبدأ دول هذا التشكيل بمفاوضات حول كل المشاكل والمواضيع التي يريد العراق ان يطرحها مثل الحدود ومستقبل النظام في الكويت والامور المالية وتحديد شرعية السلطة في الكويت .

واضاف دوما :

ـ في الوقت نفسه ، او قبل الخطوة رقم واحد ، او بعدها ، وحسبما سيتم الاتفاق عليه تقوم فرنسا بدعم من دول اخرى مثل الجزائر واسبانيا وروسيا والمانيا باثارة القضية العزيزة على قلب الرئيس صدام حسين ، وهي القضية الفلسطينية من خلال الدعوة

لعقد مؤتمر دولي حول الخليج وفلسطين ولبنان ، ونحن نأمل ان تؤيدنا الصين في هذه الخطوة .

واستدرك الوزير الفرنسي :

ـ لانريد ان نخدع العراق ، فاميركا واسرائيل لن توافقا على هذه الخطوة .. اما الاتحاد السوفيتي فسأتحدث الليلة مع وزيره .

اما الخطوة الثالثة فقد وصفها الوزير دوما على النحو الآتي : (مقابل الموافقة على الفقرتين الاولى والثانية يتعهد العراق بالانسحاب حسب جدول زمني يحدده هو)

وأشعر دوما مستمعه بان الجزائر تؤيد هذه الخطوات وان وزير خارجيتها الذي كان في جنيف امس ٩/١/١٩٩١ تحدث عن هذا البرنامج مع الوزير العراقي طارق عزيز .

سأل السفير : وما هي الخطوات العملية ؟

اجاب دوما : اذا وافقت بغداد من حيث المبدأ على هذه الافكار سأتوجه الى بغداد لمناقشة التفاصيل .

حين ارسل السفير المشروع الى بغداد تسلم في اليوم التالي برقية من ست كلمات : « اهلاً وسهلاً بالوزير دوما لمناقشة المشروع ».

كان العراقيون راغبين في اعطاء فرنسا فرصة النجاح في خطوتهاولكنهم في الوقت نفسه كانوا يستذكرون الطريقة التي تعامل بها الفرنسيون مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ، فقد طلبوا منه كأصدقاء ان يقدم تنازلات متتالية لتكون ورقة بأيديهم في طرح القضية الفلسطينية على المستوى الدولي وبدعوى إحراج الادارة الامريكية .. وكانت النتيجة ان عرفات اعطى ما اراده الفرنسيون ولكنه لم يحصل على شيء ، فظلت هذه الصورة ماثلة امام ابصار العراقيين وهم يتأملون الخطاب الفرنسي الموجه اليهم .

حمل السفير الهاشمي رد بغداد الى وزارة الخارجية الفرنسية وسلمه مباشرة الى (كيسي جان) مدير مكتب الوزير ثم اجتمع مع (شير) سكرتير عام الخارجية الفرنسية وتحادث في اليوم التالي مع (ادغار بيزاني) رئيس معهد العالم العربي الذي ابدى

حماسة للقيام بدور بناء بين باريس وبغداد ، واطلع العراق شخصيات سياسية واقتصادية ورؤساء شركات مؤثرة في فرنسا ورجال الصحافة على ترحيبه بدور فرنسا واعتقاده ان باريس مؤهلة لصنع السلام .

□ □ □

كان العراق قد اسس في السنوات العشرين التي سبقت دخوله الكويت منظومة صلات اقتصادية وسياسية وثقافية مع فرنسا ارتقت الى مستوى التعاون الذي وازن في الثمانينيات العلاقات العراقية ـ السوفيتية العريقة التي تستند الى معاهدة صداقة وتعاون موقعة سنة ١٩٧٢ ، ولم يكن حادث الدخول الى منزل السفير الفرنسي في الكويت مطلع ايلول (سبتمبر) السبب الذي دفع بالرئيس ميتران لاتخاذ موقف حاد ضد العراق والانضواء الى التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الامريكية بهدف اخراج القوات العراقية من الكويت وفرض الحظر الشامل على العراق .. برغم ان حادث السفير الفرنسي في الكويت كان بالغ التأثير من الناحية النفسية والسياسية في الفرنسيين وجاء ليكون عنصرا مساعدا في تسويغ سياسة ميتران ضد العراق ، اذ ان الجمهور الفرنسي لم يستوعب قيام ضابط عراقي مع مجموعة من الجنود باقتحام منزل السفير الفرنسي في الكويت ولم يكن الاعتذار الذي قدمته الخارجية العراقية كافيا لامتصاص موجة الغضب التي وجهها وشحنها الاعلام الفرنسي بعد وقوع الحادث وجعلت الرئيس الفرنسي يعلن بكلمات قاسية تحذيرا للعراق مفعماً بعبارات الاستياء التي لم يتعوّد العراقيون الاستماع اليها من مسؤول فرنسي طوال عشرين سنة .

كان التفسير السائد في بغداد قبل سنتين من ذلك التاريخ ان موقف فرنسا تغير تغيّراً حاداً تجاه العراق بعد انتهاء الحرب مع ايران لتحيد باريس عن سياسة التعاون العسكري والسياسي التي

تبنتها طوال سنوات الحرب العراقية ـ الايرانية بدافع تقوية العراق كقوة وحيدة قادرة على صد الاصولية الايرانية في السنوات التي هددت بها طهران مصالح الغرب وحلفائه في المنطقة ، ولكن عندما انهزمت ايران وزال خطرها حصل التغير الذي صارت بغداد تراقبه بحذر وقلق ، بعد سنوات الانتعاش والنمو .. وكانت الدبلوماسية العراقية تشعر بان ميتران الذي اعلن قبل وصوله الى رئاسة الجمهورية انه سيعيد النظر بسياسة التعاون مع العراق اتخذ موقفا مغايرا لتصريحاته السابقة بعد ان دخل الاليزيه فعلا فحافظ على هذه العلاقات ليبدو آنذاك اكثر انسجاما مع افكار كلود شيسون وميشيل جوبير الوزيرين الديغوليين الاقرب فهما بالمنطقة العربية ، واستجاب ميتران ايضا لضغوط تجار الاسلحة ، لكن الجناح المتحفظ على سياسة التعاون مع العراق ظل يعمل بهدوء الى الحد الذي يستنتج فيه (جيل مونيه) الامين العام لجمعية الصداقة العراقية ـ الفرنسية خلال حوار بيننا حول العلاقات الثنائية بعد انهيارها ، ان هناك تيارين في الخارجية الفرنسية احدهما يؤيد التعاون مع العراق والثاني يتحفظ على هذا التعاون ويميل الى المنهج البريطاني ويرى ان فرنسا مثل بريطانيا صاحبة مصلحة في ابقاء العراق ضعيفا وان هناك وقائع تاريخية تفرض احياء ملف قديم يعود الى مطلع القرن عندما بحثت قضية ولاية الموصل في عصبة الامم واستبعدت فرنسا لصالح بريطانيا في الطريقة التي تقرر فيها رد الادعاءات التركية في ولاية الموصل ، ولذلك فان هناك تيارا مازال يرى ان لفرنسا الحق في العودة لاحياء قضية قديمة وان هذا الملف لايجوز ان يغلق الى الابد ، اما التيار المؤيد للتعامل مع العراق فكان يرى انه لاتوجد عقد تاريخية بين العراق وفرنسا تمنع نشوء مستويات متقدمة من التعاون .. اذ لم يكن العراق جزءاً من المستعمرات الفرنسية ولم يخلّف الفرنسيون في ذاكرة الشعب العراقي مآسي دامية مثل التي خلفوها لدى شعوب

المغرب العربي ، ومن هذا المنطلق فان العراق هو بوابة العودة الحقيقية لفرنسا الى العالم العربي واقرب ليكون كذلك حتى من مصر التي اشتركت فرنسا الى جانب بريطانيا واسرائيل في مهاجمتها عسكريا في اثناء حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وكان كلود شيسون وميشيل جوبير ينظران بهذا الاتجاه طوال عقد السبعينيات .

□ □ □

بعد سبعة ايام من عودة فوزيل الى باريس رن جرس الهاتف في الطابق الثاني من مبنى السفارة العراقية بباريس عند السابعة مساء الاحد الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ . فحول سفير العراق عبدالرزاق الهاشمي انظاره من القناة الفرنسية الخامسة التي كانت تعرض شريطا مصورا عن هبوط قوات امريكية جديدة في قاعدة الظهران . ورفع سماعة الهاتف :

ـ سعادة السفير .. ارجو ان تكون مستعدا عند الخامسة مساء غدٍ لملاقاة الرئيس فرانسوا ميتران .

كان المتحدث على الطرف الآخر هو مدير المراسيم في الخارجية الفرنسية . وخلال دقائق كان الهاشمي قد اعد برقية الى بغداد : (لقد طلبني ميتران الى مقابلة عاجلة غدا .. تعليماتكم) .

وقرر السفير ان يمكث في مبنى السفارة . وسحب من درج مكتبه ملفا يحوي المشروع الفرنسي ذا النقاط الخمس الذي كان قد تسلمه قبل ثلاثة ايام من وزير الخارجية الفرنسي . وتساءل في نفسه :

ـ هل سيضيف ميتران شيئا جديدا على المشروع ؟ ام ان لديه مفاجأة في اللحظة الاخيرة ؟

كان ادغار بيزاني رئيس معهد العالم العربي قد أوحى للسفير ان زيارة « دوما » الى بغداد يمكن ان تتحقق وآنذاك يستطيع العراقيون ان يبحثوا في تفاصيل المشروع الفرنسي ، ساعتها كان

السفير يقول لبيزاني : المشكلة ان المشروع يأخذ ولا يعطي . وهو اقرب الى افكار متناثرة منه الى برنامج عمل .

لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلا عندما وُضعت على طاولة السفير واحدة من اقصر البرقيات التي وردته من بغداد :

ـ (اسمع ما سيقوله ميتران .. واعلمنا) .

وادرك ان مهمته دقيقة ، وان عليه ان يتهيأ منذ هذه اللحظة للقاء حاسم .

كان السفير نفسه على معرفة بالرئيس . فقد التقاه غير مرة في حفلات استقبال رسمية ، واستطاع في واحدة من هذه اللقاءات سنة ١٩٨٩ ان ينتزع منه موافقة غير مترددة على القيام بزيارة الى العراق ، عندما كان يقف الى جانب طارق عزيز وزير الخارجية آنذاك في خلال حفل استقبال اقامه الرئيس فرانسوا ميتران للمشاركين في مؤتمر الاسلحة الكيمياوية ، سأل السفير الرئيس الفرنسي : هل تزور العراق ؟ فاجابه ميتران بلا تردد : ولِمَ لا ..؟ وكان لتلك الاجابة وقع كبير في السنة القلقة التي اظهرت ان علاقات باريس وبغداد غدت معرضة لمشاكل جدية على المستويات السياسية والتجارية .

كان نهار الاثنين الثالث عشر من كانون الثاني طويلا على الدبلوماسي العراقي تابع فيه تصريحات الامين العام للامم المتحدة « خافيير بيريز دي كويّار » بعد عودته من بغداد ، وحتى وصول سيارته الى مدخل قصر الاليزيه عند الساعة الخامسة عصرا كان السفير يتابع عبر المذياع اخبار بلاده التي شغلت العالم .

حين دخل على الرئيس ميتران كان الى جانبه وزير الخارجية « رولان دوما » والسيد « انكن » مستشار الرئيس .

واستنتج على الفور من الطريقة الودية التي استقبله بها ميتران انه مقبل على لقاء مفيد وحاسم . واعطاه وجود مترجمة رسمية في مكان الاجتماع هي « ندى يافي » اشارة عاجلة على دقة اللقاء وحساسيته .

بادر ميتران الى مخاطبة الهاشمي ؛ لدي مبادرة ولا اريد ان افشل .

فاجاب السفير : انكم ياسيادة الرئيس يمكن ان تكونوا في هذه اللحظة من التاريخ اكبر بطل للسلام في العالم واستطيع ان اجزم ان حكومة بلادي على استعداد لتوفير ظروف نجاحكم في صنع السلام ومنع الحرب .

اعاد الرئيس الفرنسي شرح مشروعه الذي سبق للسفير ان تسلمه من الوزير رولان دوما ، وظل الامر طي الكتمان ، لان الجانبين حرصا على عدم الاعلان عن الامر ، وجرى ترتيب تسلم الرسالة بعد دعوة غداء اقامها الوزير للسفراء العرب بباريس ، وما ان انتهت الدعوة ، حتى خرج السفراء من الباب الرئيسة في مبنى الخارجية الفرنسية ، وكان سفير العراق بينهم ، وحين تفرقوا كل في اتجاه ، عاد السفير عبدالرزاق الهاشمي من باب آخر ليقابل دوما ويتسلم منه المشروع . مكتوبا . ليتولى ارساله الى بغداد على الفور .

ومضى الرئيس ميتران :

ـ لقد استدعيتكم للتحدث في مشكلة خطيرة بعد ان تسلمت خطابات عديدة ووجدت ان افضل طريقة هي الحديث معكم وجها لوجه لاني اعتقد ان هناك فرصة للسلام .

ونظر ميتران الى وزير خارجيته ثم عاد يخاطب السفير :

ـ لقد التقيت مع دي كوّيار بعد عودته من بغداد وكان مصابا بخيبة امل كبيرة وابلغني ان مهمته لم تؤد الى نتائج ، وسيعقد مجلس الامن اجتماعا حاسما مساء اليوم ، ولذلك لم يعد امامنا وقت طويل ، لا بل ان الوقت لم يعد يكفي ، وانني ارى اننا وصلنا الان الى الساعة الرابعة والعشرين الاخيرة ، وقد يميل بعضهم الى التفسير الحرفي لموعد الخامس عشر من هذا الشهر ويعتمد التفسير المتشدد ، في حين يقول اخرون ان على العراق في البداية تنفيذ الانسحاب ، ثم برمجة هذا الانسحاب بموجب جدول زمني

سريع .. هذا هو موقف فرنسا ، ولا اقول ان هـذا ما سيتبنـاه مجلس الامن .

وسأل السفير :

ـ وماذا بعد ذلك سيادة الرئيس ؟

اجاب ميتران :

ـ بعد تحقيق الانسحاب سنـطلب احلال قـوات عربيـة محل القوات المنسحبة وذلك لتنظيم السلطة في الكويت ، ونحن نرى ان القوات العربية يمكن ان تكون من دول المغرب العربي .

عاد السفير يسأل :

ـ وما هي الضمانات التي ستقدمونها للعراق ؟

قال الرئيس الفرنسي :

ـ انني استطيع ان اعطي ضمانة بأسم فرنسا وليس بـأسم بلدان اخرى بان بلادكم لن تتعرض للهجوم وبأنه لن تكون هناك حرب ، اما ما يتعلق بالمؤتمر الدولي حـول القضية الفلسـطينية فانني اضمن للعراق اننا سنستمر في هذا المسعى بعد حل مشكلة الخليج ، ولدي شعور بان هذا الموضوع يقترب لان الهزة ستكون حاسمة .

فجأة ، خاطب ميتران السفير الذي يصغي اليه انني لا اخدع العـراق ، ولدي شعور ان المـانيا واسبـانيا والصـين والاتحـاد السوفيتي سيتبعون فرنسا ، لكني لا اضمن ان تعـطي اميركـا وبريطانيا موافقتهما على المؤتمر الدولي قبل عدة اشهر .

وعاد ميتران يتحدث عن الانسحاب كخطوة اولى تسبق اي شيء وقال : ربما نفتح حوارا مع العراق اذا وجه الرئيس صدام حسين اشـارة ايجابيـة وعندئـذ سنقضي يوم غـد كله من اجل متـابعة الموضوع ، ولكن لو نشب النزاع فاننا في فرنســا سندخـل حالة الحرب ، وقد طلبت من الوزير دوما ان يتخذ التدابير اللازمة لذلك واطمئن ايها السفير بانك وسفارتك ستعاملون بشكل لائق ، فرغم ان فرنسا حرة لكنها لن تتخلى عن الشرعية الدولية وارجو ان تكون

معي ان فرنسا لو تحركت تجاه الحل السياسي وفشلت فـان ذلا كبيرا سيلحق بها .

كان الامر الذي يشغل السفير هو ان ماطرحه الرئيس الفرنسي هو مجموعة افكار وليست مشروعا متكاملا ، وقد ابلغ بغداد لاحقا ان فرنسا لم تتقدم باي مشروع قرار الى مجلس الامن وان كـل الذي فعلته انها اوجزت سفيرها في الامم المتحدة بافكار ميتران الاولية التي خلت من اعطاء أية ضمانـة مسبقة بـان العراق لن يتعرض للهجوم حتى لو انسحب .

كان ميتران قد اجتمع قبل لقائه مع الدبلومـاسي العراقي الى الرئيس الزائيري (موبوتو) الذي كانت بلاده ترأس مجلس الامن يومئذ ، وطلب منه ان تدعم زائير فكرة اصـدار بيان رئـاسي عن مجلس الامن ، ولايتمتع مثل هذا البيان في العادة بالقوة الاجرائية التي تتمتع بها قرارات مجلس الامن .

طلب ميتران ان يحصل من العراق على ضمانات بنجاح مهمته من خلال اعلان عراقي غير مشروط عن الاستعداد للانسحاب من الكويت قبل اتخاذ قرار بإرسال وزير الخارجية دوما الى بغداد .

ووجد السفير ان فرنسا تريد ان تحصل على موقف علني مسبق بدون تفاوض او شروط من دون ان تكون هناك اية ضمانة للعراق في الحصول على مطالبيه ، والالتزام المسبق بربـط حل القضيـة الفلسطينية بحل أزمة الخليج ، وحول عدم تعرضه للهجوم ، وقال لميتران :

ـ سيـادة الرئيس ان مشـروعكم يتضمن امـورا عـديـدة وحساسة ، وهناك استيضاحات عديدة لدى حكومتي ، وليس من السهولة في هذه المرحلة الدقيقة ان يتخذ قرار في بغداد على صيغة الورقة التي ارسلناها من دون ان تتوضح الضمانات ويتوضـح المشروع فقرة فقرة من قبل مسؤول فرنسي مخول ، وليس هناك من هو افضل من السيد دوما لمناقشة المشروع في بغداد .

اجاب ميتران :

ـ انني لا استطيع المضي قدما مالم اشعر انني لن افشل مطلقا .

فعلق السفير :

ـ لن يكون هناك فشل سيادة الرئيس . ولنفترض ان زيارة دوما فشلت ، آنذاك تستطيع الذهاب الى الجمعية الوطنية الفرنسية وتقول انك بذلت جهدا ، وارسلت دوما ، وعندئذ تتخذ قرار الحرب ضد العراق وانت مطمئن بعد ان تكون قد حاولت منع وقوع الحرب .

وكرر ميتران مرة ثانية : لا اريد ان افشل .

فعاد السفير يزرع لدى الرئيس الفرنسي شعورا بالنجاح الممكن : « استطيع ان اؤكد لك ان احتمالات الفشل قليلة وان الوقت يمر بسرعة » .

ولم يحصل السفير على وعد من الرئيس ميتران بايفاد وزير خارجيته الى بغداد ، ولكنه خرج بانطباع ان ميتران سيقرر الامر بعد المقابلة حتما .

ـ سأنقل ماجرى لحكومتي .

بهذه العبارة انتهت المقابلة الاخيرة بين رئيس الجمهورية الفرنسية وسفير الدولة التي كانت صديقة ثم مالبثت ان صارت هدفا لطائرات فرنسية مغيرة بعد ثلاثة ايام فقط على لقاء الاليزيه .

□ □ □

عند الساعة الخامسة وخمس واربعين دقيقة من عصر يوم الاثنين الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ خرج سفير العراق من باب قصر الاليزيه ليجد جمهرة من الصحفيين بانتظاره ، كانت الاسئلة تتوالى : ماذا قال لك الرئيس ؟ ماذا نقلت اليه ؟ هل ستقع الحرب ؟ هل سيقبل العراق بمشروع ميتران ؟ هل هناك أمل ؟ كيف وجدت ميتران ؟ .

ضحك الهاشمي واجاب بالانكليزية : لا تعليق ، لينطلق مسرعا

الى مقر السفارة ويبرق الى بغداد تفاصيل مقابلته مع ميتران .

كانت سلسلة من الاتصالات غير الرسمية وعبر اطراف ثالثة قد جرت بين الحكومتين العراقية والفرنسية ، اذ بذل الفلسطينيون في اثناء شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ محاولتهم الاولى وتوسطوا في بغداد لتأمين سفر الفرنسيين من العراق ، واظهرت بغداد ارتياحها من خطاب الرئيس ميتران في الامم المتحدة يوم ٢٤ ايلول (سبتمبر) واصدرت بياناً قالت فيه : « ان هناك اشارات ايجابية ونحن على استعداد للحوار لتطوير هذا الموضوع » ، ويومئذ انطلق السفير الهاشمي الى مبنى الخارجية الفرنسية ليبلغها رسمياً ترحيب بلاده بخطاب ميتران ورغبتها في متابعة ماورد في الخطاب الذي تميز برفضه استعمال القوة ضد العراق وبفتح الباب امام الحل السياسي .

انتظرت بغداد خطوات فرنسية تالية ، كما انتظر ذلك الرئيس الجزائري الاسبق احمد بن بيلا والفلسطينيون الذين كانوا يجرون اتصالات غير رسمية بين فرنسا والعراق ، لكن شهرين مرا على الخطاب ولم تظهر اية اجراءات عملية تعكس ماتضمنه الخطاب ، وزاد حجم القوات الفرنسية التي كانت تتدفق على الخليج .

وفي الاسبوع الاخير من كانون الاول (ديسمبر) تمكن احمد بن بيلا من ترتيب اجتماع بين ممثل العراق لدى المكتب الاوربي الدائم للامم المتحدة في جنيف السيد برزان التكريتي ورئيس معهد العالم العربي السيد ادغار بيزاني الذي لعب دور قناة الاتصال الفرنسية غير الرسمية ، ثم عقد اجتماع اخر مطلع كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، وبعد ايام قليلة كان بيزاني قد تلقى دعوة لزيارة بغداد لكن الرئيس ميتران منعه من السفر كما اعلن ذلك نفسه في مذكراته عن الازمة .

هذا المساء الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ كان على بيزاني ان يلتقي بالرئيس ميتران ووزير الخارجية رولان دوما

ويعود الموضوع الساخن يتصدر اللقاء : زيارة بغداد .. ويعترف بيزاني ان دوما كان غير مقتنع تماما بالذهاب الى بغداد برغم انه حصل على وعد من الرئيس بان تجري هذه الزيارة عند الصباح وان تستعمل طائرة كونكورد السريعة لتأمين الوصول الى بغداد في غضون ساعة ونصف .

كان السفير الهاشمي في هذه الاثناء يتكلم مع بغداد :

- برغم ان ميتران لم يقرر حتى الآن ارسال دوما غير انني استنتج انه سيقرر في النهاية ايفاد وزير الخارجية مالم يضغط عليه الامريكان وتحصل مفاجأة في اللحظة الاخيرة .

وحصلت المفاجأة .. فقد سبقت خطوات خافيير بيريز دي كويّار خطوات العراقيين الى الاليزيه ..

ففي الوقت الذي توجه فيه الامين العام للامم المتحدة خافيير بيريز دي كويّار من مطار تشارل ديغول في باريس الى قصر الاليزيه عند الثامنة والنصف صباح الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، كان (كيسي يجيان) مدير مكتب وزير الخارجية رولان دوما يستفسر من السفير العراقي ان كان مطار بغداد مستعداً لاستقبال طائرة من نوع كونكورد ، فاتصل السفير ببغداد وابلغه بالايجاب ، وفي تلك الاثناء كان بيزاني يتهيأ للسفر عند الساعة الحادية عشرة صباحاً .

- لم استمع طوال مقابلتي بالرئيس صدام حسين اية كلمة تدل على استعداد العراق للانسحاب من الكويت .

بهذه العبارة اوجز دي كويّار الى الرئيس الفرنسي الاستنتاج الذي خرج به بعد زيارته الى بغداد واجتماعه بالرئيس العراقي ، ونصح الامين العام للامم المتحدة الرئيس ميتران بعدم ايفاد وزير خارجيته رولان دوما الى العراق وقال لمستمعه :

- ان زيارتي فاشلة وستفشل انت ايضا لو ارسلت دوما .

وبدا في الساعة الاخيرة من الساعة الرابعة والعشرين ان فرنسا جادة في تقديم مشروع قابل ليحمل السلام المشرف ،

وانتظرت بغداد قدوم الوزير رولان دوما ، لتسأله ان كان قادرا على اعطاء الضمانات الكافية نيابة عن بلاده وامريكا وحلفائها بعدم شن الحرب وصيانة حقوق العراق وتلبية مطاليبه .. وبدا ان كل شيء صار ممكنا حتى لو وقع في اللحظة الاخيرة . واستعدت بغداد لاستقبال دوما ..

لكن الوزير الفرنسي لم يتوجه الى المطار عند الساعة الحادية عشرة . ولم تصل الطائرة الى بغداد (قبيل منتصف النهار بتوقيت بغداد ، وانسحب الطاقم الفني الذي اعد الطائرة الكونكورد من مطار شارل ديغول بباريس ، اذ ان الاليزيه اصدر امرا واضحا الى الخارجية : لا زيارة الى بغداد .. لاحوار مع القيادة العراقية .. اتخذوا الاجراءات اللازمة للدخول في الحرب .

وبدا ان فرانسوا ميتران يتأرجح في لحظة قلقة .. في الساعات الفاصلة بين اجتماعه مع المبعوث الدولي واجتماعه مع الدبلوماسي العراقي .. فهو نفسه دخل في طريق لايريد ان يكمله حتى النهاية ، وهاهو يقابل دي كويار بناء على اقتراح امريكي رافقته ضغوط مباشرة وغير مباشرة لكي يبقى تحت مظلة الحل العسكري للأزمة ، وهذا يعني خروجه كليا على تقاليد السياسة الخارجية الفرنسية وان يقبل بالتبعية للموقف الامريكي ، وصار قرار الغاء زيارة دوما الى بغداد قبل اربع وعشرين ساعة من انتهاء الموعد الذي حدده مجلس الامن لتخويل الولايات المتحدة وحلفائها باستخدام القوة العسكرية ضد العراق ، فاصلة بين عصرين في السياسة الخارجية الفرنسية ، وكان متوقعا ، في حمى التورط الفرنسي ، ان يظهر منظّرون جدد للسياسة الخارجية الفرنسية يدحضون الاسس التي قامت عليها سياسة الرئيس الاسبق شارل ديغول مع العالم العربي ، فأعلن وزير الخارجية دوما بعد سنة على انتهاء حرب الخليج : « لا وجود لامة عربية واحدة وقد اخطأ ديغول كثيرا عندما تعامل مع العرب كأمة ، وان العرب ليسوا غير وهم من الاوهام . » ، وتشكل فريق ثلاثي داخل الادارة الفرنسية

يضم دانيال ميتران زوجة الرئيس وكوشنر وزير الشؤون الانسانية ودوما وزير الخارجية يضع سياسة جديدة لفرنسا نحو العراق ، في حين تقاومهم تيارات اخرى تضم مجموعة من النواب الجيسكاريين وشخصيات لامعة مثل بيير شوفنمان وزير الدفاع الاشتراكي الذي استقال غداة الحرب وكلود شيسون وميشيل جوبير الوزيرين السابقين اللذين اسهما بتأسيس شبكة علاقات واسعة بين فرنسا والعرب طوال ربع قرن ، وانضم الى معارضي الحرب جان ماري لوبين رئيس الجبهة الوطنية الذي كان قد زار العراق خلال الازمة واجتمع بالرئيس صدام حسين .

□ □ □

بعد تجربتين غير مشجعتين لبغداد مع المبادرات الفرنسية شعرت القيادة العراقية انها بحاجة لما يعطيها ضمانة كافية بان الرئيس ميتران (قادر) هذه المرة وليس (راغبا) فقط في منع وقوع الحرب ... كانت بغداد تدرس وتراجع الملف الفرنسي طوال يوم الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩٠ ، وطبقا لوثائق الخارجية العراقية فان اول مبادرة اطلقها ميتران امام الامم المتحدة في ٢٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ قوبلت بجواب ايجابي من بغداد ، لكن الفرنسيين لم يتابعوا المبادرة ولم يتفاوضوا في بغداد على ما طرحه رئيسهم ... حتى غاصت تلك المبادرة خلف الاحداث ، وعندما مررت باريس مبادرة ثانية بعد شهرين قابلها العراق بموقف ايجابي آخر عندما اعلن عن السماح بسفر جميع الفرنسيين الموجودين لديه ... وانتظرت بغداد ان تطور باريس موقفها ، ولكن الذي حصل ان وزير الخارجية رولان دوما اعقب الموقف بسلسلة من تصريحات متشددة ضد العراق ...

اليوم قبل ان تعد بغداد اجابتها على ما قاله ميتران وما ستقوله للوزير رولان دوما ـ الذي كان يفترض مجيئه اليها ـ استمعت الى رفض امريكي بريطاني مشترك لمبادرة ميتران .. اذن لاجدوى من

الاستجابة الى الافكار الفرنسية كلها ، او بعضها ، مادام الطرف الآخر قد رفضها كلها .

لماذا اذن كان الرئيس ميتران يطرح المبادرات بين حين وآخر مع معرفته بان هذه المبادرات ستفشل ؟.

كانت تحركات الاليزيه اشبه برسالة مزدوجة الى معارضي الحرب في الداخل ، وهم يمثلون قوة ليست صغيرة في الفسيفساء السياسي الفرنسي من جهة ، والى العرب وبخاصة في شمال افريقيا الذين اظهروا تعاطفا مع العراق ومقاومة لخطة مهاجمته عسكريا من جهة اخرى .

قال مستشار سابق للرئيس ميتران هو المفكر اليساري ريجسي دوبريه كلاما اقرب الى الاستنتاج الذي استقر عليه العراقيون بعد تسلمهم آخر اشارة من باريس ... (لاتفكروا كثيرا ان ميتران كان ملتزما ومؤمنا بهذه الحرب منذ شهر آب (اغسطس) وقبل ان يصدر قرار مجلس الامن ٦٧٨) .

□ □ □

مر خافير بيريز دي كويار ساعات بباريس ليدفن اخر محاولة كان يمكن فيها لفرنسا ان تصنع ماعجز الاخرون عن صنعه ... السلام ... لكن دي كويار بدا وهو يؤدي المشهد الاخير في عرض دبلوماسي تديره الارادة التي قررت الحرب منذ البداية ... ولعله كان يضع اللمسات الاخيرة في اكمال الحشد النفسي لبدء اطلاق النار .

□ □ □

قبل ثلاثين سنة كان الرئيس ديغول يخاطب الجمعية الوطنية : « سأجعل من فرنسا دولة مستقلة » .. فسأله احد البرلمانيين : وهل ان فرنسا غير مستقلة ؟ اجاب ديغول : « نعم بلادنا غير مستقلة طالما ظلت تسير في ركب السياسة الامريكية » ... وبعد

ثلاثين سنة لم يبق داعية ناشط يذّكر برسالة ديغول اقوى من وزير الدفاع المستقيل جان بيير شوفنمان الذي ادلى بشهادته في كتابه الذي أصدره بعد الحـرب : « لابد للحـوار الحميم الذي اراده الجنرال ديغول ان يقوم بين فرنسا والعـرب من ان يتجدد ذات يوم ... وان هناك فرقا بين موقفنا وموقف الولايـات المتحدة من العـرب ... فالعـالم العربي الاسـلامي هو جـار لاوربـا تهمنـا مجاورته ، اما بالنسبة لامريكا فهو أشبه بهلوسة كاريكاتيرية ، لأن مايهم واشنطن هو السيطرة على النفط وحسب ، » .

وحين وقعت الحرب اعتقد رولان دوما ان العراق مهزوم فيها لأن العرب لم ينتصروا في اية حرب ، ونسي الوزير الفرنسي ان بلاده هزمت في كل الحروب التي خاضتها على مدى ٢٠٠ سنة □

حرب .. أم لا حرب ؟

وكان آخر تقرير اطلعت عليه القيادة العسكرية يدّل على ان الهجـوم الجوي يمكن أن يقع في أية لحظة ، بالرغم من أن التصــريحـات التي خــرجت من وزارة الاعـلام منتصف نهـار ١٦/١/١٩٩١ كانت تدل على العكس .

تقع الحرب ..
ام لاتقع .. ؟

كان هذا السؤال ، هو الاكثر استقطابا للجهد السياسي والعسكري والنفسي والاقتصادي في العراق بعد الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ .

وظل كثيرون ينتظرون وقوع معجزات اللحظة الاخيرة لتمنع الحرب، بما يعكس حالة التمني أكثر مما كان يعكس حالة الاستنتاج.

اما العراقيون ، فقد اعطتهم خبرتهم السابقة في الحرب مع ايران ، قدرة على استيعاب فكرة ان الحرب ممكنة ، سواء بدت محتملة ، أو محتمّة ، ولكنها خيار ممكن ، وعليهم ان يتأقلموا للتعامل معه .. بمعنى ان صورة الحرب ، كانت قابلة للتخيّل ، برغم معرفة ان ادوات الصراع هذه المرة ستختلف عن تلك الادوات التى أُستخدمت من جانب ايران ، وبرغم ان الإعداد النفسي لشّن الحرب على العراق ، كان قد بدأ يحفر مسالكه عميقا في إثارة مشاعر القلق والترقب والخوف .

وتدرجّت نظرة القيادة العراقية على مستويات عدة في تقدير احتمال وقوع الحرب من عدمه ، بحسب الزمن الذي مر بعد الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ ، وهو مايمكن حصره على النحو الآتي :

■ اولا : ان العراق ظل يترقب وقوع ضربة عسكرية اسرائيلية على مدى الاسبوع الاول الذي اعقب دخول القوات العراقية الى الكويت ، مستندا في ذلك الى معلومات سابقة عن قائمة من الاهداف كانت اسرائيل قد حددتها منذ شهر نيسان (ابريل) ١٩٩٠ ، وتلقى العراق انذارات كانت تبدو حاسمة بان الضربة ستقع يوم الجمعة الثالث من آب ١٩٩٠ ، اي بعد يوم من الدخول الى الكويت ، مما جعله يغلق اجواءه بالكامل ، وينشط دورياته

القتالية في سماء الجهتين الغربية والجنوبية من العراق ، ثم تلقت القيادة العراقية تحذيراً واضحا باحتمال وقوع هجوم اسرائيلي مدعوم من الطائرات الامريكية على بغداد ، يوم الجمعة العاشر من آب (اغسطس) ، واتخذت الاحتياطات ذاتها ، وارتفعت درجة الترقب .

وكان العراق بحاجة الى وقت مضاف لاستكمال استعداده في المقاومة الجوية ، واعداد البدائل في الرد على الضربة التي ينتظرها .

لكن درجة التعايش مع الحرب الواقعة انخفضت بدءا من الشهر الثاني للازمة ، بعد ان اعطى العراق اشارات عن استعداده للرد على اسرائيل ، ومنع رعايا الدول الاخرى من مغادرة العراق ، وبعد نشوء تفاعلات سياسية اقليمية ودولية اعادت الامل لامكانية الوصول الى تسوية سياسية إثر خطاب الرئيس الفرنسي ميتران في الجمعية العامة للامم المتحدة يوم ٢٤/٩/١٩٩٠ ، وزيارة المبعوث السوفيتي الى بغداد في ٦/١٠/١٩٩٠ ، وبدء اتصالات غير مباشرة عبر اطراف وسيطة شملت بغداد وعواصم عربية ودولية عرضت حلولا وسطا للخروج من الازمة .

■ ثانيا : تزايد الاهتمام في العراق خلال الاشهر الثلاثة الأول من الازمة بنظرية حافة الهاوية Brinkmanship التي إقترنت بوزير خارجية الولايات المتحدة الاسبق جون فوستر دالاس خلال ولاية الرئيس ايزنهاور مطلع الخمسينات .

ولذلك كان الافتراض بان اشتداد الازمة ، وتصاعد التهديد قد لا يؤدي بالضرورة الى الاصطدام المحتم ، بل على العكس ، يمكن ان ينشيء التهديد بوقوع الحرب اسباباً للبحث عن مخرج من الازمة عن طريق تسوية سياسية تكون مقبولة ومُرضية للطرفين ..

الا ان الاهتمام بهذه النظرية تلاشى بعد شهر تشرين اول (اكتوبر) عندما اتضح لبغداد ، ان زيادة عدد القوات الامريكية ، وتوفر التمويل الكافي للتحشيد والاستعداد للحرب من قبل جهات دولية عدة ، وانحسار فرص الحل السياسي بعد خفوت الدور الفرنسي ، وتلاشي ماعُرف بالحل العربي ، وفشل جهود الاطراف الوسيطة التي ترددت على زيارة بغداد وعواصم دول التحالف . حتى لم يبق من يعتقد بامكانية تحقق نظرية حافة الهاوية بعد صدور قرار مجلس الأمن ٦٦٨ الذي امهل العراق ٤٥ يوماً لسحب قواته من الكويت .

■ ثالثا : مر العراق في حالة من الاستسلام للتحدي ، عندما لم يعد هناك أي أمل في الوصول الى تسوية سلمية للنزاع ، وهو الامر الذي رتب قبول التحديات ومواجهتها باعلى درجات التصلب ، في موجة رد فعل على افعال يصنعها الاخرون ، حتى بدا ان كل قرار او اعلان يصدر في الغرب سيرتب رد فعل متشدد متوقع من لدّن العراق ، ليمضي التحدي الى نهايته المحتمة : الحرب ، ولم يكن الاستسلام للتحدي ، الحالة الامثل التي تمنت القيادة العراقية اللجوء اليها ، ولكنها ارتضت بها ، وقد تكون مضت اليها ، بعد ان سُدّت الابواب على العراق ، وأُخضِع لحصار جغرافي وسياسي واقتصادي ، وانقطع الحوار مع قيادته التي استنتجت ان الالحاح في طلب الحوار والاعلان عن الحاجة اليه ، سيظُهرها بمظهر الضعف ، ويجعل صورتها تتداعى امام انصار العراق ومؤيديه في الداخل والخارج .

■ رابعا : كان الرئيس صدام حسين ، مؤمنا بان الحرب واقعة لامحالة ، ولعله كان اكثر تيقنا من اي قيادي آخر من مساعديه بحتمية وقوع الصدام العسكري ، ويعود هذا الشعور في جذوره الى احساس عميق بالفجيعة والرضا بالقدر الذي فرض تحديا تتوجب ملاقاته ، وقد ترددت في احاديثه وتصريحاته طوال الاشهر

الستة التي سبقت الحرب المفردات الدالة على الرضا في القبول بارادة الله ، ووصف المعركة بانها نزال اراده الرب سبحانه وتعالى ، ولامناص من ملاقاة ماسيترتب على الخيار الذي سار فيه العراق .

ويذكر الرئيس عرفات انه استمع عشر مرات في الاقل من الرئيس صدام حسين وهو يقول ان الحرب واقعة ، ومحّتمة ، ولم يكن لديه ادنى شك في ان المواجهة العسكرية آتية . وان الطرق المؤدية الى التسوية السياسية مسدودة مادامت لاتنطوي على عرض سلام مشّرف يقبل به العراق .

■ خامسا : لم يكن هناك اي بلد أو رئيس دولة ، أو وزير في حكومة ، أو جهاز مخابرات في العالم ، قد انبأ العراق في الساعات الثماني والاربعين الاخيرة بموعد بدء الحرب ، ولم تتلق القيادة العراقية اية اشارة ، في الساعتين الاخيرتين على المباشرة بقصف بغداد من أي من الجهات الدولية ، التي عرفت بساعة الصفر . ولذلك كان على العراق ان يقّدر بنفسه وطبقا لمعلوماته الميدانية من جهة ، واستقراءاته لتطور الاحداث وفهمه للطريقة التي يُصنع بها القرار الامريكي من جهة أخرى ، الموعد المحتمل لبدء الهجوم عليه .

وفي هذا الصدد كان ثمة تناقض قابل للبيان ، في المواقف التي صدرت عن بغداد في الساعات الاربع والعشرين الاخيرة ، فالرئيس صدام حسين كان قد ابلغ مساعديه نهار ١٦/١/١٩٩١ باحتمال وقوع الحرب في بحر الساعات الاثنتي عشرة المقبلة ، وكان آخر تقرير اطلعت عليه القيادة العسكرية يدل على أن الهجوم الجوي يمكن ان يقع في أية لحظة ، بالرغم من أن التصريحات التي خرجت من وزارة الاعلام منتصف نهار ١٦/١/١٩٩١ كانت تذهب بعيدا في منحى آخر ، تقول : اين هي الحرب ؟.. لقد انتهى موعد الانذار .. وليست ثمة حرب ..

انهم يكذبون ، وادى وزير الاعلام ومساعدوه صلاة الشكر لله لتجاوز العراق موعد الانذار بدون أن يقبل بعروض السلام المهينة ، وهنأ معارفه وزملاءه بمضي أول نهار على انتهاء موعد الانذار من دون ان تقع الحرب .

□ □ □

الا ان القيادة العامة للقوات المسلحة وقيادة الطيران والدفاع الجوي كانت قد استجمعت كل الدلائل التي تشير الى الموعد التقريبي لبدء الهجوم ، بعد منتصف ليلة ١٦/١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، بحيث كانت الدوريات القتالية الجوية قد باشرت في أثناء ذلك طلعاتها الاعتراضية .. وسجلت المراصد الجوية الامامية عبور أول موجة من الطائرات القادمة من السعودية قبيل الثانية بعد منتصف الليل ـ بحيث شكّلت الدوريات الجوية العراقية سياجاً في انتظار ايقاعها في فخ جوي ـ الا ان الطائرات الامريكية عادت فاستدارت الى الخلف لتنزل في قواعدها التي انطلقت منها قبل نصف ساعة من ساعة الصفر .

وحلّقت آخر طائرة مدنية عراقية ـ نوع جامبو ـ منتصف ليلة ١٥/١/١٩٩١ في آخر رحلة لها الى الهند تحمل مسافرين عاديين ودبلوماسيين أجانب ، لتحط في مدينة نيودلهي ، مختتمة آخر نشاط خارجي لشركة الخطوط الجوية العراقية قبل بدء الحرب ، وقد بقيت في الهند بضعة ايام قبل ان تلتحق باربع طائرات مدنية أخرى كانت قد سبقتها للمكوث في ايران بموجب اتفاق غير معلن ، بعد زيارة السيد عزة ابراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي الى طهران التي رافقه فيها وزير النقل والمواصلات .

وفي تلك الاثناء كانت الطائرات العراقية المدنية الاخرى قد انتشرت في عمان وتونس وموريتانيا ، بما يدل على ان ايقاع خطوات الحرب القادمة كانت تُسمع جيدا في بغداد التي اغارت عليها بعد اقل من اثنتي عشرة ساعة الفان وخمسمائة طائرة .. صارت اشبه بغطاء من حديد ونار يقفل الابواب على سماء المدينة □

لقاء في الوقت الضائع

العراقيون لن ينسحبوا بالتهـديد ..
لقد تعقدت الامور ، حتى الذين يدعون
الى انسحاب العراق لم يقـولوا الى اين
ينسحب ، بغض النظر عن رأي العراق .
صـدام حسـين
في حديثه مع دي كويار

كان العراق يفضل ان يحتل منصب الامين العام للأمم المتحدة سياسي اوروبي كبير لايخضع لضغوط واغراءات يمكن ان يتعرض لها المسؤول الدولي لو جاء من دولة صغيرة وبخاصة من دول العالم الثالث ، وقد قيل هذا الكلام عندما استقبل الرئيس صدام حسين في الشهر الاول من الأزمة الرئيس النمساوي كورت فالد هايم الذي كان من قبل اميناً عاماً للأمم المتحدة ، فقارن قيادي عراقي بينه وبين الامين العام يومئذ مواطن (بيرو) دي كويار ..

- ان فالدهايم يذّكرنا بالسويدي همرشولد ايام كان اميناً عاماً للأمم المتحدة ، قوياً ، لايخضع للضغوط ولايرى ان الدول العظمى اكبر من البلد الذي جاء منه ، اما دي كويار فيذكرنا بوزراء دول افريقية اعتادوا ان يلبسوا بدلات اكبر من قياساتهم ..

في كل الاحوال لم يكن هناك ودّ بين العراق ودي كويار ..

ولم تنشأ حالة الجمود في هذه العلاقة من اعتبارات حضارية او نفسية بحته ، لكنها كانت نتيجة ارهاصات مرحلة الحرب العراقية الايرانية التي طالما اشتكى العراقيون فيها من سلبية الامم المتحدة ، وعدم جرأة الامين العام في دفع المنظمة الى أتخاذ قرارات كان يُمكن ان تختصر المدة التي استغرقتها الحرب .

وعندما كانت الخارجية العراقية تبحث عن عذر للأمين العام تستنتج انه شخص مُؤتمِر ، وان خطواته محكومة دائماً بالسياسة الامريكية ، ولذلك وصلت القيادة العراقية الى الاستنتاج بأن دي كويار صار (اداةً) بيد الرئيس الامريكي جورج بوش عندما تحادث معه في الثاني عشر من كانون الثاني / يناير ١٩٩١ من استراحة الرئاسة الامريكية في كامب ديفيد .

وادركت بغداد ان الطلب العاجل الذي تلقته من دي كويار بعد ساعات من حديثه مع الرئيس بوش ليقوم بزيارة الى العراق يلتقي خلالها الرئيس صدام حسين انما ينطوي على اشارة لالبس فيها بان الحرب صارت محتمه ، وان دي كويار يرتّب المشهد الاخير الذي يسبقها .

توقع السيد دي كويار عند وصوله الى بغداد بعد ظهر السبت الثاني عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ان يقابل الرئيس صدام حسين على الفور .

وكان طوال الفترة التي امضاها على العشاء مع السيد طارق عزيز مشغولا بالسؤال : متى اقابل الرئيس ؟ .

أما العراقيون فلم يتوقفوا من جانبهم عن التساؤل : لماذا جاء ، وماذا يريد ؟ . ولماذا طلب منه الامريكان ان يأتي الى بغداد ؟ .

لم يكن طلب الرئيس الامريكي جورج بوش من السيد دي كويار التوجه الى بغداد غير خلاصة تحليلات اعدها خبراء امريكان بموجب سيناريو مفترض بُني على استقراء الطريقة التي سيتصرف بها الجانب العراقي بحيث يتعذر بلوغ اي اتفاق ، وماسيترتب بعد ذلك من نتائج ، ولم يكن الرئيس الامريكي يتوقع ان تحصل معجزة فيتغير الموقف العراقي المعلن ، أو أن الامين العام سيكون ذا تأثير خارق يستطيع به تغيير قناعات العراقيين ، لكنه رغم ذلك اراد من الامين العام ان يؤدي الدور الاخير في المشهد الذي يسبق اعلان الحرب ، وقد يكون تمنى ان يخرج مواطن (بيرو) من بغداد غارقاً في اليأس والاحباط والانزعاج الشخصي .

وفي حين كان دي كويار يتناول عشاءه مع طارق عزيز ، مساء السبت ، ١٢/١/١٩٩١ ، كان الرئيس صدام حسين يتحادث مع الرئيس السابق لجمهورية نيكاراغوا السيد دانيال اورتيغا الذي اجتمع مع دي كويار فور وصوله الى بغداد ، واراد ان يستطلع

الطريقة التي سيُعامل بها الامين العام في بغداد ، بعد ان كلفه دي كويار باجراء هذا الاستكشاف الاولي ..

قال اورتيغا :

ـ اننا قلقون من النتيجة التي ستؤول اليها زيارة دي كويار الى بغداد ، فانا اعرف انه متصلب ومتمسك بقرار مجلس الامن بعد ان التقيته قبل خمسة ايام في نيويورك ..

وذكر رئيس نيكاراغوا السابق ان الامين العام اخبره عن وجود مشروع قرار جديد لمحاصرة العراق في مجال التلكس والاتصالات .

فعلق الرئيس صدام حسين :

ـ لانريد اتصالات .. فليس لدينا اليوم بيع ولاشراء مع الاخرين .

عاد الرئيس اورتيغا ليوضح انه مقتنع بان دي كويار لم يأت كامين عام للامم المتحدة ولكنه جاء حامل رسالة بعد ان التقى مع الرئيس الامريكي جورج بوش ، فايد الرئيس صدام حسين هذا الاستنتاج :

ـ ان دي كويار لم يأت الى بغداد الا بعد ان طلب اليه جورج بوش ذلك ..

ومضى الرئيس العراقي : اين كان دي كويار يتسكع خلال المدة التي تلت تاريخ ٢/٨/ ١٩٩٠ ؟ واين كان عندما صار العالم يتجه الى حافة الحرب ، حتى اخرجه بوش عن صمته .. وها هو يتصور انه لمجرد انه جاء الينا فيجب ان نعطيه شيئا .. لن نعطيه شيئا ..

وبدا الرئيس اكثر حزما ووضوحا في رسم مايمكن ان يحصل بعد اللقاء مع دي كويار :

ـ سوف نركنه في المستقبل حتى عندما يكون هناك حل سلمي ، فلن يكون هو ضمن المشاركين في هذا الحل .

□ □ □

بعد ستٍ وعشرين ساعة من وصوله الى بغداد توجه الامين العام لمقابلة الرئيس صدام حسين في القصر الجمهوري .

لم يكن امام بغداد ان تعتذر عن استقباله ... وقد صارحه الرئيس صدام حسين بذلك عندما بدأ لقاؤهما في الساعة السادسة وخمسين دقيقة من مساء الاحد الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) .

ـ انني لااكتمك سراً كنت اريدك ان تأتي وان لاتأتي الى بغداد ، لانك الامين العام للأمم المتحدة ونحن كلنا نشكل عائلة في الامم المتحدة ، نحن جزء من هذه العائلة في العالم ، وانه لأمر طبيعي ان نحرص كي تأخذ الامم المتحدة دورها في حياة الدول .

اضاف الرئيس : كنت اريدك ان تأتي لانك تعرفنا وسبق ان تعاملت معنا .

وراح يتأمل وجه دي كويار كأنه يريد ان يسحبه الى لقاءات سابقة خلال الحرب العراقية الايرانية :

ـ لانك تعرفنا فلابد ستستذكر خلفيات طبائعنا في التفكير .

لعله اراد افهام دي كويار ان العراقيين ليسوا من النوع الذي يتنازل عن حقوقه ، وانهم خاضوا الحرب ثماني سنوات مع ايران من اجل عدم التفريط بحقوقهم .

وعاد يشرح له الاسباب التي جعلته يتمنى لو لم يأت :

ـ لقد قلقت لمجيئك الينا في الوضع الذي يدعو فيه القادرون الى استخدام السلاح باسرع مايمكن ، وعند ذلك قد يجدون في زيارتك ، عندما لاتستطيع ان تقدم لهم مايريدون ، متكأً لتقوية حجة الذهاب الى الحرب .

كان اللقاء قد بدأ بحوار مركب يحمل في أجوائه مناخ العتاب وعدم الرضا الذي لم تُغطِ عليه عبارات المجاملة الدبلوماسية .

قال السيد دي كويار :

ـ لقد التقيت بكم سيادة الرئيس ثلاث مرات كلها كانت في ظروف صعبة .

إبتسم الرئيس صدام حسين وعلق ساخراً :

ـ لقد مرت ظروف ليس فيها مشاكل ولكنك لم تأت .

وهنا حاول دي كويار تلطيف الحوار فعبر عن رغبته في زيارة العراق كسائح ورؤية آثاره المهمة :

ـ ان كل الشعوب المتحضرة تعترف ان هذا البلد مهد الحضارة .

وعلى الفور قال الرئيس صدام حسين :

ـ الا بوش ....

□ □ □

بدأ الامين العام يقدم وصفا لمهمته :

ـ على اية حال سيادة الرئيس لقد جئت الى العراق وانا لا احمل أي تفويض ، ولستُ مكلفاً بأية مهمة محددة لا من مجلس الامن ولا من الامم المتحدة ، الا انني تلقيت تشجيعاً على زيارتي ، ليس من رؤساء الدول والحكومات فحسب ، بل من (البابا) ، ومن مواطنين متواضعين طلبوا مني استغلال مركزنا وخاصة الجانب المعنوي فيه من اجل العمل لاحلال السلام في المنطقة .

توقف دي كويار قليلا كانه يستعد ليقول شيئاً مهماً :

ـ ربما تعجب سيادة الرئيس لو قلت لك ان من بين الذين تمنوا لمهمتي النجاح هو رئيس الولايات المتحدة الذي التقيت به وتحدثت معه اربع مرات منذ يوم السبت الماضي .

واستدرك موضحاً : « لكنني اود ان أؤكد لكم انني لا احمل اية رسالة .. ولستُ رسولا من اي شخص » .

كان الايضاح الذي قدمه الامين العام حول نوع مهمته يحتمل تفسيرين يمكن ان يكونا قد جالا في بال الرئيس العراقي ووزير خارجيته وثلاثة آخرين من مساعديه كانوا يحضرون اللقاء .

التفسير الاول : ان دي كويار اراد منذ البداية ان يعطي انطباعاً بأن مهمته ليست كبيرة ، وانه سيركز على القوة المعنوية لمكانته كأمين عام في ابداء الرأي او تقديم الرجاء .

الثاني : انه اراد بهذا التصغير والتبسيط لمهمته ، مثل القول : (انني رجل امثل نفسي) ، ان يتحاشى اعطاء اي انطباع عن كونه

مبعوثاً من الرئيس الامريكي ، لانه كان يعرف جيداً ان العراقيين تحسسوا مسبقاً من لقائه مع الرئيس الامريكي ، وان المعلومات الاولية التي توصلوا اليها تدل على ان الرئيس بوش هو الذي طلب منه التوجه الى بغداد لاسقاط ذرائع الاتجاهات المعادية للحـرب داخل الولايات المتحدة وخارجها .. دون ان يخوله الاتفاق باسم الامم المتحدة او باسم واشنطن وحلفائها .

عاد دي كويار يضيّق حيز مهمته ، فأبلغ الرئيس صدام حسين انــه يرغب في مغــادرة بغداد في الليـل حتى يكون في اوربـا عند الصباح ، وبذلك قطع منذ البداية الطريق امام احتمال ان تكون هناك جلسة عمل ، أو ان يكون هناك بحث في خطوات اجرائية ، او ان تعقد صفقة كاملة لحل الازمة .

قال دي كويار :

ـ تعرفون سيادتكم ان قرارات الجمعية العامة هي توصيات ، اما ما يصدره مجلس الامن فهو ملزم للدول الاعضاء .

انتبه الامين العام الى رد الفعل على جملته الاخيرة فهو يقول امرا مفهوما وبديهيا ، ولاشك ان مستمعيه اعتبروه استخـداما مبطنا للغة التهديد، عدا عن انه كلام يثير حفيظة العراقيين ، لان العراق كان منذ الثاني من آب يثير قضية عـدم تطبيق قـرارات مجلس الامن التي اتخذها ضد اسرائيل على مدى اكثر من اربعين سنة ، مع انها من الناحية القانونية والشكلية ملزمة التطبيق .

استطرد دي كويار :

ـ لسوء الحظ ان تاريخ الامم المتحدة يوضح ان بعض قرارات مجلس الامن لم تنفذ ، وانني اعرف شعوركم جيدا تجاه ذلك ، الا انني كصديق لبلدكم اود القول بـان الامثلة السيئة يجب ان لا تتبع ..

استمر حديث دي كويار اقرب الى حال من يقرأ في رسالة مكتوبة وكأنه جاء الى بغداد ليقابل الرئيس دون ان يكون راغبا اصـلا بالدخول في حوار معه :

ـ انني لست هنا بصدد الدخول في مناقشات معكم .
في هذه اللحظة بـدا واضحا ان المبعـوث الدولي يقوم بـزيارة خاطفة لم يكن يتوقع ان يخرج بحل ، وزاد الامر تعقيدا انه ناقض ماذكره في بداية اللقاء من انه لايمثل الا نفسه ولايحمل رسالة من احد ، اذ ذكر بعد نصف ساعة من المقابلة انه التقى مع الرئيس بوش قبل اسبوع فقط ، وقد طلب منه ان ينقل الى العراق رغبته في الوصـول الى حل سلمي ، واضـاف : ان قول بـوش كان يتسم باليأس .. وذكـر انه تحـادث عبر الهـاتف السري مـع الرئيس الامريكي يوم مغـادرته الى بغـداد واستمع اليـه يقول : (انني افضل الحل السلمي) .
وعلق دي كويار على حديثه الذي بدا اشبه بمنلوج داخلي :
ـ اننـا لانحتاج في العـالم الى السلام وحـده بل الى الســلام والعدالة .
وصار يدفع عن نفسه مسؤولية قرارات مجلس الامن : انني لست مسؤولا عن هذه القرارات ، فانـا مجرد شـاهد ، ولكنني مقتنع أنه يمكن قراءة قرارات مجلس الامن باسلوب ايجابي .
واضاف : لقد قمتم باتخاذ مبادرات ، منها مبادرة مهمة وبناءة متمثلة بقراركم باطلاق سراح الاجانب فأزلتم بذلك عـائقا امـام تخفيف التوتر في المنطقة ، وان مبادرة ١٢/٨ لم يتم فهمها بصورة جيـدة ، واني ارى انكم قمتم بجهـد كبـير في صـالح القضيـة الفلسطينية ، ذلك انكم وضعتم على قائمة جدول الاعمال مصير الشعب الفلسطيني .
وقال : لا اريد ان اجادلكم سيادة الرئيس الا ان الانجاز الذي تحقق للقضية الفلسطينية يعود فيه الفضل اليكم .
ثم عاد الى الوضع في الخليج :
ـ يجب ان نرى الطريق الذي من خلاله ننصاع لقرارات الامم المتحدة وبخاصـة القرارين ٦٦٠ و٦٧٨ ، ان بلدكم يحتـاج الى

ضمانات ليس من اعضاء مجلس الامن الدائميين فحسب ، بل من آخرين ، وهذا الامر يمكن مناقشته .

لاحظ مستمعوه انه استخدم تعبيرين هما (الانصياع) و(المناقشة) ، فالعراق عليه ان ينصاع بدون مناقشة ، اما الضمانات التي يحتاجها فهي موضوع للمناقشة .

اخرج دي كويار ورقة وقال : لدي هنا افكار اوجزها بالآتي ، وصار يقرأ :

(اتذكر ماقاله الرئيس الفرسي ميتران : اذا استطعنا تنفيذ قرارات مجلس الامن فسيصير كل شيء ممكنا ، الامر المهم اذا اتخذ قرار بهذا الشأن فأن واجب الامم المتحدة هو ضمان عدم قيام اي تهديد لبلدكم . وامر آخر قاله الرئيس بوش وقد كتبته على هذه الورقة الصغيرة قبل ان اغادر الى بغداد : قال لي (سنعمل على تخفيف العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق اذا انصاع لقرارات مجلس الامن ، وان الولايات المتحدة لن تهاجم العراق اذا حصل الانسحاب واعيد الوضع الى ما كان عليه قبل ٢/٨ وهي لاتنوي الاحتفاظ بقواتها البرية في المنطقة ، وستساند المفاوضات بين العراق والاطراف المعنية) .

وبعد ان انتهى من قراءة الورقة تحدث عن الحاجة لتثبيت الامن الاقليمي والتعاون في المنطقة :

ـ تتذكرون سيادتكم ان القرار ٥٩٨ الذي تفضلتم وقبلتم به اشار في فقرتيه ٧و٨ الى ضمان الامن والاستقرار في المنطقة .. والآن نحن بصدد تنفيذهما ..

فعلق الرئيس صدام حسين :

ـ ولكننا لم نحصل على شيء منه .

كانت بغداد قد توصلت بعد سريان وقف اطلاق النار بين العراق وايران في آب (اغسطس) ١٩٨٨ الى ان دي كويار يسهم في عرقلة تطبيق قرار مجلس الامن ٥٩٨ ، ويحول دون قيام مفاوضات

مباشرة بين العراق وايران .. ففي تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٨ طلب طارق عزيز من دي كويار خلال لقائهما في نيويورك ان يدفع باتجاه المفاوضات المباشرة كأسلوب عملي لتطبيق القرار ... لكنه فوجىء بالامين العام يقول له :

ـ واين دوري انا اذن .. ؟

منذ ذلك الحين صدرت تلميحات في الصحافة العراقية ضد دي كويار دون تسميته ، وازدادت شكوك بغداد بدور الامين العام واهليته كطرف في صنع السلام الذي تبحث عنه مع ايران ، ولم تمنع القيود التي تجعل كلام المبعوثين العراقيين حذراً ومتحفظا مراسل وكالة الانباء العراقية في الكويت سنة ١٩٨٨ من اصدار بيان باسمه يهاجم فيه الامين العام للأمم المتحدة ويصفه بانه (رجل عاجز عن ملء مكانه) .. ويطالب المجتمع الدولي بـ (اعادة النظر في اهليته لتبوء منصب الامين العام للأمم المتحدة) ، وعندما ابدى الامين العام انزعاجه من ذلك البيان .. وجد ان المتحدث ليس شخصاً سياسيا او دبلوماسيا ، وانه مجرد صحفي يعمل في وكالة انباء حكومية لايحتمل تصريحه رد فعل ضد حكومته ... ولكن السيد دي كويار قد يكون ادرك يومئذ ان الصحفي لم يكن ليتحدث لولا معرفته بان حكومته لم تعد تثق بالامين العام او تحترمه .

□ □ □

انتبه المبعوث الدولي الى ان المشكلة التي يبحث فيها هذه المرة هي مشكلة (معقدة ومتشعبة) :

ـ لستُ من السذاجة بحيث اتصور اننا سنحل المشكلة هذه الليلة ، لكنني اريد ان اكون في موقف استطيع معه ان اعود بشيء ما لنبني عليه .. ونقلل التوتر ونحرم تجار الحروب من فرصتهم ... هذه هي الافكار التي اود ان اشاطركم فيها وشكرا جزيلا .

لم يعلق الرئيس صدام حسين مباشرة على حديث دي كويار ولكنه سأله :

ـ اتأخذ قهوة مرة .. هذا النوع من القهوة لايساعد على النوم في الليل .

اجاب دي كويار :

ـ انني اسافر كثيرا ومعتاد على مايسميه البريطانيون بالفرق في الوقت .. انني رجل كبير ، لكنني قوي بالنسبة لعمري الذي بلغ (٧١) عاما ، فالرأس هو الذي يسيطر على كل شيء ..

علق الرئيس صدام حسين :

ـ الرأس هو المنظم .

ومضى يقول : ـ وانا استمع اليك وجدت ان هناك الكثير من الايجابيات في ما تحدثت به ، وانا اتفق معك انه في قضية كهذه بمثل هذا التعقيد ليس متوقعا الاهتداء الى حلول في لقاء واحد ، ولابد من الحديث عن هذه الامور بعمق وشمولية .

وراح يشرح موقف العراق :

ـ نحن لانتنازل عن عضويتنا في العائلة الدولية للأمم المتحدة وأقصد دورنا المسؤول فيها . ومثل هذا الكلام يمكن ان يقوله الرئيس بوش او الاتحاد السوفيتي او فرنسا مثلما قلته انا ، لكن قيمة القول في مستنداته ، فنحن عندما نقول اننا نريد ان نكون جزءاً من العائلة التي هي الامم المتحدة وان نكون جزءاً مسؤولا في ظروف كهذه .. علينا ان نقدم الدليل على اننا هكذا .. ونقول هاكم الدليل ، انتم واكبتم الحرب بين العراق وايران في مرحلة معينة .. والتقينا بكم مرتين ، ثم اجرى وزير الخارجية المحادثات معكم وليس مع ايران في اتفاق ١٩٨٨/٨/٨ ، ثم جاءت رسالتنا الى الايرانيين في نيسان ١٩٩٠ التي ندعوهم فيها الى حوار على مستوى القمة ونؤكد لهم رغبتنا في السلام ، وانتم تتذكرون حال ايران العسكري في ١٩٨٨ وتعرفون حالنا العسكري انذاك والان في ١٩٩٠ .. فلماذا ؟ نحن نبادر دائما لصنع سلام مع ايران لاننا نريد السلام ولاننا لانستطيع ان نبني بلدنا بصورة صحيحة الا في

ظل السلام ، والذي يعرف كيف يبني لايريد الحرب ، ولكن عندما تهدد امننا تهددت ايضا فرص البناء وحق الاختيار الحر لما نؤمن به ، فقاتلنا .

واضاف الرئيس : عندما تحققت الفرصة في ٨/٨/٩٨٨ لوقف اطلاق النار كبوابة لسلام شامل توصلتَ انتَ ووزير الخارجية الى اتفاق حول ذلك بالهاتف .. وهو انظم واسهل اتفاق لحالة كهذه حصل في نطاق الامم المتحدة ، لماذا حصل ذلك الاتفاق ؟ الجواب لان العراق يريده ولتعاونه معك ، اذن هذا دليل من التاريخ القريب على اننا عائلة بناءة في الامم المتحدة ، وليست مشاكسة او مخربة ..

وتساءل الرئيس :

ـ هل يستطيع احد ، وبخاصة الولايات المتحدة ، ان يقدم دليلا كهذا من تاريخ علاقته بالامم المتحدة ؟ ان احدث دليل في الامم المتحدة لقضية كبيرة جدا دام القتال فيها ثماني سنوات كان الرواد له هم العراقيون ..

وانتقل الرئيس الى موضوع الكويت :

ـ كان يمكن ان نتعايش مع الحالة كما كانت قبل ٨/٢ مثلما كنا متعايشين .. نحن لم نستذكر فجأة ان الكويت كانت جزءاً من العراق وأقتطعتها بريطانيا منه لتجعلها محمية ثم لتحولها الى دولة سنة ١٩٦١ ، ونحن نعرف ان أياً من ملوك العراق او رؤسائه الذين حكموا الدولة العراقية منذ سنة ١٩٢١ لم يقل ان الكويت ليست جزءا من العراق ، وانتَ الامين العام للأمم المتحدة ليس لديك وثيقة موقعة من الطرفين تتضمن حدودا حتى ٢/٨/١٩٩٠ .

تساءل الرئيس مرة اخرى : ما الذي أوصل الامور الى ما وصلت اليه بعد ٨/٢ ؟... فأشار الى : التهديد الذي تعرض له العراق وتحولت فيه الكويت الى قاعدة بيد امريكا وهو الامر الذي دفع لاستذكار الخلفية التأريخية ، وعرض مطولا محاولات تطويق

الموقف بين الدول العربية التي فشلت بسبب الضغط الامريكي ، واشار الى ان العراق تعامل ايجابيا مع القرار ٦٦٠ رغم انـه لم يعترف به .. «وسنرى لاحقاً ان العراق تعامل مع قرارات مجلس الامن ضده رغم اعترافه بها ، وهي ظاهرة جديدة في طريقة تعامل الدول ومستواه مع قرارات دوليه » .

اشار الرئيس الى ان العراق ، بعد تعامله مع القرار رغم عدم اعترافه به ، اعلن بوضوح انه سيسحب قواته يوم ٨/٤ ، وانه بدأ بسحب هذه القوات فعلا ، ولكنه اوقف سحب القوات عندما استمر التصعيد الامريكي ، وتزايد وصول القوات الامريكية الى المنطقة . وتساءل : من المسؤول عن كل هذا ؟ واجاب على التساؤل : انها الولايات المتحدة التي ادخلت الموضوع في تعقيدات كثيرة .

□ □ □

ماذا يحصل عندما تختفي دولة من خـارطة العالم السيـاسي المعاصر ..؟ .. لم يسأل الامـين العام هـذا السؤال لكن الرئيس صدام حسين سأل السؤال واجاب عليه :

ـ نحن نعرف ان المجتمع الدولي لن يصفق لنا عندما تختفي دولة هي عضو في الامم المتحدة .. ولكن عليه ان يعرف الحقائق . ولنعد الى القانون .. كيف يتحول عضو في العائلة الدولية الى متهم من غير ان يُسمع دفاعه ؟ وخاطب دي كويار : انت الامـين العام للأمم المتحدة لم تستطع ان تجعل طائرة وزير الخارجية العراقي تصل الى الولايات المتحدة ليحضِر ويدافعِ عن وجهة نظر العراق .

قال دي كويّار : حاولتُ .. وقلتُ ان هذا هو بخـلاف اتفاقيـة المقر .

وبـدا ان الرئيس صدام حسـين اراد ان يعلق على مجمـوعة المشاريع والافكار التي تدافعت في الايام الاخيرة التي تقترب من اليوم الاخير على المهلة التي اعطاها مجلس الامن للعراق ، وكأنه يشير ضمناً الى افكار فرنسية كان الوزير رولان دوما قد سلمها الى

العراق ، او تلك التي كان المبعوث الفرنسي ميشيل فوزيل قد اشار اليها خلال لقائه مع الرئيس ، وتلتقي الافكار كلهـا على مـطالبة العراق بشيء من دون اعطائه ضمانة بالحصول على اي شيء .

قال الرئيس :

انهم يقولون الان لينسحب العراق من الكويت ثم نعقد بعد ذلك مؤتمرا دوليا لمناقشة قضايا المنطقة وهذا ليس وعداً قطعياً بل هو مجرد احتمال ، في حين قدمنا في ١٢/٨/١٩٩٠ مبادرة ولم نكن نتصور انها ستقبل بحذافيرها ، ولكننا لم نكن نتصور ايضا انها سترفض من غير دراسة ، فالرئيس الامريكي رفض المبادرة وهو في الطائرة بعد ساعتين من اعلانها وقبل ان يطلع عليها ، والاتحاد السوفيتي رأى انها تتضمن عناصر ايجابية ، ثم عاد وانسحب من الموضوع عندما وجد رد الفعل القوي من جانب الولايات المتحدة .. معنى ذلك ان هناك اصراراً عـلى منهج معـين يُراد منـه تحقيق اغراض سياسية وعسكرية ، وعند ذلك لم تعد هناك قيمة للحديث عن مبادرات .

واضاف : حتى الان يقال لنا طبقوا الشيء الفلاني والفلاني .. هذا ليس حواراً وهذه ليست محادثات ، بل انها فرض ارادة .

وَعّدَ الرئيس العراقي الضغوط التي مارستها الادارة الامريكية على مجلس الامن من ناحية ، ومجلسي الشيوخ والنواب من ناحية اخرى ، لاستصدار تخويلات بـاستخدام القـوة عمليات تهـدف للضغط على العراقيين لينسحبوا بالتهديد ، وعلق على ذلك :

ـ العراقيون لن ينسحبوا بالتهديد ، عند ذلك سيضع بـوش نفسه في الزاوية وسيضـطر ليستخدم السـلاح لان الذي يهيىء مستلزمات استخدام السلاح لا يشغل تفكيره بالبحث عن سبـل اخرى .. لقد تعقدت الامور ، وحتى الذين يدعون الى انسحاب العراق لم يقولوا الى اين ينسحب بغض النظر عن رأي العراق .

لم يتوقف الامين العـام عند واحـدة من اهم الاشارات التي

اعطاها الرئيس له .. فقد فتح باباً لفكرة (انسحاب) ، وتحفظ على الاطلاق في استخدام كلمة (الانسحاب) .

وهنا دعا الرئيس المبعوث الدولي لمشاهدة خريطة للمنطقة وبدأ يشرح له على الخارطة الكيفية التي توسعت بها حدود الكويت حتى وصل الى منطقة تدعى المطلاع التي كانت حتى سنة ١٩٦٣ نقطة الحدود ، وقال لـ دي كويار : ان جواز سفر السيد ياسر عرفات مختوم في المطلاع .. واضاف :

في ضوء هذا التعقيد عندما يقول احدهم لينسحب العراق فالى اين ينسحب .

وتجاهل السيد دي كويار الملاحظة مجدداً .. رغم ان كلمة «انسحاب» عادت للظهور مرة اخرى خلال دقيقة واحدة .

وفجأة وصف المبعوث الدولي مهمته بانها مهمة تسير عكس اتجاه السلاح :

- ان الذين يريدون الحرب سيجعلون من عودتي دون ان احمل اي شيء جئت اطلبه ، ليس باسم الامم المتحدة بل باسم المجتمع الدولي .. قاطعه الرئيس صدام حسين :

- ان كل نقطة تحدثنا عنها تتضمن اعطاءك شيئاً ..

- اخشى ان لا يعد ما اخذه معي ملموساً بدرجة كافية لتخفيف التهديد المفروض علينا مثل السيف المسلط على رأس العالم .

كان الحوار يتصاعد ، وكان الرئيس العراقي يخاطب من خلال السيد دي كويار القوى الدولية التي طلبت منه ان يأتي في الساعات الاخيرة ، ليلحق بالعراق ارهاقاً عصبياً وذهنياً في ادق لحظات الانتظار والترقب ..

قال الرئيس : لابد انك تبحث عن النقطة المعلنة ، وهي ان يعلن العراق الانسحاب ، وبعد ذلك .. كل شيء ممكن !، هذا ما اقتبسته من ميتران وليس من بوش الذي جاء يحارب . ولكن هذا الموضوع القاسي ليس فيه ضمانة لا من بوش ولا من ميتران ولا من الامم المتحدة .

واضاف : احتمال الحرب اصبح بالساعات ولن ينطق احد بكلمة الانسحاب .. لانّ النطق بكلمة الانسحاب مع وجود احتمالات الحرب تعني تمهيد الارضية النفسية لانتصار العدو علينا ، أليس هذا مايريده الامريكان ؟

وبدا ان الرئيس يلقي بالفرصة الاخيرة وهو يتحدث بكلمات حازمة :

ـ اننا مستعدون لمناقشة صفقة كاملة ، ولاننا نريد السلام ، وليس الحلول الجزئية ، نصر على مبدأ الصفقة الكاملة حيث لا يستطيع احد ان يخدع احدا ، والكل يعرف بماذا يضحي وماذا يكسب .. اما البحث المجزأ فسوف يؤدي في نهاية المطاف الى ظهور خادع ومخدوع .. خاسر ورابح ، ولا نعتقد ان هذا يخدم السلام .

□ □ □

وفي اللحظة الاخيرة من اللقاء اراد دي كويار ان يعرض ما استنتجه من المقابلة بقوله : « فهمت ان موقفكم من الكويت لا يمكن التراجع عنه ، وفي هذه الحالة لا يمكن العمل بمبدأ الصفقة »

فعلق الرئيس صدام حسين :

ـ انا لم أقل هذا .. انا قلت ماقلته .. اذا وجدتم ان الامريكان يفتشون عن طريقة لاخراج انفسهم من المأزق دون ان يخسروا وليس بالضرورة ان يحققوا كل الذي في « مخهم ».. فمن الممكن ان نسطر مبادىء ليفتش العرب عن حل طبقاً لها .

قال دي كويار ، وكانت الساعة تقترب من العاشرة ليلا :

ـ هل تخولني ان اقول لمجلس الامن انكم تريدون مناقشات مستمرة من خلال الامين العام .

ـ اعتبر ان هذا تحصيل حاصل ، ونتيجة الاستمرار قد تقدم صفقة .

□ □ □

بعد نصف ساعة كان دي كويار قد توجه الى المطار ، في حين توجه الرئيس صدام حسين لملاقاة خمسين صحفياً عراقياً كانوا

ينتظرونه طوال المدة التي مكث فيها دي كويار في مكتبه ..

وعندما كانت طائرة دي كويار تقطع نصف المسافة بين بغداد وباريس ، كان الصحفيون العراقيون يخرجون للتو من اخر مؤتمر صحفي عقده الرئيس قبل انطلاق الشرارة الاولى في موجة القصف على بغداد ، وظهرت الصحف العراقية في اليوم التالي تحت عناوين كبيـرة : اقفلوا على اهـدافكم .. ليس ثمة مفـاجـأة في اللحـظة الاخيرة ... فلسطين اقرب الينا من أي وقت مضى □

قنـــاة الاســــتخبـــار

تلقيت منتصف سنة ١٩٩٠ دعوة جديدة من المـركز الرئيس لشبكة C.N.N في مدينة اتلانتا بولاية جورجيـا لأكون العـربي الوحيد الذي يتحدث بين عشرين شخصاً من العالم ، عن مشكلة الحرية والاعلام في العراق ووجدت في طيات الدعوة ، اسئلة محددة بعضها يبحث عن اجابة قاطعة عن قضية فرزاد بازوفت الصحفي ايـراني الاصل بـريـطاني الجنسيـة الذي ادين بـالتجسس في العراق . ولم ارفض فكرة الذهاب الى اتلانتا اذ ان ما يعنيني ابعد من موضوع المشاركة في حلقة دراسية مهمة ،كان يفترض ان تعقد في موسكو ، لكن تغييراً حصل في الاسابيع الاخيرة جعل مكـان انعقادها اتلانتا وليس موسكو ، وقد سبق لي أن حضرت في شهر مايس (مايو) من سنة ١٩٨٩ اللقاء الدولي السنوي للشبكة في المركز الرئيس بـاتلانتـا أيضاً ، الذي افتتـح جلساتـه الرئيس الامريكي الاسبق جيمي كارتر .. الفلاح المنحدر من جورجيا وقد اصبح خطيب منبر بعد خروجه من كرسي الرئاسة .

وحتى ذلك الحين ، لم يكن كثير من السياسيين والاعلاميين في العراق معنيين بنشاط هذه الشبكة ، عدا المساهمة المحـدودة في برنامجها الاخباري (The World Report) الذي يلتقط فعاليات من انحاء العالم ليعيد بثها على شبكته المركزية ، وكانت المساهمة العراقية متقطعة وغير منتظمة . في اتلانتا التقيت (Ted Turner) مؤسس الشبكة ورئيسها الذي كان قد اشتهر من قبل في انتاج فيلم ذهب مع الريح والمتزوج من الممثلة جين فوندا وصاحب اكبر مزرعة لتربية الجواميس في الولايات الامريكية الجنوبية ، الذي طرح عليّ فكرة السماح بادخال بث C.N.N الى العراق عبر منظومة تغطي وزارات الخارجية والدفاع والاعلام والمراكز الاداريـة المهمة الى جانب الفنادق الكبرى مقابل اشتراك سنوي تؤول موارده لصالح الشبكة ، ولم اقفل الباب على المقترح ، رغم انني من المتحفظين

على منح اية تسهيلات للغزو التلفزيوني الامريكي للعراق والمنطقة العربية .

في تلك اللحظة ، اردت الامساك بدوافع الاهتمام الاستثنائي بالعراق وقلت له ساخراً : هل انت جاد بما تقوله عن طلب دفع اشتراك سنوي مقابل السماح بادخال بثكم الى العراق ..؟ انني اشعر ان الواجب ان نطلب منكم منحنا بثاً مجانياً وتسهيلات خاصة للعراق .. اذا لم نذهب بعيداً لحد طلب اجور عن السماح لكم بما تطلب .

وهنا صاحت الانسة Sheeffon منسقة العلاقات الدولية : انني استمعت الى اغرب طلب من نوعه في حياتي !

ولم ينته الأمر بالحوار الذي جرى في صالة فندق (OMNI) وسط مدينة اتلانتا ، فقد ارسلت ادارة الشبكة وفداً يضم Sid-ney Pike رئيس البرامج الدولية الخاصة Roland Ciccone مستشار شؤون الشرق الاوسط وأفريقيا في الشبكة الى بغداد لمتابعة الأمر . في تلك الاثناء كنت قد طلبت بصورة عاجلة تشغيل صحن تسلم الاشارات التلفزيونية البعيدة الذي كان متروكاً بدون تشغيل في بناية الاذاعة والتلفزيون في الصالحية ببغداد ، واستعنت بخبرة الدكتور علي المشاط ، الذي يدير فعالية مركز الفضاء الوطني الذي وضع امامي خياراً واحداً : انك تستطيع ان تلتقط ما يبث على القمر السوفيتي SPUTNIK ... وفعلا صار بث موسكو وافغانستان امامي في الظهيرة والمساء ، ووجدت امامي بث C.N.N في الفترات الصباحية المبكرة ، حتى ان هذا البث كان يفوتني عندما التحق بمكتبي في الاذاعة والتلفزيون متأخراً الى فترة الضحى .

لم يخطر ببالي ان هذه الشبكة ستصبح احد ابرز قنوات الاتصال والاستخبار خلال ازمة سياسية عسكرية طاحنة تنتهي الى حرب اقرب ما تكون الى الحرب الكونية الثالثة .

ظل وفد C.N.N الذي حل ببغداد متمسكاً بحق الحصول على واردات عن السماح بتسلم البث ، بعد ان اوضح لنا ان البث صار يغطي العراق منذ مطلع ١٩٩٠ ، لكن هذا البث سيستمر مفتوحاً لمدة ستة اشهر ، ثم يصبح مغلقا Scramble بعد ذلك ، بحيث لا يجري تسلم اشارته بعدئذ الا بموجب مفتاح خاص Code .

وعشية الثاني من آب (اغسطس) ، كانت هناك بضع نقاط في بغداد لالتقاط بث الشبكة التلفزيونية الامريكية ، تخضع لعملية مراقبة وتحليل ، مع هاجس دائم بان الامريكان سيتخذون من هذه القناة وسيلة مزدوجة لتحقيق هدفين : الاول التأثير على المعنويات وخاصة في دائرة صنع القرار العراقي عبر بث اخبار مفخّمة عن قدرات الطرف الآخر وبث روح التيئيس ، والثاني تمرير معلومات خاطئة بقصد تحويل الانتباه والاشغال والتعمية ، ومع ذلك كانت ثمة صفقة ، يعرف الطرفان انها ذات حدين على كل منهما ، فتحملا معاً خسائرها المتقابلة عند بدء الحرب .

اجرت الشبكة استبدالاً لمراسلها عندما طلب البنتاغون من المراسلين الامريكان مغادرة بغداد عشية ١٥/كانون الثاني (يناير)/١٩٩١ ، فسحبت (John Holliman) كبير معلقيها وهو المراسل نفسه الذي اصدر بعد انتهاء الحرب كتابا مشتركاً مع منتج الشبكة (Robert Wiener) .. آنذاك التحق ببغداد المراسل الجديد Peter Arnet البالغ الخامسة والخمسين من العمر الحامل جواز سفر نيوزلندي ، الذي اخفى معلومات عن حياته واظهر اخرى ، فقد ردد انه عمل عشر سنوات مراسلاً لوكالة (A P) للاخبار في حرب فيتنام .. واخفى انه كان منذ ذلك الحين على معرفة قوية بالجنرال Norman Schwartzkopf حين التقيا اول مرة في احراش فيتنام .

وصار Peter Arnet بيتر ارنيت مراسل الشبكة في بغداد ،

اهم مصادر تسرب المعلومات ، فقد كان أول مَنْ بث لقطات تلفزيونية لبغداد تحت الموجة الاولى للقصف الجوي والصاروخي .. ثم توافرت له في الاسبوع الاول للحرب فرصة التجوال الحر في شوارع بغداد ليحدد اثار القصف واماكنه وردود فعل سكان بغداد عليه ، قبل ان يتنبه مرافقوه الى اشارات كان يمررها عبر الهاتف المرتبط بالاقمار الصناعية الذي نصبه في فندق الرشيد ، بما في ذلك المعلومات التي جمعها بعد نقله الى مقر مؤقت يوم الاثنين ١٩٩١/١/٢٨ ليجري لقاءً تلفزيونيا مع الرئيس صدام حسين .

وجاءت الملاحظة الاولى التي ابداها امام الرئيس : ان طرقات بغداد التي عبر فيها ليصل الى الرئيس كانت مظلمة تماما بسبب الهجمات التي تعرضت لها محطات توليد الطاقة الكهربائية .

فعلق الرئيس صدام حسين : ان الضياء يبزغ من الظلام .. وشعر بعدئذٍ ان المراسل كان يبحث عن اجابات تسد فراغا في المعلومات التي يحتاجها الطرف الآخر . مثل : كم طائرة ذهبت الى ايران ، وهل ستعود ، وما الذي تسبب في بقعة النفط ، وما اثار الغارات على المفاعل النووي العراقي .

هنا قال الرئيس صدام حسين : لقد منع الامريكان تسرب المعلومات عن اوضاع جنودهم في السعودية ، وهم يضعون القيود الان على تفاصيل المعارك ، فكيف تريدون هذا من بلد دكتاتوري كما تصفونه .. كيف تريدون من العراق ان يعطي اسراراً بهذه الخطورة ؟ » .

عندما كان المراسل يلح في استيضاح بعض النقاط كان الرئيس يجيبه : « قلت الذي قلته بشكل واضح » .

ولفت انتباه السائل الى « ان الرئيس بوش قد كذب على الرأي العام الامريكي ونحن على استعداد لمساعدتكم في كشف الكذابين بما نقدمه لكم من حقائق .. » .

قبل ان تنتهي المقابلة ، تطلع الرئيس الى وجه Arnet وخاطبه :
« انني اراك خجلاً الآن مما فعله الرئيس بوش يوم قرر ضرب بغداد .. » !!

عند الصباح كان قد اعد المقابلة للبث ، فاجرى اتصالات هاتفية لم تكن تخضع للمراقبة بعد تدمير شبكة الاتصالات الدولية في بغداد . وكانت لديه فرصة ليمرر وصفاً للمكان الذي نقل اليه بسيارات رئاسية ، اعقبها بتقرير عن بناية قصر المؤتمرات الذي خمَّن من خلال مراقبته اليومية عبر فندق الرشيد ان هناك شخصيات مهمة تدخل اليه وتخرج منه .. ممهداً بذلك لتصديق معلومات حصلت عليها لاحقاً المخابرات الامريكية عن استخدام قصر المؤتمرات لعقد اجتماع للقيادة العراقية مع المبعوث السوفيتي يفغيني بريماكوف ، في الوقت الذي ظلت الشكوك تدور فيه حول احتمال وجود جهاز يبث اشارات تحدد الامكنة مع شخصيات دخلت الى فندق الرشيد المقابل لقصر المؤتمرات حيث وقع هجوم صاروخي مكثف في الوقت الذي عقد فيه اجتماع القيادة العراقية مع المبعوث السوفياتي بريماكوف ، وقد تكون الاشارات اعطيت قبل ساعتين من القصف ، وهي المدة التي استغرقها بث الاشارات ، وتسلمها ، ثم تحليلها ، واصدار الأمر بتوجيه الضربة الصاروخية الى المكان الذي جُمعت المعلومات حوله ، وهي ليست المرة الاولى التي تكون فيها اجهزة بث الاشارات وسيلة للمخابرات الامريكية في تحديد الامكنة ، اذ ان الليبيين يتحدثون عن جهاز كشفه خبراؤهم مع خبراء روس مساعدين يعتقدون ان آخر غربي زار القذافي كان قد تركه في منزل الرئيس الليبي ليطلق اشارات تدل على مكانه . وذكر Bob Woodward في كتابه (The Viel) ان وليم كيسي المدير الاسبق للمخابرات الامريكية اعترف باستخدام هذا الاسلوب في تحديد الامكنة ، وقال خاطفو رجل الدين البريطاني Terry Wait في لبنان انه كان يحمل معه جهازا يطلق اشارات من هذا النوع لتحديد مواقع مقرات خاطفي الرهائن الغربيين .

وذكر المراسل نفسه أنه مرّر معلومات ذات صفة عسكرية الى مقر لوكالة المخابرات المركزية C I A في ولاية Virginia ، وهو يدافع عن نفسه ضد الذين اتهموه بمساعدة العراق وعرض وجهة نظره .

وكشف في محاضرة منشورة بعد سنة على انتهاء الحرب انه ارسل يوم ٧/٢/١٩٩١ داخل احدى ادوات التصوير مخططاً للمكان الذي احتجز فيه Bob Simon مع طاقم شبكة C B S التلفزيونية . الذين سبق أن أسرتهم القوات العراقية على الحدود السعودية وتضمن المخطط رسماً لمنطقة الكرادة وتأشيراً لمقر اعتقد انه مكان احتجازهم .

حين اخذه مرافقه الى حافة جسر الاحرار من جهة منطقة الصالحية لمعاينة الدمار الذي اصاب دور المدنيين من السكان ، قدم وصفاً لمعاناتهم : « انهم ضحايا مدنيون كل مشكلتهم انهم يسكنون على بعد مئات الامتار من مواقع عسكرية مهمة » . وكانت تلك الاشارة كافية لتصويب احداثيات المنطقة . وتصحيح الهدف المطلوب اصابته ، وهو بلاشك مبنى الاذاعة والتلفزيون . الذي تعرض بعد ٧٢ ساعة لقصف مدمّر شامل .

ولم ينفِ Arnet أنه اعطى معلومات مهمة عن مرور العربات العسكرية على طريق بغداد ـ البصرة عندما زار الجنوب لمعاينة اصابات المدنيين فيها .

تولى Arnet تمرير معلومات في الحوارات المفتوحة التي كان يجريها عبر جهاز الهاتف المرتبط بالاقمار الصناعية ، قبل بث رسالته التلفزيونية اليومية الى المقر الرئيس في « اتلانتا » بمعونة مقر تقوية مؤقت اقيم في الطابق الثامن من فندق « فيلادلفيا » في قلب العاصمة الاردنية بعد ان استقر بعمان فريق يتغير بعض اعضائه دورياً ويتخذ من فندق الاردن انتركونتننتال مقراً له .. وكان من بين الاتصالات التي اجراها Arnet ، اكثر من مكالمة

ارتبط بها عبر اتلانتا مع خطيبته التي تسكن مدينة (القدس) ، واستخدم في مخاطبتها عبارات مبهمة تحمل اشارات متفقا عليها .. وكانت القدس اول مدينة غير امريكية يزورها بعد الحرب ، وفشل في الحصول على سمة دخول عراقية لخطيبته التي تعمل في التلفزيون الاسرائيلي - فجاء بغداد عندئذ مع ابنته من مطلقته السابقة في الذكرى السنوية الاولى للحرب .

كان اقتراب C.N.N من العراق قد جرى قبيل الثاني من آب ١٩٩٠ - في وقت كانت شبكات امريكية اخرى قد سبقتها مثل C.B.S و N.B.C - وبعد الثاني من آب ١٩٩٠ ومع انفتاح ساحة كبيرة للصدام الاعلامي بين العراق من جهة والولايات المتحدة وحليفاتها الغربيات من جهة اخرى ... سعى العراق الى تكثيف وجوده الاعلامي في الخارج . والتقت رغبة القيادة العراقية في هذه اللحظة مع النزوع غير المحدود الذي اظهرته شبكة C.N.N في اقامة مركز شبه دائم ببغداد ، اذ ان العراق اراد ان يفتح قناة مباشرة مع العالم من خلال هذه الشبكة ، وارادت ادارة C.N.N ان تنفرد بهذا الامتياز . وعلى الرغم من الحظر غير المعلن من شبكة الانتلسات على العراق الذي تراكمت عليه فواتير غير مسددة منذ سنة ١٩٨٨ ، وهو أمر حدد من مستوى الانتشار العراقي ، الا ان شبكة C.N.N اقامت فوراً مقرها في عمان ، وتوسطت المدير العام للاذاعة والتلفزيون الاردني المهندس راضي الخص ، واتصلت بي كمدير عام للاذاعة والتلفزيون في العراق لتأمين بث يمر من عمان عبر شبكة الميكروويف التي تربط العراق بالاردن ، ليعبر من هناك الى المقر الرئيس في اتلانتا جنوب الولايات المتحدة .

وزاد عدد النقاط التي تلتقط بث الشبكة ببغداد ، وكانت قد توافرت للعراق عندئذ فرصة البث المباشر لنشاطات الرئيس صدام

حسين ، بما فيها احاديثه ورسائله الموجهة الى الرأي العام الامريكي والاوربي .

وجرى تنسيق يومي لربط بث الشبكة مع تلفزيون العراق بعد ان اضاف ترجمة انكليزية مكتوبة على البيانات الاكثر اهمية التي درج على اذاعتها مذيع التلفزيون مقداد مراد الذي اكتسب شهرة عالمية كبيرة ، وصار الامريكان يسمونه بالناطق الرسمي العراقي ، واثارت اناقته الرئيس الامريكي جورج بوش الذي كشف ضمناً انه يتابع بدقة كل ما كان يصدر من بغداد عبر هذه الشبكة ، اذ خاطب الناطق باسم البيت الابيض مارلين فيزوتر خلال احد مؤتمراته الصحفية : انك لا تبدو باناقة الناطق العراقي الذي يظهر دائماً واضعاً منديلاً انيقاً في جيب سترته العلوي ..

ولم تكن تلك هي الاشارة الوحيدة على ان الرئيس الامريكي حريص على مراقبة احاديث الرئيس صدام حسين والبيانات العراقية ، فقد كان قادة التحالف المعادي للعراق هم الآخرون يدمنون على هذه المراقبة سواء في الرياض او القاهرة او لندن او باريس ، وقد صدرت عنهم سلسلة مواقف وتصريحات كانت رد فعل لما يشاهدونه على شاشة التلفزيون عبر شبكة C.N.N التي تمكنت في وقت مبكر من الوصول ببثها الى ١٠٥ دولة من دول العالم .

وسنجد بعد خمسة اشهر على انتهاء حرب الخليج ، ان شبكة C.N.N لعبت دورا مثيرا في مكان اخر من العالم ، عندما يسرت للرئيس بوش واجهزة المخابرات الامريكية متابعة حية من موسكو للانقلاب الفاشل ضد الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف ووضعت عددا من السياسيين السوفيت في صورة الموقف الامريكي بحيث صارت صلة الوصل الصاعدة والنازلة ، بعد ان كانت قد اخترقت الجدار السوفيتي قبل اربع سنوات على الاقل عندما غدت اول شبكة تلفزيونية امريكية تحظى بافتتاح مقر دائم في موسكو ،

وبنت لها شبكة علاقات داخل الادارات السوفيتية مكنتها لاحقا من الوصول بكاميراتها الى مواقع الاحداث الساخنة .

وفي بغداد تبدلت فرق الشبكة ، بعد ان توقف اطلاق النار ، وعاد ارنيت ليكتب قصته في العراق ، واخذت C.N.N من اهتمام العراقيين اكثر بكثير مما تستحق ، حتى ان اسمها صار لدى بعض الاعلاميين العراقيين شهادة ذات مصداقية لا ترد . تشابه كثيرا النظرة نحو محطة B.B.C خلال الخمسينات من هذا القرن عندما عدها العراقيون مصدرا موثوقا لا يقبل الرد ، وذهبت احدى الصحف (١٩٩٢/٣/٢٧ عند اظهار اهمية مناسبة افتتاح رئيس الوزراء لمعرض عن اعادة الاعمار ان اشارت الى ان بين كبار الحضور بعثة لشبكة C.N.N !. وكأن الشبكة تفتش الاحداث العراقية وتدقق في وقائعها ، وتعطيها مصداقية ما !

وتوهمت الشبكة التلفزيونية ، ايضا ، عندما افترضت انها تصلح ان تكون قناة لتهديد العراق ، بما يصدر عبرها من رسائل غير مباشرة ، تفترض ان هناك مسؤولين عراقيين ، لا عمل لهم ، الا مراقبة بث الشبكة واخذ كل ما يمر عبرها كناتج غير قابل للتأويل .

واستمرت اللعبة المزدوجة بعد انتهاء الحرب .. وقد تستمر زمنا طويلا على هذا الايقاع المتداخل .

الاخوة الاعداء : صديق أنت أم عدو يا بريماكوف ؟

أريد أن أحررك من فكرة الدولة العظمى ، والمقارنة بها .

صدام حسين
في حديث مع بريماكوف

كانت المرة الثالثة التي يلتقي فيها الرئيس صدام حسين المبعوث السوفيتي يفغيني بريماكوف ... القصف لم يتوقف ، وبغداد مجللة بالنار والدخان ، كان بعض العراقيين يعتقدون ان وصول بريماكوف الى بغداد سيكون سبباً في تخفيف موجات القصف الجوي والصاروخي على العاصمة ، لكن الذي حصل كان العكس ، فقد اشتد القصف طوال نهار الثلاثاء ١٢/ شباط (فبراير) على العاصمة بايقاع صاخب اقرب ما يكون الى طريقة في التعبير عن ملاقاة زائر غير مرغوب فيه .

كان الجو بارداً عند الساعة التاسعة مساء بالتوقيت المحلي ، وجلس الى جوار الرئيس سبعة رجال هم عزة ابراهيم وطه ياسين رمضان وطه محيي الدين معروف وطارق عزيز وسعدي مهدي صالح ولطيف نصيف وسكرتير الرئيس حامد حمادي ، في حين دخل مع بريماكوف اربعة رجال هم كالوتشا رئيس دائرة الشرق الاوسط في الخارجية السوفيتية ومركَريان مساعد بريماكوف وفكتور بوسو فالوك السفير السوفيتي في بغداد وكان الشخص الرابع هو المترجم الروسي .

وأراد بريماكوف منذ البداية ان يظهر عدم رضا موسكو على ما اصاب المدنيين في العراق من جراء القصف .. فافتتح حديثه بالاشارة الى التصريح الذي كان قد ادلى به رئيسه ميخائيل غورباتشوف قبل يومين فقط من وصوله الى بغداد وذكر فيه ان هناك خروجاً من قبل دول التحالف على التخويل الصادر من مجلس الامن بموجب القرار ٦٧٨ حول اجازة استخدام القوة العسكرية .

وتعبيراً عن الاهتمام بأوضاع المدنيين طلب بريماكوف زيارة مواقع غير عسكرية تعرضت للقصف في بغداد .. وعند حافة نهر دجلة في الجهة الجنوبية من بغداد حيث كانت تترامى امام الابصار انقاض جسر ١٤ تموز الحديدي المعلق الذي صار أشبه بسمكة مقطعة لم يبق على الساحل غير ذيلها .. تطلع بريماكوف طويلا الى نهر دجلة وقد غاصت فيه بقايا الاوتاد الحديدية ، فسأله مرافقه العراقي :

ـ أراك استغرقت في تأمل هذا المشهد .. هل يثير لديك ذكريات قديمة ؟

قال بريماكوف :

ـ لقد عبرت مرات كثيرة من فوق هذا الجسر أيام عملي في وكالة نوفوستي ببغداد وفي كل مرة زرت فيها عاصمتكم.

لم يكن بريماكوف قد ابدى تأثراً مماثلا في جولته ببغداد التي شاهد فيها البيوت المتهدمة في حي الكريمات الشعبي بمنطقة الصالحية ، ومركز المأمون للاتصالات الهاتفية ، ساعتها أراد أن يتأكد من وقوع تجاوز من قبل قوات الحلفاء على التخويل الذي اعطاه مجلس الامن لاستخدام القوة ضد العراق ، ولذلك بدا وهو يعاين الناس ودورهم المهدّمة شاهداً ميت الاعصاب ...

□ □ □

وصف بريماكوف نفسه بانه صديق تحدث في المرتين السابقتين بشرف وصراحة .

كان الرئيس صدام حسين قد خلع معطفه العسكري واصغى الى المبعوث السوفيتي وهو يتحدث بعبارات بدت مكررة عندما قال : ان الوضع في غاية الخطورة ، وان السياسة هي فن الممكن والممكن هو الشيء الواقعي في الحياة ... وانتقل بريماكوف الى ما هو اعمق من تلك المقدمة البسيطة فقال :

ـ يجب ان لا نعطي اية فرصة لقصم العمود الفقري للعراق ، ونحن نربط بين مسألة الاهتمام بالعراق ووجوده ووجود نظامكم في هذا البلد ، وأشير بوضوح الى اهمية وجود عراق قوي بوجود نظامكم فيه .

استرسل بريماكوف في حديثه ، وبدا ان الرئيس صدام حسين حريص على الاستماع الى الموفد الذي بعثته موسكو .. اذ ان المهم ان يستمع المضيّف ضيفه في مثل هذه الحالات ما دام هذا الضيف

قد جاء بناءً على طلبه وبالتالي فأن لديه رسالة ما ينبغي الاستماع اليها .

استطرد بريماكوف : ان بين لقائنا الاخير في ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٠ وهذا اللقاء اموراً كثيرة تدفعني للقول انه يمكنكم القيام بخطوات لفض المسألة سياسياً وهذه الامور هي :

١ ـ ان العراق لم يخضع طوال الفترة الماضية للتهديدات

٢ ـ ان العراق صمد في الحرب فترة اطول من صمود كل الدول العربية خلال الحروب التي خاضتها في هذا العصر

٣ ـ ان العراق يخوض نضالا ضد عدو لم يتجرأ اي بلد عربي على خوض النضال ضده .

هذه اسباب تخلق امكانات للقيام بخطوات سياسية واضاف : اذا لم يتخذ اي حل سياسي فأن الوضع سيتفاقم ، لقد قلّت امكانية المناورة السياسية عما كانت عليه قبل شهرين او ثلاثة .

وانتبه بريماكوف فجأة الى ان حديثه يتشابه بمفرداته مع الخطاب السياسي الغربي الذي يثير حفيظة العراقيين ، فأستدرك يقول :

ـ انني اتحدث من موقع الصديق ، وقد نددت بقرار مجلس الامن (٦٧٨) في امريكا نفسها ونشر حديثي في صحيفة نيويورك تايمز منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) العام الماضي وهذا دليل صدق كلامي ... وسحب ورقة من الملف الموضوع امامه وراح يقرأ في نسخة من التعليمات التي اصدرتها موسكو الى سفرائها في العالم للتحرك قبيل اجتماع مجلس الامن الذي كان مقررا له ان يتم في اليوم التالي (١٣ شباط فبراير ١٩٩١) ، وهي تعليمات تعبر عن قلق موسكو للاعداد الكبيرة من الضحايا بين المدنيين العراقيين وما اصاب المدن من تدمير كبير وهي امور تدل ان دول التحالف تعمل خارج اطار القرار (٦٧٨)

وحين انتهى بريماكوف من قراءة الورقة قال الرئيس صدام حسين :

ـ تتذكرون اننا قلنا لكم ان مـوقف الامريكـان ليس مرتبـطاً بموضوع الكويت وقد شرحنا لكم انهم قبل خمسة اشهر في الثاني من آب قطعوا الخبز عن العراقيين ودعوا الى مقاطعة العراق علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً وتحركوا على دول اوربا واليابان في هـذا المجال ، واضاف الرئيس : لقد وجد الامريكان الذريعة ليقوموا بما قاموا به ، ومن غير ان ندخل في جدل البيضة قبل الدجاجـة ام الدجاجة قبل البيضة ، فـأننا نجـد حرجـاً في الحديث الآن عن الصداقة العراقية السوفيتية امام شعبنا ، وبكلمات حازمة مضى الرئيس في توجيه اللوم : لقد بدأ الشعور بالالم بعد القرار ٦٧٨ ، الالم لانكم اعطيتم الامريكان الغطاء لكي يضربوا العراق . وهنا قال بريماكوف : ان بلاده عملت على ابعاد بعض الفقرات من القرار وكـان رأينا الاشـارة الى مسألة استخـدام كل الوسـائل ومنهـا الوسائل السياسية وعملنا على ابعاد مسألة استخدام القوة ..

وابتسم الرئيس صدام حسين وقال لبريماكوف :

ـ اننا نعرفك منذ النصف الثاني من عام ١٩٦٩ . ويبدو انك عندما كنت رئيس تحرير البرافدا كنت افضل كما نقول ان طارق عزيز عندما كان رئيس تحرير (الثورة) كان أفضل وها انت قد صـرحت برأيـك ضـد القـرار ٦٧٨ لكن القـرار اتخـذ يـارفيق بريماكوف !

وتوجه الرئيس بسؤال محدد الى بريماكوف :

ـ الآن ما الذي سيفعله الاتحاد السوفيتي ازاء تجاوز امريكا وحلفائها قرار مجلس الامن في خرق حدود التخويل الذي جاء به القرار ؟

لم يجب بريماكوف على السؤال فاستطرد الرئيس :

ـ لو قلت لك اننا مستعدون لحل سياسي فكيف سنتصرف بهذا الجهد ؟

لم يجب بريماكوف ايضا ، ولكنه سأل ان كان من الممكن ان يلتقي على انفراد مع الرئيس صدام حسين .

قال له الرئيس :
ـ نؤجل ذلك وقتاً قصيراً .
ـ ومضى يشرح موقف امريكا من العراق :
ـ نريد ان نعمل معاً بما يفوت الفرصة على امريكا التي تريد ان تتحكم بالعالم ، ان خلاصة ما نعتقده ان الولايات المتحدة تريد ان تسيطر على العالم ومنه منطقتنا ، ولكي تتحكم لابد ان يكون حلفها مع اسرائيل حقيقياً لكي تخضع المنطقة خضوعاً كاملا وبالتفصيل ، لذلك لم نكن على وهم عندما كنا مقتنعين ان امريكا كانت تنوي توجيه ضربة للعراق وهي تطرح ذرائع لسحبنا الى مواقف اضعف فأضعف من اجل تحقيق اهدافها . واثار الرئيس صدام حسين اسئلة متتالية رأى انه لابد من الاجابة عنها قبل الاقدام على اية خطوة مهما كانت صغيرة ، فتساءل : (هل هناك قدرة في منع تنفيذ ما تخطط له امريكا ؟ هل هناك رغبة في منعها من السيطرة على المنطقة والعالم ؟ هل ان امريكا مستعدة لان تقابل اي تصرف من العراق بتصرف امريكي مرن من قضايا المنطقة الرئيسة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية ؟ هل هناك قدرة للضغط على اسرائيل وامريكا للاستجابة لحل القضية الفلسطينية حلا عادلا وشاملا) .

كان الرئيس صدام حسين قد ابلغ المبعوث السوفيتي في ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٩٠ خلال لقائهما الثاني في بغداد ان العراق سيضرب اسرائيل اذا ما تعرض للهجوم ، ولم تكن الحرب قد قامت يومئذ ، اما اليوم فأن العمليات قد بدأت ونفذ العراق ما كان قد اعلنه وبدأت صواريخه تنهال على اسرائيل ، ولذلك تساءل الرئيس : (لو حصل وقف اطلاق النار بين العراق من جهة وامريكا والتحالف من جهة اخرى فانه لن يشمل اسرائيل لاننا سنظل نضربها ، فما الذي سيحصل ؟ اذا الربط بين قضايا المنطقة

موجود والقول ان قضية فلسطين لا تدخل ضمن امن المنطقة بالتسوية الجدية هو قول غير واقعي) .

ومضى الرئيس يسأل :

- هل تعتقدون ان اطماع امريكا ستقف عند حد حتى تجاه الاتحاد السوفيتي ؟ مازلنا حتى هذه اللحظة على قناعة كاملة ان اطماع امريكا هي اطماع عالمية ، وقد وجدت في ظروف الاتحاد السوفيتي الداخلية فرصة مناسبة للسيطرة على المنطقة وعلى العالم ككل ، واذا ما سيطرت على المنطقة لم يبق فيها احرار ولا كرامة ولا حرية ولا سيادة ، وهذا هو السبب الذي جعلنا نواجه امريكا في الوقت الذي لا يوجد كثر في العالم مستعدون لهذه المواجهة ، اننا نعتقد ان مكانتنا كشهداء هي افضل من ان نكون عبيداً .

□ □ □

كان من السهل على الرئيس صدام حسين ومساعديه ان يستنتجوا من اللغة التي استخدمها المبعوث السوفيتي (يفغيني بريماكوف) اختفاء اللغة السوفيتية التي اعتاد مبعوثو موسكو تداولها على مدى عشرين سنة بعد توقيع اتفاقية التعاون والصداقة بين العراق والاتحاد السوفيتي سنة ١٩٧٢ ، وقد تلاشت تماماً الندية التي كانت تطبع لغة السوفيت وكل ما يتعلق بالولايات المتحدة والغرب ، بل على العكس استنتج العراقيون من معرفتهم الطويلة بالسوفيت ان لغة الاصدقاء القدامى قد لانت في الحديث عن أمريكا ، وان اليد الحديد التي كانت تصافح الغرب صارت يداً من حرير ، وقد لا يكون هناك من هم اعرف بالسوفيت في المنطقة العربية اكثر من العراقيين فقد انتقلت العلاقة بينهما من مرحلة الزعل الى مرحلة التراضي والتفاهم كما وصفها مرة شاذل طاقة حين كان سفيراً في موسكو مطلع السبعينات ، وتعود العراقيون والسوفيت ان يقولوا عن بعضهم اننا بحاجة لنقرأ بين

السطور اذا تحدث احدنا للآخر ، فهما مقتصدان في وصف أي شيء عدا ما كانا يشتركان فيه في الاوصاف القاسية للامبريالية والغرب والولايات المتحدة .

وها هو (بريماكوف) يتحدث الى الاصدقاء القدامى من موقع تضببت الرؤيا باتجاهه من طرف بغداد . فهل يحاول الصديق القديم احياء صداقة آيلة الى الموت ؟ أم انه آت ليبيع ما تبقى من الصداقة للعدو المشترك الولايات المتحدة ؟ أم أنه جاء الى بغداد تحت ضغط قوى داخلية في الاتحاد السوفيتي يمثلها الحراس القدامى في الحزب والجيش والمخابرات ؟..

ـ صديق أنت أم عدو ؟ هذا هو السؤال الذي تمنى القياديون العراقيون ان يوجهوه صراحة الى مبعوث موسكو ، فبريماكوف يستخدم ما تبقى من مفردات قاموس الصداقة لاشاعة الاطمئنان في نفوس مستمعيه العراقيين الذين لا يستطيعون ان يتجاهلوا ان الاتحاد السوفيتي اتفق على (سياسة مشتركة في الخليج) مع الولايات المتحدة عند اجتماع الوزير الامريكي جيمس بيكر بزميله السوفيتي ادوارد شيفرنادزة بعد اقل من اربع وعشرين ساعة على دخول القوات العراقية الى الكويت ، ثم أيدت موسكو قرار مجلس الامن (٦٦٠) وما تلاه من قرارات وصولا الى الرقم (٦٧٨) الذي اجاز استخدام القوة ضد العراق ، بحيث بدت السياسة السوفيتية نحو ازمة الخليج متوافقة مع الايقاع الذي ضبطته الولايات المتحدة لتعامل مجلس الامن ضد العراق .

قرر الرئيس صدام حسين ادامة الصلة مع السوفيت ، برغم تأييدهم لقرارات مجلس الامن ضد العراق ، وطلب من السيد طارق عزيز ان يتوجه الى موسكو مطلع شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٩٠ ليحمل رسالة الى الرئيس غورباتشوف الذي كان ينتظر قدوم مسؤول عراقي عشية انعقاد قمة هلسنكي .

ولعل ابرز ما اكده الرئيس السوفيتي انه سيكون حريصا على العمل لمنع استخدام القوة العسكرية في حل الازمة .

وذكر الوزير العراقي ان بلاده استغربت من تراجع موسكو عن الترحيب الأولي، الذي أعلنه شيفرنادزه وزير الخارجية لمبادرة ١٢ آب (اغسطس) واقترح ان يعمل السوفيت على تطوير المبادرة بالاضافة اليها او الحذف منها . ودعا الرئيس السوفيتي الى عدم المشاركة في تأييد الموقف الامريكي في مجلس الامن ..

□ □ □

فهل استشعر العراق مبكراً التحول في سياسة الاتحاد السوفيتي نحوه ؟

يبدو من تحليل اشارات متتالية ان الرئيس صدام حسين استشعر في وقت مبكر المخاطر التي ستحيق بالعراق بعد انكفاء الاتحاد السوفيتي نحو مشاكله الداخلية وبروز الولايات المتحدة الامريكية قوة منفردة تنهي عصر القطبين الذي ساد على مدى نصف قرن وكان احدى ضمانات سلامة الدول الصغيرة في العالم .

كرّس الرئيس صدام حسين لقاءً مع سفراء العراق في الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية والصين وفيتنام وكوبا لمناقشة انعكاس المتغيرات الدولية الناتجة عن تراجع دور الاتحاد السوفيتي على العراق ، ودعا الى ذلك الاجتماع الذي عُقد في خريف ١٩٨٩ الباحثين السياسيين والملاكات القيادية في الدولة العراقية ، واستمع الى اجابات الحاضرين عن اسئلة محددة تدور حول منطقة واحدة : ماذا سيصيب العراق اذا غاب نظام القطبين ؟ .

ويُستدل من التحليلات التي قدمها الرئيس صدام حسين وعرضها المنتدون ان العراق توصل الى الاستنتاجات التالية قبل اقل من سنة على انفجار أزمة الخليج :

اولا : ان الاتحـاد السوفيتي الذي انسحب من منقـطة أمنه الحيوي في اوربا الشرقية لن يتردد في الانسحاب من منطقة الخليج كمجال للاهتمام وكنقطة تصادم محتملة مع الغرب وهو الأمر الذي يرتب تضاؤل اهتمام موسكو بحلفائها واصدقائها في هذه المنطقة بعـد انكفاء الاتحـاد السوفيتي لمـواجهـة مشكـلاتـه القـوميـة والاقتصادية .

ثانياً : سيترتب تلقائياً تراجع في نظرة موسكو الى مكانة العراق ودوره بالنسبة للأمن السوفيتي بمستوى واحد مع انحسار اهتمام الولايات المتحدة بـإيران كمنـطقة محـاددة للاتحاد السـوفيتي وكموقع صد لهجوم سوفيتي باتجاه الخليج وكعامل تفتيت مضاف للاتحاد السوفيتي ، وهذا يعني حصول تغيير لأول مرة منذ نصف قرن في نظرة موسكو وواشنطن الى المنطقة التي يقع فيها العراق وايران .

ثالثاً : انــه ليس من الصواب ان تـرد المتغيرات التي تنبىء بالوقوع في هذا الجزء من العالم الى غياب دور الاتحاد السوفيتي فقط . اذ ان العوامل الذاتية والاقليمية هي الاكثر فعالية في تحريك احداث المنطقة ، وان حركة التحرر العـربي والحركـة القوميـة العربية التي يعد العراق جزءاً اساسياً فيهما ، هي ليست نتاج صناعة سوفيتية ولم تكن بنت الثورة الروسية انما كانت نـاتجا محلياً وقوميـاً تعود جـذوره الى حركـة الانبعاث القـومي الاولى ومنظريها الاوائل امثال الكواكبي وكل ما ارتبط بالثورة العـربية الكبرى مطلع القرن ، وهذا يعني ان مصـير الحركـة التحرريـة العربية لن ينتهي الى المصير الذي آلت اليه الانظمة السياسية في اوربا الشرقية التي كانت نتاج ما بعد الحرب العالمية الثانية من جهة وقد نشأت في رحم النموذج السوفيتي .

رابعاً : ان غياب نظام القطبين الذي ظل ينظر الى منطقة الشرق الاوسط كموضوع للصراع وكسـاحة محتملة له ، سيـؤدي الى

نتيجتين ، الاولى : بروز الصراع الاقليمي الحاد الذي يقوم على منع كل طرف للطرف الآخر من الاستحواذ على فرصة التحكم بالمستقبل السياسي للمنطقة وتعطيل المشاريع المتقابلة للحصول على التكنلوجيا المتقدمة ، وسيكون العراق واسرائيل الطرفين المرشحين للتصادم في نزاع عسكري وسياسي وعلمي . والثانية : ان الولايات المتحدة ستحول اهتمامها من منطقة النزاع العربي ـ الاسرائيلي الى منطقة الخليج بهدف الوصول الى مصادر النفط والسيطرة عليها للتحكم بالاقتصاديات المنافسة والطامحة في اوربا واليابان ، وهو الأمر الذي جعل العراق شديد التحفظ على وجود الاسطول الامريكي بكثافة في الخليج العربي وما يحمله من تهديد موضعي قريب في المكان والزمان معاً .

خامساً : سيسعى صناع الحرب النفسية في امريكا واسرائيل وعواصم اخرى معادية للعراق الى (نقل الأزمة بالايحاء) وذلك من خلال تيسير صورة التغييرات السريعة التي حصلت في اوربا الشرقية وانهارت خلالها انظمة كانت تعد حديدية متماسكة ، بحيث يجري الايحاء للجمهور العراقي بيسر التغيير تحت عناوين الدفاع عن الحريات وحقوق الانسان واعتماد اقتصاد السوق وتحت ضغط الأزمة الاقتصادية وهو الأمر الذي أثار حفيظة العراقيين لاحقاً عندما تبنت هذه الدعوة وروجتها الصحافة الكويتية نهاية ١٩٨٩ ومطلع ١٩٩٠ ، بحيث اتخذت الدعوة لنقل الأزمة بالايحاء اقرب نقطة في المكان الى العراق ، وجرى التعامل مع دعوات الاعلام الكويتي على انها جزء من برنامج منظم يستثمر المتغيرات الدولية التي رافقت انهيار الاتحاد السوفيتي ودول أوربا الشرقية للتأثير على الوضع الداخلي في العراق .

سادساً : عد العراق غياب دور الاتحاد السوفيتي كند للولايات المتحدة في مجلس الامن اخطر نتائج اضمحلال دور موسكو في النطاق الدولي ، اذ ان الانكفاء السوفيتي يعني اخلاء الطريق امام

الولايات المتحدة للهيمنة على مجلس الامن وتوجيهه بما يوفر شرعية دولية لبرامجها وخططها .

□ □ □

قبل ان ينفرد الرئيس مع المبعوث السوفيتي اعطاه اشارات محددة لما يجب ان يكون من وجهة نظر العراق امام احد عشر شخصاً من الحاضرين اضافة الى بريماكوف ، فقال : (ليست نظرة العراقيين الى قوة امريكا نظرة غير واقعية فنحن نعرف انها تملك قوة تدميرية هائلة ، ولكننا نعرف ان البديل المشرف هو الذي يضمن حقوقنا ، وان العراقيين ليسوا مستعدين او غير مستعدين لبحث حل سياسي ، انهم مستعدون الى اخر لحظة لذلك) .

وهنا استذكر الرئيس الموقف الذي عرضه عشية بدء الهجوم على بغداد عندما جاء الامين العام للامم المتحدة الذي وصفه بلا تردد بأنه (شخص متآمر) ، وقبل ان ينفرد المتحاوران ختم الرئيس كلامه بالقول : إن الطريقة التي كانت تتعامل بها أمريكا تكتيكياً هي للوصول الى الحرب ، ولم تكن المسألة كيف نكون مرنين حتى نمنع الحرب .

□ □ □

استمد الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف من الصداقة القديمة التي تربط بين بغداد وموسكو ماأسماه « الحق الادبى » في قول مايفكر به للجانب العراقي ، وقد استثمر هذا الحق الادبي في وصف دخول القوات العراقية الى الكويت بانه عمل غادر يعرض للخطر النظام الدولي الجديد الذي بدأ يتكون بصعوبة واستخدم اقسى عباراته مع العراق عشية صدور قرار مجلس الامن (٦٧٨) عندما خاطب العراقيين في حديث له من اذاعة موسكو العربية : « لابد ان نجبركم على تنفيذ قرارات مجلس الامن » ، واعاد

غورباتشوف ترتيب استخدام قاموسه السياسي بحيث جعل اولوية « الكفاح » امام بلاده اليوم هي (في اعادة سيادة الكويت) ، في حين ذهب بسمرتينيخ وزير الخارجية في كلمة امام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بعد اسبوعين من بدء الهجـوم على العـراق الى القول : (انه لمن السخافة حقا ان يتبادر الى الذهن الوقوف الى جانب البلد الذي لنا معه معاهدة للصداقة والتعاون .. العراق) .

كان قطار غورباتشوف يسير بدفع متقطع بسبب وجود قـوى محلية تسحب حركته الى الخلف وتعارض التـوافق السوفيتي - الامريكي في الخليج وتتعامل مع بغداد كطرف صديق ، وهي قوى لم تتردد في استثمار ملاحظاتها على موقف الادارة السوفيتية من ازمة الخليج لتصفيـة حسابـات محلية في التنـازع على السلطة بموسكو .. فقد رفض غينادي يانابيف (وهـو الذي قاد في وقت لاحق الانقلاب على غورباتشوف) صراحة اي اجراء عسكـري ضد العراق ، ورفض نائب وزير الخارجية الكسندر بيلونوغـوف استخـدام كلمة رهـائن بخصوص تسعـة آلاف سوفيتي كـانوا موجودين في العراق والكويت في بداية الازمة ، وعارضت منظمات اجتماعية وطلابية سوفيتية السكوت على انزال القوات الامريكية في السعودية ، في حين اوصى مؤرخـون سوفيت من امثـال يفغيني باجانوف بعدم تورط الاتحاد السوفيتي عسكريا في المنطقة و(عدم الانجرار الى المخططات الامريكية) ... وقبل انقضاء شهر واحد على دخول القوات العراقية الى الكويت اعلن فلاديمير كريوتشكوف رئيس المخابرات السوفيتية (كي جي بي) ان جهازه مستعد لتبادل المعلومـات فورا عن العـراق مع وكـالة الاستخبارات المـركزيـة الامريكية ، قابله تصريح لرئيس اركان القوات المسلحة السوفيتية موسييف حذر فيه من استخدام القوة العسكرية ضد العـراق ، وذهب الكسندر الكسييف عضو اتحاد الصحفيين السوفيت الى ان هناك الكثير من المواطنين السوفيت يؤيدون العراق وان مـطاليب

العراق تجاه الكويت هي مطاليب كل الشعب العراقي ، وقاد النواب المتشددون في البرلمان السوفيتي المنضوون في مجموعة (سويوز) هجوما مباشرا على وزير الخارجية شيفرنادزه اتهموه فيه بتجاوز سلطاته عندما اعلن في نيويورك ان موسكو مستعدة لارسال قوات الى الخليج ، وكان شفرنادزه قد شن اقسى هجوم على العراق في كلمة القاها امام الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٥ ايلول (سبتمبر)/ ١٩٩٠ وتضمنت اول تهديد سوفيتي باستخدام القوة .

وتبنت وكالة نوفوستي في الشهر الثاني للازمة تحليلا يرى ان الجانب العراقي اخل بمعاهدة الصداقة والتعاون مرتين ، الاولى عام ١٩٨٠ عندما اشتبك في حرب مع ايران ولم يضع القيادة السوفيتية في حيثيات الخطط العسكرية العراقية ، والثانية عدم اشعاره الجانب السوفيتي نيته الدخول الى الكويت في الثاني من آب (اغسطس)/ ١٩٩٠ ، وذكر تقرير الوكالة ان وزارة الدفاع كانت تتوقع ماحصل في الثاني من آب الا انها لم تبلغ القيادة السياسية ولذلك كانت الاحداث مفاجأة صاعقة على الكرملين .

- في حين نبّه رئيس احدى الجمعيات الروسية الصغيرة وتدعى (انبعاث روسيا) ان الرئيس صدام حسين حريص على الصداقة مع الاتحاد السوفيتي لذلك دعا خلال قمة عمان ، الى توظيف الاموال العربية في الجمهورية السوفيتية ، وسانده رئيس صندوق الثقافة الروسية وهي مؤسسة صغيرة ايضا في التنبيه الى حيوية العلاقات العراقية - السوفيتية وقال : (ان واحدة من كل ثلاث من العملات الصعبة التي يحصل عليها الاتحاد السوفيتي هي من العراق) .. وانتعشت مشاعر مؤيدة للعراق في الجمهوريات الاسلامية وغير الاسلامية على حد سواء ، ففي حين كتب الطلبة في مدينة طاشقند الاسلامية على الجدران شعار : (انت على حق ياعراق) ، خرجت

تظاهرة في مدينة لينينغراد (التي استعادت اسمها القديم في وقت لاحق بطرسبيرغ) ترفع شعاراً آخر يقول : (اخرجي ايتها القوات الامريكية من بلاد العرب) . و(لماذا توحيد المانيا عمل جيد وتوحيد العراق عمل شيطاني) .. وقد قيل في حينها ان مجموعات معادية للصهيونية هي التي نظمت تلك التظاهرة .

□ □ □

كانت ساعة كاملة قد مضت على اللقاء الموسع قبل ان يبدأ لقاء منفرد حضره من الجانب العراقي عزة ابراهيم وحامد حمادي سكرتير الرئيس ، اما بريماكوف فقد احتفظ بمترجمه الضليع باللغة العربية ، وبدا وكأنه يتلو التعليمات التي املاها عليه الرئيس غورباتشوف .

ـ ان الامريكان يعدون الآن للمعركة البرية ويريدون اختراق قواتكم في الكويت ، ولا يستبعد ايضاً ان يقوموا بالهجوم من جانب تركيا ، وانا اعتقد انكم لو اعلنتم استعدادكم لسحب قواتكم من الكويت بعد فترة محددة بعد انتهاء العمليات الحربية وحسب جدول معين لسحب القوات فانكم بهذه الخطوة ستحرجون امريكا ولن يبقى مع الامريكان من الحلفاء غير الانكليز ، وان مواصلتكم العمليات الحربية في هذه الظروف امر في غاية الصعوبة .. ان لديكم بعض الجوانب القوية وستكون عندكم حجة قوية ايضاً اذ سيقاتل كل العراقيين حتى الموت لو حاول احد اختراق العراق ، وفي هذه الحالة سيدين العالم المعتدي ، وستظهرون امام العالم العربي بانكم القوة التي استطاعت الصمود في حرب ضروس وكبيرة جداً وطويلة واظهرتم فيها امام الجميع صمودكم وقدرتكم بما فيه الكفاية .

ومضى بريماكوف يصف الخطوة التي يطلبها من العراق بأنها

(مناورة سياسية) : ستضعفون من خلال هذه المناورة السياسية امكانية الولايات المتحدة بشكل كبير .

وتطلع الى وجه الرئيس صدام حسين وخاطبه :

- انني لا اجاملكم . بل أنا اكتب واتحدث واقول دائماً أن الرئيس العراقي صدام حسين يمتلك قوة الارادة المصحوبة بالحكمة ، ولا شك ان هذه الصفات تساعدكم في اتخاذ القرارات الجذرية خاصة في مرحلة الانعطافات التاريخية .. انا اعرف انكم ستقاتلون حتى النهاية ، ولكن النتيجة ستكون في غير صالح العراق ولا حتى في صالح ميزان القوى في العالم .

وحاول بريماكوف التقليل من اهمية اقوال الحكام العرب وتصريحاتهم وروى حادثة مرت على الاتحاد السوفيتي في زمن ستالين عندما اشتكى عضو في اللجنة المركزية كان مسؤولا عن الكتّاب السوفيت من اوضاع هؤلاء الكتّاب فقال ان هذا مدمن على الخمر والآخر يلعب القمار ، وذاك زير نساء .. الخ ، فقال ستالين : هل عندي غير هؤلاء الكتّاب يا رفيق بوركاريوف ؟

علّق الرئيس صدام حسين :

- ليس عندي وهم ، انا اعرف ذلك .. ولكني أرى ان الموقف العربي كان افضل من توقعاتي .

ومضى بريماكوف يعرض المنافع التي ستتحقق للعراق اذا اعلن عن استعداده للانسحاب :

- انكم بهذه الخطوة ستلعبون اكبر دور في المستقبل ، واذا وافقتم على اقتراحي على الاعلان عن الانسحاب فلن تكون هناك حجة للسعودية لابقاء القوات الامريكية ، ويمكن استخدام مجلس الامن عندئذ بشكل سريع .

وكمن يهمس قال بريماكوف :

- سيجري موسم الحج وسيشكل مليون ونصف المليون من الحجاج المسلمين ضغطاً كبيراً على السعودية .. واستدرك يقول بصوت منخفض : ارجو ان يبقى هذا بيننا .

قال الرئيس صدام حسين :

ـ انك تتعامل معنا منذ ٢٢ سنة ، وانت تعرف ان الذي تقوله نحفظه في دماغنا .. وحسب ..

□ □ □

بدأت علاقة بريماكوف بالعراق منذ سنة ١٩٦٩ حين كان يتردد على بغداد بصفته رئيسا لتحرير صحيفة (البرافدا) ، ليقوم بمهمات غير رسمية ، تعرف في اثنائها الى الرئيس صدام حسين عندما كان نائبا لرئيس مجلس قيادة الثورة وتعامل فيها مع السيد طارق عزيز عندما كان رئيسا لتحرير صحيفة (الثورة) .. وكان طرفا في اتصالات غير رسمية حول المسألة الكردية في العراق ، ومنحته معرفته اللغة العربية ميزة في القدرة على تأسيس مناخ للتفاهم مع العراقيين .

والغريب ان سفارة الاتحاد السوفيتي في بغداد اشتكت بعد انتهاء الحرب عندما ظهر مقال في جريدة (الثورة) العراقية ذكر ان بريماكوف يهودي الديانة ، في حين ان المعلومات التي نشرت لاحقاً اكدت انه من اسرة يهودية وقد ولد في مدينة تبليسي عاصمة جورجيا سنة ١٩٢٩ ، لا بل ذهب ضابط متقاعد من المخابرات السوفيتية الى اتهامه بانه كان وراء فتح باب هجرة اليهود السوفيت الى اسرائيل ، وانه هو الشخص الذي نظم اعادة العلاقات بين موسكو وتل ابيب .

□ □ □

عاد بريماكوف الى موضوعه : المهم في هذه اللحظة ان تنطلق المبادرة من العراق قبل بدء المعارك البرية .

عندئذ قال الرئيس صدام حسين :

ـ احب ان تعرف جيداً ان العراق قادر على الدفاع عن نفسه .. وحتى لو خرقوا الجبهة فاننا سنسحبهم الى المدن ونقاتلهم بكل سلاح .

علّق بريماكوف : انا لا اشك في هذا ابداً وانني افهمه جيداً .
واصل الرئيس :
ـ هذا هو تصميمنا قبل ان تبدأ الحرب .
فعاد بريماكوف يظهر علامات التفهم :
ـ لا يوجد لدي قيد انملة من الشك بانكم لن تستسلموا .. انني اعرفكم .
كان بريماكوف قد استخدم في السادس من تشرين أول (اكتوبر) عند اول لقاء له مع الرئيس صدام حسين وصف : محاصرون في قلعة !.. فقد قال له الرئيس :
ـ امريكا اذا كانت قد قررت الحرب فانها ستقوم بها حتى لو انسحبنا من الكويت .. لقد كانوا يتآمرون علينا ، ويستهدفون القيادة بالاغتيال .. فما الجديد الذي يخسره العراقيون ..؟.. هناك احتمال ان يربحوا ..
فعلق بريماكوف يومئذ :
ـ اعتقد انكم قبل الثاني من آب كنتم محاصرين في قلعة ..
فصحح له الرئيس صدام حسين :
ـ لابل كنا مهددين
كانت الفكرة التي استوحاها بريماكوف من اسطورة تعود الى القرون الوسطى عن محاصرين داخل قلعة قرروا الانتحار الجماعي ، وتُعرف بعقدة (ماسدا) تستحوذ على تفكيره في اول حواراته مع القيادة العراقية .. الا انه اكتشف لاحقا ان العراقيين كانوا يمدون خارج القلعة المحاصرة ـ المهددة خطوط اتصال وامداد ، جعلتهم قادرين على التعامل مع ثلاث مستويات من المخاطر هي : التهديد ـ الحصار ـ الحرب .
لم يستسغ الرئيس صدام حسين فكرة المنتحرين الذين حوصروا في قلعة فقال لبريماكوف :

ـ اريـد ان أناقشـك حتى احررك من فكـرة الدولة العـظمى والمقارنة بها ..

هذه المرة .. وبعد لقائين مع بريماكوف كان أولهما قبل أكثر من ثلاثة أشهر مازال الرئيس العراقي ينظر الى الدور الامـريكي في المنطقة من منظار الباب السـوفيتي الذي انفتح بسهـولة وبدون مقابل :

ـ كنا نتمنى للاتحاد السوفيتي ظروفاً غير ظروفه التي هو عليها اليوم اذ ما كانت امريكا لتلعب بالمنطقة .

ـ أنت محق سيادة الرئيس .. هذا ما كنت اتمناه ايضاً .. اننا نحتاج الى سنتين فقط .

قال الرئيس : خمس سنوات .. منذ البداية قلت ذهبت سنتان وبقيت ثلاث سنوات .

ـ نعم سيادة الرئيس سيكون هناك موقف آخر .

هل كان بامكان اميركا ان تذهب الى الحرب من دون ان يكون الاتحاد السوفيتي معها ..؟

اجاب العراقيون انفسهم عن هذا السؤال ، بعد ان حصلوا على معلومات عن طريق رؤساء دول ، بان الرئيس الاميركي اراد ، ان يضمن امرين ، قبل اختيار العمل العسكري :

الاول : ان لاتتحمل القوات الاميركية خسائر بشرية كبيرة .

الثـاني : ان يكون الاتحـاد السـوفيتي الى جـانب الولايـات المتحدة ، سواء في مجلس الامن ، أم خارجه .

□ □ □

عند وصول بريماكوف الى بغداد بالطريق البري عبـر الحدود الايرانية رافقه مستقبلوه العراقيون لمقابلة طارق عزيز الذي حاول ان يستكشف ما يحمله المبعوث السوفيتي ، لكن بريماكوف ابدى رغبته في ان يعرض كل ما لديه امام الرئيس صدام حسين ، اذ كان

شديد العناية بتقديم صورتـه كجامـع للمعلومات التي يـريد ان يعرضها بطريقة تجلب الاهتمام ، ولذلك صار ينتقل خلال حديثه مع الرئيس صدام حسين من موضوع الى آخر ليظهر معـايشته التفصيلية للحرب وموقف رئيسه منها :

ـ وددت ان اخبركم سيادة الرئيس ان جيمس بيكر اتصل بوزير خارجيتنا بسمرتنيخ قبل ٤٥ دقيقة من بدء العمليات وابلغه بموعد بدء الهجوم ، فايقظ الوزيـر الرئيس غوربـاتشوف الذي حـاول الاتصال مع جورج بوش يطلب تأجيل العمليات عدة ايام حتى يتم الاتصال بالعراق ، وبعد فترة اتصل جيمس بيكر وقال ان العمليات قد بدأت فعلا .

سأل الرئيس صدام حسين :

ـ هل حكى غورباتشوف مع بوش ؟

اجاب بريماكوف :

ـ بعث بـطلبـه الى بـوش عبـر بيكـر لتـأجيـل العمليـات ، وبعـد ذلك اتصـل غـوربـاتـشـوف وقـال لي : لقـد بـدأت الحرب .. ونحن لم نكن نرغب ان تقع الحرب ضدكم .

ـ انا متأكد ، لكن العتب عليكم هو انه كان عليكم ان تعملوا من اجل ان لا تقع الحرب :

ـ اتفق اننا لم نعمل في الاتحـاد السوفيتي الكثـير ، وانتم لم تساعدونا .

قال الرئيس صدام حسين :

ـ لم يكن امامنا بديل لأن كل الصيغ المـطروحة كـانت تعني الاستسلام للهيمنة الامريكية ، وانتصار امريكا هو انتصـار لها ولحلفائها في المنطقة .. لكي تبدأ سيادة القانون الامريكي ..

ثم وجه سؤالاً محدداً الى بريماكوف :

- أسأل سؤالا .. ما هو التزام الاتحاد السوفيتي تجاهنا لو اتفقنا على الخط السياسي ؟

اجاب بريماكوف : يجب ان نرى اولا على اي خط سياسي نتفق .. انا على استعداد ان اقدم تقريراً مغلقاً الى غورباتشوف اذا اقترحتم عليّ اية صيغة نتحدث بها ، انكم لن تخاطروا بأي شيء لأن كل شيء سيكون مغلقاً وسريا .

قال الرئيس :

- في كل الاحوال يجب ان لا تكون الصيغة بأن هناك انتصاراً للامريكان وخذلاناً للعراق ، وفي كل الاحوال يجب ان يكون هناك هامش قائم للمناورة .

قال بريماكوف : الصيغة التي قدمتها لكم لا تبدو انتصاراً للامريكان .

- كيف ذلك .. ؟ انسحاب من الكويت بدون وضوح كاف للحقوق العراقية والحقوق العربية .. ؟؟

هنا راح بريماكوف يتحدث عن المرونة عندما يكون الطرف الآخر ذا قوة اكبر وقال :

- اننا في زمن خورتشوف اردنا وضع الصواريخ في كوبا ، وفي تلك الفترة كان عدد صواريخنا اقل عشرين مرة من عدد الصواريخ الامريكية ، وعندما شعرنا ان خطتنا لن تمر سحبنا صواريخنا وقاذفاتنا من كوبا .. ان السياسة هي العمل في اطار الممكن .

علق الرئيس صدام حسين :

- ولكن كان هناك ثمن .. ثمن وصل الى حد ان تطلب الولايات المتحدة من الاتحاد السوفيتي الدولة رقم (١) ايضا في العالم تفسيراً لاسباب استقالة شيفرنادزة .

ابتسم بريماكوف وقال : إنهم يعرفون الاسباب من شيفرنادزة شخصياً .. اعود الى قضية كوبا ، لقد التزمت امريكا بتعهد انها

لن تهاجم كوبا اذا لم تقم كوبا بنشر الصواريخ ضدها ، ونحن هنا نربط استعداد العراق للانسحاب بأن لا تستخدم امريكا القوة ضده .

كان القصف ما يزال مستمراً منذ الصباح ومرت طوال فترة الاجتماع موجات من الصواريخ فوق بغداد ليحدث انفجارها دوّياً كبيراً يُسمع وكأنه يقع في اماكن ملاصقة لمكان الاجتماع ، وهو امر ظل مستمراً على مدى الايام الستة والعشرين التي خلت ، وكانت بغداد في هذه اللحظة بعد منتصف الليل تغصّ في ظلام كامل بسبب تدمير محطات توليد الطاقة الكهربائية ، وقد تكون الغرفة التي جمعت الرئيس صدام حسين والمبعوث السوفيتي من الاماكن النادرة التي توجد فيها انارة كافية في بغداد ذات الملايين الستة من السكان .

□ □ □

الكلمة السحرية .. هو الوصف الذي اعطاه بريماكوف لمفردة (الانسحاب) ، وفي كل مرة من المرات الثلاث التي قابل خلالها صدام حسين كان يخرج ليتحدث مع مساعديه عن الكلمة السحرية ، حتى انه بعد لقائه الاول في السادس من تشرين اول (اكتوبر) ١٩٩٠ خرج ليجد بانتظاره ياسر عرفات ومساعديه من القادة الفلسطينيين ، فبادر فاسيلي كالوتشا رئيس دائرة الشرق الاوسط في الخارجية السوفيتية والسفير الاسبق في بغداد :

ـ لم نسمع الكلمة السحرية .

ـ فطلب الرئيس ياسر عرفات وسفيره في بغداد السيد عزام الاحمد ان يستمعا لوصف عن مادار في المقابلة ، فما كادا ينتهيان من الاصغاء الى الوفد السوفياتي حتى قال الفلسطينيون : لقد قالها ، ولكن عليكم ان تبحثوا بين السطور .

هذه المرة عاد بريماكوف يبحث عن الكلمة السحرية مرة أخرى .. في هذه الساعة المتأخرة بعد منتصف الليل حيث يعقد لقاء قد يكون الاخير بينه وبين الرئيس العراقي .

قال بريماكوف :

ـ المهم الآن ان يصدر من العراق تصريح بخصوص الانسحاب من الكويت بضمان عدم ....

قاطعه صدام حسين :

ـ ان كلمة الانسحاب والجيش في حالة الاشتباك هي كلمة خطيرة على الجيش يارفيق بريماكوف : تابع المبعوث السوفياتي :

ـ نأخذ هذا في الاعتبار ولكن الانسحاب يقع بعد توقف العمليات الحربية وانا بشرفي لاأرى أي مخرج آخر الآن .. أعرف انكم ستقاتلون حتى النهاية ... ولكن هل ان استشهادكم سيعزز الجبهة العربية .

أجاب الرئيس صدام حسين :

ـ القتال لن يكون انتحاراً .. ان فيتنام لم تنتحر عندما قاتلت امريكا ، وكن على ثقة ان هؤلاء العملاء الذين تراهم الآن في المنطقة سيسقطون اذا استمر القتال سنة .

ـ ولكن للأسف لا توجد ضمانة ان يستمر القتال لمدة سنة في أي معركة .

قال صدام حسين :

ـ لو تم تدمير كل الطائرات والدبابات والمدافع سنقاتلهم بالبنادق في حرب تحرير شعبية .

□ □ □

طلب الرئيس صدام حسين من المبعوث الرئاسي السوفياتي يفغيني بريماكوف ان يتأخر في بغداد قليلاً حتى تتمكن القيادة العراقية من اعداد جواب واضح متكامل حول ماطرحه عليه .

سأل بريماكوف ان كان ممكنا ان يلتقي بالقيادة العراقية اليوم ، وكان فجر يوم الاربعاء الثالث عشر من شباط (فبراير) قد بدأ .

قال صدام حسين :

- بامكانك ان تأخذ جوابا اوليا ، اما الجواب التفصيلي فسيأخذه مبعوث الى موسكو

قال بريماكوف :

- سأغادر في السادسة صباحا ويجب أن أكون على الحدود الايرانية في الثامنة صباحا .

قال الرئيس صدام حسين :

- سينقل لك الرفيق طارق عزيز جوابا اوليا هذه الليلة .

□ □ □

وتوصلت القيادة العراقية ، التي اجتمعت بعد انتهاء اللقاء مع بريماكوف ، ان المبعوث السوفيتي لم يحمل مشروعا متكاملا للحل السياسي ، ولكنه طرح افكارا ودعوات ، ودخل في مناقشات ، وهو امر حفز العراق على التفكير باعلان مبادرة سياسية شاملة من جانبه ولذلك تقرر من حيث المبدأ مايأتي :

الاول : بلورة مبادرة سياسية شاملة تتضمن للمرة الاولى مبدأ التعامل مع قرار مجلس الامن ٦٦٠ بضمانات عملية وسياسية للحقوق العراقية والعربية .

الثاني : ايفاد السيد طارق عزيز والدكتور سعدون حمادي الى موسكو للاتفاق على اطار عمل سياسي مشترك مع الاتحاد السوفيتي .

وقد توجه وزير الخارجية الى السفارة السوفيتية لملاقاة بريماكوف قبل ساعات قليلة من مغادرته لابلاغه انه سيزور موسكو

بعد خمسة ايام على الاكثر ليحمل معه الاجابة العراقية عن الافكار التي طرحها عليها .

وفوجىء العراقيون والسوفيت بان المكان الذي تعرض للقصف في اللحظة التي كانت القيادة العراقية مجتمعة مع بريماكوف ، كان قصر المؤتمرات المقابل لفندق الرشيد في جهة الكرخ من بغداد ، بعد ان خمن الامريكان ان الاجتماع ينعقد فيه ،فقرروا القيام بعملية اغتيال جماعية للقيادة العراقية والمبعوث السوفيتي □

نص رسالة غورباتشوف التي حملها مبعوثه بريماكوف الى صدام حسين في ١٩٩٠/١٠/٦

فخامة رئيس الجمهورية المحترم :

لقد اقلقني بشدة الوضع الناجم عن تطور الازمة في منطقة الخليج العربي ؛ وبهذا الخصوص ابعث اليكم بممثلي الخاص السيد ي .م. بريماكوف عضو المجلس الرئاسي لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

امل ان يساعد التبادل الصريح للاراء معكم في بغداد على ايجاد الحلول المقبولة التي ستمكن من التخلص من الخطر المخيم على المنطقة . وانا على ثقة من ان هذه الفرصة ستكون مستغلة على اتم وجه لكي نخرج باحدى اشد الازمات ، التي نشبت مؤخرا ، الى طريق التسوية السياسية . واود ان اؤكد اننا نعدّ تسوية كهذه دافعا حقيقيا لحل المعضلات الساخنة الاخرى في هذه المنطقة ، وفي المرتبة الاولى القضية الفلسطينية . من الطبيعي سيستمر الاتحاد السوفيتي ، بعد التغلب على الازمة في منطقة الخليج في مساعيه معكم لتوطيد علاقات الصداقة السوفيتية ـ العراقية التقليدية التي تمتلك جذورا تاريخية عريقة . وانني على يقين كذلك من انكم ستقومون بكل ما هو ضروري من اجل حل كافة المشاكل المرتبطة بوجود الخبراء السوفييت في العراق .

رئيس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية
م . غورباتشوف موسكو ، الكرملين
أوكتوبر (تشرين الاول) ، عام ١٩٩٠ م
الى فخامة رئيس الجمهورية العراقية
صدام حسين
بغداد

Ваше Превосходительство господин Президент,

Будучи глубоко обеспокоенным развитием ситуации вокруг кризиса в зоне Персидского залива, направляю к Вам в качестве своего специального представителя члена Президентского Совета СССР Е.М.Примакова.

Рассчитываю на то, что откровенный и доверительный обмен мнениями с Вами в Багдаде будут способствовать нахождению приемлемых решений, которые позволят отвести опасную угрозу, нависшую над районом. Верю в то, что этот шанс будет использован для того, чтобы вывести один из самых острых кризисов, возникших за последнее время, на путь политического урегулирования.

Хотел бы подчеркнуть, что мы рассматриваем такое урегулирование и как серьезный импульс для решения других жгучих проблем этого района, в первую очередь, палестинской.

После преодоления нынешнего кризиса в зоне залива Советский Союз, естественно, будет продолжать совместно с вами усилия в целях упрочения имеющих многолетнюю историю и ставших традиционными дружеских советско-иракских отношений.

Уверен также, что Вы сделаете все необходимое с тем, чтобы снять проблемы, связанные с пребыванием советских специалистов в Ираке.

С уважением

Президент СССР М.ГОРБАЧЕВ

Москва, Кремль
2 октября 1990 года

Его Превосходительству
Саддаму Хусейну,
Президенту Иракской Республики

г.Багдад

صورة من رسالة غورباتشوف إلى صدام حسين باللغة الروسية. كتبت في ٢/١٠/١٩٩٠ وسلمها بريماكوف في ٦/١٠/١٩٩٠.

مــهمــات فـــي مــوســكــو

سنوزّع الادوار بيننا ، انتم تنسحبـون
من الكـويت ، ونحن نتـولى القضـيـة
الفلسطينية في مجلس الامن .

غورباتشوف
للوفد العراقي في موسكو

ـ بماذا جئتم الينا .. ماذا لديكم ؟

بهذا السؤال بدأ الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف لقاءه مع القياديينّ العراقيين طارق عزيز وسعدون حمادي اللذين وصلا بعد رحلة مضنية من بغداد عبر طهران الى موسكو في الثامن عشر من شباط (فبراير) ١٩٩١ .

اجاب السيد طارق عزيز :

ـ لقد فكرنا هل نقول شيئا معلنا قبل المجيء الى موسكو ، ام ننتظر تحقق الزيارة ونقوله لكم ؟ .. ورأينا من المناسب ان نعلن شيئا قبل الوصول الى موسكو لتسهيل مهمتكم في الوصول الى حل سلمي مشرف وشامل ، ولذلك جاء بيان القيادة العراقية قبل ثلاثة ايام (مبادرة ١٥ شباط ـ فبراير) لتزيل عملية خلط الاوراق واعتقد ان كل شيء اصبح واضحا ...

□ □ □

قامت مبادرة ١٥ شباط (فبراير) على مبدأ التعامل مع قرار مجلس الامن ٦٦٠ بما في ذلك قبول الانسحاب من الكويت ، لكن هذا القبول كان مشروطاً بالعناصر التالية :

أولا : الغاء احد عشر قراراً صدرت عن مجلس الامن ضد العراق .

ثانياً : الغاء اجراءات المقاطعة والحظر ضد العراق .

ثالثاً : سحب القوات الامريكية والحليفة لها من المنطقة .

رابعا : انسحاب اسرائيل من الاراضي الفلسطينية والجولان ولبنان

خامسا : ضمان حقوق العراق في الارض والبحر .

سادساً : قيام الدول الحليفة بتمويل عملية اعادت بناء ماهدمته الحرب في العراق .

سابعا : الغاء ديون العراق ودول المنطقة المتضررة .

ثامنا : تتولى دول المنطقة ، بما فيها ايران ، وضع ترتيبات الامن في الخليج .

تاسعا : اعلان الخليج منطقة خالية من القواعد العسكرية الاجنبية

« نص المبادرة ملحقة بالفصل »

كان اعلان مبادرة سياسية في بغداد تتضمن مبدأ الانسحاب من الكويت لاول مرة دون ان تسبقها او ترافقها عملية الانسحاب الفعلية سببا في اشاعة القلق والارتباك في اوساط الشعب والقوات المسلحة ، وهو ماكانت القيادة العراقية حريصة على عدم وقوعه ، وقد يكون حصل ماكان يخشى منه، ولذلك بدا انهقدكان طالت المدة بين اعلان المبادرة والمباشرة فعلاً بالانسحاب كلما تعرضت ارادة القتال للضعف والحيرة وهذا ما يؤكد ان بغداد صدقّت وعد موسكو بمنع نشوب الحرب البرية ، واطمأنت الى ان بامكانها ان تسحب قواتها بصورة منظمة ومشرفة .

□ □ □

اثار المسؤول العراقي سؤالا كان يشغل بغداد بالقوة نفسها التي اثارها الرئيس غورباتشوف سؤاله في بداية المقابلة :

نحن نسأل ماذا ستفعلون انتم في موسكو بعد ان اصدرنا بيان ١٥ شباط ؟ وماذا تقترحون علينا لنصل الى السلام المشرف ؟

وقبل ان يحصل على الاجابة التي ينتظرها مضى ليحدد الاولويات كما تراها بغداد :

- اننا لانقبل باي حل ينطوي على الاستسلام ، فالعراق مصمم على المواجهة والصمود مهما كلف ذلك من تضحيات .. والخطوة الاولى كما نرى هي وقف العدوان ، فعملية السلام تحتاج الى بحث وتبادل للآراء وهذا لايمكن ان يكون تحت القصف المستمر لا من الجانب السياسي ولا الاخلاقي ولا العملي .

وتدخل سعدون حمادي الرجل الثاني في الوفد العراقي :

ـ نحن وانتم نريد تحقيق سـلام يخص كل المنـطقة ، ولذلك طرحنـا برنـامجا يخص المنـطقة وكـل مشاكلهـا .. فهـل لديكم ملاحظات على هذا البرنامج .

كانت الاسئلة التي اثارها المبعوثـان العراقيـان تدل عـلى ان القيادة العراقية كانت ماتزال تنظر الى غورباتشوف كرئيس دولة عظمى صديقة ، تحالف معها العراق على مدى اكثر من ربع قرن ضد السياسات الامريكية في المنطقة وائتمنها على اسراره بما فيها العسكرية ، واعتمد عليها مصدراً رئيسا في التسليـح ، وعدهـا حليفا سياسيا مضمونا ، ولكن التبدلات السريعة في نظرة موسكو الى قضايا العرب منذ وصول غورباتشوف الى منصب الرئاسة سنة ١٩٨٥ ، جعلت مرأى الماء في الكأس التي كانت من قبل مليئة الى حـافتهـا بنخب الصـداقـة .. يتنـاقص ، حتى اذا نـظر اليـه العراقيون ، في لحظة لقائهم مع غورباتشوف ، يجدون ان ماتبقى في قعر الكأس يكاد لايُرى ، ولذلك فان الطرفين تحدثا لاحقا عما وصَفاه (بقايا الصداقة) ... ومرة اخرى نظر المبعوثان العراقيان الى الرئيس السوفيتي نظرة صديق لابد منه .

قطع غورباتشوف الصمت الذي مر بضع لحظات على خاطري المبعوثين العراقيين وهما يصغيان الى التـرجمة من العـربية الى الروسية :

ـ ان ما اعلنتموه خطوة نحو التسوية السياسية ، ولكن يبدو ان هناك شروطا مسبقة .. فهل هي شروط ام انها نقاط للتذكير ؟ .. لقد لفتت انتباهي اشـاراتكم الكثيرة للسـلام المشرف وهـو امر يذكرني بما نسميه في تاريخنا (السـلام الرزيل) ، ونقصـد به الصلح الذي عقد في مدينة (برست) ، حيث كان هناك مـوقف لتروتسكي الذي ترأس وفدنا في الشوط الاول لمفاوضات الصلح ، وكان علينا ان نعقد الصلح او نسقط ، ويومها قال (لينين) ان هذا الصلح رزيل ولكن لابد منه لانقاذ الثورة .

لقد اختار غورباتشوف ، أسوء نموذج من فترات التراجع في تاريخ روسيا الشيوعية ليقدمه للعراقيين كطريق يمكن اعتماده بقبول السلام الذي يصفه هو نفسه بأنه (رزيل) .

والمثير ان نموذج تراجع لينين كان قدم للقيادة العراقية قبل ذلك من قبل المستشار الالماني الأسبق فيلي برانت عندما دعا الى اعتماد مبدأ لينين في التراجع حفاظاً على الثورة البلشفية . خطوتان الى الأمام .. خطوة الى الخلف ..

في حين رأى الرئيس صدام حسين ان المرونة مفهومة لدى العراق طبقاً لمفهوم لينين وليس بالصيغة النحتية ، لكن المشكلة كما شرحها لبرانت (٧/ ١١/ ١٩٩٠) هي على النحو الآتي :

ـ لابد من وضع أية خطوة في الاطار الشامل .. فعندما نقول للذين ناصرونا اننا قبلنا الحلول السلمية ، فلابد ان يروا المكاسب العامة للمنطقة ، والأمن العام للمنطقة ..

□ □ □

تجاهل طارق عزيز عرض محدثه السوفيتي عن سلام مماثل لسلام برست .. وعاد يثني على حديثه زميله سعدون حمادي :

ـ لقد استخدم الدكتور سعدون حمادي بدقة كلمة برنامج لوصف مبادرتنا .. هكذا نحن نرى الامور .

قال غورباتشوف :

ـ اذن هي ليست شروطا بل هو برنامج .. اعرف ماجاء في بيانكم ، المهم بماذا جئتم اليّ ، انني افرق بين الاستراتيجية والتكتيك ، لذلك اعتقد اذا اوقفنا الحرب فسيكون ذلك سلاما مشرفا لثلاثة أسباب :

الاول : انكم تصديتم للمخطط الخطير ولم تسمحوا بتدمير العراق .

الثاني : ان بالامكان تعويض الخسائر والضحايا التي وقعت حتى الان خلال فترة وجيزة .

الثالث : ان هذا السلام سيكون مشرفا اذا استطعنا ايقاف العمليـات العسكريـة بحيث لايتمكن الطرف المقابـل من فـرض ارادته .

قال طارق عزيز :

ـ ان هذا ماجاء في بياننا ، وقد جئنا لتبادل الرأي ، واذا كان مانبحثه اكثر من صلاحيتنا سننقل الموضوع الى بغداد ، اذ ان عملية التسوية معقدة ، وانتم بامكانكم ايقاف الحرب ، وهذه اول خطوة مطلوبة .

علق غورباتشوف :

ـ اذا اصررنا على الربط الصارم بين وقف اطلاق النار وتسوية مشكلة الشرق الاوسط فان هذا امر غير واقعي ، ويستغل الطرف المقابل موضوع الربط لرفض المقترحات العراقية ، كما يستغل هذا الشرط لتصعيد الامور في الخليج .. انا اتصور الامور كالاتي :

لابد من اعلان يصدر من طرف العراق بانه مستعد للانسحاب من الكـويت ، وفي اليوم التـالي لوقف اطلاق النار نحـدد الوقت المطلوب للانسحاب ، ولابـد ان يكون هنـاك ضمان للامن اثنـاء انسحاب القوات ، وفي هذه الحالة نستطيع نحن وغيرنا ان نعقد مجلس الامن الذي سيسجل هذا الاعلان العراقي ، ويستـطيع المجلس ان يتبنى موقفاً تجاه مجمل قضـايا الشـرق الاوسط ، وبهذه الطريقة يمكن تنفيذ برنامجكم المطروح كله .

ومضى غورباتشوف يحدد آلية العمل :

ـ الجزء الاول سيكون بينكم وبين الطرف المعادي ، اما الجزء الثاني المتعلق بالشرق الاوسط ومجمل قضايا المنطقة فسيكون من صلاحيات مجلس الامن .. وهذه برأيي عملية توزيع للادوار ..

تدخل بسمرتنيخ وزير الخارجية :

ـ اعتقد ان هذا تصور واضح ونريد ان نسمع تعليقكم .

واضاف بريماكوف المبعوث الذي زار بغداد ثلاث مرات : اريد

ان اشير الى عامل الوقت ، المطلوب اعلان موقفكم فوراً ، ان رئيسنا يسعى حتى لا يبدأ الامريكان القتال البري ، ولكن الامريكان يشترطون ان يجري كل شيء بسرعة ، وهم يهتمون كثيراً بتطورات زيارتكم هذه ، ومن الواضح ان هناك قوى تريد احباط محاولتنا .

عاد غورباتشوف للحديث مضيفاً الى ما قاله بريماكوف بأنه يشعر ان هناك قوى متنفذة في امريكا تعتقد ان القوة العسكرية انفع لامريكا وافضل لمصالحها :

ـ ان اول نقطة سجلتها في هذه الاوراق امامي هي كيف نصل الى السلام قبل فوات الأوان ، لان المعركة البرية اذا بدأت فان الطرف الآخر سيستمر فيها متذرعاً بان لهذه المعركة منطقاً معيناً .. وقد تسربت أمس معلومات بأن موعد المعركة البرية قد تحدد ، ويبدو ان تسريب هذه المعلومات مقصود كطريقة لممارسة الضغط علينا ، وعلى لقائنا اليوم .

قال طارق عزيز :

ـ لقد طرحتم ثلاث نقاط ، وقلتم لابد من اعلان من طرف العراق في استعداده لسحب قواته من الكويت ، وهذا موجود في بيان ١٥ شباط (فبراير) .. فهل هناك شيء آخر ؟

قال غورباتشوف :

ـ ولكن ليس هناك اي اشارة الى الكويت في بيانكم ؟

اجاب طارق عزيز :

ـ هذا مفهوم ضمناً .

فعلق غورباتشوف :

ـ اذا كان مفهوماً ضمنا فلماذا عدم الاشارة ؟.. النقطة الاخرى ان هذا البيان جيد فليكن هناك اذن اعلان عن مخطط لتنفيذ البيان يتضمن اولا : استعدادكم للانسحاب ، وثانيا : وقف اطلاق النار ، وثالثا : استعدادكم لتنفيذ الانسحاب في اليوم

التالي لوقف اطلاق النار .. مع تحديد للفترة بانها كذا وكذا ، رابعاً : اعلان ضمان الولايات المتحدة ومجلس الامن ان العراق محمي ولا توجد خطورة عليه ، هذا هو المطلوب اليوم ، وهذا الجزء يجب ان يتحدد فوراً ، اما الجزء الثاني فلا بد ان يتحدد عن طريق الاتحاد السوفيتي وفرنسا والصين ، وحتى الامريكان ، وعن طريق مجلس الامن .. كل ما نريده اليوم ان يعلن العراق وبموجب البيان انه يحمّل نفسه كذا وكذا ، ونحن في مجلس الامن نحمّل انفسنا كذا وكذا ، هذا توزيع للادوار ، وليس شيئاً يعلن عنه الآن وانما سيبقى بيننا طبعاً .

تدخل بسمرتنيخ :

ـ غداً ينتظر مجلس الامن تقريراً من عندنا .

فسأل سعدون حمادي :

ـ اريد ان افهم كيف يتم تطبيق هذا البرنامج عن طريق مجلس الامن .

عاد غورباتشوف يتحدث عن دور يتبناه الاتحاد السوفيتي ويضم فرنسا وآخرين ، مثل ايطاليا ، مع ما يتوقعه من مقاومة من طرف الامريكان الذين قد يقولون برغم ان المبادرة سوفيتية الا اننا نشم منها رائحة الربط بين قضيتي الخليج والشرق الاوسط ، واشار الى انه بالامكان التوصل لاحقاً الى نظام للامن الجماعي يستجيب لمصالح الجميع .

ولاحظ الوفد العراقي بعد هذا الحوار الطويل ان غورباتشوف لم يتحدث عن قرارات مجلس الامن الاخرى ضد العراق ، ولا عن الحظر المفروض عليه ، ولذلك تتالت الاسئلة من السيدين طارق عزيز وسعدون حمادي عن مصير هذه القرارات ، وقد اجاب غورباتشوف على أسئلتهما على النحو التالي :

ـ لا استطيع ان اقول ان مجلس الامن سيلغي هذه القرارات ، لان ذلك يعني انها كانت خاطئة ، وهو امر غير وارد في تجارب

المجلس ، لكن مجلس الامن يستطيع اعـادة النظر في القـرارات ويمكن ان يعطّل مفعولها .

استفسر طارق عزيز عن مستقبل وجود القوات الامريكيـة في المنطقة ، فوجد ان الرئيس السوفيتي يعتقد انه لابد من سحب هذه القوات بعد تحقيق التسوية ، وان بالامكان الاعتماد على القوات العربية او قوات من الامم المتحدة تتمثل فيها دول محايدة .

وقبل ان يطلب غورباتشوف استراحة لمدة نصف ساعة كـان طارق عزيز يحاول ان يسبر اغوار الموقف السوفيتي من مطاليب العراق في الكويت على البر وفي البحر ، وقد اكتفى غورباتشوف بان ذكر ان الشيء المثالي هو ان يتفق العرب بينهم على هذا الموضوع .

عند منتصف النهار نهض غورباتشوف ومعه وزير خارجيتـه بسمرتنيخ ومبعوثه الى بغداد بريماكوف ومـدير مكتبـه ومسؤول الاعلام في الرئاسة السوفيتيـة ... ونهض طارق عزيـز وسعدون حمادي والدبلوماسيون الثلاثة الذين جاؤوا برفقتهما وهم سعد الفيصل وكيل الخارجية العراقية ورياض القيسي السفير المتجول وغافل جاسم سفير العراق في موسكو ، ويبدو ان كلا من الفريقين كان بحاجة الى بعض الوقت للتداول والمراجعة .

□ □ □

هل كان يمكن لعقارب الساعة ان تعود الى الخلف ؟

فالحوار الثقيل ، والمتوتر الذي دار في الساعة السابعة ، كان اشبه بمحاولة احياء دور سوفيتي ، صارت كل الاشارات تدل على حتمية اضمحلاله في مواجهة الولايات المتحدة ..

ويذهب العراقيون الى ان غياب موسكو كقطب ثانٍ في الحيـاة الدولية ، هو سبب كامن ، غير ظاهر ، وغير مباشر ، في لجوئهم الى قرار استعادة الكويت ..

كان ثمة تفسير في بغداد يرى ان موقف الاتحاد السوفيتي لو كان من التماسك والقوة بحيث تؤدي موسكو التزامها في التصرف مع بغداد كطرف صديق ترتبط معه في معاهدة صداقة وتعاون . ولو ان السوفيت اتخذوا موقفا اوضح في التعاون مع العراق خلال الحرب مع ايران ، لما كانت القيادة العراقية في حاجة للدخول الى الكويت والبحث على ساحتها عن حل شامل لمشاكل المنطقة بما فيها مشاكل العراق وفلسطين ، ولكن تردد الرئيس غورباتشوف وانكفاءه من جهة ، وسلبيته في التعامل مع العراق منذ اواخر الثمانينات ، دفع العراق الى البحث عن الحل بنفسه ، وفي النطاق الاقليمي ، ساعيا الى ايجاد منفذ له خارج نطاق تأثير القوى الدولية .

اذن كان على العراق ان يحل الاختناق الاقليمي بنفسه .. وهو يستعيد صورة الموقف السوفيتي في مجلس الامن طوال ثماني سنوات من الحرب العراقية ـ الايرانية حيث لم يصدر عن المجلس قبل القرار ٥٩٨ في ١٩٨٧/٧/٢٠ ، اي موقف حاسم يرغم ايران على وقف الحرب ، والانسحاب من اراضٍ عراقية كانت تحتلها بموجب الباب السابع من ميثاق الامم المتحدة الذي يتيح استخدام القوة ، كما ادركت بغداد ان مستويات الاتصال بين طهران وموسكو هي من الدقة بحيث كانت السفن السوفيتية الوحيدة التي تعبر في الخليج دون ان تتعرض للاذى او المضايقة ، الى جانب مافتح من كوّة لتمرير السلاح الى ايران ، حتى في اشد فترات تأزم العلاقات الثنائية بين موسكو وطهران اثر اعتقال اعضاء حزب (تودة) الشيوعي الايراني .

□ □ □

كان غورباتشوف مايزال يتحدث على الهاتف مع المستشار الالماني هلموت كول ، عندما دخل الوفد العراقي الى قاعة الاجتماعات بعد نصف ساعة من التوقف ، والتأمل ، والمراجعة ..

ودخل الرئيس السوفيتي الى القاعة ليخبر الجانب العراقي بما دار في المحادثة مع كول .

لقد سألني كيف تسير الامور مع طارق عزيز ، وابلغته انها تسير بتطور وانا مصمم على احراز تقدم ، وهذا مهم ..

ووجه كلامه الى رئيس الوفد العراقي :

استطيع ان اؤكد ان الامور تسير بصورة جيدة مع الالمان والفرنسيين والايطاليين .

فعلق السيد طارق عزيز :

ـ المستشار كول اصدر تصريحا سلبيا قبل ايام .. لا اعرف لماذا ؟

فاجاب الرئيس غورباتشوف :

ـ بيانات سلبية تصدر عن جميع الاطراف .

وعاد يعرض مقترحه النهائي على النحو التالي :

ـ يعلن العراق استعداده للبدء بالانسحاب من الكويت في اليوم التالي لوقف اطلاق النار ، ويتم الانسحاب خلال مدة معينة ، يجب ان تكون وجيزة قدر الامكان ، ويطالب العراق في الوقت نفسه بضمانات تقدم من جميع الجهات بان لايكون هناك قتال تحت اي ظرف ، ولايحتاج التصريح بهذا الى اي شروط او تزيين لان المطلوب محتوى صافي ، فقد قلتم كل ما تمنيتم قوله في بيان القيادة العراقية في ١٥ شباط (فبراير) ، ومن طرفنا سنتخذ الاجراءات العاجلة لعقد جلسة لمجلس الامن ، ونقوم بالاتصالات مع الاطراف المعنية ، وبعد سحب القوات لابد من وقف معقول للقرارات المتخذة في مجلس الامن بهذا الشأن ، وستكون أمامنا مواضيع متعلقة بالتسوية العامة وحول الكويت وحكومتها ومقومات الامن في المنطقة .

... هذا هو كل السيناريو .

اما طارق عزيز فقد توجه بسؤالٍ يمس جوهر المشكلة من وجهة نظر العراق :

ـ انني ارغب ان اتعرف بملء شعـور الرئيس غوربـاتشوف وحكومته بشأن حقوق العراق في البر والبحر .. أنا اعـرف انكم لستم الطرف الذي نتفاوض معه ، ولكن الى اي حد يمكن للاتحاد السوفيتي ان يساعد في هذا الموضوع ؟

قال غورباتشوف :

ـ ان الموضوع القائم بين العـراق والكويت جـدير بـالاهتمام والبحث وافضل مجال له هو الاطار العربي ، واي قرار يصل اليه العرب فان على الاخرين ان يوافقوا عليـه .. الموضـوع الآن هو الانسحـاب ولا ارى جدوى لتكـرار موضـوع الارض والبحر في البيانات الاخرى .

قاطعه طارق عزيز :

ـ لكن هذه المسألة استمرت سبعين سنة بدون حـل .. وتتالى الحوار الذي لم يخل من التوتر :

ـ ما كنت ساكون مستغربا لو كان عمر مشكلة الكويت اطول من سبعين سنة ، فأنتم العراقيون شعب عريق ، خذ مثلاً مـوضوع ناغورني كرباخ بين ارمينيا واذربيجان ان عمر المشكلة (٥٠٠) سنة ، في كل الاحوال نحن لانلعب معكم لعبة سياسية :

ـ ندرك ذلك .

ـ اننا لا نحيك المؤامرات ضدكم ، ولانريد ان يقع العراق في فخ قد اعددناه نحن ، يجب ان نبحث بعقل بارد عن مايجب ان نقوم به .

ـ ليست لدينا شكوك بموقفكم .

فجـأة قطع الدكتـور سعـدون حمـادي الحـوار بـين عـزيـز وغورباتشوف ووجه كلامه الى الفريق السوفيتي المقابل :

ان هـذه الامور ستبحث في مجلس الامن ، ويـأخذ الاتحـاد السوفيتي موقفاً وقد تعترض الدول الاخرى ، فـلا يكون هنـاك قرار ، وقد لاتعترض ولكن القرار لاينفذ .. فما الذي يجعلنا نرى ان القادم غير الماضي ؟

.. والشيء الثـاني هو وجـوب ان يكون الحـل شامـلاً لجميع

المشاكل ومشرفاً ، لايكون قبولاً واستسلاماً لمطالب الامريكان ، واذا وجدنا ان الحل غير مشرف فليس امامنا الا القتال ، صحيح اننا نريد السلام ولكن ليس السلام بأي ثمن .

لم يعلق غورباتشوف لكن عزيز تدخل ليبلغ الرئيس السوفيتي انه سيقوم شخصياً بنقل تفاصيل ماجرى الى الرئيس صدام حسين اما الدكتور سعدون حمادي فسيتوجه الى الصين ، وسنبلغكم بالخطوة اللاحقة .

هنا سأل غورباتشوف :

- وماذا سنقول للعالم اليوم ؟

اجاب عزيز :

- لقد قطعنا شوطاً مهما وانت تقدر أننا اعضاء في القيادة ولسنا كل القيادة العراقية ، وبسبب طبيعة الظروف وانقطاع المواصلات والاتصالات وليس امامنا سوى ان نذهب بالطائرة والسيارة عبر طهران .

فاقترح غورباتشوف أصدار اعلان مختصر ، فتدخل بريماكوف ليقترح صيغة الاعلان ، على النحو الآتي :

- نعلن انه تم تأكيد قرار القيادة العراقية حول الاستعداد لسحب القوات من الكويت وقد قطعنا شوطاً بعيداً من الطريق بروح ايجابية . وان السيد عزيز غادر موسكو لرفع تقرير عن ماتم بحثه الى الرئيس صدام حسين .

فأضاف غورباتشوف :

- لدي اقتراح آخر ، نقول تم تبادل الآراء بصورة مفصلة ومطولة ، ونقول ان الرئيس غورباتشوف تقدم بمخطط تفصيلي للعمل من اجل تجاوز النزاع ، بالطرق السلمية ، وبعد تبادل الآراء الذي جرى بهذا الشأن فقد غادر السيد عزيز الى بغداد لرفع تقرير الى الرئيس صدام حسين ومجلس قيادة الثورة ، ونقول ان الرئيس غورباتشوف عبر عن الامل بالحصول على الاجابة السريعة

على المقترحات التي تقدم بها ، واعتقد اننا بمثل هذا الخبر سنعطي الانطباع باننا نتقدم وسائرون على هذا الطريق .

قال السيد طارق عزيز :

ـ انني اعد هذه الصيغة للخبر جيدة

اعاد بسمرتنيخ ليؤكد ضرورة الحصول على اجابة سريعة ، في حين طلب بريماكوف تسوية موضوع حجز ستة صحفيين امريكان من شبكة (C. B. S.) كانوا قد اسروا في الجبهة .

□ □ □

صحح السيد عزيز لبريماكوف ان اثنين منهم من امريكا اللاتينية احدهما قريب من رئيسة نيكاراغوا السيدة شامورا ووعد بالنظر بالامر .

وانتهى الاجتماع عند الساعة الواحدة وعشر دقائق بعد الظهر ، واستعد طارق عزيز للعودة الى بغداد صباح اليوم التالي ، ولكنه حرص على اللقاء مع بسمرتنيخ وبريماكوف قبل مغادرته ليجدهما يخبرانه ان رئيسهما غورباتشوف دخل بعد لقائه بالوفد العراقي بمناقشة صعبة على الهاتف مع الرئيس الامريكي جورج بوش □

بيـــان الـــقـيادة العـراقـــية في ١٥/شباط (فبـــراير)/١٩٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان صادر عن مجلس قيادة الثورة

ايها الشعب العراقي العظيم ..
ايها العرب الشرفاء ..
ايها المسلمون المؤمنون حقا بالاسلام ..
ايها الاحرار في العالم ..

منـذ ان لمست الولايات المتحـدة والصهيونيـة وحلفاء اميـركا من الدول الغـربية الاستعمارية ان هناك قوة تتكون في بلد عربي ومسلم .. هو العراق .. قوة قادرة عـلى موازنة الهيمنة الصهيونية المدعـومة من قبـل الامبريـالية في المنـطقة .. قـوة حرة .. شريفة .. عازمة باخلاص ونكران ذات على مواجهة العدوان والاطماع الصهيـونية .. ورفض الهيمنة الامبريـالية عـلى المنطقـة .. منذ ذلك الحـين بدأت الولايـات المتحدة والصهيونية وكل القوى الاستعمارية الحاقدة على العرب والمسلمين باتخاذ الاجراءات والقرارات وشن حملات الدس والتحريض ضد العراق .. من اجل منع تكون وتنامي هذه القوة وعزل العراق ومحاصرته ومعاقبته لانه اجتاز بايمان وتصميم وكفاءة الحدود التي رسمتها الولايات المتحدة والصهيونية والقوى الاستعمارية لبلدان المنطقة .

وقد شهدت سنتا ١٩٨٨ و١٩٨٩ حملات متواصلة في الصحافة ووسائل الاعلام .. ومن قبل المسؤولين في الولايات المتحدة والدول الاستعمارية الاخـرى ، تمهد الطريق لتحقيق هذه الاهداف الخبيثة . وفي عام ١٩٩٠ تصاعدت هذه الحملات بصورة متسارعة ومحمومة وعلى نطاق بدأ يتسع يوما بعد يوم .. وكان الهدف واضحا جليا لنا ولكل العرب الواعين والمسلمين الحقيقيين ولكل الاحرار الذين يؤمنون بالحرية والعدالة في العالم .. كان الهدف هو التمهيد لتدمير هذه القوة الناهضة .. واعادة ارجحية التوازن في المنطقة لصالح الولايات المتحـدة والصهيونيـة والقوى الاستعمـارية .. هـذه الارجحية التي استمرت عقوداً عديدة وحـالت دون تمكن العرب من استـرجاع حقـوقهم واراضيهم المغتصبة والمحتلة في فلسطين والجولان ولبنان .. كمـا حالت دون تحقيق امـال الامة العربية في النهضة والتقدم والعدل ، كي تحتل مكانها الطبيعي الذي تستحقه في العالم بحكم تاريخها المجيد ومساهمتها العظيمة في الحضارة الانسانية .

وفي الاشهر الاولى من عام ١٩٩٠ اشتدت هذه الحملات واتسعت واكتسبت طابعا مستيريا وصارت تحرض يوميا على ضرب العراق وتصفية قيادته وحرمانه من وسائل النهضة والتقدم واتخذت الولايات المتحدة ومعها دول استعمـارية اخـرى سلسلة من القرارات والاجراءات الجائرة بحظر تصديـر كل مـايمكن ان يسهم في تطور العـراق ونهضته العلمية والصناعية .. وشملت هذه القرارات المقاطعة الاقتصادية الفعلية ومن

ذلك الغاء عقود المواد الغذائية في الشهر الثالث من عام ١٩٩٠ ... كما كان واضحا ان الولايات المتحدة تعد العدة بالتنسيق من الكيان الصهيوني لضرب المنشآت والمواقع العلمية والصناعية وتصفية قيادة العراق الوطنية المؤمنة . وعندما اكتشفت الولايات المتحدة ان مخططها هذا المعتمد الى حد كبير على القدرة العسكرية الصهيونية غير كاف لتحقيق اهدافها الشريرة اشركت في المؤامرة عملاءها وصنّاعها من الحكام الفاسدين المتآمرين اعداء الله في المنطقة .. وكان دور هؤلاء هو اضعاف اقتصاد العراق وانهاكه ومن ثم ايصال العراق الى حافة الانهيار الاقتصادي . وفي الوقت نفسه صارت الولايات المتحدة ، تعزز شبكة الحلف الاستعماري من اجل اقامة تحالف امريكي اطلسي سياسي وعسكري بهدف ضرب العراق والسيطرة على المنطقة .. بعد ان انفتحت امامها فرصة ذلك جراء اختلال التوازن اثر انشغال الاتحاد السوفيتي عن العالم في متابعة ظروفه الداخلية .

ايها العراقيون ..

ايها العرب ..

ايها المسلمون ..

ايها الاحرار في العالم ..

ان احداث الثاني من اب ١٩٩٠ ، لم تكن في جوهرها وغايتها كما صورتها الدعاية الامريكية والاستعمارية وكما رواها الحكام الخونة من اتباع امريكا .. لقد كانت انتفاضة وطنية .. وقومية واسلامية ضد المؤامرة .. والمتآمرين .. انتفاضة ضد الظلم والانحلال .. وضد الفساد وضد الهيمنة الامبريالية الصهيونية الاستعمارية على المنطقة .. وضد المتآمرين الذين اصبح دورهم مكشوفا في المؤامرات الامريكية الصهيونية .. لذلك اسفر الحلف الامبريالي الصهيوني الاطلسي عن حقيقة اهدافه ونواياه منذ الساعات الاولى لتلك الاحداث .. فحشد الجيوش والقوات .. ونظم أكبر واخبث حملات التضليل والكذب والخداع التي شهدها العالم في العصر الحديث .. وسخر هذا الحلف الامبريالي الصهيوني الاطلسي الغاشم والخبيث مؤسسة الامم المتحدة لتصدر ضد العراق وبسرعة لامثيل لها سلسلة من القرارات الجائرة التي لا سابق لها .. في حين عجزت هذه المؤسسة عن ان تلبي عبر عدة عقود من الزمن ابسط مطاليب الامة العربية وان تحفظ ابسط حقوق العرب في فلسطين .. على الرغم من وضوح الحق العربي .. ومن عنف المأساة التي يعيشها شعب فلسطين المجاهد والتي عاناها العرب الاخرون ومنهم شعب لبنان المظلوم ..

لقد فرض هذا الحلف الغاشم ارادته على العالم واتبع اساليب الارهاب والابتزاز والرشوة وكل ما في جعبة الامبريالية والصهيونية وقوى الاستعمار من وسائل الخبث والكذب والتضليل .. لكي يمهد الطريق للعدوان على العراق ..

ايها العراقيون الاماجد

ايها العرب الاعزاء

ايها المسلمون المؤمنون

ايها الاحرار الشرفاء في العالم ..

ان العدوان الذي وقع على العراق .. البلد الشجاع الابي المجاهد المؤمن الصابر .. ليس له مثيل في التاريخ .. ان تاريخ الانسانية كله لم يسجل مثل هذا التحالف الذي شاركت فيه الولايات المتحدة ودولتان كبريان ودول عديدة اخرى بلغ عددها الثلاثين ضد العراق المجاهد الشجاع .. الصابر .. الذي لايتجاوز عدد مواطنيه الثمانية عشر مليونا ..

انه الحلف الشرير .. الغاشم .. الخبيث .. الكافر ضد قلعة الايمان والمبادىء .. ضد مركز الحرية والدعوة الى العدالة والانصاف .. وطيلة شهر من الزمن شنت الولايات المتحدة وحلفاؤها ومعهم الكيان الصهيوني الذي شارك في العدوان منذ البداية شنت من الغارات الوحشية المدمرة على شعب العراق .. وعلى ممتلكاته الاقتصادية والعلمية والثقافية والخدمية وعلى مراكزه الدينية ومواقع الحضارة العريقة فيه .. شنت مالم يشهد له التاريخ مثيلاً في ثقل النيران .. وفي وسائل القتل والتدمير .. باسم الامم المتحدة .. والشرعية الدولية الكاذبة .. والنظام الدولي الجديد ، الذي ارادوه نظاماً للهيمنة الامريكية الاطلسية على العالم .. وقد القت الولايات المتحدة واطراف الحلف الشرير بالطائرات التي تطلق صواريخها عن بعد .. وبالصواريخ بعيدة المدى كميات هائلة من القنابل والمتفجرات على النساء والاطفال والشيوخ في كل مدن العراق وقراه حتى على البدو الرحل في الصحراء .. وضرب بصورة متعمدة المساجد والكنائس .. والمدارس والمستشفيات والمصانع المدنية .. والجسور والطرق الرئيسية .. ومراكز الهاتف .. والكهرباء .. والماء .. والسدود الاروائية .. والمراكز الثقافية .. والمعالم الحضارية في البلاد .. ضربت اهدافا لاصلة لها بأي شكل من الاشكال بالجهد العسكري او ساحة المنازلة العسكرية التي تحدثوا عنها ، وكان اخر جرائمها تلك الجريمة البشعة القذرة بالقصف المتعمد لملجأ مدني فقتلت وحرقت مئات من النساء والاطفال والشيوخ وكان الهدف من هذا العدوان الغاشم واضحا تماما هو السير في عملية التدمير التي ارادوها ومعاقبة شعب العراق الابي الحر المجاهد لانه اختار طريق الحرية والاستقلال والعز ورفض الذل والمهانة والخضوع لارادة الاستعمار والصهيونية .

لقد شنت الولايات المتحدة وحلفاؤها حربا قذرة وجبانة ضد شعب شجاع مؤمن .

ان تاريخ الشعوب والامم ومصائرها لايقرران بالماديات التي تملكها الدول والانظمة الحاكمة .. فكم من امبراطورية قوية وغنية سقطت عبر التاريخ لانها سلكت طريق الشر والجبن والظلم والانحلال .. وهذا هو مصير اميركا الغاشمة وانظمتها المنحطة .. ومصير الصهيونية وكل القوى الاستعمارية بارادة الله .. وقد انتصر العراق في هذه المنازلة .. انتصر لانه بقي صامداً شجاعاً مؤمنا عزيز النفس .. قوي الارادة .. انتصر لانه حافظ على المبادىء وعلى القيم الروحية المستمدة من دينه الحنيف وتراثه العريق .. وان خسائره في الماديات في هذه المعركة على رغم جسامتها تهون ازاء احتفاظه بروحه العزوم .. وايمانه الراسخ بالمبادىء .. وتصميمه القوي على مواصلة طريق النهضة والتقدم .

ايها العراقيون الاعزاء

ايها العرب الشرفاء

ايها المسلمون .. المؤمنون حقاً بالاسلام

ايها الشرفاء الاحرار في العالم

انطلاقا من هذا الشعور الراسخ القوي .. ومن هذا التقدير لطبيعة المنازلة ومن أجل تفويت الفرصة على الحلف الامريكي الصهيوني الاطلسي الشرير لتحقيق اهدافه المرسومة والمدبرة .. وتقديراً لمبادرة الاتحاد السوفيتي التي حملها مبعوث القيادة السوفيتية وانسجاما مع المبادىء الواردة في مبادرة السيد الرئيس القائد صدام حسين في ١٢/آب/١٩٩٠ قرر مجلس قيادة الثورة ان يعلن مايأتي :

اولا : استعداد العراق للتعامل مع قرار مجلس الامن رقم ٦٦٠/١٩٩٠ بهدف التوصل الى حل سياسي مشرف ومقبول بما في ذلك الانسحاب وتكون الخطوة الاولى المطلوب تنفيذها كتعهد من جانب العراق في موضوع الانسحاب مرتبطة بما يلي :

أ ـ وقف اطلاق النار وقفا تاما وشاملاً في البر والجو والبحر .

ب ـ ان يقرر مجلس الامن .. ان يلغي منذ البداية القرارات .. ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ .. والاثار التي تترتب عليها كافة .

وكذلك الغاء كل قرارات واجراءات المقاطعة والحظر والقرارات والاجراءات السلبية الاخرى التي اتخذتها بعض الدول ضد العراق بصورة فردية او جماعية قبل ٢/آب/١٩٩٠ والتي كانت السبب الحقيقي لأزمة الخليج . لتعود الامور الى حالتها الطبيعية وكأن شيئاً لم يكن ومن غير ان يترتب على العراق اية اثار سلبية لاي سبب من الاسباب .

ج ـ تسحب الولايات المتحدة والدول الاخرى المشاركة في العدوان وكل الدول التي ارسلت قواتها من المنطقة كل ماجاءت به الى منطقة الشرق الاوسط ومنطقة الخليج العربي من قوات واسلحة ومعدات قبيل ٢/آب/١٩٩٠ وبعده سواء ماكان منها في البر او في البحار او المحيطات او الخلجان .. بما في ذلك الاسلحة والمعدات التي زودتهابعض الدول لاسرائيل بحجة الازمة في الخليج . على ان يجري سحب تلك القوات والاسلحة والمعدات خلال فترة لاتزيد على شهر من تاريخ وقف اطلاق النار .

د ـ ان تنسحب اسرائيل من فلسطين والاراضي العربية التي تحتلها في الجولان ولبنان .. تطبيقاً لقرارات مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة .. وفي حالة امتناعها عن ذلك يطبق مجلس الامن ضد اسرائيل نفس القرارات التي اتخذها ضد العراق .

هـ ـ ضمان حقوق العراق التاريخية في الارض والبحر كاملة غير منقوصة في أي حل سياسي .

و ـ يكون الترتيب السياسي الذي يتفق عليه منطلقا من ارادة الشعب وطبقا لممارسة ديمقراطية حقيقية وليس على اساس الامتيازات المكتسبة لعائلة آل صباح .. وينبغي على هذا الاساس ان تشارك القوى الوطنية والاسلامية بصورة اساسية في الترتيب السياسي الذي يتفق عليه ..

ثانيا : تتعهد الدول التي شاركت في العدوان وفي تمويله باعادة بناء مادمره العدوان في

العراق وذلك طبقاً لافضل المواصفات لكل من الانشطة والمشاريع والمنشآت التي استهدفها العدوان وعلى نفقتها الخاصة ومن دون ان يتحمل العراق اية تكاليف مالية .

ثالثاً : الغاء كل الديون المترتبة على العراق وعلى دول المنطقة التي تضررت من العدوان (من التي لم تشارك فيه بصورة مباشرة او غير مباشرة) والعائدة لدول الخليج وللدول الاجنبية التي شاركت في العدوان ، واقامة علاقات بين الدول الغنية والدول الفقيرة في المنطقة وفي العالم قائمة على العدل والانصاف وبما يضع الدول الغنية امام التزامات واضحة لتحقيق التنمية في الدول الفقيرة وازالة معاناتها الاقتصادية . وعلى اساس قاعدة ان للفقراء حقاً في اموال الاغنياء ووضع حد للنهج الازدواجي في التعامل مع قضايا الشعوب والامم سواء كان هذا النهج من جانب مجلس الامن او من جانب هذه الدول او تلك من الدول .

رابعاً : يترك لدول الخليج بما فيها ايران حرية ومهمة اجراء ترتيبات الامن في المنطقة وتنظيم العلاقات فيما بينها من دون اي تدخل خارجي .

خامساً : اعلان منطقة الخليج العربي منطقة خالية من القواعد العسكرية الاجنبية ومن اي شكل من اشكال التواجد العسكري الاجنبي والتزام الجميع بذلك .

هذه هي حجتنا اعلناها امام العالم واقمناها واضحة جلية على الغادرين والخونة واسيادهم الامبرياليين وتبقى ضماناتنا الاساس بعد الاتكال على الله الواحد الاحد في شعبنا العراقي العظيم وفي قواته المسلحة المجاهدة الباسلة ، ومن آمن بالطريق الذي نسير عليه في مقارعة الظلم والظالمين ، وسيكون النصر اكيداً على الظالمين في الايام القادمة مثلما كان اكيداً في الايام السالفة .

والله أكبر وليخسأ الخاسئون .

مجلس قيادة الثورة
١٥/شباط/١٩٩١م
٢٩/رجب/١٤١١ هـ

سبـــاق مـــع الزمـــن

لقد ابلغ غورباتشوف تفـاصيل كـل ما اتفقنا عليه ، اما انا فلم اتحدث مع بيكر عن اية تفاصيل .

بسمرتنيخ لطارق عزيز

في موسكو ٢٢/٢/١٩٩١

امضى الوزير طارق عزيز العائد من موسكو أقل من يومين في بغداد ، بينما طار د . سعدون حمادي من موسكو الى بكين ، ودارت مناقشات موسعة في القيادة العراقية حول العرض الآتي الذي قدمه الرئيس غورباتشوف :

« يبدي العراق استعداده لسحب قواته من الكويت ، على ان يبدأ الانسحاب بعد وقف معلن لاطلاق النار يحدد بفترة زمنية ، بعد ان يكون الاتحاد السوفيتي قد دعا مجلس الامن للاجتماع لتحقيق وقف اطلاق النار وبدء العملية السياسية لمعالجة جميع مشاكل المنطقة . »

كان القصف مستمراً على بغداد ومدن العراق الاخرى ، في وقت تأزم الوضع الصحي والبيئي ، بعد غياب المياه الصالحة للشرب ، وعودة الناس الى اخذ المياه من الغدران بكل ماتحتويه من مخاطر صحية جماعية ، وكانت المدن الكبرى والصغيرة ، على حد سواء ، مظلمة لا انارة فيها في بدء الشهر الثاني من اكبر عملية قصف جوي في التاريخ ، وكانت صور الضحايا في ملجأ العامرية ببغداد قد حفرت ألماً عميقاً في الوجدان الجمعي بعد ان تمزق واحترق اكثر من اربعمائة طفل ورجل وامرأة في ملجأ مدني وسط حي سكني ببغداد .

انطلق السيد عزيز فجر ١٩٩١/٢/٢١ حاملاً معه موافقة الرئيس صدام حسين على العرض السوفيتي ، مع تخويل باسم الرئيس والقيادة في الوصول الى اتفاق على فترة معقولة لانسحاب القوات .

وأوصاه الرئيس :

ـ قل لغورباتشوف ان الظروف تضطرنا الان ان لانربط الوضع الحالي والقضية الفلسطينية .. وقل له اننا نضع القضية الفلسطينية امانة في اعناقكم ..

امضى المبعوث العراقي معظم النهار في طريق بري يربط العراق بمدن غرب ايران ، ثم في الطائرة التي حلقت في نصف الطريق

الثاني قبل ان تحط في موسكو مساء ١٩٩١/٢/٢١ حيث كان الوزير بسمرتينخ في انتظاره ، ليأخذه على الفور الى الرئيس السوفيتي ، في مابدا وكأنه سباق مع الزمن .

□ □ □

بدأ اللقاء باعلان الوزير عزيز موافقة الرئيس صدام حسين والقيادة العراقية على المقترح السوفيتي ، فقال غورباتشوف :

ـ نستطيع ان نبدأ العمل الان .. ماهي المدة التي يريدها العراق للانسحاب ..

ـ ستة اسابيع ..

ـ هذا زمن طويل ..

فأوضح الوزير طارق عزيز ان لدى العراق اعدادا كبيرة من القوات والمعدات ينبغي تأمين انسحابها بنظام ، فضلا عن ان هذا الانسحاب يتم ضمن عملية سياسية حيث يصار الى اتفاق ، ويصار الى قرار يصدر عن مجلس الامن لاعلان وقف اطلاق النار ، ثم تحدد مدة للانسحاب .

وكان رأي غورباتشوف ان يبحث المبعوث العراقي تفاصيل هذا الامر مع الوزير بسمرتينخ ومبعوثه الى بغداد يفغيني بريماكوف .

ـ اذ ان المهم هو المبدأ ، وعليكم ان تتفقوا على الهدف ، اما انا فسأباشر العمل ، لاصدار قرار من مجلس الامن بعناصر هذا الاتفاق ، وعندما يصدر قرار المجلس تعلنون موافقتكم عليه .

انتهى اللقاء في وقت متأخر من تلك الليلة ، بحيث اتفق الوزيران على عقد لقائهما صباحا بدار ضيافة وزارة الخارجية السوفيتية .

□ □ □

بدأ لقاء ذو طابع عملي ، تنفيذي ، اجرائي عند الصباح (١٩٩١/٢/٢٢) ، وكان الى جوار السيد عزيز وكيل الخارجية

العراقية سعد الفيصل ومندوب العراق في نيويورك الدكتور الانباري ودبلوماسيون آخرون ، في حين كان المحاور السوفيتي المرادف للوزير بسمرتينخ هو المبعوث الرئاسي يفغيني بريماكوف الذي اظهر قدرا من التشدد ، واختار لغة تختلف عن لغته الناعمة التي كان يستخدمها في زياراته الثلاث الى بغداد .

كان الموضوع الاول الذي شغل الفريقين هو تحديد مدة الانسحاب بواحد وعشرين يوما .. واشار الفريق السوفيتي الى : ان الامريكان سيثيرون زوبعة حول موضوع اسراهم في العراق ..

فاجاب رئيس الجانب العراقي :

ـ سنطلق سراح الاسرى بسرعة حتما .

وطلب بسمرتينخ تحديد مدة من الزمن لهذه العملية . فأوضح عزيز ان عدم وجود اتصالات او مواصلات في العراق سيؤخر جمع الاسرى .

الا ان بريماكوف أصر على ضرورة حسم موضوع الاسرى خلال ثلاثة ايام .

عند الظهيرة كان الرئيس السوفيتي قد اصدر بيانا اعلن فيه ان العراق وافق على الخطة ذات النقاط الست .

لكن الامريكان لم يكتفوا ببيان غورباتشوف . وعدوّه امرأ غير كاف ، وان العراقيين يقولون في موسكو غير مايقولونه في بغداد ، من هنا جاء الاقتراح السوفيتي ان يعلن وزير خارجية العراق تأييد بلاده للخطة السوفيتية في مؤتمر صحفي يعقد في اليوم التالي .

□ □ □

تقوم الخطة السوفيتية ذات البنود الستة على الآتي :

١ . يوافق العراق على تنفيذ القرار (٦٦٠) كل قواته الى المواقع التي كانت فيها في ١ / آب / ١٩٩٠ .

٢ . يبدأ الانسحاب في اليوم التالي بعد وقف اطلاق النار وتتوقف كل العمليات العسكرية في البر والبحر والجو .

٣ . يتم انسحاب القوات خلال واحد وعشرين يوماً بما في ذلك انسحاب القوات من مدينة الكويت خلال الايام الاربعة الاولى .

٤ . فور اكمال سحب القوات من الكويت فان الاسباب التي ادت الى اتخاذ القرارات الاخرى من قبل مجلس الامن تُعدّ مستنفذة وسينتهي مفعولها ..

٥ . يطلق سراح كل اسرى الحـــرب فور وقف اطلاق النار والعمليات العسكرية.

٦ . يتولى مراقبون دوليون او قوات حفظ سلام (حسب مايقرره مجلس الامن) ضمان الاشراف والمراقبة على وقف اطلاق النار وسحب القوات .

□ □ □

استفسر الوزير العراقي عن نتائج اتصالات السوفيت مع الامريكان ، فعرض الوزير بسمرتنيخ الموقف على النحو التالي :

ـ اجريت حديثاً مطولا مع الوزير جيمس بيكر لمعرفة الموقف الامريكي من عقد جلسة لمجلس الامن بناء على ما اتفقنا عليه معكم ، ولافهام الامريكان بعدم عقلانية تصريحاتهم وانذاراتهم في الوقت الذي وافق فيه العراق على القرار ٦٦٠ . كما وددت جس نبضهم حول نياتهم العسكرية ... والحصيلة انني وجدتهم مُصرّين على التمسك بمشروعهم السابق ، وقد قلت لهم : ان توجيه الاحداث بهذا الشكل ليس مناسباً ، اذْ ان المطلوب دعوة مجلس الامن لمناقشة الموضوع وتوفير ضمانات امنية للقوات العراقية عند الانسحاب ... وقد شعرت ان الامريكان معنيون في الوقت الحاضر بما يسمونه (الارهاب البيئي) وتدمير آبار النفط ، ولسوء الحظ لم تكن لدي معلومات كافية للرد . وانا بحاجة الى معلوماتكم لمواجهة هذا التيار، . وفهمت من كلام بيكر انهم

متمسكون بموقفهم ، وهو مالم يبـــدأ الانسحاب العراقي اليوم ـ السبت ـ فانهم سيبدأون الهجوم البري ، وليس لديهم نية ، ولا مصلحة في عقد جلسة مجلس الامن .. ولكنهم يدركون في الوقت نفسه انه ليس بوسعهم منع عقد هذه الجلسة .. وسيتوجه الرئيس غـورباتشـوف الى جميع اعضـاء مجلس الامن الدائميين وغـير الدائميين ودعوتهم الى عقد الجلسة .

كان الفريق العراقي يستمع بدقة الى وصف الموقف الامريكي حتى تلك اللحظة ، ولكن كانت ثمة رغبة في معرفة ردود فعل الدول الاخرى ايضا ..

وقـد اوضح الوزيـر السـوفيتي ، ان الاوربيـين يقـولون ان السوفيت والعراقيين اقترحوا مواعيـد مطولة بعض الشيء . وان الانكليز هم الطرف الاكثر اثارة للشكوك حول جدوى عقد جلسة مجلس الامن ، اما الامين العام فقد وافق مبدئيا . وقـال السيد بسمرتنيخ فجأة :

ـ لكن هناك نبأ من نيويورك يشير الى ان العراق لن يحضر جلسة مجلس الامن اذا انعقدت لعدم وجود مندوبه الدائم ؟

ورد السيد عزيز بحدة وانزعاج :

ـ هذا افتراء ..

فوعد الوزير السوفيتي ان يطلب من السيد فورنتسوف ممثل بلاده في نيويورك ان يقوم بتكذيب النبأ الذي وصفه بانه تشويش مقصود لمنع عقد هذه الجلسة المهمة .

وعاد الوزير العراقي ليستوضح ان كانت الخطة الامريكية قد اعلنت قبل المشروع السوفيتي ام بعده ، وبدا ان هذا السؤال حيوي بالنسبـة للعراق لمعـرفة الخـطوات الامريكيـة التاليـة في الحرب .

واقر الوزير السوفيتي ان الاعلان عن البنود الامريكية بما فيها الانذار ، قد تم بعد معرفة واشنطن بمحتوى المشروع السوفيتي ، اذ قامت موسكو ، بعد الوصول الى الاتفاق مع الجانب العراقي ،

باطلاع الادارة الامريكية عن طريق (الوزير بسمرتنيخ) ، الا ان الرئيس غورباتشوف اتصل لاحقاً بالرئيس بوش واطلعه على بنود المشروع بالتفصيل ، فقام الامريكان على الفور باعلان مشروعهم الذي قد يكون أُعد سلفاً .

تدخل بريماكوف المبعوث الرئاسي الذي سبق ان تفاوض في بغداد ليعرض تحليله الذي يقوم على ان الفكرة الرئيسة التي استحوذت على الرئيس الامريكي كانت عدم توقع امكانية توصل السوفيت الى اتفاق مع العراق ـ وقد فوجيء بالاتفاق لاحقاً .

اما بسمرتنيخ فعاد ليؤكد انه لم يخبر بيكر بكل ما توصلوا اليه مع العراق ، وانما اكتفى بأبلاغه موافقة العراق على القرار ٦٦٠ بما في ذلك سحب قواته من الكويت ، لكن غورباتشوف هو الذي تحدث عن كل التفاصيل مع بوش .

واقترح بريماكوف ادلاء الوفد العراقي ببيان بعد نصف ساعة . من دون الحاجة الى عقد مؤتمر صحفي قد تطرح فيه اسئلة تستدرج الى بعض الاجابات ، اذ من الافضل الاعلان عن موافقة الرئيس صدام حسين والقيادة العراقية على بنود الخطة السوفيتية ... وتأييد العراق لعقد جلسة مجلس الامن ، وعدم عرقلتها ، مع الاشارة الى حاجة بغداد الى ضمانات للانسحاب ومراقبين دوليين .

واعلن بريماكوف ان رئيسه غورباتشوف سيواصل اتصالاته المباشرة مع رؤساء الدول المعنية (ليشكل مانعاً امام تنفيذ الهجوم البري) . وطلب من الجانب العراقي بيان امكانية تقديم مرونة في مواعيد الانسحاب بصورة سريعة .

كان من المهم للسيد طارق عزيز ان يعرض بطريقة لا تقبل التأويل انه حصل على تخويل القيادة العراقية بالكامل .

واشار الى ان مجلس قيادة الثورة رد على ما كان قد ذكره الرئيس بوش من ان ما اتفق عليه طارق عزيز في موسكو شيء ، وما قاله الرئيس صدام حسين في بغداد شيء آخر .

ـ انني مخول باسم الرئيس صدام حسين للتوصل الى اتفاق معكم ، وقبـول المبادرة السـوفيتية ، كمـا جاء في بيـان القيادة العراقية امس . ونحن نعمل بجد لدعم مبادرتكم وانجاحها .. اما ادعاءات الامريكان حول البيئة فقد اقتـرحنا ان يشكـل مجلس الامن لجنة محايـدة للتحقيق في الأمر تضم الاتحـاد السوفيتي والصين ودولا اخرى يختارها المجلس .

وهنا تدخل بريماكوف مرة اخرى ليطلب عدم الاشارة الى بلاده بالاسم في اللجنة المقترحة ، والاكتفاء بتأييد العراق لارسال هذه اللجنة .

□ □ □

ولم يفت رئيس الوفد العراقي ان يسأل عن موقف فرنسا من التـطورات الجديـدة ، وكأنـه لم يتأكـد بشكل دقيق من وصف السوفيت للموقف الاوربي . فكشف بسمرتنيخ انه سأل جيمس بيكر : عندما تقولون ان الحلفاء يؤيدون امريكا .. فهل تقصدون ان فرنسا بضمنهم ؟ .. وقد اجابه بيكر بحذر : اننا نفهم الموقف الفرنسي بهذا الشكل .

وفي حين كان الفـريقان العـراقي والسوفيتي يـرتبان صيغـة الاعلان عن اتفاقهما في موسكـو ، كانت اروقـة مجلس الامن في نيويورك تشهد نشاطاً مكثفـاً وجدلا بـين اعضاء المجلس الذين التقوا بصورة ثنائية وثلاثية ، في اطار مشاورات غير معلنة وغير رسمية ، للبحث في عقد جلسة للمجلس عند السـاعة الخـامسة عصراً بتوقيت موسكو من ذلك اليوم ١٩٩١/٢/٢٣ .

□ □ □

نهض الوزير بسمرتنيخ ليتحدث ، عبر الهاتف ، مـع رئيسه غورباتشوف .. في وقت طلب بريماكوف من الجانب العراقي ، مرة اخرى ، تضييق المدة التي يستغرقها الجدول الزمني للانسحاب .

وحين عاد بسمرتنيخ قال للوفد العراقي :

ـ لقد امرني الرئيس غورباتشوف ان ابلغكم احر تحياته ، واستمع مني الى عرض لما تم الاتفاق عليه . وهو يرى ان الخطة جيدة ، وقد اضاف فقرة تعلن في نهاية بيانكم وهي : ان لا ينتظر الامريكان منا اكثر من ذلك ، .. وهو من جانبه يواصل مكالماته الهاتفية مع زعماء العالم لتأمين عقد جلسة لمجلس الامن .

وطلب الوزير العراقي الالتقاء مع الرئيس غورباتشوف ، فوعده الوزير السوفيتي بتأمين ذلك ، واذا تعذر اللقاء بسبب انشغاله باتصالاته مع رؤساء الدول الاخرى فسيكون بامكان الوزير العراقي ان يكلمه عبر الهاتف .

□ □ □

غادر السيد عزيز دار ضيافة وزارة الخارجية السوفيتية الى قاعة المؤتمرات الصحفية مباشرة ، وادلى ببيان قصير ذكر فيه ان النقاط الست التي اعلنها الرئيس غورباتشوف (يوم امس ٢٢/٢/١٩٩١) تحظى بموافقة الحكومة العراقية ..

وما كاد يعود الى مقر اقامته حتى وجد ان الرئيس السوفيتي يطلبه على الهاتف :

ـ انني مسرور بالبيان الذي ادليت به ، قبل قليل وتأييدك للنقاط التي اعلناها في خطتنا .

قال السيد عزيز :

ـ هل يوجد شيء آخر تريد ان نفعله ؟

فاجاب الرئيس غورباتشوف :

ـ لا .. انني مسرور بما توصلنا اليه ، انقل تحياتي للسيد الرئيس ، ونحن سنواصل العمل لنعقد اجتماعا لمجلس الامن .

وقبل ان يغادر العراقيون موسكو ، رفع مستشارو الرئيس غورباتشوف الانخاب في حديقة مقر الضيافة ، احتفالا بالوصول الى (السلام) ، وهنأوا الوفد العراقي بما انجزه في موسكو .

□ □ □

تحاشى السيد طارق عزيز العودة عن طريق ايران لسببين :

الاول : للتخلص من المراسيم والاجراءات التي تعطل العودة السريعة الى بغداد .

الثاني : شعور العراقيين بانه لاجدوى من تقديم عرض ، لما وصلوا اليه ، الى طهران .. بعد الانطباع السلبي الذي خرج به الوزير العراقي من لقائه مع الرئيس الايراني في المرة السابقة التي مر خلالها عبر الاراضي الايرانية (١٩/٢/١٩٩١) .

وتوجه المبعوث العراقي فور وصوله عمان لمقابلة الملك حسين ، الذي انتظر باهتمام بالغ للاطلاع على ماتم التوصل اليه في موسكو ، واصدر على الفور اعلانا اردنيا يرحب باتفاق موسكو الذي يمهد لعقد جلسة لمجلس الامن ، ويمنع وقوع الهجوم البري ، ويوفر ضمانات امنية لانسحاب عراقي مبرمج ومنظم .

وكان على الوفد العراقي ان يمضي اول الليل في عمان ، لينطلق في الرابعة فجرا عبر الطريق البري (المعرض لهجمات جوية امريكية متواصلة) الى بغداد .

لكن العراقيين فوجئوا بان الهجوم البري قد بدأ ، وان صورا متلفزة للعمليات العسكرية صارت تظهر امام ابصارهم على شاشة شبكة .C. N. N الامريكية الملتقطة في عمان . في وقت لم يكن قد مضت اثنتا عشرة ساعة على الاعلان عن اتفاق موسكو .

وبدا .. ان مجلس الأمن لن يعقد جلسته التي وعد بها الرئيس غورباتشوف ومساعدوه ، وان كل ما اتفق عليه في موسكو قد انهار .

□ □ □

هل كان غورباتشوف طرفا في عملية تضليل مركبة صممها الامريكان واستخدموه لتنفيذ جزء منها ..؟

أم انه كان على درجة من الضعف بحيث سخرت منه واشنطن وتملصت من التزاماتها الدبلوماسية معه ..؟

أم ان الامرين قد اجتمعا ، لتأمين اطلاق الرصاصة الاخيرة على الاتحاد السوفيتي ومكانته العالمية ومكانة رئيسه من خـلال تهميش دوره في هذه الحرب ، واستخدام قياداته ادوات في ترتيبات عسكرية وسياسية شاملة خططت ضد العراق ؟ □

اســـــرار الانســـــحاب
وعــودة الدور الايــــرانـــــي

سلمونا المعارضة الايرانية ، او دعـونا نقتـل قادتهـا حتى نسمح لكم بـالغذاء والدواء

مبعوث ايراني
الى حكومة العراق في ١٤/١/١٩٩١

لماذا قرر العراق سحب قواته من الكويت ، برغم ان مفاوضات موسكو لم تكن قد اثمرت اتفاقا واضحا لتأمين انسحاب ينظمه جدول زمني لاتقل مدته عن ثلاثة اسابيع ؟

ما الظروف التي جعلت القيادة العراقية تعطي اول اشاراتها للانسحاب يوم٢٣/٢/١٩٩١، في وقت كان الوفد العراقي لايزال في موسكو ، وفي اكثر لحظات الترقب في انتظار وقوع المعارك البرية في الحرب ؟

بل .. لماذا لم تتقدم القوات العراقية الى امام ، بدل الانسحاب الى الخلف ؟.

هذه التساؤلات .. وسواها ، لاتزال تشغل الجمهور العراقي ، قبل غيره من المعنيين بالصراع ، وتطوراته الحساسة في الاسبوع الاخير من موجة القصف الجوي والصاروخي .

في بغداد ، كانت اول الاشارات عن بدء الانسحاب غير المعلن ، قد أعطيت يوم ١٩٩١/٢/٢٣ ، حيث بدأت القطعات العسكرية تتدفق تجاه الشمال ، في لحظة متوافقة مع الخطوات الدبلوماسية التي تجري في موسكو . وهو الامر الذي أمّن نشر قوات ضاربة جنوب العراق قادرة على خوض احد خيارين في احتمالات تطور الموقف العسكري :

■ الاول : الدخول في معركة جبهوية لرد اي اختراق للاراضي العراقية .

■ الثاني : التحول الى خوض حرب تحرير شعبية من اطراف المدن حتى اعماقها ، بالتعاون مع الشعب المسلح .

لكن ذلك لم يكن وحده هو المسوغ في توقيت قرار الانسحاب ، في وقت مبكر بالنسبة الى الموعد المتوقع بعد التحام المعارك على الارض .. لتقع الخسائر التي انتظر العراق طويلا الحاقها بالاميركان وحلفائهم ..

فحيثما التفت العراق كان ثمة عدو .. يمسك باقدامه في

الوثوب .

وايا ستكون الظروف ، التي ندرجها هنا ، فان اسبابا وظروفا اخرى قد تنكشف مستقبلا لأظهار ماهو باطن ومستتر في ظروف قرار الانسحاب ، مما قد يقدمه في يوم من الايام ، صناع القرار ، وقادة الميدان ، وشهوده في اللحظات الاخيرة للانسحاب ، والعبور على طريق الموت بين شمال الكويت وجنوب البصرة .

اذن لماذا لم ينسحب العراقيون الى الامام بل انسحبوا الى الخلف ؟.

ثمة ، ظروف وتداخلات ثلاثة ، كان اكثرها حسما ، الظرف الثالث .

اولا : تلقت القيادة العراقية تهديدا بضربة نووية ، حملها طرف ثالث ، وهو الامر الذي رسم الصورة المحتملة لضربة تشمل العاصمة بغداد ، والمدن الرئيسة في الموصل والبصرة وكركوك ، ترافقها ضربات متتالية للسدود ، فتغرق حواضر العراق وتنتهي مدنيّة كبرى المدن ، وينفتح الطريق امام تحويل ماتبقى من البلاد الى اسلاب تتقاسمها القوى الاقليمية المتحفزة ، ولاسيما في ايران وتركيا .. بعد ان تكون هذه الضربات قد ازالت مراكز القيادة والتنظيم والسيطرة والتحكم ، التي تمثلها هياكل الدولة وتنظيماتها وتفرعاتها .

ولم تنظر القيادة العراقية الى هذا التهديد بوصفه حقيقة نهائية ، بل جعلت في حسابها ، انه شكل من اشد اشكال الضغط النفسي عليها ، عشية وقوع المعارك البرية بقصد التأثير عليها لسحب القوات من الكويت ، والتراجع عن خطابها السياسي المعلن .

.. ولكنها لم تسقط من حسابها أن التهديد احتمال قابل للوقوع ، خصوصا بعد التقاط اشارات عن تحريض بريطاني على اللجوء الى هذا الخيار بوصفه واحداً من خيارات ممكنة ، وبعد ان

عزز ذلك الاحتمال ، وجود غواصات تحمل اسلحة نووية في الخليج .

وكانت القيادة العراقية ، ذاتها ، قد تحسبت لهذا الاحتمال ، فنظمت عملية اخلاء للسكان من العاصمة والمدن الكبرى عشية بدء الهجوم على العراق ، وهو الامر الذي ادى تلقائيا الى ان يهجر السكان المدن الكبيرة منذ ١٩٩١/١/١٥ عند انتهاء المهلة التي اعطاها مجلس الامن للعراق لسحب قواته من الكويت ، فانتشر سكان العاصمة في اطرافها ، حيثما امتدت البساتين ، والقرى ، والبلدات الصغيرة ، وكذلك ، فعل سكان المدن الكبيرة الذين توزعوا على الجبال ، والسهول ، والهضاب ، حيثما وجدوا اماكن تصلح للحياة المدنية في حدّها الادنى .

ومهما بلغت درجة الاستعداد للاعلان عن مدى تأثير هذا العامل في صنع القرار خلال الحرب ، فان التهديد بتوجيه ضربات بالاسلحة النووية الى العراق قد حفر عميقا في العقل الباطني العراقي ، المتحفز غريزيا للحفاظ على نوعه الوطني وحضارته .

ثانيا : ان النظرية التي استندت اليها العقيدة العسكرية العراقية . بعد الثاني من آب (أغسطس) ١٩٩٠ ، قامت على تبني مبدأ الدفاع ، فتأسست خطوط القوات ومواضعها وخنادقها وانظمة تموينها ، ومواقع السيطرة والتحكم فيها ، على اساس انتظار هجوم يشنه الطرف المقابل وخوض غمار قتال دفاعي ، يتضمن صفحات هجومية يتوقف التوسع فيها على الظرف السياسي ، ودرجة الانفراج المتحقق امامها في الميدان .

ولم يكن اعتناق مبدأ الدفاع ، خلاصة استنتاج ميداني ، بل كان انعكاسا لخيار سياسي ، مستمد من التوقف عند الحدود السعودية ، وعدم الاندفاع وراءها ، بحسب الموقف السياسي المعلن القاضي بعدم التعرض للمملكة العربية السعودية .

وهو ما يفسر عزوف العراق عن اللجوء الى خيارين ، ينظر الى

اختيار احدهما ، من وجهة نظر كثير من السياسيين والعسكريين في العراق ، على انه كان الملاذ للخلاص من تلقي الضربة الواسعة ليلة ١٦ـ١٧/ ١/ ٩٩١ ، وارباكها ، وتشتيتها ..

■ الخيار الاول : هو التوسع في الاراضي السعودية ، وجعل الكويت خلف القوات العراقية المندفعة الى القواعد التي استخدمتها القوات المهاجمة ، بعدئذ ، لشن الحرب على العراق . وأنذاك كان العراق سيمسك بورقة سياسية بالغة الخطورة والدقة ، ليجعل من التقدم الى امام ضمانة للحفاظ على الارض التي امسك بها في الخلف .

وكان يمكن ، عندئذ ، التوصل الى صفقة سياسية تتضمن في احد عناصرها الانسحاب من اراض سعودية مقابل حصول العراق على مطالبيه الاخرى في الكويت .

وكان هذا الخيار مستبعداً من عقل القيادة العراقية ، برغم انه لم يكن خياراً مستحيلاً من الناحية العملية .

■ اما الخيار الثاني : فكان مهاجمة القوات الاميركية والحليفة لها في اثناء مدة تحشدها في الظهران وحفر الباطن وشرق السعودية ، بهدف ايقاع خسائر بشرية كبيرة ، واربك عملية التحشيد ، واجهاض الهجوم على العراق برغم ما كان يحمله اللجوء الى هذا الخيار من خطر متأتٍ عن رد الفعل المرتقب ضد العراق ، بما فيه احتمال اللجوء الى اسلحة الدمار الشامل للانتقام من الخسائر الكبيرة عند وقوعها في صفوف القوات الامريكية .

وفي كل الاحوال ، فان التقدم الى امام ، الذي بدا صعباً ومعقداً بعد بدء الحرب ، لم يكن مستحيلا بعد نجاح القوات العراقية في عملية تضليل ميدانية واسعة قبل احتلال مدينة (الخفجي) السعودية ، والمكوث فيها ٤٨ ساعة ، برغم التفوق الجوي الشامل من جانب الولايات المتحدة وحلفائها .

لكن تلك العملية لم تتطور الى ماهو ابعد من ذلك ، عندما لاح في

الافق ، ان القيـادة العراقيـة قد لجـأت ، أول مرة ، الى خيـار الهجـوم ، وهو امـر أنعش الوضـع المعنـوي للقـوات التي بقيت متخندقة تحت القصف ، ونقلهـا من وضع تلقي الضـربة ، الى انتزاع المبادأة في توجيه الضربة وتحديد مكـانها في عمق جبهـة العدو .

ـ سنحج في مكة ان شاء الله ..

كان هذا النداء ، الرجاء ، قد تردد هذه المرة على السنة القادة العسكريين ، لكن ذلك لم يكن كافيا وَحْده ، اذْ ان القوات العراقية ظلت ماسكة مواضعها الدفاعية تتحاشى الخروج منهـا الى حيث يمكن ان تصبح صيدا للطيران المعادي ، وظلت انـظمة القتـال دفاعية تقوم على امتصاص الضربات المعادية وتفريغها من عناصر قوتها .

لذلك فان التحول الى وضع الهجوم ، لم يكن مستحيلاً ، ولم يكن مستبعداً ، ولكنه كـان معقداً ومكلفـاً ، ويحتاج الى اجـراء تحوير شامل في الوضـع القتالي كله . فلم تلجأ معه غرفة العمليات العراقية الى قرار التقدم الى امام ، بل انسحبت الى الخلف ، برغم ان هذا الوضع كان شديد التعقيد ، وعالي الكلفة ايضاً .

وفي كل الاحوال فان اي قرار لايعـود صحيحا الا في تـوقيته الصحيح .

■ ثالثاً : اما المتغير الاكثرخطورةوحساسية ، الذي انعكس على مسألة تقـريب موعـد الانسحاب ، فكـان الانتشار الواسـع لقطعات ايرانية غير نظامية خلف الجيش العراقي .

فقد ظلت ايران تنتظر فرصة للانتقام من العـراق في جانب ، ومعاودة برنامج التوسع لاقتطاع جنوبه في جانب آخر ، ووجدت في الظروف التي نشأت بعد الثاني من آب هذه الفرصة النادرة .. وقد جرى اعداد مسرح العملية في وقت مبكر ..

وكان الهدف الاول هو اخلاء الحدود العراقية ـ الايرانية من

وحدات الجيش العراقي .. وهي عملية تولاها وزير الخارجية الايراني علي أكبر ولايتي بنفسه ، بعد ثلاثة اشهر على دخول القوات العراقية الى الكويت ، في اللحظة التي افترض فيها العراقيون ان الايرانيين قد يتخلون عن عدائهم التقليدي ضدهم ، وان المتغيرات السريعة قد تدفع لاحلال علاقات التحالف بدلاً من علاقات التصادم .

ـ نريد ان تصبح الحدود بين البلدين ذات طابع عادي وتنسحب منها القوات .

بهذه العبارة بدأ الوزير الايراني يشرح للسيد طارق عزيز الاولويات التي تريدها بلاده عندما التقيا ببغداد في ١٤/١١/١٩٩٠ ، وهو ماحدا بالوزير العراقي ان يلفت انتباه السيد ولايتي الى موضوع تجديد ولاية المراقبين الدوليين ، اذْ ان السيد «كولدنغ» المكلف من الامم المتحدة سيصل بغداد في ١٦/١١/١٩٩٠ «اي بعد يومين من لقاء الوزيرين في بغداد» ثم يحل في طهران يوم ١٨/١١/١٩٩٠ .

وقال السيد عزيز :

ـ ان الامين العام جدّد في المرة الماضية التفويض لشهرين وربط ذلك بمدة عمل الجنرال اليوغسلافي «يوفتش» الذي ترك العمل وودّعنا البارحة ، لذلك نرى انه مادام هناك تمديد للمراقبين فليكن للمدة النظامية ، وهي ستة اشهر ـ وليس شهرين ..

واقترح الوزير العراقي ابلاغ دي كويار عن طريق السفراء بهذا الرأي ، بحيث يبقى على الحدود العدد الحالي نفسه من المراقبين الدوليين .

لكن الوزير الايراني ذهب الى ان البلدين قد بدءا التطبيع ، ولابد من جعل اوضاع الحدود طبيعية ، وكان يقصد انسحاب القطعات العسكرية ، واخلاء مواضعها ، وبناءً على ذلك ، فلا حاجة الى وجود طرف ثالث يشير بقاؤه الى استمرار حالة التوتر .

وقال السيد ولايتي :

ـ لاداعي للوساوس والحذر والحيطة ..

فعلق السيد عزيز :

ـ لم تتشكل حتى الآن كل آليات التعاون الثنائي ، ولم نعيّن السفراء في البلدين ، ولم نُعِد الاتصالات الهاتفية بعد ، ولاعاد النقل الجوي ، ولاتوجد نقاط حدود فعّالة تعمل الآن .. وعندما ننتهي من هذا كله ، لن نحتاج عندئذ الى المراقبين الدوليين ، لذلك من الناحية العملية ماتزال هناك حاجة لهؤلاء .

لكن الذي حصل ان الامين العام للامم المتحدة قرر منتصف تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٩٠ تمديد بقاء المراقبين الدوليين على الحدود لمدة شهرين فقط تنتهي منتصف كانون الثاني «يناير» ١٩٩١ ، بحيث لم يكن هناك اي مراقب دولي لحظة بدء الهجوم الامريكي على العراق فجر ١٩٩١/١/١٧ .

فضلاً عن ان العراق سحب فعليا قطعاته العسكرية من مواضعها على الحدود مع ايران ، ووجه قوته النارية كلها في اتجاه ساحة المعركة مع الولايات المتحدة وحلفائها .

حتى اذا بدا التسلل عبر الحدود ، كان الايرانيون ومعهم اسرى عراقيون جرى غسل ادمغتهم وتجنيدهم ضد بلادهم ، يمرون من خلال سواتر ، ومواقع ، كان الجيش العراقي قد اخلاها ، بحيث عبر أكثر من ثلاثين الف شخص في الشهر الاول لبدء الحرب ، دون ان يعترضهم احد ، ودون ان يصطدموا بأي موقع عسكري ، وارتفع هذا العدد الى خمسين الف شخص انتشروا في محافظات الوسط والجنوب ، بعد ان تحددت ساعة الصفر للمباشرة بالتخريب وقتل المسؤولين الحكوميين وحرق مؤسسات الدولة ، بعد ٤٨ ساعة من بدء المعركة البرية في الحرب .

كان الامر الاكثر الحاحا الشاغل للسيد ولايتي ان يعرف خطط

العراق العسكرية ونياتـه ، وموقفـه من مقترحـات الانسحاب ، وكيفية تصريف موضوع الاجانب الموجودين لديه ، والموعد الذي تتوقع فيه القيادة العراقية وقوع الحرب .

واجاب السيد عزيز :

ـ لايوجد اي طرف في العالم يخبرنا عن نية اميركا في موضوع الحرب .

وكان السيد طارق عزيز نفسه قد عاد من لقائه الاول مع الرئيس الايراني ووزير خارجيته في ١٠/٩/١٩٩٠ بالاستنتاجات الآتية :

اولاً : ان ايران تشعر بـالحرج لتـركيز العـراق على العـامل الاسلامي في قيادته المعركة ضد الولايات المتحدة .

ثانياً : ان القياديين الايرانيين لمّحوا الى انهم كانوا يتمنون لو شاركهم العراق في قراراته قبل ان تبدأ المواجهة ، ووصفوا قرار العراق بانه كان قراراً منفرداً .

ثالثا : ان الايرانيين كانوا يتـوقعون ان يـطلب منهم العراق الكثـير ، لكن الوفد العـراقي لم يطلب شيئـا ، وكرس اهتمـامه للحديث عن المواجهة مع اميركا .

فقد كان لقاء استكشاف وترقب متبادلين .

ـ كنا نتوقع ضربة اسرائيلية في شهر نيسان الماضي .

هذا ماقاله وزير الخارجية العراقي للرئيس رافسنجاني الذي سأل :

ـ ماذا تريدون ان تفعلوا الآن ؟

ثم استدرك :

ـ لانريد ان نزاحمكم في الكويت ، ولن تشاهدوا من جانبنا اية «مزاحمة» ، ونحن نرى ان مسألة الكـويت منفصلة عن موقفنـا بشأن السلام معكم .

وعندما استقبل الرئيس صدام حسين وزير خـارجية ايـران السيد علي أكبر ولايتي مساء الاربعاء ١٤/١١/١٩٩٠ وضعه في

المنـاخ الذي يشيع الثقـة ويشجع عـلى اتخاذ خـطوات أكبر في المستقبل وطيّ صفحات الماضي .

وأشار ولايتي الى أنه لم يتوصل بعد الى اتفاق حول موضوع المراقبين على الحدود خلال جلسة المباحثات الأولى مع السيد طارق عزيز .

في حين دعا الرئيس صـدام حسين الى بلوغ مـرحلة التعاون الفعّال بين البلدين وقال للوفد الأيراني الذي ضم ستة أشخاص الى جانب ولايتي :

ـ إن القضايا الانسانية وفي ظل ترابط المصالح الأخرى تنقلنا من مرحلة الجوار الحسن تقليدياً الى مرحلة التعاون الفعّال ، الذي نحن في البلدين ، خسرنا فيها فرصاً على امتداد الزمن الماضي .. لذلك مطلوب في الزمن اللاحق أن نعوض مافاتنا من الزمن الماضي .

وأضاف الرئيس :

ـ في الزمن الحاضر علينا ان لا نُحمّل بعضنا ما لا طاقة لأي منا به .. وكل واحد منّا يفهم ظرف الآخر .

واقترح الرئيس صدام حسين على الوزير الأيراني البحث في الموضوعات الأكثر أهمية ومنها العناوين الآتية :

■ إبحثوا في الجيوش الأجنبية .. هل أتت لتبقى أم لترحل بعد المعركة ونتائجها ؟

■ كيف نتصـور مثلاً سيـاسة الولايـات المتحدة وأوربـا ، أين يفترقان وأين يلتقيان في الحاضر والمستقبل ؟

■ أين يكون الاتحاد السـوفيتي مرنـاً ، وأين يقف من المسعى الامريكي المنفرد او المسعى الاوربي المشترك ؟

■ كيف ستتصرف إسرائيل ؟

■ إن عليكم أن تخوضوا بـدقة وعمق في مـوضوع الخليـج ومقترباته .

كان الموقف يتطور سريعا ..

ازدادت حاجة العراق الى المواد الغذائية والادويـة من الدول المجاورة ..

كل شيء صار يدل على ان الحرب وشيكة ، وكان على العراق ان يكرس كل جهده العسكري في مواجهة عدوه الجديـد ، وتسكين الموقف مع العدو السابق .. ايران .. لعل هذه الحالة تمهد لنشوء علاقات تعاون ، وربما تحالف ، مادام العدو المشترك ، اميركا ، صار امام الابصـار ، وللمعركـة معه ابعـاد معنويـة وسياسيـة وتاريخية تجعلها معركة تستحق الذهاب اليها ، والانخراط فيها .

حتى ان الرئيس صدام حسين زوّد نائبه السيد عزة ابراهيم بتعليمـات محددة وهو يغـادر الى طهـران قبل اقل من أسبوع على بدء الحرب لتكون محاور للحديث مع الايرانيين :

اولاً : لقد جاء (الشيطان الاكبر) الى حافاتنـا ، ويفترض ان تشاركوا في المعركة المقبلة لان شعاراتكم ترفع الآن في بغداد .

ثانياً : ان العراق لايريد ان يحمّل ايران شيئاً ليست مهيئة له الآن .

ثالثاً : هل انتم راغبون في توقف الحرب بيننا ؟ ام انكم تريدون اقامة علاقة جيرة طيبة ومتشـابكة ..؟ واذا كنتم تـريدون هـذه العلاقة فلماذا تغلقون حدودكم في وجه تدفق السلع بيننا ؟.. اذا كان المانع قرارات مجلس الامن .. فهل كان هـذا المجلس محط احترام في ايران ؟

رابعاً : لقد جئنا الى ايران لنُظهر امام شعبينا في العراق وايران اننا نسير في طريق السلام .. لكن لابد ان نقـول كم إننا نختلف عنكم ، فنحن منذ توقف القتال كنا دائماً اهل المبادرات من اجل السلام .

خامساً : اذا وجدتم اننا في حاجة لكم ، فالله يكون معكم ، لكننا ننظر الى الامر بروحية الجيرة والعلاقـات التي تجعل كـل واحد محتاجاً للثاني ، وهذه هي الفرصة القادرة على مسح جراح الماضي

باسرع مايُمكن ، وهذه مهمة تاريخية نبيلة .

سادساً : اذا استطاعت اميركا ان تكسر العراق فلن يبقى ، عندئذٍ ، نظام وطني او تيار وطني او حزب وطني في المنطقـة الا وسيطحن ..

سابعاً : لماذا تسحبون انفسكم وكأنكم من خارج هذه المنطقة وانتم ترون ان المنطقة قد انقسمت الى انـظمة عميلة لاميـركا ، واخرى غير عميلة ..

لقد ظن العراق في لحظة من الزمن ، ان بالامكان اقامة صفقة تفـاهم مع ايـران ، واستنتج السيـد عزت ابـراهيم من زيارتـه لطهران ، ان هناك تحولاً في موقف القيادة الايرانية من العراق ، يمكن ان تتأسس عليه علاقات جديدة .

فقد دخل نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي على الرئيس الايراني هاشمي رافسنجاني في زيارة مجاملة وتعارف ، بعد ان كان قد بدأ مفاوضات مفصلة مع نائب الرئيس الايراني ، الا انه فوجىء برافسنجاني يطلب اليه البقاء وحده ، ليبلغه ان ايـران ستكون مع العـراق في مواجهـة الولايات المتحـدة ، وانها تتفهم الدوافع التي حدت بالعراق للقيام بعملية الثاني من آب (اغسطس) ١٩٩٠ .

وعاد الوفد العراقي قبيل بدء الحرب باربعة ايام ، ومعه قناعة بان الايرانيين لن يستغلوا أنشغال العراق بأية معركة ليقوموا من جانبهم بتصفية حسابات الماضي . وأجتمعت القيادة العـراقية ، لتعلن بعدئذٍ ، عن ارتياحها لما عاد به وفدها من نتائج .

لكن الاستنتاج الذي توصل اليه الوفد لم يكن دقيقاً ..
بل على العكس ..

كانت طهران تقوم بعملية تضليل منظمة ، بحيث تظهـر أمراً وتخفي امراً آخر ، في انتظار بدء الحرب ، حتى تباشر خطتها في ضوء ما يترشح من نتائج عنها .

ادرك وزير خارجية العراق في ثاني مقابلة له مع الرئيس الايراني ان لغة رفسنجاني قد تغيرت ، وأن عبارات الرفض واللوم وكل ما يدل على الافتراق قد حلّت بدلا عن عبارات التراخي والدعوة الى التعاون والالتقاء على الاهداف .

فاللقاء الأول جرى في الشهر الثاني للازمة ، اما اللقاء الجديد فجرى في بداية الشهر الثاني من الحرب (١٩٩١/٢/١٩) ، وهذه المرة التقى الرجلان وحدهما بحضور مسؤول ايراني معمم كان من المرجح انه يدير اعمالا سرية في الدولة الايرانية .

نقل السيد طارق عزيز الى الرئيس رفسنجاني دعوة حمّله اياها الرئيس صدام حسين لتكوين جبهة لمقاومة المخطط الامريكي في المنطقة تضم بغداد وطهران وموسكو .

فأجابة الرئيس الايراني :

ـ اننا لانريد ان ننجرّ الى موقف لانرغب فيه ، ونحن لانعرف ما هي اهدافكم الحقيقية ، وفي حالة عدم معرفة هذه الاهداف لا يمكننا العمل سوية .

فرد الوزير العراقي على الفور :

ـ عندما نطلب التعاون معكم فعلى المعلن من الاهداف وليس على اهداف غير معلنة ، وبالنسبة لنا لاتوجد اهداف مخفية .

وتوالت اسئلة رفسنجاني : لماذا لم تخبرونا بإجراءاتكم ؟ لماذا لم تعلمونا بمبادرتكم التي اعلنتموها في ٢/١٥ ؟ ماهي خطواتكم التالية ؟ وماذا ستفعلون .

كان هناك ما يشبه الاستجواب الذي جعل الوزير العراقي يستنتج ان ايران لم تعد معنية بكل ما سبق ان عبرت عنه في الشهور الستة الماضية من رغبة بالتعاون واستعداد للتنسيق مع العراق ، لابل انها لم تعد متمسكة بوعودها في التضامن مع العراق عندما تقع المواجهة بينه وبين امريكا .

وعندما غادر السيد عزيز طهران الى موسكو ليبدأ مفاوضاته

هناك قرر مسبقـا اختيار طريق آخـر في العودة الى العـراق غير ايران ، وبالفعل عاد الوزير العراقي من آخر زيارة له الى موسكو عبر الاردن ليأخذ الطريق البرّي الى بغداد برغم انه كان يتعرض لقصفٍ مكثف على مدى ٢٤ ساعة .

□ □ □

اوفدت ايران عشية الحرب احد كبار مسؤولي وزارة الخارجية الى بغداد في مهمة تبدو للوهلة الاولى انها جزء من عملية متابعة امور فنية واجرائية بين البلدين ولكنها في الحقيقة كانت محاولة في اللحظة الاخيرة قبل الحرب لانتـزاع قرارٍ عـراقي لم تكن ايران لتجرؤ على طلبه في ظروف اعتيادية .

فقد فوجىء وزير خارجية العراق ان مصطفى حائري مدير عام دائرة الخليج في الخارجية الايراني يطلب منـه خلال لقـائهما في بغـداد (ظهر ١٤/١/١٩٩١) ان يقـوم العراق بتسليم قـادة المعارضة الايرانية الموجودين لديه مقابل اغماض العين عن مرور بعض الاغذية والادوية من ايران الى العراق .

وقال المسؤول الايراني :

ـ اما ان تسلموهم الينا او ان تسمحوا لافراد منا بـالقضاء عليهم .

فرد السيد طارق عزيز بقوة :

ـ لايمكن ان نفعل ذلك مهما كلفنا الامر ، فهذه مسألة مبادىء واخلاق ، والعراق لايمكن ان يتنـازل عن هذا المبـدأ وعليكم ان لاتربطوا بين هذا وذاك .

ومضى الوزير العراقي يشرح موقف بلاده من طلب ايراني جاء في لحظة حرجة :

ـ ان العراق لم يطلب منكم تسليم المنظمات العراقية الموجودة

لديكم لان قاعدة التسليم غير صحيحة وغير مقبولة ، ونـأمل ان تتعهدوا من ناحيتكم بعدم وقوع اي نشاط ضمن حدودكم ضـد العراق وسنتعهد من ناحيتنا بذلك ايضا .

لم يخطر ببال القياديين العراقيين يومئذ ان ايـران كانت قـد اعدت في اللحظة التي اوفدت مبعوثها الى بغداد ، المجاميع المكلفة بالتسلل عبر الحدود للقيام بعملية التفاف خلف القوات العراقية التي اخلت مواضعها في الحـدود العراقيـة الايرانيـة ، وتفرغت لمعركتها في الكويت .

□ □ □

كان بامكان القوات العراقية ان تـؤمّن انسحابـاً منظمّـاً من الكويت ومن دون ان تتحمل خسائر كبيرة في عدد ضحاياها ، بعد اربعين يوماً من القصف الجوي والصاروخي والمدفعي على قوات منتشرة في مساحة تزيد على ١٧٠٠٠ كيلو متر مربع من ساحـل الخليج ، وضعفيَ هذا الامتـداد من نقاط التمـاس مع الحـدود السعودية جنوب العراق وغرب الكويت وجنوبه .

لذلك كان اختيار يوم الثالث والعشرين من شباط (فبـراير) لاعـطاء اول اشارة لانسحـابات تـدريجية منـظمة قـد اخـذ في الاعتبار ، ان بامكان القوات العراقية ان تنسحب وهي محافظة على قوتها الاساسية في الافراد والمعدات .

وكان آخر رقم لعدد الضحايا العراقيين لايتجاوز خمسة آلاف رجل سقطوا جراء القصف الجوي ، والصاروخي ، والمدفعي ، وجراء الاشتباكات المحدودة ، التي كانت اكبرها عملية اقتحـام مـدينـة « الخفجي » السعـوديـة ، وبعض المعـارك في منـاطق « الوفرة » و« الغابات » ونقاط التمـاس في جبهة حفـر الباطن . وهي خسائر لاتزيد على خسائر القوات العراقية في معركة متوسطة مع القوات الايـرانية خـلال الحرب التي شهـدت معارك كبيـرة ومتوسطة وصغيرة بدون توقف على مدار سنوات الحرب الثمانية .

وبالفعل ، تمكنت قـوات عراقيـة مدرعّـة وراجلة ، من اعادة

توزيع مواضعها في جنوب العراق ، قبل ان يصدر الاعلان العراقي الرسمي عن الانسحاب فجر ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٩١ .

على ان امرين اساسيين حدثا بعد ذلك التاريخ كانا اشد حسماً في الصدام العسكري كله :

الاول : إستحالة إدامة الانسحاب المنظم على الطريق البري الوحيد الواصل بين مدينة الكويت ومدينة سفوان بعد تعرضه لقصف جوي اشتركت فيه طائرات مقاتلة وقاصفة الى جانب طائرات الهيلوكوبتر عن قرب ، بحيث الحقت خسائر شاملة بالمعدات العراقية المنسحبة ، اثر استخدام قنابل فراغية ، كانت تمتص الجيوب الهوائية لتحيل المعدات الحديدية الى اشكال من عجين منكمش ، فضلا عن ما ادى اليه ذلك الانسحاب من تشتيت لافراد الجيش المنسحبين الذين تلقوا تعليمات ، بعدم اتخاذ وضع قتالي في طريق العودة بما جعلهم هدفا سهلا في مصيدة موت مغلقة .

الامر الثاني : ان القوات العراقية التي اخذت مواضعها جنوب العراق ، ومنها قوات الحرس الجمهوري ، اصطدمت فجر ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٩١ بقوات مدرعة امريكية كانت قد دخلت الى الاراضي العراقية ، ولم تتمكن من تحديد اتجاهاتها وباشرت بتوجيه نيرانها الى الدروع العراقية لالحاق اكبر الخسائر بها . فوقعت اول واكبر معركة منظمة اشتركت فيها الدبابات الامريكية والعراقية وجها لوجه ، بعد سلسلة اشتباكات كانت تجري من مسافات بعيدة ، طوال الايام الاثنتين والاربعين الماضية ، اما في جنوب العراق ، وعلى المسافة الممتدة بين غرب البصرة وشمال الزبير ، فقد دارت معركة دبابات استمرت اربع ساعات ، بدأت عندما فتحت دبابات **T 72** التابعة لفرقة (المدينة المنورة) ، حرس جمهوري نيرانها على طلائع دبابات امريكية من نوع **M 60** ، واوقفتها بعد اصابة اول ثلاث دبابات ، فانحسر الاندفاع الامريكي الذي آزرته دبابات بريطانية ، ثم عاود الطرفان الاشتباك في قتال

جبهوي من مواضع قريبة ، بحيث صار بامكان افراد من المشاة المساندين رؤية الجنود في الطرف المقابل ، والقفز فوق الدبابات المحترقة .

ولم تتوقف تلك المعركة النظامية الاولى والاخيرة ، على بر حرب الخليج ، الاّ عندما تراجعت الدبابات الامريكية الى الخلف وتركت مسافة واسعة خارج مدى اطلاق النار بعيدا عن حافات دبابات الحرس الجمهوري .

□ □ □

ومرت حرب سابتة ، كانت ستفيق في اية لحظة ، لكن ايران لم تشأ هذه المرة ان تنزل بقواتها النظامية وعلمها الرسمي ، بل نزلت اليها بعملية خفية منظمة ، ادواتها في التنفيذ ، عسكريون ايرانيون ، واسرى عراقيون ، ومؤيدون لطهران من اعضاء حركات سرية ، استغلوا لحظة تخلخل نفسي عند بدء الانسحاب العراقي من الكويت ، لوضع القوات العراقية بين فكي كماشة .

احدهما .. نار تهطل من السماء على طريق الموت حيث كانت تنسحب سيارات مدنية وعسكرية وسيارات اسعاف فطاردتها الطائرات الامريكية والبريطانية والسعودية والفرنسية لتحرقها بمن فيها ، وتقطع عليها طريق العودة .

اما الكماشة الاخرى ، فكانت الافخاخ التي نصبها الايرانيون للقطعات المنسحبة .

□ □ □

كانت آخر قناة للاتصال بين العراق وامريكا .. قناة سوفيتية .. فموسكو كانت موجودة في اللحظات الاكثر دقة عندما اعلن العراق قرار سحب قواته من الكويت ، ثم صارت طرفاً في ترتيب اجتماع سفوان الشهير .

عندما اعلن من اذاعة بغداد الساعة الواحدة و٤٥ دقيقة فجر يوم ٢٦ / ٢ / ١٩٩١ قرار العراق سحب قواته من الكويت ، لم يكن مندوب العراق لدى الامم المتحدة الدكتور عبدالامير الانباري قد تسلم اية اشارة ممهدة ، وعدّ الامر اقرب الى الاشاعة ، فلا بغداد كانت تستطيع الاتصال به مباشرة ، ولا هو تمكن من تأمين اتصال بوزير الخارجية لحظة اذاعة القرار الذي لم يستمع اليه بنفسه بل استمع اليه منقولا عبر الاذاعات الاخرى ..

ولعله لم يصدق ..

لا بل ان ملايين العراقيين لم يصدقوا في اللحظة الاولى ، لان جرعة من المناعة كانت قد أُعطيت للشعب العراقي ليلة الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٩١ ، عندما نوّه الرئيس صدام حسين الى احتمال لجوء التحالف الى المخادعة عن طريق اقامة تداخل في البث التلفزيوني والاذاعي لاذاعة بيان باسم القيادة العراقية ، وربما بصوت شبيه بصوت الرئيس نفسه ، يدعو القوات العراقية الى الاستسلام . او في الاقل الى الانسحاب في اللحظة الاخيرة على انتهاء مرحلة الانذار التي اصدرها مجلس الامن في قراره ٦٧٨ .

لذلك كان هناك شك في ان يكون البيان الذي أُلتقِط على موجة لاذاعة بغداد ، خدعة اذاعية لجأ اليها الطرف الاخر ، لان البيان اذيع مرة واحدة ، وفي وقت متأخر ، وقبل ان تقفل الاذاعة العراقية بثها بربع ساعة فقط .

وكان قلق مندوب العراق في نيويورك مشروعاً فهو لايستطيع ان يعلن موقف بلاده بناء على بيان اذاعي لم يستمع الى نصه وتسجيله بنفسه .

واستيقظ العالم ..

مجلس الامن دعا الى اجتماع عاجل .. وكان على مندوب العراق ان يتحدث فيه ..

اما بغداد فقد وجهت اهتمامها لابلاغ طرفين بالقرار بعد

اذاعتـه ، الاول : السـوفيت عن طريق سفيـرهم في بغـداد ، والثاني : الفلسطينيون عن طريق سفيرهم ايضا .

وكانت هناك دقائق حرجة ..

وكنت ساعتها في عمان ، فالتحقت مع الملحق الصحفي العراقي بدار الاذاعة الاردنية لاستمع الى البيان مسجلا عندها .. في حين بقي الهاتف مفتوحاً بين اذاعة عمان وسفير العراق في الاردن من جهة ، والدكتور عبدالامير الانباري في نيويورك من جهة اخرى ..

وادركت على الفور ، ان البيان حقيقي ، فالمذيع الذي أذاعـه معروف لديَّ ، وهو السيد غازي فيصل ، لا بصوته وحسب ، ولكن بالطريقة التي يختار بها مفرداته لمخاطبة المستمعين عند بدء اذاعة اي بيان ، ثم ان صياغة البيان كانت متطابقة تماماً مع صياغة عشرات من بيانات سبق ان كتبها السيد طارق عزيز ، ومرت امام رجال الصحافة في السنوات الماضية ..

قلت للدكتور الانباري : انني متأكد من صحة البيان .. وكانت تلك اول اشارة رجحّتْ لديه عنصر التصديق على عنصر التشكيك ..

في تلك الاثناء تحادث سفير العراق لدى الاردن نوري اسماعيل الويس مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفـات في تونس الذي أَمَّنَ اتصالاً عبر قبرص بسفارته في بغداد التي اكدت له صحة البيان .

واقترح مندوب العراق في نيويورك ان يطلب تأجيل عقد اجتماع مجلس الامن نصف ساعة ، وقال : لست قادراً عـلى مزيـد من التأخير ..

وجاءته قبل دقائق من بدء الاجتماع اشارة اخرى من السفير السوفيتي في الامم المتحدة يـوري فورنتسـوف الذي اعلمه انـه تسلم ، رسمياً ، من موسكو المعلومات عن القرار العراقي ، بعد ان كانت دورة المعلومات مابين الخارجية العراقية وسفارة الاتحاد السوفيتي في بغداد والخارجية السوفيتية ، ثم البعثة السوفيتية في نيـويورك قـد اكتملت خلال سـاعة ونصف بعـد اذاعـة البيـان العراقي .

وانعقد مجلس الامن .. ليبلغه الدكتور الانباري ، رسمياً ، قرار حكومة العراق الانسحاب من الكويت .

وظهرت موسكو ثانية .. يوم الثاني من آذار (مارس) ١٩٩١ ، كطرف ثالث ، في ترتيب اجتماع يعقد في مطار جليبة بين القادة العسكريين العراقيين والقادة العسكريين الامريكان والسعوديين . عندما نظم وزير الخارجية السوفيتي بسمرتنيخ هذه المرة اتفاقا بين الطرفين على عقد لقاء يبحث في منع التداخل بين مواقع القطعات العسكرية ، ويضع اسس وقف اطلاق النار ، ولكن مكان الاجتماع تغيّر في اللحظة الاخيرة ليكون في منطقة (سفوان) ، حيث نصبت خيمة على طريق عام ، جمعت الفريق سلطان هاشم والفريق صلاح عبود من الجانب العراقي والجنرال نورمان شوارزكوف والفريق خالد بن سلطان عن جانب الولايات المتحدة وحلفائها ، وذلك عند الساعة ١١/٣٥ صباح ٣/٣/١٩٩١ ، عندما جري تثبيت اماكن تبادل الاسرى عن طريق هيئة الصليب الاحمر الدولية ، وتحديد طريقة التعامل مع مسألة المفقودين ، ومناقشة الخرائط الدالة على اماكن زرع الالغام ، وقد حالت ظروف التمرد دون وصول ضابط عراقي ثالث كان مختصاً بهذا الامر ، وكشف الجانب العراقي عدم وجود اي مخزون كيمياوي او بايولوجي او نووي في الكويت ، وتم وضع ترتيبات سحب قوات التحالف على معداتها في جنوب العراق .

وخاطب الضابطان العراقيان الجنرال شوارزكوف : اننا بهدف تثبيت حقيقة للتاريخ ، نود ان تعرفوا كم تحمّلنا من الخسائر بعدما اعلنا الانسحاب من الكويت ..

كانت صورة طريق الموت بين شمال الكويت وجنوب البصرة ، ماثلة امام ابصار المتحاربين ، فقد هاجمت طائرات التحالف القوات العراقية المنسحبة ، ومعها آلاف المدنيين ، وسيارات الاسعاف ، وناقلات العوائل العراقية والكويتية والفلسطينية والاردنية والمصرية ، واحالت طريق العودة الى جحيم ، وفخ كبير

لاناس كانوا في تلك اللحظة قد اختاوررا اغلاق فوهـات بنادقهم ، وافراغ مدافعهم من حشـواتها ، عنـدما تـوهموا ان اعـداءهم سيكتفون بانسحابهم .. ولكنهم اكتشفوا ان الهدف هو تدميرهم ، وسحقهم ، وربما افناء النوع العراقي كله □

حرب تلد أخرى
الاستنتاجات

مايبدو للوهلة الاولى فشلاً قد يكون نجاحا مؤجلاً ونصرا غير مكتمل نتيجته الكبيرة في إظهار قوة العراق أمام نفسه وتفجير قدراته من خلال التعامل مع التحدي الكبير ..

اولاً : يتبين من خلال مراجعة وثائق الصراع . والالتقاء مع صانعي مواقفه . ان العراق كان قد دخل الكويت بهدف انتزاع مطالبه . وعدم البقاء فيها ، كلها ، الى الابد ، كما كان يعبر عن ذلك الخطاب الرسمي والاعلامي العراقي اليومي زمنذاك .. وبالامكان تثبيت النقاط الآتية حول مسألة الانسحاب ، او عدم الانسحاب ، كما عالجتها القيادة العراقية :

ان الرئيس صدام حسين لم يرفض خلال لقاءاته مع الشخصيات السياسية العربية والغربية البحث في موضوع (انسحاب) من الكويت ، ولكنه تحفظ على كلمة (الانسحاب) المطلقة واعادة الوضع إلى ما كان عليه يوم ٢ آب (اغسطس) . وتحفظ على الانسحاب بدون ضمانات ، او بحث مسبق ، وقد قيل هذا الكلام للمبعوث السوفيتي بريماكوف والمبعوث الفرنسي ميشيل فوزيل والمبعوث الدولي خافيير بيريز دي كويار ، وقيل ايضا لرئيس وزراء بريطانيا الاسبق ادوارد هيث والمستشار الالماني الاسبق فيلي برانت ورئيس وزراء اليابان الاسبق ناكوسوني ورئيس نيكاراغوا السابق دانيال اورتيغا .

وقيل قبل ذلك وفي الايام الاولى بعد دخول الكويت للملك حسين خلال لقاء بغداد في ٣/٨/١٩٩٠ ، والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات الذي اكد لي ان الرئيس صدام حسين ابلغه استعداد العراق للانسحاب مع ضمان حقوقه .

ان العراق كان متحفظاً في الاستخدام المباشر للكلمات الدالة على الاستعداد للانسحاب ، ولكن احاديث الرئيس صدام حسين كانت تنطوي على المفهوم ذاته من دون اعطاء وعود صريحة قاطعة ، لان معظم المبعوثين الذين زاروا بغداد جاءوا يعرضون افكاراً ويطالبون بالانسحاب من دون تقديم ضمانات مقابلة ، ولم يكونوا مخولين من أحد للبت في إجراء صفقة سياسية لحل الازمة ، وكانت مهماتهم تتراوح بين السعي لاطلاق الاجانب الذين احتفظ بهم العراق ابان الازمة ، وبين استطلاع طروحات بغداد ،

لذلك تحول الحديث معهم الى ما يشبه الحوار والاستذكار والتحليل ، وتحاشى الرئيس صدام حسين اعطاء وعد لطرف من الاطراف يمكن ان يسوّقه سياسياً في اتجاه لايضمنه العراق ، ولم تكن به حاجة ليقول لاحد المبعوثين : سأنسحب ، ليجد نفسه قد اعطى كل شيء ، مرة واحدة ، دفعة واحدة ، وبلا شروط ، وبلا ضمانات ، من دون ان يحصل على شيء .. اي شيء وكان الطرفان الوحيدان اللذان يمكن للعراق اعطاؤهما هذه الكلمة هما السعودية والولايات المتحدة بوصفهما الطرف المقابل . اما الاخرون فهم اطراف ثالثة ، ومساعدة ، وثانوية ، وباحثة عن دور . وكان اعلان السيد صلاح خلف (ابو اياد) لصحيفة فرنسية عن استعداد العراق للانسحاب من الكويت موضع استياء بغداد ، التي انكمشت بعد ذلك في استخدام مفرداتها مع زوارها من عرب وغير عرب .

اطلق الوفد السوفيتي المرافق لبريماكوف وصف (الكلمة السحرية) على (الانسحاب) ، ويوم خرج الوفد بعد أول لقاء في ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٠ ، انتظر الرئيس عرفات الذي كان موجوداً في بغداد ومعه السيد عزام الاحمد سفير فلسطين في بغداد ملاقاة يفغيني بريماكوف وسأله عن مادار في الاجتماع ، قال المبعوث السوفيتي : لم نسمعها .. سأل عرفات : ما هي ؟ ... فعلق فاسيلي رئيس دائرة الشرق الاوسط الذي سبق له العمل سفيراً في بغداد : الكلمة السحرية ..

فطلب عرفات من بريماكوف ومرافقيه ايجازه بالحوار ، وبعد ان استمع اليهم صاح فيهم : لقد قالها لكم .. ولكن عليكم ان تقرأوا بين الاسطر في حديث العراقيين .. يفترض انكم تعرفونهم ..

لذلك دفع التشابك الدقيق في عناصر الازمة العراقيين الى استخدام لغة شديدة الحذر دون اعطاء وعود قاطعة تترتب عليها التزامات قاطعة امام العالم ، او دول اخرى .

كان العراق يرى ان اي تراجع علني عن البقاء في الكويت كجزء

من العراق عمل مدمر للوضع النفسي ، اذ ان فلسفة التعبئة في العـراق تقوم عـلى التعميم وتحاشي التفـاصيـل ، فـاي بحث في التفاصيل يقود الى الجدل الجماعي ، وهو ماكان يتجنبه في أيام الأزمة الساخنة ، ولذلك تجد الرئيس صـدام حسين ، يخـاطب صحفيي العـراق في الثالث عشر من كـانون الثـاني (ينـايـر) ١٩٩١ :

« اقفلوا عـلى اهـدافكم .. لاتـنتـظروا مـبـادرة اللحـظة الاخيرة » .. ليمنع الدخول في التفاصيل ووقوع جدل يشتت جهد التعبئة والوحدة النفسية والمعنوية للمجتمع .

الا ان هذه الفرضية (التعميم لا التفصيل) كانت قد فقدت قدرتها في التأثير بسبب الضـخ الاعلامي الهـائل من الاذاعـات الغربية التي نشرت قدراً كبيراً من التفاصيل بهدف ارباك المتلقي العراقي ، وكانت الفرضية ستصح لو ان العراق كان بلداً مغلقاً ، ولا يعيش في عصر اذا أُغلق فيه باب اطلت عليه مفتوحـة جميع النوافذ .

على ان قبول مبـدأ الانسحاب كـان محكومـاً بظرفـين بالغي الاهمية للعراق . الاول هو ان بغداد تيقنت منذ الايام الأُوَل للازمة ان القوات الامريكية جاءت لتبقى زمناً طويلا على حدود العراق ، خاصة بعد ان اعلن وزير الدفاع الامريكي ريتشارد تشيني يوم ١٨/٨/١٩٩٠ « ان بقاء القوات الامريكية في المنطقة سيستمـر بضع سنوات ، حتى بعد انسحاب العراق من الكويت » ، ثم تبعه تصريح وزير الخارجية الامريكي جيمس بيكـر في ٥/٩/١٩٩٠ امام الكونغرس : « ان امريكـا ستحتفظ بـوجودهـا البشري في الخليج بموجب حلف عسكري مع دول المنطقة حتى بعد انسحاب القوات العراقية من الكويت » .

ووجدت بغداد ان الانسحاب من الكويت او عدم الانسحاب لن يزيح الشعور بالخطر من وجود قوات امريكية كبيرة جوار العراق .

نـاهيك عن ان الأمـر الثاني الذي كـان يتحكم بقبـول مبـدأ

الانسحاب ، هو ان بغداد كانت امام احد خيارين : فأما انسحاب غير مشروط وشامل ، وهو يعني لها الاستسلام ، مع ما ينشأ عنه من انهيار سياسي ومعنوي وعسكري . واما انسحاب مشروط يقوم على ان تكون الانسحابات متقابلة .. بحيث يتزامن انسحاب القوات العراقية من الكويت مع انسحاب القوات الامريكية والبريطانية وسواهما من السعودية ، وهو امر لم تكن الولايات المتحدة تقبل به .

لم يكن هناك حل وسط ، فتزاحمت المتغيرات لتسد الممر الضيق الذي يؤدي الى الانفراج .. حتى بدا ان لا حل امام بغداد الا التشدد ، وعدم اعطاء كل شيء مقابل لا شيء ..

ثانياً : اعتمدت القيادة العراقية استراتيجية الدفاع وانتظار الضربة ، وترشحت عناصر هذه الاستراتيجية الى ادق مفاصل مؤسسات المجتمع ، بما فيها المؤسسة العسكرية ، عندما صار على الجميع ان ينتظروا خطوات الطرف المقابل ، ويصمموا على مقاسها نوع رد الفعل ومستواه .

وحلَّ رد الفعل بديلاً عن الفعل ، فالعراق دخل الكويت واستقر فيها ، ولكنه لن يطور خطواته . وكان ذلك يوحي في جانب منه بانه ابقى الابواب مفتوحة خلفه للتراجع . الا ان الذي حصل هو انه لم يظهر مرونة في التراجع . كما لم يظهر اي عزم على المضي الى الأمام ، بل انحسر في زاوية الموقف الدفاعي المستكن ، عسكرياً ونفسياً وسياسياً واعلامياً ، اذ ثمة ضربة يوجهها الاخرون ، وعليه ان ينتظرها ، ثم يتلقاها ويتحمل نتائجها .

وادت هذه الاستراتيجية ، بالتراكم ، الى تسكين ارادة القتال ، وانتزاع روح المبادأة ، وامتصاص شحنة موقف الهجوم ، واحلال القلق من الضربة الاتية ، والتحسب لتحاشي اثارها ، بديلا عن روح الابتكار لابتداع اساليب تلحق الاذى بالاطراف الاخرى .

وترتب على استراتيجية انتظار الضربة ، أنْ افترضت الولايات المتحدة وحلفاؤها ، انها صارت قادرة على تحريك الفعل العراقي ،

وتقدير احتمالاته ، وامتصاص نتائجه ، لانه متأتٍ من رد فعل عن فعل يصنعه الآخرون .

وهكذا ، كانت ثمة ثلاث فرص ضائعة ، فقد فاتت الفرصة على العراق ، لتطوير هجومه عسكرياً والتقدم براً لتجاوز الكويت ، ثم ضاعت الفرصة بالامتناع عن التعرض ضد التحشيد العسكري في حفر الباطن والظهران. وأخيراً ضاعت الفرصة عندما امتنع العراق عن أخذ المبادأة في الحرب البرية قبل أن يبدأها الأميركان

ثالثاً : وترتب على الصراع في الخليج نمو الدعوة التي ترى بأن استخدام القوة هو عمل لا يتقاطع مع الشرعية في العلاقات العربية ، وهو ما كان يعد من قبل خروجاً على الاعراف السائدة في هذه العلاقات ، وظهر من يدافع عن احقية اللجوء الى القوة كاسلوب من بين اساليب اخرى ، لتحقيق مشروع الوحدة بين العرب ، وقد دافع سعدون حمادي احد اعضاء القيادة العراقية ابان الازمة عن هذه الفكرة ، عندما نقلتُ اليه ما كان يتردد عن تحمسه لتطوير دخول الكويت عسكرياً ، بالمضي قدماً ودخول الاراضي السعودية ، بعد ان نزلت فيها القوات الامريكية ، اذ اوضح انه لايجد حرجاً في التصريح بان ايمانه بوحدة العرب يجعله يرى ان استخدام القوة ليس امراً محرَّماً ، اذا لم تتمكن الاساليب الاخرى من بلوغ مشروع توحيد البلدان العربية .

وقال : انني كرجل وحدوي قومي عربي اجد ان الوضع العربي معقد الى درجة كبيرة ، تجعل صاحب المشروع الكبير امام خيارات عدة ، فمن اراد تبسيط الامر قد يعتمد قانوناً رياضياً ، كما فعل بعض منظري الحركة القومية العربية عندما طالبوا بضرورة العمل على تماثل البنى الشعبية تمهيداً لقيام الوحدة ، وهذا تبسيط في وضع شديد التعقيد ، بحيث ان كل الوسائل تصبح محتملة الاستخدام ، بما في ذلك استخدام القوة كاحد هذه الاساليب ، وتبقى عبقرية صانع القرار في اختيار الاسلوب الملائم في الوقت الملائم ، لان الوحدة لا تتحقق باسلوب واحد وطريقة واحدة ، بل

ربما بتشكيل من الوسائل والطرق ، ولذلك لا ينبغي اسقاط عنصر القوة في العمل ، ثم مَنْ قال ان استخدام القوة هو عمل غير شرعي .....؟.... اتمنى قيام الوحدة سلمياً ، او عن طريق الاستفتاء ، ولكن هل ان ذلك ممكن في الوضع العربي .. ؟ لو امكن ذلك فهذا خيار مثالي .

وذهب الى ابعد من ذلك ليجد ان الاسلام استخدم القوة في ظروف حياة معقدة ايضاً . بالرغم من ان دعوته كانت دعوة حق ودعوة سلم . وقد استخدم بعض حركات التغيير الاجتماعي القوة ايضاً على شكل ثورة او انتفاضة ، فهل كانت كل تلك الحركات غير شرعية ؟ .. ولماذا يعترف العرب بشرعية اللجوء الى التغيير بالقوة ، ولا يعترفون بشرعية اللجوء الى القوة لتحقيق وحدة بلدانهم ؟

وانتهى الى الاستنتاج ان من يتصدى لعمل كبير مثل الوحدة عليه ان يدفع ثمنا غاليا ، وسيقبل بما لا يفضله من الخيارات .

لكن الرئيس صدام حسين ، ظل بعد بدء صراع الخليج ووقوع الحرب متمسكاً باعلانه منذ شباط (فبراير) ١٩٨٠ حول عدم جواز استخدام العرب للقوة في فض نزاعاتهم ، مستثنيا من ذلك حالة الكويت التي يُعدُّ استخدام القوة معها اعادة ترتيب لحالة داخلية خاصة لا يوجد مثيل يشابهها مع اي بلد عربي اخر ، وكان قد حذر في خطابه بقمة مجلس التعاون العربي قبل سبعة اشهر من الدخول الى الكويت (شباط ـ فبراير ـ ١٩٩٠) من ان السنوات التالية قد تشهد حروبا عربية ـ عربية ، واقترح ضبط النفس بين العرب والتنبه الى مثل هذا الاحتمال الممكن .

وفي كل الاحوال ، صار مفهوم استخدام القوة بين العرب متداولا ، وصار اللجوء الى القوة امرا مقبولا ، محتملا ، متوقعاً ، ولم يعد من المحرّمات ، وهو ما يبرر اللجوء اليه في المستقبل ، ويفتح الابواب على مصاريعها لنشوب حروب مدفوعة بشحنة الكراهية ونزعة الانتقام . ومقاومة الخوف من الغد الغامض .

رابعاً: أظهرت الطبيعة المعقدة للصراع أن الدبلوماسية العراقية وأداتها الإعلامية في مخاطبة الآخرين والتعامل معهم، قد فشلت في مواجهة طوفان التحدي لعوامل ذاتية كامنة، ولعوامل تتصل بعدم تكافؤ القدرات، وقد تعني نتائج هذا النكوص أن مراجعة شاملة للجهاز العراقي الخارجي باتت أكثر من ملحة، إذا أراد العراق أن يجدد ذاته، ويعيد بناء صورته، ويمهد لعودته ثانية إلى المجتمع الدولي.

وعلى مدى ربع قرن، إتسمت الدبلوماسية العراقية بظاهرتين: الأولى الولع المبالغ فيه بالمعلوماتية، والثانية الانكفاء وضعف الأداء، وانحسار المؤهلات الفردية للغالبية من العاملين في هذا الجهاز. وكانت النتيجة أن ظهرت الدبلوماسية العراقية دفاعية منطوية لا هجومية اقتحامية في أدائها العام خلال أزمة الخليج.

ويعود الاهتمام بالمعلوماتية إلى هاجس الشك والشعور بالخطر وكثرة المنافسين، وتحاكي المدرسة العراقية في جمع المعلومات التقاليد البريطانية في التوثيق وحصد المعلومات، لكن المشكلة كانت تبرز عندما تتوافر كميات هائلة من المعلومات بدون فرز أو تحليل، وبدون انتقاء، فتفقد أهميتها بالتقادم، ثم يصعب استدعاؤها ثانية، بعد أن يكون متعذراً أيضاً برمجتها حسب أولويات أهميتها والحاجة إليها، ويصير الحاصل عندئذٍ عملاً أرشيفياً ضخماً لا يتمتع بقيمة سياسية في توفير مادة سريعة فعّالة لصانع القرار، الذي قد لا يعود في أغلب الأحيان إلى الخزين المعلوماتي المتضخم سنة بعد أخرى، ويتبين أن كثرة المعلومات تؤدي إلى التعمية والتباطؤ في صنع القرار، بل التأخر أكثر من اللازم في اتخاذ القرار المناسب في لحظته المناسبة، عندما تظل شهوة السياسيين هي انتظار مزيد من معلومات مضافة، فتتلاطم عبر مصادرها المتناقضة، وتزيد الارباك. ناهيك عن أن الجزء الأكبر من فعالية جمع المعلومات كانت مكرسة للاهتمامات المحلية،

والتعامل مع التيارات المخالفة للنموذج العراقي، فأشغلت أكثر من نصف قدراتها بعيداً عن الاهتمام الأول في التعامل مع المتغيرات الدولية والتهيؤ لاستيعابها وملاقاتها ببدائل عملية في توقيتها الصحيح.

أما ظاهرة ضعف الأداء فهي ناتج من نتائج الاتكال على مبدأ «الولاء» على حساب «الأداء»، إذْ أتيحت الفرص الكبيرة للأشخاص الذين تظاهروا بأنهم ذوو أحقية أكثر من سواهم في تبني النموذج العراقي وتقديمه للعالم، فضلاً عن ما يترتب على ذلك من أحقية في التمتع بامتيازات العمل خارج البلاد في الظروف الصعبة التي مرت على العراق. وقد لا تقدم الدبلوماسية العراقية تفسيراً كاملاً للضعف الذي اتسم به أداء مراكزها في نقاط الصراع الأشد حساسية عشية انفجار الأزمة وخلالها، ومثال ذلك الكويت نفسها حيث انحسر الأداء الدبلوماسي إلى أدنى مستوياته، وظهر ذلك بيّناً في عدم بناء شبكة سياسية محلية مستعدة لملء الفراغ الدستوري بعد خروج عائلة آل صباح من الكويت، ويقابل هذا الانحسار مثل آخر للانكفاء والعزلة ظهرت عليه الدبلوماسية العراقية في بريطانيا عشية الأزمة وفي أيامها الأول عندما بدا رئيس الطاقم العراقي في لندن من أضعف من اشتغل في مثل هذا الموقع منذ استقلال العراق قبل سبعين سنة من أزمة الخليج.. ناهيك عن عشرات من الأمثلة الأخرى المتناثرة في أنحاء العالم.

يلحق بذلك فشل جدي في الخطاب الإعلامي العراقي خلال الأزمة، وبخاصة في قنواته الموجهة إلى العالم التي كان عجزها وضعفها مدخلاً لاختناق مسار الاتصال بين بغداد والآخرين، وترك الساحات خالية مكشوفة للطرف الآخر الذي جنى كثيراً من النتائج دون أن يبذل جهداً كبيراً في الوصول إليها.

وقد تثير هذه الظاهرة تساؤلا أكبر حول مبرر عدم تأهيل الخطابين الدبلوماسي والإعلامي ما دام العراق قد استشعر مبكراً أنه مقبل على خوض معركة كبرى، بالحجم الذي وقع أو أصغر منه..

خامساً: : عادت ظاهرة الشارع السياسي في الحياة العربية العامة اول مرة ، بعد انحسار مدة ربع قرن ، منذ انكفاء دور الظاهرة الشعبيـة بعد حـرب حزيـران (يونيـو) ١٩٦٧ ، وخرجت الى الشوارع في عواصم عربية تظاهرات يزيد عدد المشاركين فيها على مليوني شخص ، كما حصل في الخرطوم ، او انها بلغت اكثر من نصف مليـون كمـا حصل في اليمن والمغرب وليبيا والجزائر أو اتخذت شكل موجات بشرية من عشرات الألوف كما تكررت كل يوم في الأردن، وفلسـطين المحتلة، ورافق الطوفـان الجماعـــي في الشوارع والساحات العامة، عمل سياسي شعبي واسع اشتركت فيه الأحزاب والنقابات، وبرزت أدوار لقادة الرأي العام والمفكرين والصحفيين والدعاة الاجتماعيين في شحن هذه الموجات البشرية التي نزلت إلى الشوارع، للتعبير عن التضامن مع العراق، والدعوة لمقاومة الوجود العسكري الأمريكي في السعودية والخليج.

وقد عَوَّل العراق على المساندة الشعبية التي تمتع بها في معظم البلدان العربية ، وانتظر ان تتبلور تلك المساندة لتصبح قوة ضغط مؤثرة في توجيه المواقف الرسمية للحكـومات العـربية ، وتقييـد اندفاع الحكومات التي اتخذت مواقف متشددة ضد العراق .

لكن الذي حصل ، هو ان تلك الموجات انحسرت تدريجيا ، وانْ ظلَّ منظموها ودعاتها على مواقفهم في تأييد العراق .. ويعود ذلك الانحسار الى ان الشحنة العاطفية التي تغلبت على الشارع العربي كانت متأتية من خليط من التمني بالحصول على نصر جاهز يحققه العراق من جهة ، والتعويض عن فشل سنوات طويلة من الصراع مع اسرائيل والغرب من جهـة اخرى ، ولذلك كـانت الضربـات الصاروخية العراقية لاسرائيل من اشد تحولات الصراع تحريكا للوجدان العربي . اذ وجد العرب ، أول مرة ، انه صـار ممكناً تحويل الاقوال التي طالما نادى بها العراق الى افعال ، وصار ممكناً ضرب اسرائيل في العمق بعد ان ظلت في مأمن من تلقي رد فعل على

عملياتها في العمق العربي .

وكانت الظاهرة الشعبية العربية اكبر من قدرات العراق على تنظيمها وادامتها ، بعد ان كانت قد تحركت بدوافعها الذاتية اولا ، وعندما اراد العراقيون استيعابها لم تكن لديهم قدرة كافية على احتوائها ودفعها لتصب في المسارات التي تخدم موقف العراق في الحلقات الاكثر تعقيداً من الصراع .

وكان هناك من يرى أن الظاهرة الشعبية، هي ظاهرة هلامية ما دامت لا تصدر عن جهاز منظم مسبقاً ولذلك فأنها تتحرك بدافعية مشاعر التكتل والتضامن العاطفي ، ثم لا تلبث ان تتبعثر لانها لا تجد في طريق العودة الى الخلف من يقطع عليها طريق التراجع او الانحسار ، ويحوّل شحنتها العاطفية الى فعاليات منظمة طويلة النفس .

سادساً: ثمة مفتاح ،كان يفض ابواب الحرب والسلام معاً .. هو النفط . الذي حرّك عناصر تفجر الصراع على الخليج . وسيحدد مستقبل العلاقات السياسية الاقليمية والدولية في هذا الجزء من الارض . الذي يطفو فوق بحيرة نفط تضمن للعالم الحصول على مصادر الطاقة لنصف قرن مقبل . فنفوط السعودية والعراق والكويت هي التي تؤمّن انسيابية تدفق النفط ، واذا انحسر اي من مصادرها او غاب عن السوق العالمية فان التعويض عنه على مدى طويل من الزمن . هو أمر في غاية الصعوبة والتعقيد . ولذلك فان ضمان استقرار هذه المصادر هو احد ثوابت تعامل الولايات المتحدة مع المنطقة ، وقد بدا بعد انتهاء الحرب ان الولايات المتحدة تمكنت من السيطرة على نفوط السعودية ودول الخليج العربية الاخرى ، وكل من مصر وسوريا واليمن التي سيطرت شركات الاستكشاف الغربية على حقولها الصغيرة حديثة العهد ، وظل نفط العراق الوحيد الخارج على الطوع الغربي ، وادركت اوربا ان امريكا وليس الغرب كله هو الذي يهيمن على نفوط المنطقة ، لتنهي بذلك عصر الهيمنة البريطانية العريقة وتقطع

الطريق امام النفوذ الفرنسي المتسلل .

والتقط الفرنسيون في الوقت المناسب اشارة من العراق بُعيد شهر مايس (آيار) ١٩٩١ . ولم يكن شهران قد مرا بعد على وقف اطلاق النار . حين فهموا ان العراق فضل ان يختار فرنسا وليس اليابان لمنحها فرصة الحصول على جزء من برنامج الاستخراج الواسع للنفط الذي لم يتوقف برغم كل ما لحق بالصناعة النفطية العراقية فقد اوعز الرئيس صدام حسين الى وزير النفط اسامة عبد الرزاق الهيتي ومساعديه ان يعطوا الافضلية للشركات الفرنسية لا للشركات اليابانية في اطار برنامج عراقي يطمح الى بلوغ امكانية استخراج ستة ملايين وربع المليون برميل يومياً وهو امر يفرض استثمارات مالية هائلة لم يعد بمقدور العراق ان يتحملها وحده ، واوصى الرئيس صدام حسين وزيره ومساعديه بان هذا لا يعني في كل الاحوال العودة الى عصر الامتيازات التي كانت تتمتع بها شركات غربية في المنطقة .. اذ لا عودة مطلقاً وفي كل الظروف الى ذلك العهد . وادرك الوزير الشاب الذي بدأ حياته مهندس نفط نشطاً انّ فتح نافذة امام الفرنسيين هو عمل ذو اهداف مركبة ، فالحقول موضوع التفاوض تقع في جزيرة مجنون ضمن هور الحويزة الملاصق للحدود مع ايران . وهي الحقول التي كانت قد غدت رهينة في ظروف الحرب .

لذلك فان القبول بمبدأ اسهام شركتي ELF, TOTOL الفرنسيتين في استخراج نفوط هذه الحقول حمل في جانب منه مسعى سياسياً لربط مصالح دولة كبرى بهذا الجزء من الخط الحدودي بين العراق وايران .

اما الهدف الثاني فكان افهام الفرنسيين ان فرصتهم في المنطقة لا تزال قائمة اذا ارادوا ان يمسكوا بما قدمه العراقيون على انه « الفرصة الاخيرة » في اللحظة القلقة التي اظهرت فيها الشركات الامريكية نزوعاً لا حدود له للسيطرة على مصادر الطاقة في الدول المستقلة عن بقايا الاتحاد السوفيتي بعد سيطرتها على نفوط

السعودية والخليج ، ولم يعد هناك بين المجالين الجغرافيين الا نفط العراق مما يُمكن التعامل معه من قبل الشركات غير الامريكية .

لكن المثير ان شركة MOBIL الامريكية كانت على تماس مباشر مع الشركتين الفرنسيتين اللتين تفاوضان العراق ، وهي تراقب من بعيد . ومن خلف الستائر ..

ولا يستطيع احد انكار التداخل في المصالح بين الشركات الدولية السبع التي تدير فعالية استثمار النفط وتسويقه وتحويله ، لذلك فان تفاوض شركتي ELF, TOTAL الفرنسيتين مع العراق وحدهما ، لا ينفي ان شركة SHELL الهولندية مثلا هي على صلة ومعرفة بما يدور بين الشركتين الفرنسيتين وبغداد . في حين ظل موقف شركة BP البريطانية موضع شك ورصد من جانب بغداد فالعراق وبريطانيا ليسا في موقف قابل لأي مستوى من التصالح التدريجي وليسا في الموقف الذي يمكن لأي منهما ان يطلق فيه اشارة على انفراج ممكن في العلاقات ، ولذلك فان التداخل في مصالح الشركات الاوربية لم يفتح جزءاً من الباب المقفل امام شركة BP وهو أمر قد يستمر زمناً طويلاً .. بحيث تجد بريطانيا نفسها اكبر الخاسرين في الصراع على نفط الخليج والعراق ، بعد سيطرة الشركات الامريكية على نفوط بقية بلدان الخليج .

وربما ابتدعت بريطانيا فكرة السيطرة على اجواء جنوب العراق تحت خط العرض ٣٢° حتى تجد لنفسها آخر فرصة للسيطرة على النفط الخام في هذه المنطقة حين صار لاحقاً الى تبني مشروع لتسويق نفط جنوب العراق في اطار القرارين ٧٠٦ و٧١٢ الصادرين عن مجلس الامن حول السماح للعراق ببيع جزئي لنفطه او خارج اطار هذين القرارين .

لذلك فان صراعاً غربياً ـ غربياً لابد سيقع على مستقبل نفط العراق خاصة بعد انحسار فرصة اليابانيين والالمان في مثل هذا الصراع .

فقد خرج المفاوضون العراقيون من محادثاتهم الاولية مع

شركة Japan Oil Company بقناعة عن عدم استعداد اليابانيين للمغامرة ، والخوض في صراع اقتصادي ذي بعد سياسي دولي عدا عن ضعف التكنولوجيا اليابانية في هذا المجال وعدم قدرتها على الاستجابة لمتطلبات عملية الاستكشاف والاستخراج والاستثمار لحقول نفط جزيرة مجنون ، اما الالمان فقد أُستبعدوا اصلا من فكرة اشراكهم في مثل هذا المشروع لانهم غير معنيين بالاستثمار النفطي من جهة ، ولا يتمتعون بكتنولوجيا مؤهلة لذلك .

ولم يعد غير المتنازعين ـ الشركاء ـ التقليديين الثلاثة ، فرنسا وبريطانيا وامريكا يتضامنون في مواجهة المنتج ويتنازعون على الاستفراد بالامتياز .

اما نفط العراق فليس بالحجم الذي يمكن تجاهله زمناً طويلاً اذ ان اية ازمة نفطية في العالم ستطرح جدياً الحاجة الى هذا النفط الذي صار بالامكان بعد سنة ونصف على وقف اطلاق النار ، تصدير ٢٫٥ مليون برميل يومياً عبر منفذيه في الخليج وتركيا ، ناهيك عن ان غياب نفط العراق هو انحراف يؤذي الاقتصادات الدولية ، في الوقت الذي يؤذي اقتصاد العراق ايضاً للاعتبارات الآتية :

ان الاحتياطات النفطية في العراق ذات عمر طويل يبلغ ٤٠ سنة ، وهي احتياطات مأمونة ومضمونة .

ان العراق لم يكن يخزّن ايراداته يوم كان يبيع النفط الى الدول ، بل كان يصرفها على اغراض التنمية والتسليح ، وهو اتجاه انعكس ايجابياً على اقتصادات الدول الاخرى وصناعاتها ، وستظل هذه الدول في حاجة الى عودة العراق لصرف ايراداته من النفط لاغراض التنمية واعادة البناء .

ان اية ازمة ترتب نقصاً في ضخ النفط لن يعوِّضه بلد الا ذو انتاج كبير بحجم انتاج العراق ، لاسيما ان روسيا التي لوَّحت بامكانية التعويض ، تواجه مشاكل جدية تعطلها عن الايفاء بالتزاماتها في التصدير الى الدول الاوربية بسبب معضلات تقنية

ووجود حاجة محلية متزايدة الى النفـط ، اما السعـودية ، التي تدخلت للتعويض عن غياب النفط العراقي في السوق العالمية ، فانها لجأت الى الحدود القصوى من قدرتها على الانتاج الى الحد الذي ستكون عاجزة فيه عن سد اي نقص مفاجيء في السوق العالمية بعد ان بلغت اعلى السقوف الممكنة في الانتاج ، ويُظهر ذلك ان الاتكال على دولة واحدة كمصدر لاستقرار وضع السوق العالمية هو عمل مفتعل ، لايمكن ان يستمر طويلاً في كل الاحوال .

فضلا عن ان غياب النفط العراقي ألحق اذى باقتصادات الدول المجاورة بعد خسارتها لايـرادات مرور هـذا النفط ، وبخـاصة تركيا ، التي يمتد عبرها خط انبوب النفط الى منفذين على البحر ، ولذلك فان الصراع على منافذ نفط العراق يمكن ان ينفجر في اي وقت ، مع بقاء الفرصة قائمة لمد انبوب الى خليج العقبة ، كانت شركة (بكتال Bechtel) الامريكية قد تباحثت قبل ثماني سنوات لتنفيذه ، ولكنها لم تحصل عليه بسبب عدم توفير ضمانات كافية حول عدم تعرضه لعملية اسرائيلية في اي وقت ،اما الخط المار عبر سوريا فلم تعد هناك اية فرصة لاعادة تشغيله بعد رفع اجزاء كبيرة منه وتحويلها للاستخدامـات المحلية في سـوريا ، نـاهيك عن ان محطات التحويل والضخ لم تعد صالحة للعمل بعـد استنفادهـا عمرها التشغيلي ، وتوقف استخدام الخط لمدة عشر سنوات .

اما انبوب النفط العابر الى حيفا ، فقد تهالك تماما ، ولم يكن بالامكان تحـويله لاغراض نقـل المياه الى الصحـراء الغربيـة في العراق ، لكن الاسرائيليين مازالوا يحلمون ، حتى اليوم ، بان هذا الانبوب قد يكون رمزاً لاكبر صفقة تطبيع مع العرب ، بهدف ربط المصالح ، واجراء مداخلة بين الاقتصادات العربية والاسرائيلية ، وهو امر لايبدو ان بالامكان تحويله الى واقع .. اذْ سيبقى مجرد حلم اسرائيلي معقد ، وبعيد .

ويستمر الامريكان في رصد الايقاع الخافت للاتصالات العراقية مع الفرنسيين ، فلا احد ينكر أن نفط العراق ، هو مفتاح للضبط

والتحكم ، وليس بمقدور الامريكان تجاهل غيابه مدة طويلة في الزمن ، وقد اظهرت الشركات الامريكية في لحظة قرع طبول الحرب استعدادها للتدخل لنزع فتيل الانفجار واقامة نقطة تماس مستقرة مع نفط العراق ، عندما توجه وفد شركة Coastal النفطية الساحلية برفقة جون كونالي وزير الخزانة الاسبق ، لاستكشاف امكانية الحصول على قرار عراقي باعطاء الافضلية من جهة ، وضمان عدم ارتفاع اسعار النفط بما يتجاوز الحد الذي رسمته الولايات المتحدة ، وكان من الصعب ان يعود الوفد ، الذي زار بغداد في الاسبوع الاول من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٩٠ ، وهو يحمل معه تعهدا بقبول طلباته لان توقيت التفاوض واسلوبه الاشتراطي كانا يُقيِّدان فرصة النجاح الى اضيق الحدود .

لقد كان النفط احد عناصر انهيار العلاقات العراقية ـ الامريكية ، ولكنه قد يصبح أحد أهم عناصر اعادة إحياء هذه العلاقات ولابد أنَّ النفط وضمان استقرار محيطه الاقليمي وتدفقه وأسعاره ، يمكن ان يكون مدخلاً لصفقة دولية كبرى ، تعود بموجبها الكويت الى الولاية العراقية ، وهذا ماسيظل العراق يسعى اليه على الدوام ، بعد استنفاد الفائض المالي في الكويت ، واكمال التحكم بمستقبل نفطها ... وهذا افتراض ليس مستحيلاً .. انه اكثر من ممكن . في المدى المتوسط من الزمن ...

سابعاً: كرَّس الصراع في الخليج دور بريطانيا في تشكيل التحالف الذي قادته الولايات المتحدة . في مفارقة تاريخية نادرة ، فقد تمكنت لندن من تحريك العمل السياسي وتنشيط الحشد العسكري ولكنها تركت دور القيادة لسواها ، في اعتراف واقعي بعدم القدرة على استعادة الدور العالمي لبريطانيا بعد قرن من الانحسار .

وكانت لدى لندن اسباب عميقة في التحريض ضد العراق تعود في جذورها الى خروج عراقي على بيت الطاعة بعد انهاء النفوذ البريطاني على نفط العراق سنة ١٩٧٢ ، وما رافق تلك المعركة

وتلاها من انعدام ثقة متبادل ، بلغ ذروته سنة ١٩٩٠ عندما انطلقت الشرارات الأُوَل للازمة من لندن ، عبر قضية الصحفي ايراني الاصل بريطاني الجنسية فرزاد بازوفت الذي أُدين بالتجسس في العراق لصالح المخابرات البريطانية والاسرائيلية ، ولم تنفع محاولات انقاذه في اللحظة الأخيرة ، بعد ان تجاهل العراق نداءات ملكة بريطانيا وحكومتها ومضى لتنفيذ حكم الاعدام فيه ، في حين كانت أول شرارة ضد برنامج الصناعة الحربية في العراق قد انطلقت من لندن ايضاً ، عندما أُثيرت قضية (المدفع العملاق) ، وقادت بريطانيا حملة دولية لمتابعة مشروع صناعته .

وأشعَر هذان الأمران بغداد بان البريطانيين فتحوا مواجهة مزدوجة ضد العراق ، الأولى معركة أمنية إعتبارية من خلال التجسس ، والثانية معركة لتعطيل البرنامج الصناعي الطموح الذي بنى العراق آمال المستقبل عليه .

ولم يكن موقف بريطانيا خلال الحرب العراقية ـ الايرانية موضع ارتياح بغداد ، إذْ على الرغم من سوء العلاقات بين لندن وطهران ، الا ان شبكة اتصالات سرية بين العاصمتين كانت قد تشكّلت في وقت مبكر لتصبح بريطانيا أحد مصادر توريد السلاح والمعلومات الى إيران ، ومركزاً للحرب النفسية ضد العراق ، وقامت بريطانيا بأول محاولة سرية عندما زار القس «تيري ويت» ايران سنة ١٩٨١ ، وعقد صفقة لتجهيز القوات الايرانية بقطع غيارٍ دبابات تشفتن بريطانية الصنع مقابل اطلاق سراح بعض المبشرين البريطانيين المحتجزين في طهران ، ثم تلت ذلك عمليات منظمة لتقييد تفوق العراق العلمي والاقتصادي على ايران .

ويشعر البريطانيون ان الرئيس صدام حسين هو أشد قادة العراق ، في تاريخه المعاصر ، تحسساً من بريطانيا ، وشكاً في نياتها مع بلاده ، وانه حرَص طوال سنوات توليه السلطة على عدم زيارة لندن ، حتى انه في المرة الوحيدة التي نزلت فيها طائرته للتزود بالوقود ، في طريق العودة من هافانا الى بغداد ، أسدل

الستار على نافذة الطائرة في مطار « هيثرو » ، لعدم رغبته في ان ترى عيناه اي مكان من العاصمة البريطانية ، وكان معظم السياسيين البريطانيين الذين قابلهم وتعامل معهم . هم ممن غادر موقعه الحكومي ، او لم يكن له موقع اصلاً ، ومن ابرز الشخصيات البريطانية التي اجتمع اليها ، واستمع منها ، كان السيد جورج براون ، بعد ان خرج من الحكومة في الفترة منذ اواخر السبعينات حتى أوائل الثمانينات ، وقابل خلال أزمة الخليج السيد ادوارد هيث رئيس الوزراء الاسبق ، والسيد انتوني بن أحد نواب حزب العمال .

وكانت بغداد ، حتى قبل انفجار الصراع على الخليج ، ترى ان بريطانيا معنية من الناحيتين القانونية والاخلاقية بمشاكل المنطقة ، بعد ان خلّفت وراءها مشاكل الحدود بين دول المنطقة ، وزرعت بذور صراعات محتملة ، وصمَمت الشكل المعاصر لدول المنطقة على اساس حرمان كل بلد عربي من أحد أهم عناصر قوته ، فحيث توجد الكثافة البشرية تغيب الموارد الاقتصادية ، وحين تتوافر الموارد في بلد منها يُحرم من ميزة الموقع الجيو ـ سياسي الحيوي بما في ذلك حرمانه من الانفتاح على البحر ، وعندما تغيب مقومات الدولة في بلد آخر تتوافر الموارد التي تظل في حاجة دائمة للحماية الخارجية ، وهي تقسيمات مضطربة أدت الى اختلال في توزيع الثروة وعناصر القوة ، وخلق فجوات بين دول المنطقة ، هي مصدر دائم لعدم الاستقرار والتنازع وانعدام الثقة .

وترى القيادة العراقية ان امريكا رغم قوتها وغناها لم تستطع حتى الآن أن تثبت مقدرة قيادية ، كما اظهرت بريطانيا من مقدرة قيادية عالمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وان الدبلوماسية البريطانية مازالت هي التي توجه الدبلوماسية الامريكية .

وتشعر بغداد ان حكومة المحافظين ورئيستها مارغريت تاتشر لعبت دوراً حاسماً في دفع الرئيس الامريكي جورج بوش الى الخيار

العسكري ضد العراق ، وان اجتماع (كولورادو) في الثالث من آب (اغسطس) ١٩٩٠ ، بين بـوش وتاتشر قـرر في الساعـات الأربع والعشرين الأُول المضي حتى النهاية لسحق العراق ، وعدم الاكتفاء بانسحاب قواته من الكويت ، وقـطع الطريق على الحـل السياسي ، ورفض أي بديل وسط ، وان تاتشر خلقت قناعة لدى الرئيس الامريكي بانه مخدوع من جـانب العراق ، وان لا لغـة للتعامل مع بغداد غير استخدام القوة بحدودها القصوى ، وان فكرة تشكيل تحالف عسكري وسياسي دولي ضد العراق قد انطلقت من اجتمـاع (كولورادو) ، الى الحـد الذي رأت فيـه رئيسـة الحكومة البريطانية ان ضرب العـراق وتدمـير جيشه وصنـاعته العسكرية وبنيته التحتية لا يحتاج الى غطاء من مجلس الامن ، وان بالامكان اللجوء الى العمل الفوري دون انتظار التحاق الجميع بهذا الخيار .

وعندما وقعت الحرب ، كانت بـريطانيـا هي مصدر التهـديد باستخدام الاسلحة النووية ضد العـراق ، سواء بـالاعلان عن ارسال غواصات نووية الى الخليج ، ام في تمرير تهديدات مباشرة الى بغداد حول ابقاء الباب مفتوحاً امام هذا الخيار .

وبعد انتهاء الحرب ، عادت بـريطانيـا تتبنى مشروع تقسيم العراق على اساس مذهبي وعِرقي لتسحب معها الولايات المتحدة الى ما هو جديد على خياراتها المعلنة السابقة في المنطقة .

لكن بريطانيـا في ذلك كله ، لم تكن مدفـوعة لتصفيـة ثأرات متراكمة مع العراق ، وحسب ، ولكنها ايضاً وجدت نفسها اكثر تخصصاً وصلة في منطقة حيوية تفلت منها السيطرة عليها لتؤول الى الولايات المتحدة ، فاختارت المشاركة ، لتحافظ على ما تبقى من نفوذ ، وتبني عليه لاستعادة ما تبقى من دور في المنطقة كانت هي التي تصنع مصائر بلدانها قبل أقل من قرن فقط ، ولتغلق الباب امام المنافسين الاوربيين الاخرين ، سواء اختاروا المشاركـة مع الولايات المتحدة، أم الافتراق عنها ، خاصة فرنسا التي كانت تملك

القدرة على اللجوء الى خيار التفرد عن الولايات المتحدة ، .. وكذلك المانيا ، التي كانت في تلك اللحظة من التاريخ تستعيد وحدتها ، وقد تستعيد معها اهتمامها بالشرق ، الذي كانت سباقة الى تأسيس صلات معه ، امتدت بمحاذاة خط سكك حديد بغداد ـ برلين ، وبعمق ما اكتشفت من آثار حضارة المنطقة وتاريخها عندما سبقت سواها في اكتشاف المشرق العربي ، عبر المستشرقين والآثاريين والرحّالة ، الذين كانت خطواتهم كشافة استطلاع تسبق قدوم الجنود دائماً .. وبدا ان المانيا يمكن ان تُنشّط صلاتها القديمة التي اندثرت خلف احداث الحرب العالمية الثانية .

أما بغداد فانها ترى ان اعادة بناء تفاهم مع الولايات المتحدة التي قادت التحالف ضدها اكثر امكانية على التحقق من بنائه مع بريطانيا التي كانت تدير حرباً خفية ضد بغداد هي أشد ايلاماً وأذى من اية حرب سواها .

ثامناً: كان من المتوقع ، والمفترض ، ان تقع عمليات واسعة ضد المصالح الامريكية في الوطن العربي والعالم ، عند بدء الحرب . تقوم بها منظمات وتجمعات كانت قد هددت انها ستقوم بها حال الشروع بالهجوم على العراق ، لكن الذي حصل ، هو ان هذه العمليات جاءت متبعثرة ومتناثرة ومحدودة النتائج ، اذ لم تتمكن عناصر انتدبت نفسها لعمليات من هذا النوع من الوصول الى اهدافها في البلدان العربية ، بسبب القيود التي وضعتها السلطات الامنية فيها واعتذار بعضها عن استقبال زوار كانوا محط شك بانهم ينوون القيام بمثل هذه العمليات ، في الوقت الذي نجحت مجموعات فدائية في الوصول الى اهدافها داخل العمق السعودي، لتضرب في مناطق حفر الباطن وحول الظهران، وفي الطرق المؤدية إلى كل منهما ،ثم تنسحب بعد حصولها على دعم من مجموعات محلية قدمت التغطية والخدمات وقامت بدور الدليل للطرق والاماكن التي مرت فيها المجموعات القتالية ، ووفر المؤيدون المحليون ايضاً اوكار التجمع ، والانتظار ، واماكن

التخفي عند الانسحاب .

اما في عواصم العالم ، فقد قامت مجموعات غير عربية بمهاجمة اهداف امريكية في تركيا والفلبين واليونان وبيرو ، في الوقت الذي غابت الاعمال الكبرى التي كان متوقعا ، ومنتظراً ومفترضا ، ان تتولاها المجموعات العربية التي وعدت بها قبل بدء الحرب .

وقد شاع تفسيران لعدم وقوع عمليات التعرض ضد المصالح الامريكية في الوطن العربي والعالم :

الأول : أن مستوى الاجراءات الأمنيـة التي أتخذت في دول اوربا والولايات المتحدة والدول الاخرى كانت من الدقة والصرامة بحيث قلّصت من امكانات القيام بمثل هذه العمليات ، خاصة بعد تقييد سفر حملة بعض الجـوازات المشكوك بهـا ، وحجز بعض الرعايا العرب في بلدان اوربية ، ومراقبة بعضهم الآخر .

الثـاني : أن بعض الاوساط أعـطت وعداً لاطراف ثـالثة من جهة ، وللادارة الامريكية من جهة اخرى حول عدم تسهيل وقوع اية عمليات مقابل الوعد بالاستجابة للمطالبة في مشاركة الجانب الفلسطيني في اي جهد لاقامة سلام في الشرق الاوسط .

وبذلك انتفى دور هذا العامل التكميلي في الصراع ، الذي كان يُراد منه اظهار مستوى حاد من الرفض والاحتجاج ضد الهجوم على العراق ، وهو الأمر الذي يرتب ، مستقبلاً اعادة النظر في مدى حيوية اللجوء الى مثل هذا الاسلوب في العمل التصادمي خاصة مع وجود قناعة في بغداد نفسها ، ان هذا الاسلوب يأتي بنتائج عكسية ويحرِّض الرأي العام ضد قضايـا تبحث عن مؤيـدين ومتفهمين ومتضامنين في انحاء العالم .

تاسعاً: انتجت عمليـات القصف المتتـاليـة للجسـور وعُقـد المواصلات وشبكات الهاتف المدنية قناعة مـؤداها ان الولايـات المتحدة غير معنية بالنـزول على الارض . لاحتـلال مدن كبـرى والسيطرة عليها ، إذ أن مَنْ يريد الدخول الى المدن يحافظ عـلى شبكات الطرق المُوصلة الى اعماقها بدلاً من تدميـرها ، وكـانت

بريطانيا اتخذت موقفاً مغايراً تماماً لهذا الموقف في التعامل مع العراق قبل نصف قرن ، عندما قامت طائراتها ابان ثورة مايس (مايو) ١٩٤١ بقصف معسكر الوشاش ومخازن العتاد في الرستمية والقاعدة الجوية في معسكر الرشيد ، وتحاشت مهاجمة الطرق والجسور ، لان البريطانيين أرادوا الاحتفاظ بموضع قدم ، والعبور على هذه المسالك لتأسيس نفوذ فوق الارض ..

اما عمليات القصف الجوي كما ظهرت في الاداء الامريكي خلال حرب الخليج ، فقد اتخذت طابع التدمير والانتقام من جهة ، والاستعراض من جهة أخرى ، وابتعدت عن خيار النزول على الأرض ودخول المدن . حيث كانت القيادة العراقية تنتظر خوض معارك شوارع من حافات المدن حتى اعماقها .

وتتغلب على العقل العراقي عقيدة عسكرية تؤمن باعطاء الاولوية لسلاح المشاة على صنوف الحرب الاخرى ، لان الجنود العابرين فوق الارض ، هم وحدهم الذين يمسكون بتلابيبها ويحسمون اي صراع عسكري مهما بلغ تفوق الخصم في اسلحة الحرب الحديثة الاخرى ، وذهب الرئيس صدام حسين الى القول (في شباط ـ فبراير ـ ١٩٩١ خلال حديثه مع بريماكوف) ان القيادة العراقية تتوقع ان يلحق الدمار بجميع الطائرات والدبابات ، وقد إستعدت لخوض قتال بالاسلحة الخفيفة والمتوسطة ، على غرار حروب التحرير الشعبية .

وأُتخذت بالفعل استعدادات واسعة في بغداد والمدن الرئيسة للتدريب على مقاومة عمليات انزال المظليين ، وشُكلت فرق خاصة بمعالجة الهابطين ، وجرى توزيع السلاح على المدنيين المكلفين بحراسة اسطح البنايات وعُقد المواصلات والساحات العامة ، الذين ظلوا اثنين واربعين يوماً من القصف في انتظار حصول عمليات انزال فوق رؤوسهم ، لكن الامريكان كانوا قد تخلوا عن هذا الخيار من الناحية العملية ، متحاشين الخوض في معارك مكلفة غير مأمونة النتائج ، اذ لا احد يعرف مصير جنود اي جنود اذا

دخلوا مدينة مدججة بالسلاح ، مثل مدن العراق .. وقد كـرّس الاداء الامريكي القناعة لدى العراقيين بأن هدف الحلفاء هو تدمير بلادهم واعادتها الى القرن الماضي عبر القصف من بعيـد ، وان الهجوم في هذه الحالة موجَّه الى الشعب كله .. والبلاد كلها .

عاشراً: اظهـر الصراع عـلى الخليج ، ان العـرب ، ومنهم العراقيون ، كانوا يجرون في علاقاتهم مع فـرنسا ، خلف الوهم الديغولي عندمـا افترضـوا أن مواقف الرئيس الاسبق الجنـرال ديغول من القضايا العربية ، وتشدده ازاء اسرائيل ستظل قاعدة للسياسة الخارجية الفرنسية ، وان اي ابتعاد عنها لابد سيكون جزئياً او مؤقتاً ولذلك اظهر العراق مرونة خاصة في التعامل مع فرنسا التي قامت بينه وبينها علاقـات تعاون عسكـري وسياسي واقتصادي واسعة على مدى عشرين سنة ، الا ان التطور السريع للاحـداث ، اظهر ان فـرنسا اختـارت طريقاً اقـرب الى الموقف الامريكي سواء كانت مضطرة للامساك بفرصتها في الحصول على دور في النظام العالمي الجديد ، اوانها ارادت ان تعيد دورها القديم في اخضاع العرب بدلاً من التعامل معهم على اساس متكافىء كما تمنى العرب انفسهم طبقاً لتعلقهم بالوهم الديغولي الذي بـدا في حرب الخليج بانه كان استثناءً بعد ان عادت فـرنسا للتصـرف كطرف من صناع اتفاقية (سايكس ـ بيكو) التي تقاسمت النفوذ البريطاني ـ الفرنسي في البلدان العربية ، وعادت بعد اقل من قرن لتتصـرف بطريقـة اقرب مـا تكون الى سيـاسة اقتسـام النفوذ والاخضاع الجبري للعرب واثارة المشاكل الطائفية والعِرقية ، ولم تعد فرنسا بالنسبة للعراق نقيض بريطانيا بل صـارت جزءاً من سياسة غربية عامة نحو العراق ، يزداد تحسس بغداد ازاءهـا بسبب ما عدّته صداقة كانت قد قامت مع باريس ، ثم انهارت دفعة واحدة .

وترتب على صراع الخليج ، ان صورة فرنسا كحليف وصديق ممكن للعرب ، قد تـراجعت في المشرق العـربي وشمال افـريقيا

وعادت صورتها القديمة التي لم يُزح السراب الديغولي غير قشرتها الخارجية .. وحسب ..

وبرغم ان العراق تمكن في عقدين من التاريخ من التأثـير على مراكز الاستقطاب السياسي الفرنسي ، الا ان نتائج تلك المساعي لم تَحُلْ دون تدخل فرنسا في الشؤون الداخلية للعراق والاصطدام به .

وقد يكون عُرف مبكراً ان بغداد ساعدت جاك شيـراك رئيس الوزراء الاسبق في معاركه الانتخابية ، الا ان الاشتراكيين الذين يواصلون حكم فرنسا ، سيجدون ان من مصلحتهم اخفاء حجم ونوع المساعدات التي تلقوها من العراق ، بمن فيهم شخصيات شاركت في صياغة قرار المشـاركة في حـرب الخليج . ويبـدو ان العراقيين اعـطوا انفسهم ، والفرنسيـين معاً ، فـرصة اخـرى للانتظار قبل الكشف عن عمق التداخل العراقي في شبكة الحياة السياسية الفرنسية ، الذي نشأ على أمل دفع باريس الى اتخاذ مواقف مأمونة نحو بغداد .

لكن الذي حصل أن السياسيين الفرنسيين انفسهم ، انقلبوا على اصدقائهم العراقيين . مع تلقيهم دفـوعات أعـلى من جهات أخرى غير بغداد . حتى بدت مواقفهم اللاحقة مـدفوعـة الأجر مسبقاً .

واستمر العراق ، برغم ذلك في محاولته تشجيع نشـوء موقف فـرنسي مستقل ، عن الولايـات المتحدة وبـريطانيـا عندمـا لمَّـح للفرنسيين بامكانية قيامهم باستثمار حقول نفط جزيرتي مجنون ، ولا يبدو ان نتائج كبيرة ستتحقق لتنعكس على الطريقة التي يتخذ بها القرار الفرنسي في العصر الميتراني .

حادي عشر: أُثيرت تساؤلات كثيرة حول اسباب احجام العراق عن استخدام اسلحته الكيمياوية في الحرب . بعد ان تعرض لضغط عسكري كبير ، جعل احتمال اللجوء الى اسلحة الدمار الشامل امراً متوقعاً ، خاصة بعد ان كان العراق قد اعلن منذ نيسان (ابريل)

١٩٩٠ ان لديـه السـلاح الكيميـائي المـزدوج (Binary) الذي يستطيع بواسطته مقابلة قوة القنبلة النووية الاسرائيلية ، وازداد احتمال وقوع استخدام أسلحة الدمار الشامل بعد تعرض البنى التحتية في العراق للتدمير الشامل والجزئي ، وبعد دخول القوات الامريكية والبريطانية والفرنسية الى جنوب العراق ، ثم بعد تعرض القوات العراقية المنسحبة الى قصف مدمر على طريق الانسحاب شمال مدينة الكويت .

لكن العراق كان قد تخلى عشيـة الحرب عن خيـار استخدام اسلحته الكيمياوية ، المبسطة والمركبة ، واصدرت قيادتـه قراراً قبل نشوب الحرب الى جميع الوحدات العسكرية . بالتخلي عن هذا الخيار ، وطلبت اليها الانصياع الى قرار سياسي يُقصد به تفويت الفرصة التي انتظرتها اسرائيل وبريطانيا لتوجيه ضربات باسلحة الدمار الشامل الى مدن العراق بهدف تدمير مدنيّته تماماً .

وقرر العراق ان يخوض معركته باسلحته التقليدية ، بعد ان يكون قد امتص آثار الضربات الجوية والصاروخيـة ، ولذلك لم يُدخل استخدام السلاح الكيميـاوي الى حسابـات المعركـة بعد اندلاعها ، لان الأمركان قد حُسم مبكراً ، وصار خيار خوض حرب تحرير شعبية ضد القـوات التي دخلت ارض العراق اقـرب الى القبول من خيار استخدام السلاح الكيمياوي .

ثاني عشر: عاد الصراع ، الذي ظل مُسكّناً بين وادي النيل ووادي الرافدين الى الظهور باقوى صيغه ، بما يحمل مخاطر بقاء الانشقاق العربي زمناً طويلاً ..

وتعود جذور التنافس بين الواديـين الى عصر الامبراطوريـات القديمة ، التي خرجت من الواديين الخصبين ، ووجدت ان لديها وعلى اطرافها كثافة بشرية ، وقدرات قتالية اكبر مما يملكه الجيران الآخرون . ولذلك اتجهت أبصار حكـام الواديين لمـراقبة خـطط بعضهما البعض ، ونزوعهما الى الانتشار ، خاصة في وضع مصر ، التي كان رمسيس الثاني أول من تلمس حـاجتها الى الانـدفاع

شرقاً ، يوم اعتاد الخروج كل ربيع الى شبه جزيرة سيناء في الاعياد التي سُميت بموسم شم النسيم ، تعبيراً عن شعور مزدوج ، بالحاجة الى الانفتاح على الشرق عبر سيناء ، والتحوط من الخطر الذي يمكن ان يعبر الى مصر عبر سيناء ايضاً ، التي رآها فاصلاً رخواً هو احد مصادر ضعف امنها .. لكن هذا المفهوم انتج لاحقاً تقاليد في السياسة الخارجية تقوم على التنازع مع العراق ، الذي افترض بعض السياسيين المصريين انه نازع للانتشار الى غربه وجنوبه .. وقد بدا تعامل القاهرة اكثر وضوحاً مع الخليج بما انطوى عليه من تحريض أكثر مما استند اليه من عناصر واقعية .

لذلك تحفّظ العراق على دور مصر في الصراع على الخليج ، ورأى ان القاهرة ليست طرفاً مباشراً في الازمة ، وان دخولها على الخط كان للبحث عن دور اقليمي ، ومنطقة نفوذ ، وانها باتخاذها موقفاً متشدداً من العراق تكون قد أخلّت بمبادىء التفاهم التي جمعت اعضاء مجلس التعاون العربي .

ناهيك عن ان بغداد تتحسس تقليدياً من العرض المصري لمقايضة الأمن بالمال . عبر تقديم حماية مصرية للخليج مقابل الحصول على مقايضة اقتصادية واسعة من دول النفط الخليجية ، لان دور الحماية الاقليمي هو اختصاص اطراف الاقليم ذاته ، عدا عن ان الخليجيين المترفين انفسهم لم يجدوا يوماً ان مصر هي مصدر حماية ، بل وجدوا فيها مصدراً لتوريد العمالة التي تغطي الخدمات الثقيلة والصعبة . وجعلوها في لحظة تشوّه النمو النفسي ، مصدراً لانتاج الرفاهية والامتاع ، في حين كان العراق يمثل مصدر الخصب والقوة ، فهو (نستالجيا Nostalgia) الامس القوي والغني الذي يثير حنين الصحراء العطشى الى الحضن الحامي الذي يجسده الوادي الخصيب ، اما مصر فهي الوادي الخصيب البعيد عن الاقليم ، غير المتصل به ، كما هي حال وادي العراق الخصيب .

فضلاً عن ان اشتباك العراق في نزاع على مدى ٤٤٠ سنة مع ايران للتنافس ومقاومة النفوذ ، وهو البلد المتصل بالخليج واقطاره براً ، بحيث تتشابك مصالحه مع مصـالح الخليجيين في وضعي الزمان والمكان . في حين ان دور مصر هو دور مستورد يمكن ان يسهم في ترجيح العوامل المحليـة ، ولكنه لا يستـطيع ان يحسم التنازع بينها ، ولذلك نرى ان بعض منّظري السياسة الخارجية المصرية قاوموا المساندة الاقتصادية للعـراق من جانب الخليـج مقابل المساندة الامنية للخليج من جانب العراق . وعرضوا احلال المقايضة بين الحماية المصرية والمال الخليجي . رغم انعدام اهم عامل مسوّغ لهذه المقـايضة ، وهـو الالتصاق الجيـو ـ سياسي بالمنطقة والاتصال المباشر للمصالح .

مقابل ذلك ، قاوم العراق فكرة « ان يعيش الانسان لمجرد ان يؤمّن غذاءه » ، لانه وجد ان غناه ، وقوته معاً يمكن ان يوفرا له دوراً كبيراً في اقليمه ، فقد خسرت البلاد ١٠٢ مليار دولار كنفقات دفاع خلال الحرب مع ايران وخسرت ١٠٦ مليـارات دولار عن تراجع واردات النفط ، وكان بامكان العراق ان يلجأ الى حساب التاجر حتى لا يخسر هذه الارقام ، او ان يعالج الازمة الاقتصادية بعقلية التاجر في السوق ، الذي ينشغل بحساب المفردات الصغيرة جمعاً وطرحاً .. لكنه فضل ان يذهب الى المعالجـات القيصريـة الجذرية لايجاد حلول كلية ، فهو لا يرى ان الانفاق الدفاعي كان خسارة بهذا الحساب ، لان القوة هي مصدر الحياة . والاستعداد القتالي هو ضمانة العيش ، في منطقة شـديدة التفجـر ، حاميـة التنافس والتنازع ، وان جيشاً من مليون رجل أسهم في حمايـة الآخرين لابد ان يحصل على حقه مما ترتب عن تضحيات بلاده التي فرّطت بغناها من اجل ثبات غنى الاخرين ، فالطرفان غنيّان ، لكن احدهما انشغل بحساب التاجر . اما الثاني فدخل في استثمار خطر فيه قدر هائل من المغامرة ، يمكن ان يخسر الكثير ، ولكنه كان سيربح كل شيء .

بهذا المنطق ، لم تكن بغداد لتتعامل من غير تحفظ مع عرض الحماية المصرية مقابل استبعاد دور العراق في اقليمه الطبيعي الذي حمّله تضحيات هائلة ليس بمقدور أحد سواه ان يتحملها .

لذلك فان اعادة التفاهم بين وادي النيل ووادي الرافدين ، هو حاجة ثابتة للامن العربي . لأن الافتراق بينهما هو احد اقسى نتائج الصراع والحرب .. فلا امناً مستقراً في وادي النيل دون استقرار امن المشرق كله ، الذي يضمنه أمن مستقر في وادي الرافدين .

ثالث عشر: فتح الصراع في الخليج الابواب على مصاريعها ، لصراعات اخرى ، وبعد ان انذرت الحرب على جبهة العراق بتوسع الصراع ليشمل المشرق العربي ، ولاحت في الافق احتمالات قيام اسرائيل بمهاجمة الاردن تحت ذريعة الاندفاع للامساك بالحدود الغربية للعراق . وهو احتمال كانت عمان قد ادخلته الى حساباتها ، وذكر الملك حسين ، في حديثه اليّ ، ان البلاد قد لجأت الى تعبئة القوات المسلحة ، وافراد الشعب ، وان ربع مليون قطعة سلاح قد وصلت الى ايدي الرجال ، رغم ان التعبئة واستدعاء الاحتياطي اضاف عبئاً اقتصادياً على الاردن ، الا ان الظرف الحساس الذي اتسمت به فترة الحرب ، لم يقدم بديلاً عن اللجوء الى ذلك الخيار الاحتياطي .

لكن الجديد في الامر ، هو ان الاردن لم يكن ليواجه اسرائيل وحدها ، لو حصل اجتياح عسكري ، ولذلك كان على المدافعين ان يوزعوا فوهات مدافعهم وبنادقهم في اتجاهات عدة ، بعد ان تداخلت الخنادق ، وانفتحت الجبهات كلها ، وهي سابقة خطيرة في تاريخ العلاقات العربية ، كانت ستقود ، مع توسع الصراع ، الى انهيار شامل في بنية النظام العربي .

وبمعنى آخر ، لم يعد العرب موحدين مع بعضهم وامام انفسهم من جهة ، ولم يعودوا موحدين امام اسرائيل واعدائهم الأقليميين من جهة اخرى ، بعد ان حصل أكبر انقسام في صفوفهم ، وصار من المألوف الخروج على ما كان يُعدّ من قبل أمراً

محرّماً ، مع اتكال بعض العرب على الاجنبي في محاربة عرب اخرين ... وسيحتاج العمل لاعادة ترتيب الاولويات ، واعادة بناء نظام أمني عربي جديد ، الى الاتفاق على قواعد جديدة ، وهو أمر يكاد أن يكون مستحيلاً ، وفي هذه الحالة ، فان النزاع العربي - العربي سيأخذ اشكالاً دموية بعد ان تلاشت فرص الالتقاء عند منتصف الطريق ...

رابع عشر: انتج الصراع على الخليج بصفحاته السياسية والدبلوماسية والاعلامية ، ثم العسكرية شعوراً بالاحباط لدى النخبة العربية التي سبق لها ان تأثرت بالنموذج الغربي واعجبت به وتبنت فلسفاته الاخلاقية ونموذجه الفكري ، وذلك بسبب الازدواجية التي اظهرها الغرب في التعامل مع القضايا التي تخص الشعوب الاخرى ، ولاسيّما حول احقية الحصول على فرصة التقدم العلمي واستقلالية القرار السياسي ومفاهيم الديمقراطية وحقوق الانسان ، فالى جانب ما اظهره التدمير الواسع للبنى التحتية في العراق من قصد في شل الحياة العامة وما نتج عن ذلك من تراجع في مستويات الحياة الانسانية قرنين الى الخلف مرة واحدة عندما لم يعد بمقدور السكان المحليين الحصول على الحد الادنى من شروط الحياة الصحية والمعيشية في اثناء الهجوم على العراق وبعده ، فان المعركة الدبلوماسية التي خاضتها الولايات المتحدة ضد العراق من خلال السيطرة على منظمة الامم المتحدة والتأثير في اعضائها من خلال التهديد والاغراء قد افقد الغرب بعض مصداقيته ، كما افقد المنظمة الدولية مصداقيتها وجعلها اسيرة سيطرة دولة او مجموعة دول ، ناهيك عن ما استعملته بعض الاوساط الامريكية من اساليب اعلامية ودعائية للتأثير في الرأي العام بما في ذلك اختلاق القصص على غرار قضية الفتاة الكويتية (نيِّرة) التي تحدثت امام الكونغرس عشية اعطائه التخويل للرئيس الامريكي باستعمال القوة ضد العراق ، قد خلق شعوراً بالحيرة حول مصداقية الغرب وازدواجية مواقفه في جانب وحول

مصداقية الامم المتحدة في جانب آخر .

حيث قامت الدبلوماسية الامريكية بابتزاز الدول الاعضاء في مجلس الامن لغرض الحصول على اصواتها لتمرير القرارات التي تجيز فرض العقوبات واستعمـال القوة المسلحـة ضد العـراق ، اضافة الى تجنيد الدول المحيطة بـالعراق لتحقيق الهـدف نفسه لاستخدام اراضيها قواعد انطلاق في الهجوم على العراق وادامة الحظر عليه .

والامثلة عـلى ذلك كثيرة فقـد حصلت تركيـا على مسـاعدات عسكرية من الولايات المتحدة وحليفـاتها بقيمـة ثمانيـة مليارات دولار ، وقروض بمبلغ ٦ر١ مليار دولار من صندوق النقد الدولي ناهيك عن وعد اميركي بدعم الطلب التركي للانضمام الى السوق الاوربية .

اما مصر التي هي اكثر الدول الافريقية مديونية فقد حصلت على اعفاء مقداره ١٤ مليـار دولار من ديونهـا الى الولايات المتحـدة اضافة الى مسامحة او تأجيل ديون اخرى .

كما حصلت سوريا على مساعدات تزيد على المليار دولار من دول الخليج .

بينما كانت حصـة ايران من الغنيمـة هي ان تخلت الولايات المتحدة عن معارضتها منح ايران قروضا من البنك الدولي بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار في اليوم الاخير الذي سبق الهجوم البري على العراق .

وكانت روسيا بسبب اقتصـادها المهشم فـريسة سهلة حيث زارها الامير سعود الفيصل ليمنحها قرضا بمليار دولار ، تبعتها ثلاثة مليارات اخرى بعد تصويتها على القرار ٦٧٨ ، كما حصلت على وعد بان تعيد الولايات المتحدة النظر في سياستها بشأن منحها مساعدات غذائية وائتمانات زراعية .

وكانت حصة الصين لقاء عدم معارضة قرار مجلس الامن ٦٨٧ ان مُنحت اول قـرض من البنك الدولي ، منـذ حـوادث سـاحـة

تيانانمن ، بمبلغ ١١٤ مليون دولار .

اما الدول غير دائمة العضوية في مجلس الامن فقد حصلت هي الاخرى على حصتها ، اذ توصلت اثيوبيا بعد شهرين من تصويتها لصالح القرار ضد العراق الى اول صفقة استثمارية بينها وبين الولايات المتحدة تعقد منذ سنين طويلة . كما حصلت زائير على مساعدات عسكرية واعفاء من ديونها اذ كان عليها ، بكونها كانت ترأس دورة مجلس الامن في ذلك الشهر ، ان ترفض طلبات كوبا واليمن والهند بعقد اجتماع لمجلس الامن لايقاف اطلاق النار .

وفي مقابل ذلك كان على كوبا واليمن ان تدفعا ضريبة معارضة حكومتيهما لبعض القرارات ضد العراق، حيث ألغت الولايات المتحدة برنامج مساعداتها البالغة ٧٠ مليون دولار إضافة إلى ظهور مشاكل لها مع صندوق النقد الدولي ناهيك عن قيام السعودية بطرد أكثر من مليون يمني من أراضيها مما أدى إلى الإضرار بالاقتصاد اليمني بما لا يقل عن مليار دولار.

وبعد استبدال عدد من الاعضاء غير الدائميين في مجلس الامن واجهت الاكوادور تهديداً مباشراً بانها ستواجه صعوبات جمة ان هي لم تصوت لصالح القرارات المضادة للعراق ، اما زمبابوي فتصرفت على انها مضطرة الى التصويت لصالح القرار بعد ان كان وزير خارجيتها قد اعلن ان هذه القرارات مجحفة بحق العراق ، وتلقت وعدا بالحصول على مساعدات من صندوق النقد الدولي ، في حين واجهت زامبيا التي عارضت قرار مجلس الامن صعوبات كبيرة في مفاوضاتها مع صندوق النقد الدولي لمنحها قروضاً عاجلة ، برغم حاجتها الماسة اليها وقيامها باجراء اصلاحات ديمقراطية ...وحرمت السودان التي ايدت العراق من المساعدات الغذائية ، وتعرض الاردن لمضايقات اقتصادية وسياسية متعددة المستويات بسبب تأييده العراق .

في كل الاحوال فرضت على العراق اكثر الشروط قسوة منذ

إتفاقية فرساي ١٩١٨ التي ارغمت المانيا على التنازل عن اجزاء من اقليمها القومي ، فقد انطوت شـروط وقف اطلاق النار بـين العراق وقوات التحالف بموجب قرار مجلس الامن ٦٨٧ على شل قدرة العراق لاســـتعادة دوره الاقليمي وارغامه على التخلي عن برنامج التنمية الاقتصادية والعلمية ، حتى بدا أن العراق الذي قبل شروط القرار ٦٨٧ قد لايعاود ممارسة دوره الاقليمي في اقل من عشر سنوات مقبلة ، لكن الذي حصل أنه أعاد ترتيب برامجه الصناعية والزراعية بما يؤمّن استمرار جزء من برنامج نموه الذي كان يطمح اليه في السابق .

ويعتقد القياديون العراقيون أن المانيا انتظرت ٤٧ سنة حتى تستعيد جـزءهـا الشـرقي الذي انسلخ عنهـا بمـوجب اتفـاق (بوتزدام) ، وان اية نتيجة مترتبة على شروط اذعان لن تدوم الى الابد ، وقد تعطي الشعوب الحية قدرة مضافة على تجديد الذات وعدم تكرار الاخطاء

□ □ □

حـرب تــلــد أخـرى

انتهت الحرب رسمياً ، لكن الصراعات التي تهيمن على منطقة الخليج والشرق الاوسط لم تنتهِ ، بل دخلت في قناة غامضة تعبر بهـا الى مستقبل مجهـول .. وان تأجيـل هذه الصـراعات ، او تأخيرها ، لن يمنع انفجارها او اتخاذها اشكالاً أكثر تعقيداً من المواجهات العسكرية التقليدية المباشرة .

وبعد حربين طاحنتين ، على مدى عقد كامل ، ماتزال اسباب انفجارها قائمة دون تسوية ، سواء تعلق الامر بالافتراق العقائدي والسياسي بين بغداد وطهران ، او الخلاف على مسائل الحدود ، او مقاومة التـدخل في الشـؤون الداخلية . او تعلق الامـر بمسألة

الكويت ، حيث ان الحرب لم تطفىء المطالبة العراقية بها ، بل على العكس ، إزدادت هذه المطالبة حدة وشمولاً ، واتخذت اشكال التعبئة لتبدو قضية شاغلة لجميع القوى السياسية والاجتماعية العراقية ، على اختلاف اجتهاداتها في مسائل اخرى .

وازدادت المعضلات الاقتصادية في العراق تعقيدا عن اي مستوى كانت قد بلغته بعد انتهاء الحرب مع ايران وعشية ازمة الخليج ، ولن يكون ممكنا حل هذه المعضلات دون اللجوء الى عملية جراحية شاملة بما في ذلك استخدام القوة لاعادة توزيع مصادر الثروة في المنطقة .

وكرّس الصراع في الخليج فكرة اللجوء الى الحلول الكبيرة ، سواء في معالجة المشاكل الثنائية ، اوحل المعضلات الاقتصادية ، او اعادة رسم الخارطة الجيو ـ سياسية ، بعد ان فتح الباب امام الحل الكلي الشامل ، وغلقه امام خيارات الحلول الجزئية الصغيرة ، اذ اصبح كل حل . مهما كان معقداً وشاملاً ومكلفاً ودموياً ، حلاً ممكناً قابلاً للوقوع ، بمعنى اللجوء الى الحل بدءاً من حدوده القصوى ، في صراع ارادات من اجل البقاء ، ومقاومة الخوف من زوال النظم السياسية والاوطان والشعوب .

ومن هذه الحلول ، الحرب ، والحصار ، واعادة رسم الخرائط السياسية ،وازاحة انظمة سياسية ، واعمال التفجير الاجتماعي والطائفي والثقافي ، وتحريم العلاقات بين العرب والعرب ، بعد ان كانت اساليب الحل البسيطة ممكنة من قبل في معالجة اختناقات الحياة العربية عن طريق الوساطات ، والمساعي الحميدة ، والحلول الوسط ، والمعالجات السلمية ، واشكال التهديد والتخويف والضغط المعنوي والاعلامي .

لقد تغير الاسلوب كلياً .. وصار اللجوء الى العمليات الجراحية الكبيرة هو أول خيار يذهب اليه الجميع .. بدلاً عن التدرج الذي يبدأ من ابسط المعالجات واصغرها صعوداً الى ماهو أخطر وأعقد واصعب .

فهل سيخوض المتنازعون الصـراع حتى النهايـة .. عندمـا يجـدون ان بقاءهم مـرهون بـزوال الاخرين .. وانـه لا لقاء في منتصف الطريق ؟ ...

ان هذا الافتراض ، على خطورته ، وكارثيته ، هو افتراض قائم وممكن .. وليس ضرباً من التحسب للمستقبل والخشية منه ..

ولم يعد بعض السياسيين في بغداد ، يترددون في الاعلان بان بلادهم بذلت جهوداً مضنية وواسعة وكبيرة لدمج بلدان الخليج العربية واماراته بالنظام العربي ، لكن تلك الجهود لم تثمر عن ما ارادتـه بغداد احتـواء لهذا الجنـاح من الساحـل العربي عـلى الخليج ، وان بعض بلدان هذه المنطقة لم يكن يتمتـع بمقومـات الدولة ، ولكنه قُبِل كدولة ، وجرى التعامل معه كجزء من وضـع قائم ، حتى صار ذلك حقاً مكتسباً ، بالرغم من ان مديري بعض الامارات لم يتحول عن ارتباطه التحالفي والمصلحي مـع القوى الدوليـة المعنية بـالسيطرة عـلى هذه المنـطقة .. والتي تتقـاطع مصالحها مع مصالح العرب عموماً .

وكـان صدام حسـين يشعر حتى وقت قـريب قبيـل انفجـار الصراع ، ان بامكـانه سحب السعـودية ، (وهـي اكبـر مركـز استقـطاب سياسي في الخليـج) بعيـداً عن التبعيـة للسيـاسـة الامريكية . وذلك عبر تطويـر العلاقـات مع العـائلة الحاكمـة ، وتكريس الشعور بـاولوية المصـالح المحلية عـلى اية مصـالح او ارتباطات سواها . ولكن بغداد اكتشفت بعد نشوء الازمـة انها كانت تجري خلف السراب في محاولتها تلك . وان اسقاط عـامل التأثير الامريكي في السياسة السعودية هو افتراض غير واقعي ، ولايكفي التحول عن هذا العامل لكي يشعر السعوديـون ان من مصلحتهم التفاهم مع العـراق في رسم الشكل الجيـو ـ سياسي لمستقبل المنطقة .

وعندما تتحدث الى صانع قرار في بعض مناطق الخليج . تحتـاج ان تخاطب عبره من يقف خلف السـتـائر ويحـرِّك افعاله ويقـرر

الكيفية التي سيظهر عليها .

ولذلك قد يستمر الوضع القلق في المنطقة . بين خليج البصرة حتى خليج عُمان ، ومن باب المندب حتى خليج العقبة الى ان يعاد توزيع الشراكة السياسية ، ويتحقق التراضي .. الذي يبدو ان الوصول اليه في المدى المنظور اقرب الى الخيال .

اما فكرة ابتلاع العراق ، بالغاء دوره الاقليمي ، او تقسيمه ، فانها هي الاخرى ، تبدو بعد اكثر من سنتين من بدء ازمة الخليج ، خيالاً مدمراً ، اشبه مايكون بمحاولة ادخال لقمة هائلة السعة والحجم في فم صغير ، فلا اللقمة تُبتلع ، ولا الفم الصغير يبقى سليما بعد محاولة ابتلاعها .. بعد ان ادى استخدام القوة الى اقصاه ، بوسائلها العسكرية والسياسية والنفسية ، الى منح العراق مناعة في التعامل مع الاحتمالات الخطرة . في الحاضر والمستقبل ، اذ ان القاء ثمانين الف طن من المتفجرات فوق العراق ، وتهديده بالضربة النووية ، وقبول احتمال استخدام اسلحة كيمياوية في حرب المدن التي اخلاها من السكان ، وانهيار بنيته التحتية ، وتدمير شبكات الخدمات الانسانية والصحية والغذائية ، قد جعل العراق يشعر بعدم وجود مايخيفه ، وانه ليس هناك ماهو اكبر في ايقاع الاذى مما حصل ويحصل فعلا ، خاصة ، وان اليأس من العالم الخارجي الذي طوق البلاد . واشترك في محاصرتها ، قد عمق شعوراً جماعياً بالغُبن ، لدى شعب يراقب مساعي الاخرين لابتلاع بلاده عن طريق التقسيم والاحتراب ، ولاشك ان الشعور الجماعي بالظلم . لايعطي فرصة كبيرة للخوف والتراجع ، حتى تصبح المعركة ذات ممر واحد ، لاعودة فيه .

لذلك فان طريقة التعامل مع العراق ستتحدد في المدى المنظور ، اما في ادامة الاصطدام معه ، او في احتوائه .. وقد لايكون استمرار الاصطدام به من مصلحة اعدائه ومنافسيه ، بعد ان تكونت لديه مناعة عالية على التعامل مع الاخطار والصعوبات والتهديدات ، بما فيها التهديد بالضربة النووية ، الذي لم يعد

يحفر عميقاً في العقل العراقي ، كما كان من قبل .

وان لا سبيل للوصول الى نتائج كبيرة من ادامة الاصطدام بالعراق .. ولاحل غير التفاهم معه ، كقوة توازن اقليمية ، تتخذ شكل الصخرة التي تتوسط الاقليم ويتكىء عليها الآخرون ، فما أن تهتز ، اوتُزاح ، حتى تتغير مواقع جميع الاخرين وحجومهم .. ودرجة ثبات استقرارهم على الارض ..

ويكشف التتابع السريع في الاحداث الضاغطة على العراق ان جميع الاطراف العربية والاسلامية التي اشتركت في التحالف ضده ، كانت على قناعة واحدة هي ان العراق لن يبقى كما هو في الزمان والمكان وفي نظامه وهويته ، ولذلك وجدت ان هناك لحظة لاقتسام الغنائم لاينبغي ان تفوتها فرصة الحصول على حصتها فيها ، بعد ان صُممت الحرب لان تكون سريعة في التدمير ، وسريعة في المكاسب ، وسريعة في اخفاء الادوار ، لكن الذي حصل لم يكن متطابقا مع ما خُطط له مسبقاً ، اذ كلما ازداد الضغط على العراق وفُرضت اجراءات في الضد من مصالحه العليا مثل القسر في ترسيم الحدود مع الكويت ، تكثّف توق العراقيين ـ الذين اخذوا قسطاً كافياً من التأمل والمراجعة ـ لتصفية حساباتهم مع من يعتقدون انه اشترك في ايقاع الظلم عليهم ، ومن الخطأ ان يستمر ايقاع الظلم على العراق وبني هاشم والفلسطينيين الذين يمسكون بحبل الظهر المتين والقوي في المشرق العربي ، لان ذلك يعني زرع نواة لحروب بقية التسعينات التي يبدو انها لن تكون من حصة العرب وحدهم ، اذ ان السنوات العشر المقبلة ستشهد حروب قرم جديدة ، وحروباً اقليمية لتصفية الحسابات والمظالم التي وقعت في مطلع التسعينات على هذا البلد او ذاك ، ناهيك عن أن امريكا لن تبقى في المنطقة قوة حامية الى الابد ، لان نفط الخليج لن يبقى على اهميته وقيمته ذاتها في مطلع القرن المقبل ، ولايوجد مايضمن

تفرغ الولايات المتحدة في السنوات العشر المقبلة لمنطقة الخليج دون سواها من مناطق التفجر والالتهاب في العالم .

□ □ □

وبـذلك انتهت حرب الخليـج الى وضـع غـير قابـل للاستمرار طويلاً ..

لذلك يمكن افتراض اكثر من احتمـال لاتجاهـات الصراع في الخليج والمشرق العربيين في مـاتبقى من العقد الاخـير في القرن العشرين ، يدخل بعدها العرب وجيرانهم عصراً آخـر ، في قرن آخر ، يكون قد افرز شـراكات وتقسيمـات سياسيـة جغرافيـة جديدة ..

وما ان تتم تسوية النزاع العربي .. الاسرائيلي ، مرحليـا ، حتى تتفرغ المنطقة لنزاعـات اقليمية جـديدة ، في شكـل حروب عربية ـ عربية ، عراقية هاشمية فلسطينية في جانب ، سعودية ـ كويتية في جانب آخر ، بحيث يخسر الخليج القوس الحـالي الذي يمتد شماله بين حافتي المتوسط غرباً والخليج من نهايته العراقية شرقاً وجنوباً .. او ان تمتد النزاعات من البوسنة والهرسك الى منطقة التصادم التركي ـ الايراني في الدول الاسلامية المستقلة من بقايا الاتحاد السوفيتي ، وتعود روسيا الى حروب قرم جديدة لاستعادة دورها القيادي مرة أخرى .

امـا مسألة الكـويت .. فلايمكن ان تبقى معلقـة الى القـرن المقبل .. فعند عقد اول صفقة دوليـة خلال مـا تبقى من القرن العشرين ستؤول الكويت الى العراق ، مـرة اخرى ، كجـزء من حصة في صفقة متقابلة للتنازل تترتب على المتغيرات التالية :

اولاً : اختفـاء الاحتكـاكـات وتقـاطع المصـالح بـين بغـداد وواشنطن .

ثانياً : الشعور بخطر مآل نفط العراق المجمّد في الارض لصالح

قوة دولية منافسة للولايات المتحدة من خلال عقود استثمار طويلة ، او عملية بيع يقبل فيها المشتري الدفع عن ظرفي حصار النفط واطلاقه في العراق ، بحيث تشعر واشنطن جديا انها ستخسر نفط العراق في ربع القرن الاكثر خطورة بين نهايات القرن العشرين والعشرة الاوائل من القرن الحادي والعشرين ، حين تضعف احتياطات نفط الكويت والسعودية والامارات ، ويبقى نفط العراق وحده الاطول عمرا ، ويكون بمقدور من يصل اليه ان يسيطر على القرن الحادي والعشرين ، بعد نفاد دور نفط الخليج في الهيمنة على اقتصاديات اخريات القرن العشرين .

ثالثاً : سيؤدي اقتراب احتياطي الكويت النفطي من النضوب مطلع القرن المقبل الى قلب المعادلة ، بحيث تلجأ امريكا لترضية العراق والنزوع الى التحالف معه ، والاستجابة لمطالبه حتى يصبح ممكنا التعاقد لاعادة الكويت الى العراق بصورة تدريجية ، بالتراضي ام بالتقسيط .

رابعاً : سيكون الشكل القانوني لعودة الكويت الى العراق اشبه بالعودة السلمية التدريجية لمقاطعة هونك كونغ الى جمهورية الصين الشعبية ، او بالعودة عن طريق التفاوض كما يمكن ان تحل مسألة جزر كوريل اليابانية الخاضعة حاليا لسيطرة روسيا ، وسيكون من العوامل المرجحة لتحقيق ذلك اضمحلال العنصر الكويتي من خلال مغادرة الكويت والرحيل عنها تحت وطأة الاحساس بالخطر والتهديد والقلق ، أو من خلال الذوبان في العناصر الوطنية المجاورة ، وقبول الاحتواء فيها ، في توافق واحد مع تراجع المكانة الاقتصادية للكويت والتراجع التدريجي لمكانة احتياطيها النفطي .

خامساً : اعادة رسم الخارطة السياسية لدول الخليج بحيث تندمج بعض الامارات في الكتل الكبيرة ، ويتلاشى مجلس التعاون الخليجي او يتوسع لاستيعاب العراق الجديد واليمن الموحد .

وما يبدو للوهلة الاولى فشلا ، قد يكون نجاحا مؤجلاً

ونصراً غير مكتمل ، نتيجته الكبيرة في اظهار قـوة العراق امـام نفسه .. وتفجير قدراته من خلال التعامل مع التحدي الكبير .

ولذلك فان قضية العراق لايمكن ان تكون خاسرة ، اما قضية الكـويت فمن الممكن ان تكون خـاسرة ، حيث سيتفـرغ العراق لمسألة الكويت في ربع القرن المقبل ليحسمها نهائيا .

وستظل الكويت ، حتى تحسم قضيتها ، دولة عائلة ولن تصبح دولة شعب ، وستظل بعض انظمة الخليج انظمة قبائل ولن تصبح دولا . وان مايحتاجه العراق هو أحقية تأريخية الى جانب قدرة على المطاولة .. ليكسب قضيته في النهاية .

الفهرس